

نُاتِحُ الْيَسْمَنِ الْإِسْلَامِي

مِنْ سَنَةِ ٤٠٨ هـ - إِلَى سَنَةِ ١٠٦٦ هـ

تَأَلَّفَ الْأَدِيبُ الْعَلَّامَةُ الشَّهِيدُ
أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَطَّاعُ

تَحْقِيقُ
عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْخَشِيشِي





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

ناتج الیمن الاسلامی

من سنة ٤٠٤٠هـ إلى سنة ١٤١٦هـ

جميع الحقوق محفوظة



مركز تحقيقات كميّات علوم إسلامي

تطلب كافة كتب « منشورات المدينة » من

شركة
دار التنوير
للطباعة
والنشر

ص ب : ٦٤٩٩-١١٣

هاتف : ٨٠٦٣٥٩

بيروت - لبنان

المنشورة

أول من نزلت في لبنان

بنايته عساف

ناتخ اليسن لابن سلاحي

من سنة ٤٠٨هـ إلى سنة ١٠٦٠هـ

تأليف الأديب العلامة الشهيد
أحمد بن أحمد بن محمد المطاع

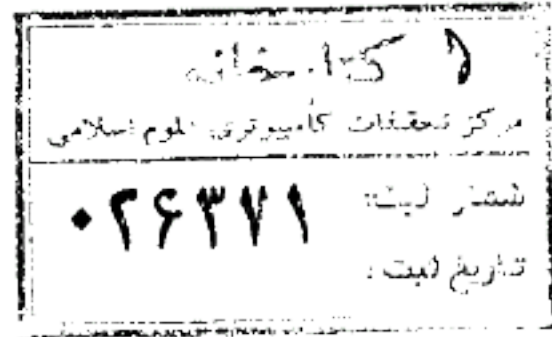


تحقيق
عبد الله محمد الجبشي

الطبعة الأولى

١٩٨٦ م - ١٤٠٧ هـ





مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيد

في التاريخ اليمني (اليمن في مدارج التاريخ) (التاريخ وفوائده)^(١)

من القضايا المسلمة تقدم العلوم والمعارف في هذا العصر ، وارتقاء العقل البشري إلى غاية قصر عن التحليق فيها الآباء منذ أحيال قديمة ، ومن الفنون التي بلغت أقصى ما يتصوره العقل من العناية والاتقان فن التاريخ^(٢) ومعرفة أحوال الأمم ، إذ من بين صحائفه تشرق أنوار الهداية ، ومن أسفاره تشع شمس الدراية ، وفي حوادثه وما يلابسها من نعم وبؤس وإقبال وإدبار وما يتخلل ذلك : من قيام ممالك ، وهلاك أمم ، وسقوط عروش ، وزوال تيجان ، عبرة وأية عبرة ، ونذير مبين ، يحذر بلسان الأبدية غيب المآثم وعاقبة الإعراض والإيغال في الجرائم .

ومن قمته الشامخة تستعرض مواكب العالم في مشارق الأرض ومغاربها ، وتلتبس معارف الشعوب ورقبها وأدابها وحضارتها وأخلاقها وعلومها وعمرانها ومعتقداتها وكل ما له صلة ما وعلاقة بحياتها .

فإذا ما أراد الإنسان مرافقة الأمم ، ومسايرة الشعوب ساميها وآريها ،

(١) الحكمة ١ العدد ٦ ، السنة الثانية ، المجلد الثاني ، ربيع الثاني ١٣٥٩ هـ (مايو/ يونيو ١٩٤٠ م) ص ١٢٥ - ١٢٩ .

(٢) التاريخ ومتعلقاته كعلم الاجتماع والاقتصاد والجغرافية وعلم الكتابات القديمة والعاديات والنقوش والآثار وعلم السجلات والاحصاء والنقد والمسكوكات وغير ذلك من العلوم التي كانت مجهولة أو بعضها عند العرب . اهـ

والاطلاع على تكون نهضاتها من أقدم عصورها ومشاهدة أجيالها وهي تخرج من الكهوف إلى الصروح ، ومن الأكواخ إلى القصور ، ومن الأودية والغابات إلى المحاكم والكليات ، ومن نقش الآثار على الأحجار إلى استنطاق الجمام واستخدام البخار ، فعليه بما خلدته الأيام على صحائف التاريخ

وإن شاء الرجوع إلى العصور العافية ، والتغلغل في مهاوي القرون السحيقة ، كي يرى الإنسان الأول يزاول أعماله بسائق الفطرة ، ويطرصد فريسته في ألفاف الشجر ، وأجواف الحفر ، ويتعقب الطرائد في مخارم الجبال ويطون الأودية ، أيام كان يستوطن الكهوف والغيوان ، ويتسلح الحجر ، فليرجع إلى آثار تلك العصور ، (ولكل نبأ مستقر) .

ولا نبالغ إذا قلنا أن التاريخ لما عرف في جميع أدواره عصباً هبت فيه الشعوب عن بكرة أبيها لدراسة الماضي والارتواء من مناهل ثقافته ، والتنقيب عن آثار البشرية من أقدم أزمنتها ، والبحث عن الحضارة الإنسانية كهذا العصر .



هبت أمم العالم اليوم تنقب عن مفاخر الماضي واثاره ، لتضع على كواهل أبنائها من قدسية ماضيهم وأمانة تاريخهم ما تنوء بحمله الجبال ، وتجعل من آثار ذلك الماضي أدوات تستخدم لإيقاد جذوة الوطنية في الصدور وإلهاب نار الحماسة في الرؤوس مستلهمة وحي النبوغ والتقدم من أرواح الأباء والأجداد .

/ولذا كان لزاماً على كل أمة تحاول النهوض الالتفات أولاً إلى الماضي بدراسة تاريخها ، ومعرفة ما فيه من الحوادث والكوارث ، والوقائع والكوائن وأسباب الصعود والهبوط ، فإن حياة الأمم موصولة ، وحاضرها القريب وليد ماضيها البعيد ، ولذا قيل : «إن الأمة التي تهمل ماضيها ولا تعرفه مثل الرجل الذي يفقد ذاكرته» ، ويقول علماء الاجتماع وتباريس علم الأخلاق : (إن

ماضي الأمة لا يموت أبداً ، ولكنه يكون حياً (تاريخه إلى آلاف السنين يستوحى منه .

فدراسة التاريخ إذاً من ضروريات البقاء ، ومعرفة الأمة نفسها من أكبر عوامل الارتقاء ، ولا سيما إذا كان في تاريخ الأمة من أعمال المجد والعظمة ما يثير الفتوة ، ويبعث النشاط والقوة في شرايين الأجسام المنحلة ، ويدفع بالأبناء إلى ترسم آثار الآباء ، فإنه يستحيل أن يرضى لنفسه بالذل والمهانة من كان أبوه يعزم العزيمة الفاصلة فيملي إرادته على الملوك والجبابرة ، ويقول الكلمة فتطفئ الحرب العوان وتشعل ، وإذا ريع كان له السيف والرديني أمتع معقل .

وكيف يجمل بأبناء الأرواح اللهاميم فراجو الغمم من دانت لسطوتهم الملوك ، وذلت لهيبتهم الأقاليم ، أن يكونوا نقداً تتناشهم سباع الأطماع وهم في غفلتهم ساهون ، أو تنزل بهم عون الخطوب فيذلون ويسمدون ، و (يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) .

أجل ، إن من يدرس أصول النهضة العالمية يجد في قراراتها أثراً للتاريخ وضاح الجبين وعوالم وأرواح الآباء مصدر تلك القوة وأساسها المتين ، فلا غرابة إذا رأينا جبابرة العقول ، وفطاحلة الفكر الإنساني ، تعد التاريخ من أكبر الوسائل لتنمية العقل وتهذيب الشعور ، ويسط النفوذ ، وسعة الملك ، وتضخيم الثروة ، وعظمة الشأن ، ونرى علماء الغرب على اختلاف مشاربهم ، وتنوع معارفهم ، وتباين مباحثهم ، ومناحيهم ، عاكفين في جامعاتهم السنين الطوال : هذا يدرس أجناس البشر وأصول الشعوب ، ومتى وجد الإنسان على الأرض ، ومدنيته الأولى ، وصفاته وقسمات وجهه إلى آخر ما هنالك .

وذلك مكب على تمثال قديم يرجع فنه وجماله ودقته مبلغ حضارة الأمة التي وجد فيها ، كما أن زميله وضريه قد شغلته لفظة لغوية في أدب أمة لا

يمت إليها بصلة عن كل ما في الوجود ، كل ذلك رغبة في العلم ، ووصلة إلى فهم الشعوب وعاداتها وأخلاقها ، لوسائل كثيرة ، منها : علمية محضة ، ومنها سياسية واقتصادية ونحو ذلك . ومن التواريخ التي أصبحت اليوم تدرس في جامعات الغرب كفن مستقل : تأريخ اليمن القديم وما به من النقوش والآثار والعاديات وما خلفه آباء اليمنيين من آداب وثقافة صقلت العقل الإنساني وازدانت بها حضارة البشر في أيامهم ، وهي اليوم كعبة تحج إليها أفئدة النوايغ افتناناً بروعتها وجلالها ، وترتشف من معينها العقول ويتخذ منها الأقوم درعاً لتوطيد أركانها وتخليد كيائها .

ذلك ما حدا بي إلى تقليب صفحة من صفحات تاريخ هذه الأمة الضخم ، والتنقيب عن بعض فرائد عقدها الثمين ، وإن كان ماضيها كثير الظنون قل أن يفوز الخريت منه بما يشفى الأوام ، ويغطي لاعج الغرام ، لما على لياليه الماضية ، وأيامه الخالية ، من غبار الدهور ، وكلاكل العصور .

وهيات أن يجد المشتاق بالرسوم العافية ، والأطلال البالية ، ما يجده بمطرحات تفيض النعمة من ثنائياها ، وتتسابق الشموس متطاولة من أبراجها وحناياها .

اللهم إلا أن تكون مرابع أنس ، ومراتع سرور ، أقوت عن القطان وفارقها السكان ، ونزع عنها الأخلاء ، ولم يبق من أثنائها إلا : (نقط يشك الشاك فيها) ، فإن لها ذكريات لا تقوى يد الحدثان على الدنو من قدس تذكرها .

وهذه الذكريات إحدى عناصر التاريخ ومميزات هذا الإنسان ، فهو لا يقنع بما هو آت ، ولا يسأم الوقوف أمام المخبات : غاص أعماق البحار ، وركب متون الأخطار ، واستنطق الجماد ، وغزا اللانهاية بقوة فكره ، وحاول أن يفجع الغد في مخبات سره رغبة في الاطلاع ، وهياماً بالرواية والسماع ثم هو مع هذا : (دائم الحنين إلى سالف خال والبكاء على دارس بال) ، لا

يقف عند غاية الأوهام بما خلفها ، وساقته الفطرة إلى استكشاف ما وراءها ، فلا غرو أن أصبح علم التاريخ من مشتبهات النفوس وأغراضها ، وشؤون الحياة ولوازمها .

وإذا كان من طبع الإنسان وغريزته الحنين إلى الفاتت المندثر ، والالتفات إلى أطلال الأحبة ، والوقوف بآثارهم الدوارس ، والاعتزاز بتقاليده وماضيه ومجده وتاريخه ، وما كان لأجداده من سجايا ومفاخر ، وعادات ومآثر .

فأخلق بأبناء من ملكوا الخافقين ، ويسطوا سلطانهم على العالمين ، أن يعتزوا بتاريخهم ، ويفاخروا بماضيهم ، ويكاثروا بنوابغهم وأبطالهم الذين تساقطت تحت أقدامهم عروش الفاتحين ، وملكوا الأمور على من كان يملكها في أطراف الأرضين .

وأن يقفوا وقفات كبرى لا كلوث أزار أو كحل عقال ، بل وقوف جميل في عراض بشية ، أو وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه ، بآثار أسلافهم الغر حيث كانوا يتناغمون ويتسامرون ويتشرون طرائف الحكمة وروائع الكلم ، بان يعرجوا بأطلال ماضيهم المجيد لينظروا أبداع ثمرة تركها الإنسان ، وأجمل نتاج للعبقرية والنبوغ ، وأسمى حضارة عرفها التاريخ .

وبهذا الالتفات وذلك الوقوف ما يوقظ الهمم ، ويهيب بالأبناء إلى متابعة الآباء ، وبشوارد الأنفس إلى سواء السبيل ، ليقرنوا شرفهم التليد بمجدهم الطريف كما قيل :

إننا وإن كرمنا أوائلنا لنا على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

(١) الحكمة : العدد ٢ ، المجلد الثاني ، السنة الثانية ، جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ (يونية / يولية ، ١٩٤٠ م) ، ص ٢٠٤ - ٢١٠ .

ولا يدع فحفظ مناقب الآباء والاعتداد بآثارهم الصالحة من أكبر العوامل المثيرة لعزة النفس ويقظة الوجدان وسمو الغاية ، وقديماً كانت العرب تفاخر بأمجادها وآبائها في انديتها واسواقها ومجتمعاتها ومواسم حجها ، قال تعالى : ﴿ فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذاكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ .

وكل شعب يحمل أمانة التاريخ ، وتجري في عروقه مناعة دم شريف ، وتدور في رأسه ذكريات الماضي ، لا يطمئن إلى حياة لا تصله بماضيه : « فإن من فاته حسب نفسه لا ينفعه حسب أبيه » .

والتاريخ كما قلنا هو سجل الحياة ، والصورة الفنية للعصور الغواير ، ومحقق آمال المنبت الحائر ، وقد طمحت به النفس إلى ذرى المجد وسمام المفاخر ، وحفزه غريزته البشرية إلى معرفة تراثه من الأكابر ، ومشاهدة معرض الوجود الحاضر .

منه يستلهم وحي النبوغ ، ومن أرواح أبنائه وآثارهم يستملي روحاً تسمو به إلى أبعد شأو كتب له في الحياة ، بعزيمة أمضى من القضاء ، وصدر أوسع من الفضاء ، وشجاعة في الله يكلوها الحجي  .

وأحر ، بمن عرف الماضي ، وأفنى القرون ، وسائر ركب الزمان ، ان تسمو نفسه وتهذب مداركه ، وتلطف شمائله ، وتتحرك مشاعره ، وتحفزه المؤثرات الحرة إلى مطمح الإنسانية ومثلها العالية : (وان لا يكون كمستمع اللدم يسمع الناعي ويحضر الباكي ثم لا يعتبر ، وإنما البصير من سمع فتفكر ، ونظر بأبصر ، وانتفع بالعبر ، ثم سلك جديداً واضحاً يتجنب فيه الصرعة في المهاوي ، والضلال في المغاوي) .

فإن التاريخ هو الشاهد العدل ، والرقيب العتيد ، والمراقب المشرف على أعمال الأمم ومجرياتها لا تفوته صغيرة ولا كبيرة ، ولا يترك حسنة ولا سيئة إلا أتى عليها ونقلها ، يرمي فيقرطس ، ويضرب المحز ويقطع المفصل .

من عادة التاريخ ملء قضائه عدل وملء كنانتيه سهام
هذا وللتاريخ من الفوائد غير ما مر من تهذيب الأخلاق ، وإيجاد الشعور
القومي ، وإذكاء نيران العواطف الكامنة في القلوب ، وتوحيد كلمة الأمة
وصهرها في بوتقة واحدة ، وجعلها كتلة لا تتجزأ ولا تتفرق ، يقودها المجد
إلى ميادين العظمة ، وسعة السلطان ، وبسطة النفوذ ويزجيها الاخلاص
والحرص على كنوز تراثها وتقاليدها إلى المحل اللائق بها تحت الشمس ،
وتؤازرها في سيرها نحو الغاية حرارة عقيدة شب عليها الصغير ، وورثها
مجموع الأمة عن أسلافه ، وغير ذلك من خلال الكمال .

مقام لا ينكر في خدمة الكتاب العزيز والسنة النبوية على صاحبها أفضل
الصلاة والتحية ، فهو عمدة المفسر لمعرفة الناسخ والمنسوخ وغيره من
الأسباب المتوقفة على نتائجها ، وهو دليل المحدث ، ومعلم الفقيه ، به
تعرف الأجل وحلولها ، والأخبار وناقلوها ، قال سفيان الثوري رحمه الله :
«لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ» ، وقال حماد بن زيد : «لم
يستعن على الكذابين بمثل التاريخ»

وبمقدار ما يستفيد منه الملك لإصلاح رعيته ، والسياسي لمهمته ،
والفاتح لغايته ، والاجتماعي لعمله ، والمزارع لحاجته ، يستفيد منه القاضي
والمرشد والمعلم والمحدث وغيرهم من جميع الأصناف في جميع الشؤون ،
فله بكل مقام مقال :

لا تقل دارها بشرفي نجد كل نجد للعامرية دار
ولها دمنة على كل رسم وعلى كل دمنة آثار

التاريخ لغة واصطلاحاً وكيف يجب أن يكتب

قال المقرئ رحمه الله في خطه : «التاريخ كلمة فارسية أصلها
(ماروز) ثم عربت ، قال محمد بن يوسف البلخي في كتابه مفاتيح العلوم :

«وهذا اشتقاق بعيد لولا أن الرواية جاءت به» ، وقال قدامة بن جعفر في كتاب الخراج : «تأريخ كل شيء آخره ، وهو في الوقت غايته ، يقال فلان تأريخ قومه أي إليه ينتهي شرفهم ، ويقال ورخت الكتاب تأريخاً ، وأرخته تأريخاً ، الأولى لغة تميم والثانية لغة قيس .»

وقال الأستاذ العلامة محمد كرد علي في كتابه خطط الشام ، قال العلامة البروتي «التأريخ هي مدة معلومة من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان ، أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن ، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب ، أو زلزلة خسف مبيد ، أو وباء مهلك ، أو قحط مستأصل ، أو انتقال دولة ، أو تبديل ملة ، أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية أو العلامات المشهورة الأرضية التي لا تحدث إلا في دهور متطاولة ، أو أزمنة متراخية تعرف به الأوقات المحددة ، فلا غنى عنه في جميع الأحوال الدينية والدنيوية» ، انتهى

وكانت العرب تؤرخ بالنجوم ، ومنه قول الكاتب :تجمعت على فلان كذا ليؤديه ، وبكل عام حدث فيه أمر مشهور ، فقد أرخوا بالختان لأنهم كانوا قد تهاونوا فيه وعظم عندهم أمره ، قال النابغة الجعدي :

فمن يك سائلاً عني فإني من الشبان أيام الختان

وقد أرخوا ببناء الكعبة ، ويموت كعب بن لؤي ، وبعام الفيل ، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام وكانت الهجرة ، فكان ذلك العام الأول تأريخ هذه الأمة زادها الله شرفاً وعلواً وأعاد عليها سالف مجدها وهداها إلى منهج الحق وصراطه المستقيم آمين

يلوح مما تقدم من مدلول كلمة تأريخ أن معناها التوقيت ، وهذا ما يظهر جلياً في كتب المتقدمين ، فإنه قل ان يجد القارئ فيما دونه القدماء في فن التاريخ شيئاً في تحليل الحوادث وتحليلها والنظر في اسبابها وعواقبها ، أو استخلاص النتائج منها ، كما انهم لم يحوموا حول بيان الحالة الاجتماعية

والاقتصادية وكيفية سير العلوم والمعارف وسير الأدب وعوامل العمران وكل ما له علاقة بالآمة ، وغاية ما صرفوا فيه عنايتهم أخبار الحروب ، ووصف المجازر الدموية ، والملاحم البشرية ، وحياة الملوك ، وذكر العزل والتولية ، وما إلى ذلك من الحوادث الطبيعية كهطول الأمطار ، وفيضان الأنهار ، وأخبار الزلزال والبراكين ونحو ذلك .

ولعل ذلك الداء سرى إلى المؤرخين من مدلول كلمة تأريخ الفارسية التي معناها التوقيت ، ولو أنهم عدلوا عنها إلى الكلمة اليونانية (هستوريا) ومعناها الرواية والتحقيق لكانت طريقتهم فيما أخال غير ما كان .

ولم تزل هوة البعد عن الحقائق والغرض الأصلي من كتابة التاريخ تتسع حتى أصبح سلطانه منهار الجرف ، منقض الدعائم لطول ما عبثت به أحداث الزمان وأحداث الانسان في عصور الوهم وأزمجة الانحطاط ، وصار أسوأ من الأدب حظاً ، وأنحس منه طالماً ، تتلاعب به أدمغة العجائز والسنة القصاصيين والممخرفين والمخرفين ، محشوة أسفاره بالخرافات والأكاذيب إلا النادر القليل .

وسواء في ذلك من عني بتاريخ قرن أو حكومة أو قطر ، أو من اشتغل بالتاريخ العام ، وإنك لتجد كثيراً من المؤرخين وغيرهم يعتبرون المؤرخ «كحاطب ليل» ، ومنهم من جعل هذه الكلمة تكأة له في سيره المغلوط ، فاشتبهت عليه المخارج والمواج ، واختلط لديه الحابل بالنابل ، فجمع الغث والسمين ، ومزج الممكن بالمستحيل ، وليت الخطب وقف عند هذا المرض القتال ، والداء العضال ، وهو مزج الصحيح بالسقيم ، وخلط الجائز بالمستحيل ، ومجانبة النقد وعدم التمهيص ، ولكنه تعداه إلى ما هو أدهى وأمر ، وأسوأ حالاً مما مر ، وذلك ما أشار إليه الأستاذ المعاصر محمد كردعلي بقوله : «كان المؤرخون بعد القرون الوسطى بين عاملين قوين إما أن يكذبوا فيغضبوا الحق أو يصدقوا فيغضبوا الخلق» . وقال العلامة الفيلسوف

إمام المؤرخين ، واضع علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون^(١) رحمه الله أثناء خطبة كتابه المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر : «إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها ، وفي صفحات الدفاتر أودعوها ، وخلطوها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا رفعوها ، فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب قليل ، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل الخ » .

وقال السيد العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله : «إن معرفة تاريخ الأمة هو الوسيلة الأولى للنهوض بها والصعود في مراقي الحياة بين الأمم ، وضرر الجهل والكذب فيه كضرر الجهل والكذب في بيان أحوال المريض وأعراض أمراضه للطبيب الذي يعالجه » .

فلا بد لكاتب التاريخ إذاً من تجري الحقائق ، وتمحيص الأخبار ، والابتعاد عن كل ما يشوب وجه الحقيقة من زيادة أو نقصان ومجانبة الهوى ونزعات النفوس ، وأن يحكم العقل لا العاطفة عملاً بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا ﴾ مع ملاحظة الحالة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية وكل ماله صلة بحياة الأمة ، وفي ذلك من المشاق والمتاعب مالا يفي الكلام بوصفه ولا يدرك كنهه إلا من خاض لجج هذه الأبحاث : «فوق كل ذي علم عليم » ، قال بعض مؤرخي الأفرنج : «ليس التاريخ من العلوم السهلة فلأجل يوم واحد يصرف في التركيب ينبغي قضاء أعوام طويلة في التحليل » .

(٢) وإذا تأملنا فيما دونه كبار المؤرخين القدماء كالطبري وابن الأثير

(١) هو المفكر الإسلامي العظيم له طريقة لم يسبق إليها في فلسفة الاجتماع والتاريخ .

(٢) السنة الثانية المجلد الثاني .

والمسعودي وابن خلدون في تأريخه دون المقدمة واضرابهم ، وجدنا بتلك المؤلفات روعة العلم وجلاله ، ولمسنا روح البحث والتحقيق والاستقصاء والانقطاع للعمل والشهوة العلمية لذاتها بارزة وماثلة .

ولكنها لم تتعد دائرة البحث عن الحالة السياسية ، ووصف حركات التجاذب والتغالب بين المتوافدين من الأمراء والملوك ، وما يتبع ذلك من نزوات ونزعات ، ولذا جاءت تلك المؤلفات غير كاملة بالمعنى المراد من التأريخ لأنهم لم يفوا المشكلة التاريخية حقها .

ويمتاز قدماء المؤرخين بسعة الإطلاع والإحاطة بالجزئيات والفهم للحقائق والقدرة على التعبير : «ولكنهم لم يقدرُوا على ربط الحوادث برباط جامع لها» . وقد طوع لهم إدراك الجزئيات الإحاطة بشتى الحوادث وما جرى في السنين من الأحداث ، فجمعوا في مؤلفاتهم الكثير الطيب ممزوجاً بغيره من دون نقد وتمحيص أو تعليل واستنتاج ، فكان من جراء ذلك أن برزت الحقائق محاطة بإطار من الخفاء يعوزها النضوج والاكتمال ، كأنها منجم الذهب يتوقف الحصول عليه على إزالة ما يخالطه من العناصر المتنوعة .

واستمر الحال على ذلك آماداً متطاولة ، وطرق التأليف في هذا الفن مشابهة حتى ظهر إمام المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله في القرن الثامن الهجري فعني بالتأريخ عناية خاصة واعتبره جزءاً من الفلسفة ولكن لهذا الجزء ينبغي ألا يعنى بشيء سوى تقرير الحوادث والعمل على كشف ما بينها من اقتران الشيء بسببه على أساس النقد البريء من التشيع والهوى .

وأكبر قواعد البحث التاريخي هي أن الحوادث يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول^(١) .

وقد أطل في مقدمته الكلام على هذه المباحث ، وأثبت فيها القوانين

(١) راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام ومقدمة ابن خلدون .

العامة والأسس الأولية للمقايسة والتمييز وذلك بالإمكان ، والمقايسة والاستحالة ، فمقارنة الماضي بالحاضر تعطينا قانون التشابه ، وقياس الأخبار على أصول العادة ، وطبيعة العمران يعلمنا قانون الإمكان والاستحالة .

ومن المؤسف ان هذا الفيلسوف الاجتماعي العظيم لم ينتفع المسلمون بمبتكراته في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ لتأخر زمانه عن زمن النهضة العربية الإسلامية ، وظلت آثاره آتفاً لم يمط عنها اللثام إلى أن شرع الغرب في النهوض .

أما من تقدمه من مؤرخي المسلمين فإنه بالرغم عن مقدرتهم العالية ، وملكتهم الكتابية ، ونزاهة مقاصدهم ، واتساع الفكر الإسلامي العربي وحرية في أيامهم ، نجدهم فيما نقلوه عن غيرهم قد تجنبوا النقد أو تهيئوه تقديساً للرواية أو لعلة أخرى ، وقليل منهم من أتى بشيء جديد ، أما ما يتعلق بأزمنتهم فلم يبعدوا عن الأسلوب المذكور أولاً .

على أن بعضهم قد تأثر بالنزعات الدينية والعصبية القومية والمذاهب السياسية إلى أمد بعيد فظهرت مؤلفاتهم في ثوب شفاف ينم عما تحته من سلطان الهوى وحكم العاطفة .

كما أن بعضهم لم يتورع عن خدمة الأغراض السياسية والمقاصد الشخصية ، وجعل البحث التاريخي شبكة لصيده ، ومطية لنزوات روحه ، ولا سيما أيام كانت السياسة تركض وراء الألسنة القوية ، والأقلام السليطة لتستفيد من نصرتها ، وتعتز بشهرتها ، ليتم لها احتكار السلطة في اشخاص القائمين بها ، وصرف البلاد والعباد عن التفكير المثمر والعمل النافع ، إلى ما يعود بالمجد الأجوف والخير المزعوم ، وقد سجل التاريخ من أعمال الفريقين ما يندى منه الجبين .

وصفوة القول أن هذا الفن لم يوله أربابه الأكفاء حقه من العناية كسائر الفنون : « ولم يحصوا أخبارهم الموروثة تمحيصاً دقيقاً ، ومع هذا فقد كان

الكثيرون يعولون عليها تعويلهم على المشاهدة ، وكانوا يرجحونها على حكم العقل لأنه قد يسهل أن يسلم بنتائج غير صحيحة .

وكان بين المؤرخين دائماً قوم يذكرون مختلف الروايات من غير تشيع ، وكان آخرون مع ما أظهروا من مراعاة لمطالب الحاضر لا يترددون في الحكم على الماضي أحكاماً يتفاوت حفظها من الصحة ، وكثيراً ما يسهل على الإنسان أن يصيب في حكمه على الحوادث الماضية أكثر مما يسهل عليه الحكم على شؤون العصر الذي يعيش فيه ^(١) .

وقد أنتج الفكر العربي عندما استبحر في العمران ، واتسع نفوذه ، وازدادت معارفه قسماً من أقسام التاريخ تفنن فيه تفنناً يفوق الوصف ، وبلغ فيه مبلغاً من الاتقان لا يدرك شأوه ، واستعمل فيه النقد والتمحيص إلى أبعد حدوده وذلك فن التراجم .

فإنه اتسع نطاق التأليف والمؤلفين فيه وذهبوا في الجودة والافتنان كل مذهب ، فقسموا كتبه إلى خاصة وعامة ، وبذلوا عناية كبرى في تتبع أحوال عظماء الرجال ، وآثارهم وكل ما يحيط بحياتهم ويلابسها من خير وشر ، وفضل ونقص ، وتعمقوا في مسامرة حياة من ترجموا لهم وتأثروهم خطوة خطوة . ولشدة عنايتهم بفن التراجم جعلوا المؤلفات العامة للناهين في أي فن كان ، والخاصة لمن نبغ في فن مخصوص كالنحاة والأطباء والكتاب والشعراء والفقهاء والمتكلمين والحجباء والوزراء والزهاد والمتصوفة والأدباء والمغنيين ونحوهم .

فكانت هذه الكتب القيمة من أغزر الموارد في الأدب العربي ، وأروع الآثار في التاريخ ، لأنها تدلنا على كثير من الفوائد التي لا وجود لها إلا في التراجم ، ولولاها لافتقدنا حلقات من تاريخنا لا يكمل وجوده بدونها ، وكان

(١) راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام .

لها الفضل أيضاً في تبيان ما طواه التاريخ السياسي وأهمله من شؤون الحياة العلمية والأدبية والدينية والأخلاقية ، وما يتصل بذلك من آراء وأفكار ومعارف وفنون .

ولما تدهور الأدب العربي قلت براعة الكتاب في ذلك ، وأصاب تلك الناحية ما أصاب غيرها من فنون الآداب ، وكان بعض المؤرخين استشعر نقص الناحية الأولى من التأريخ فعمد الى الجمع بين الحوادث والتراجم فجاءت مؤلفاتهم : «كجونية العطار» .

ومما هو جدير بالذكر هنا لعلاقته بالموضوع الإشارة إلى عناية العرب العظيمة بعلم الجغرافية ، والبحث عن شكل الأرض وظواهر الطبيعة ومعرفة الأقاليم وخطوط الطول والعرض وتقسيم المناخ إلى مناطق ، والفحص عن أحوال الأمم وطبائع الشعوب ، وإجالة الفكر في كل ما يصلح أن يجول فيه عملاً بهداية القرآن ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ .

واهتمامهم الكبير بالبلدان ونصبت أسماء المدن والقرى والجبال والأنهار والأودية والطرق والمسافات ومحطات البريد ، وتكبدتهم الرحلات الشاقة والأسفار الطويلة في سبيل البحث والتنقيب عن كل ما يتعلق بهذا العلم من حقائق تستأهل التخليد والتسجيل ، وتأليفهم في ذلك المؤلفات النفيسة الممتعة ككتاب الجاحظ عن البلدان ، ومعجم ياقوت الرومي الحموي ، وصفة الجزيرة العربية للهمداني اليمني ، ورسالة فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وجغرافية عبدالله بن خرداذبة ، والمقدسي ، ومحمد بن رسته ، وأمثالهم .

كما أن إليهم يرجع الفضل أيضاً في تخطيط الخرائط . ووضع التقارير الإضافية عن رحلاتهم البعيدة كما يفعل الغربيون اليوم .

وأقدم أثر عربي عثر عليه في تخطيط الخرائط كتاب أبي زيد البلخي ،

أحد تلامذة الفيلسوف الكندي ، عني فيه بوجه خاص بالخرائط ، فصور العراق في زمانه سنة ٣٠٩ هـ بخريطة جعلها ياقوت الحموي دليله في رحلته كما نوه به في كتابه : إرشاد الأريب .

وكذلك فعل الشريف محمد الادريسي في كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، وهو من أجل الكتب الجغرافية وأنفسها ، وبه خريطة للبلاد المصرية وكان تأليف الكتاب المذكور بعناية (روجر الثاني) ملك صقلية وتايلى منتصف القرن السادس .

والمستبصر في تاريخه لجزيرة العرب صور فيه أهم مدن الحجاز واليمن في أيامه ، وذكر طرقها وتاريخ اختطاطها ، ومقدار المسافات إليها .

ومن أمثلة تقارير سواح المسلمين تقرير احمد بن فضلان سفير المقتدر العباسي في بلاط ملك البلغار سنة ٣٠٩ هـ ذكر فيه أحوال البلاد الطبيعية وعادات السكان وأخلاقهم وتقاليدهم بأسلوب ممتع أورده ياقوت في معجمه .

وتقرير إبراهيم بن يعقوب أحد تجار المغرب عن رحلته إلى أوروبا وألمانيا ، وأبودلف مسعر بن مهلهل عن الهند وتركستان وأبو الريحان محمد بن أحمد البيروني عن الهند أيضاً .

والقاضي الحسن بن أحمد الحيمي الصنعاني ، سفير الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد ، إلى ملك الحبشة وصف فيه حالة البلاد الطبيعية والسياسية وبلاط ملك الحبشة ، وما كان يحتوي عليه من دسائس الرؤساء والقواد ونحو ذلك .

(١) تلك نظرة إجمالية وكلمة عامة عن المصادر التاريخية العربية كان إيرادها لبيان ما يعترض الباحث أو المؤرخ من عقبات في تاريخنا القديم على جهة

(١) الحكمة : العدد ١٠ ، السنة الثانية ، المجلد الثاني ، شعبان ١٣٥٩ هـ (سبتمبر/ أكتوبر ١٩٤٠ م) ص ٢٩٥ - ٣٠١ .

الإجمال ، وفي المثال ما يغني اللبيب ، وذلك كله والمصادر التاريخية للأمة أو البلدة التي يريد البحث عن أحوالها متوفرة ، والمراجع التي يستنبط من منابعها بحوثه ، ويستقي من مناهلها نصوصه غنية ، والطرق الموصلة الى الغاية معبدة أو قريبة^(١) .

ولكن قل لي بربك أيها القارئ ماذا يقول الباحث المفكر المنصف الخبير بمشاق البحث ومتاعب الطلب ، إذا وقف أمام التاريخ اليميني وأبحاثه الغامضة وفصوله المبعثرة بين مئات المجلدات وآلاف الصفحات ؟ وبماذا يحكم إذا عرف أن طريق البحث متعرجة ملتوية ذات أدغال وسلسلة جبال وعرة المسالك ، وأن السالك فيها لعلّى قلّت إلا ما وقى الله ؟

لا شك أنه يعذر الكاتب في تقصيره ، ويرضى منه بميسوره ، ويوسعه العذر ، ويقابله بمزيد الشكر ، وأيم الله إنه لشيء عسير « يفضل فيه الخريت » ويحار فيه الحكيم . « وقديماً اضطربت أفكار المؤرخين في أمره ، كما احتار من بعدهم في قصصه وأخباره ، ففي سبيل الله ما يلاقي الباحث في تاريخ اليمن .

غير أنه لما كان من الواجب المحتم على كل فرد وهبه الله حظاً من العلم ، ونصيياً من الادراك ، وقسطاً من المعرفة (٢٩٧) القيام بواجب الشكر ، وشكر كل نعمة بحسبها ، وكنت ممن أفنى السنين الطوال ، وشغل فراغ أيامه منذ الحداثة إلى زمن الكهولة ، في البحث والتنقيب والدرس

(١) وما أصدق ما قال الكاتب الكبير الأمير شبيب ارسلان في مقدمة كتابه تاريخ غزوات العرب في هذا الشأن ، ولا ينبك مثل خبير ، قال : « ولعمري ان هذا التاريخ المجيد وإن سفته سيول المحابر ، واخضرت له أعواد المنابر ، وسبقت فيه تآليف استولى اصحابها على الأمد اخراجا ، ولمعت فيه كتب لو لاحت لكانت بروجاً ، ولو نضدت لكانت ابراجاً ، لا تزال فيه نواقص بادية العوار ، ومعالم طامة الآثار ، ومظان متوارية غامضة ، ومعلومات قاعدة غير ناهضة تحتاج إلى همم بعيدة من الأفواج الآتية ليثيروا من دفائنهم ومعارف واسعة عند السلائل للقبلة لينقلوها من كنائنها) .

والتنقيير عن علم التاريخ ، وما بصحائفه من عبر وعظات ، ومن بين تلك الأسفار ما يخص اليمن المبارك ، « مجر عواليها ومجرى السوابق » ، أحببت أن أقوم بذلك الواجب بعد أن بذلت الوسع ، واستفرغت الجهد في جمع الشوارد ، وقيد الأوابد ، واستقراء النصوص ، وتتبع الأدلة حسب الإمكان . وقد راعيت أمانة النقل ، وواجب العلم فيما احتجيت به من كلام الغير ، وأبحث القراء من عقلي ونفسي ما أبحثهم من عقول ونفوس من نقلت عنهم ، فلم أكتف بنقل ما قالوه وجادت به عقولهم من دون أن أبدي رأيي ، ولا سيما فيما تضاربت عنده الأفكار ، واختلفت فيه الروايات ، فإني لم أقف هنالك وقوف المشدود الحيران ، بل تقدمت ومحضت بقدر ما أستطيع ، (من قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) ، ومن الله استمد التوفيق ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

وسأبتدي بذكر حضارة اليمن وأقوال المؤرخين في ذلك .

اليمن مهد الحضارة البشرية

اليمن الخضراء أو اليمن السعيد^(١) ذات المروج الخضراء ، والسهول الممرعة ، والهضبات الخصبة ، والجبال الشاهقة ، والينابيع الفياضة ، والأنهار المتدفقة ، والأسداد المحكمة ، والآثار الخالدة ، مشرق شمس الحضارة ، ومطلع أفلاك المدنية ، مركز النبوغ ومعهد الثقافة ، مهد الإنسان الأول^(٢) وأقدم بلدان المعمورة رقياً ، وأروعها مدنية ، وأعظمها عمراناً ،

(١) قال المؤرخ المعاصر الدكتور اسراييل ولفنسون : «يعتقد جلاوز أن كلمة العرب السعيدة عن اليمن إنما هي ترجمة حرفية لكلمة اليمن باليونانية لأنها مأخوذة من اليمن والبركة ، لا كما يعتقد المستشرقون أن هذا اللفظ من اختراعات اليونان ، هذه ملاحظة دقيقة وتعارض النظرية التي تقول بأن كلمة اليمن تعني ناحية اليمين ، كما أن بلاد الشام من ناحية الشمال .

(٢) عن ابن قتيبة في كتاب المعارف .

تحت سمائها الصافية وعلى أديمها المنبت ، وفي مروجها النظرة مرحت
أبطال الحروب ، وعباقرة الفنون ، ومهرة الرسامين ، ونوابغ الصناعات ، وتركوا
من نتاج عبقريتهم وآثار نبوغهم معاول الدهر ، وفل شباء القرون .

ولم تزل بعض تلك الآثار جاثمة كالخلود ، تمثل لرايها أجيالاً من ملوك
حمير وسبأ ومعين والأذواء ، وينشد لسان حالها قبل سؤالها :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وما عليك أيها الباحث إلا أن تقف قليلاً بطلولهم الدوارس ، ورسومهم
الطوامس ، بمعين ، وبراقش ، والحمراء ، وصرواح ، وسبأ ، وناعط ،
وظفار ، وبينون وغمدان كي تناجيك آثارهم ، وتخبرك مآثرهم من نقوشهم
المطلوسة على الأحجار ، وبقيّة أطلالهم الثابتة على كر الأعصار ، أنهم
أساتذة العالم في تلك العصور ، فإن بقيّة ما أسارته الأيام من القصور والهيكل
والمدن والمعابد لا يزال قريباً ، مما كان ، والكثير منها سطا عليه الزمان ،
فلم يبق منه غير العنوان .

مركز تحقيقات كليات العلوم - سدري

طلل عند دمنة عند رسم ككتاب محال بلا عنوانه
من رآها هذي ملوك الـ سدهر هذا وقارهم والرزانة
وبقياسا هياكل وقصور بين أخذ البلى ودفع المتانة

ثم تندس ذلك القلم المسماري والخط الهيروغلوفي وردد الطرف
في آثار الأمم التي نالت حظها الكامل من الحضارة في تلك القرون ، تجد
المشابهة الكاملة ، والمشاكلة التامة ، شبه الماء بالماء والغراب بالغراب ،
وحينئذ لا يسعك إلا الجزم بوحدة الأصل والتسليم بما قضت به أساطين
البحث ورجال التاريخ وعلماء الاجتماع وغواة الآثار من أن تلك الأنوار التي
أنارت الشرق والغرب قبس من هذه النار ، فإذا عرفت ذلك فما عليك إلا أن
تنشد بملء فيك .

الملك فيك وفي بنيك وأنه حق من الأباء للأحفاد
وأمانة التاريخ في أعناقهم من عهد بابل يوم نهضة عاد
وذوي حمورابي وآل سميذع وبني معين وحمير وأباد

وفيما تكاثفت عليه ظلمات الأعصار ، وطمرته أتربة النسيان ، وغمرته
سواقي الزمان ، وزوابع الطغيان ، ولم يبق منه غير (نوء مثل خط بالقلم) . من
ذلك الماضي المشرق ، والشرف المؤثق ، والفخر التالد ، وما يشبع رغبات
الباحثين ، وسد فراغ الخزائن ، ويسدي إلى التاريخ والإنسانية أعظم منه .

فمما لا شك فيه أن اليمن كانت لها حضارة موهلة في إثبات الماضي ،
وأنها سبقت مدنية الإغريق والرومان في تشييد الصروح والقصور والمعابد
وتجميلها بالزخارف والنقوش والتهاويل ، وأن سبأ ومأرب كانتا محط رحال
النوابغ ، ومثابة لرجال الفنون كالبنايين والحفارين والمصورين ، وأن فن
العمران بها كان قد سبق زمن (اقليدس) أستاذ الهندسة الأكبر كما يستفاد
ذلك من أطلالها التي تدل بنقوشها أنها كانت قبل أن يعرف العالم
أقليدس^(١) .

مركز تحقيقات كليات العلوم - صنعاء

كانت اليمن وعرف وجودها قبل أن تشاد بيوت النيران ، ومعاقلة
الأوثان ، وبيع الصلبان ، وأديار الكهان ، قيل أن يبني خوفو^(٢) هرمه
العظيم ، ويؤسس سرجون^(٣) الأول دعائم ملكه بالبحر المتوسط وجزر
اليونان ، ويخرج موسى يبني إسرائيل من أرض الفراعنة : كانت شريعة

(١) اقليدس أبو الهندسة ومؤسس مذهب البحث العلمي وإليه يرجع الفضل في جعل عصر
سيدة بطليموس سوتر ، عصر نفوذ رياضي عظيم ، وبطليموس هو مؤسس دولة البطالسة في
مصر بعد الاسكندر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد .

(٢) خوفو من الملوك الفراعنة الذين بلغت مصر في عهدهم شوطاً بعيداً في المدنية .

(٣) سرجون الأول الآشوري أول من أسس ملكاً سامياً كبيراً في أرض بابل سنة ٢٨٠٠ ق.م .
وامتد نفوذه إلى البحر الأبيض المتوسط وانتقل إلى الجزر اليونانية ، وسيأتي الكلام على
الآشوريين عند ذكر الهجرات القديمة .

« حمورابي »^(١) أول شريعة عرفها البشر ونظام سنة الإنسان ، واليمن تنظر إليه بعين الإعجاب لأنه فرع من دوحته العظيمة ، وغصن من شجرتها الباسقة ، وذلك قبل أن ينشر بوذا^(٢) تعاليمه على ضفاف الكانج بقرون .

نقل المؤرخ الشهير استرابون اليوناني أن الإسكندر الكبير كان قد اختط خطة قبل موته ، قصاراها أنه يريد نقل عاصمة ملكه من الهند إلى اليمن ، وذلك يدل على ما كان لهذه القطعة المباركة من مكانة في نفس ذلك الفاتح العظيم ، وقديماً أطلق عليها الرومان والفرس واليونان اليمن السعيدة ، والجزيرة الخضراء ، ووصفها مؤرخوهم بما يعجز القلم عن وصفه .

عرفت اليمن وعرفت حضارتها الرائعة وعمرانها الزاخر ، وعلومها المنتجة ، وفنونها الجميلة ، قبل أن تعرف أي مدينة على وجه الكرة الأرضية ، ثم كانت مدنيات موغلة في القدم كالمدينة الكلدانية والآشورية والكنعانية والفرعونية ، والفينيقية ، وفي بعض بقاع المعمورة كالهند ، والصين ، وما تلك إلا قبسات نور إنشق من هذه البلاد كما سيمر بك قريباً :

مشت بمنارهم في الأرض رومتيك كاتوميك أنوارهم قبست أثينا

قال الكاتب العلامة الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على ابن خلدون ما لفظه : (كانت للعرب مدينة لا سيما في اليمن في غاية الإرتقاء والإزدهار في نحو الألف سنة قبل المسيح) ، ويذهب الأستاذ المستشرق « موريتز » الألماني إلى أن أصل إيجاد الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهيروغليفية كان في اليمن ، وهو يعتقد أن اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأي المشهور ، وقد أفضى موريتز إليّ بأدلة على هذا الرأي وقال إن الفينقيين إنما بنوا كتاباتهم على الكتابة العربية اليمنية ، ثم

(١) من الاسرة الكنعانية التي ملكت بابل بعد الآشوريين حوالي سنة ٢٣٠٠ ق.م .

(٢) ظهر بوذا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وقيل إنه كان عايشاً في القرن السادس أو السابع قبل المسيح .

أن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين وأخذ عنهم الرومانيون ، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم ، وبهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية .

ونقل عن المستشرق « هرمل » نقلاً عن الانسيكلوبيديّة « دائرة المعارف الاسلاميّة أن اليونان أخذوا عبادة « أبولون » وأمه « ليوتو » عن العرب ، وقال « روبرتسون سميث » أن « ليوتو » هذه هي اللات ، وأن اليونانيين بحسب رأي بريتوريوس أخذوا بعض أحرفهم عن كتابة عرب اليمن والبعض الآخر عن الكنعانيين .

وقال هومل أن جنوبي بلاد العرب كانت فيه مدينة في أوائل الألف قبل المسيح بالغة الحد الأقصى من الازدهار بما تركته من معابد وحصون ومحافد وقصور ومكتبات .

(١) فاليمن إذن مهد الديانات ووطن الأساطير ، عانقت الصابئية الأولى ، واحتضنت المجوسية ، كما حمت الوثنية وتغلغلت في جنباتها اليهودية ، وربت فيها المسيحية : دحرت الرومان ، وقهرت الغزاة ، ولفظت الأحباش ، وهضمت الفرس ، وخرجت من معارك الدهر وصراع القرون عربية إسلامية « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » .

فانها لم تلبث الوثنية أن خنسّت ، كما تخاذلت المسيحية ، وانكمشت اليهودية ، كما تراجعَت المجوسية ، وأصبحت هذه القطعة المباركة وزر الأمن ، ومعتصم السعادة ، منبع الحكمة ، ومقر الإيمان ، والمحل الذي منه يأتي نفس الرحمن ، كما أخبر بذلك من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم القائل : (الإيمان يمان والحكمة يمنية) ، هكذا صبح عن سيد ولد آدم

(١) الحكمة : العدد ١١ ، السنة الثانية ، المجلد الثاني ، رمضان ١٣٥٩ هـ (أكتوبر/ نوفمبر ١٩٤٠ م) ص ٣٢٨ - ٣٣٣ .

رجل العالم صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً ، قبل عصر البخار والكهرباء واستنطاق الجمامد ، وحل الرموز وقراءة النقوش ، ومعرفة الآثار ، قبل أن يعثر كريستوف كلمب على أمريكا بألف سنة قال سيد قريش « الحكمة يمانية » .

وهناك طوت سجل الماضي ، وقامت بحمل راية الفتح لإسلامي ، فأنجبت من أبطال الحروب ، وكبار القواد ، وأفذاذ الحكماء ، ونوابغ الشعراء ، ومشاهير العلماء ، عداد نجوم السماء .

شهد الخلائق أنها لنجبية بدليل من ولدت من النجباء

هب رجال اليمن لنشر راية التوحيد خفاً وثقالاً ، واحتملوا أبناءهم وأزواجهم ونزحوا إلى الطرف الأقصى من ديار الإسلام ، وهنالك في أرض الهجرة دافعوا دفاع الأبطال ، واقتحموا الأهوال ، وصابروا وصبروا وقاتلوا حتى ظفروا باحدى الحسينين^(١)

بعد أن ملؤا العالم قديماً ، وأخذوا إمرة الأرض اغتصاباً ، واستولوا على الممالك أحقاباً ، وتسلموا زمام الحياة المادية والمعنوية دفعاً وانتزاعاً ، بمالهم من صفاء العقول ، ومضاء العزيمة ، وشدة البأس ، وعظمة المجد ، وكرم الأعراق ، فقد كانوا أعجوبة الحياة بكل مظاهرها ، ولله علامة اليمن نشوان بن سعيد حيث يقول :

قومي الذين تملكوا وتمكنوا ۞ في الأرض قبل تمكن الاسكندر
الخاتمون لسد يأجوج الذي لا استطاع لردمه من مظهر
والضاربون الهام في يوم الوغى بين الصوارم والقنا المتكسر

(١) خرجت الموجة الأخيرة اليمنية لفتح مملكتي فارس والروم في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال الواقدي أن أبا بكر قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أبا الحسين أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول إذا أقبلت حمير ومعها نساؤها وأولادها فابشروا بنصر الله على أهل الشرك ، قال نعم

ولكم لحميركم وكم من مفخر باق إلى ميعاد يوم المحشر
لا شك أن أهل اليمن بلغوا مبلغاً (٢٣٠) عظيماً في الملك ، واتسع
نفوذهم ، فشملت معارفهم وحضارتهم كل ما استولوا عليه من الأقاليم
والبلدان ، لأنهم وصلوا إلى ما لم تصل إليه مدارك الأمم في تلك العصور
كما تدل عليه آثارهم .

ولا سيما بمدينة سبأ الشهيرة ، ومأرب حيث كانت أعظم مدينة في ذلك
الزمن ، فيها من المعابد والقصور والحدائق وأنواع طرف المدنية ما يشهد لها
بالسبق ، ولأطلالها اليوم من العظمة والجلال ما تتضاءل أمامه عظمة
المدائن ، ويصغر بجانبه ملك كسرى وقیصر ، وحسبك ما وصفها به القرآن
الكریم قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال
كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ .

وقوله تعالى حاكياً عن هدهد سليمان عليه السلام في وصفه عرش
بليز وملکها : ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظیم ﴾ .

مركز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

قال العلامة شکیب أرسلان : « علی أن مؤرخي الأفرنج يعترفون بأن
في كتب مؤرخي الإسلام عن مدينة سبأ القديمة والأدوار التي تلتها تنطبق أشد
الانطباق على الكتابات المنقوشة في الحجر وعلى المنابع اليونانية والرومانية ،
وكلها تفيد أن مدينة سبأ كانت راقية جداً ، وأرقى من المدنات العربية
الأخرى ، فالمباني القديمة الدائرة من آثار سبأ ، والنقوش والتماثيل وبقايا
الأعمدة والهياكل والقصور والأسوار والأبراج وسدود المياه ، مما شاهده سياح
الأفرنج بأعينهم ، يطابق أشد المطابقة الأوصاف التي وصف بها اليونان
والرومان تلك الآثار المدهشة ولا يجدون فيها مبالغة ، كما أنه عندما ينظر
السائح إلى تلك الآثار لا يعود متعجباً مما جاء عنها في كتب الإسلام ، مما
كان يظنه من أساطير الأولين ، وحسبك بما ذكره الهمداني من قصر غمدان

وغيره من قصور سبأ مثل قصر سلحين وبينون ، وما ذكره من عظمة سد مأرب ، وما كتبه مؤرخو اليونان والرومان عن فخامة تلك القصور وهاتيك الأسداد والقلاع ، فهو مطابق للمحسوس المشهود بالعيان » اهـ .

وقد جاء وصف مدينة سبأ عن كثير من قدماء المؤرخين غير العرب قال « أغاثر سيدس » : أنه كان يوجد في سبأ كل شيء يجلب السعادة لبني آدم ، وغير المحصولات المشهورة يوجد فيها اللبان والمر والقرقة ، وكانوا يطبخون مأكولاتهم بالأخشاب ذات الروائح الذكية ، إلى أن قال : دعائم بيوتهم تلمع بالذهب والفضة ، وأبوابهم من العاج مزينة بالجواهر وباطنها يشبه خارجها ، إلى آخر كلامه الذي يدل على أنهم وصلوا إلى ما لم تصل إليه حضارة نيويورك وباريس ولندن اليوم ولا روما وأثينا وبيزنطة والاسكندرية في العصور الغابرة » .

ونقل جرجي زيدان عن استرابون الرحالة اليوناني ، أن مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة ، سقوف أبينتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة ، وفيها من الأنية الثمينة المزخرفة ما يبهر العقول . وقال المستشرق (نيولد نيكلسون) الانكليزي في كتابه تاريخ العرب الأدبي : سبأ تستعمل غلطاً إذا قصد بها كل بلاد اليمن على حين لم تكن سوى إقليم منها ، وإن كانت بلا جدال أقوى شكيمة وأعظم أهمية من كل الممالك والاقاليم التي ورد ذكرها في كتابات الأغريق والرومان القدماء ، ومهما بولغ في عظمتها وثرها فمن المحقق أن سبأ هذه كانت ذات مركز تجاري ممتاز قبل ظهور المسيح بعدة قرون .

وجاء في الأنسيكلوبيديّة الاسلاميّة (دائرة المعارف) أنه لا مبالغة فيما نقلوه من أن أبواب منازل سبأ وجدرانها وسقوفها وأعمدتها كان منها الكثير مموهاً بالذهب والفضة ، مرصعاً بالحجارة الكريمة ، وأن آنيتهم كانت مصوغة من أنفُس المعادن ، وهذا ما ذكره الهمداني والمسعودي وغيرهما من مؤرخي

العرب ، وما أيدته الكتابات الصخرية نفسها فيما ترويه عن التقادم العظيمة من الذهب والفضة ونفائس الأحجار ، وقد وجد كثير من المسكوكات السبئية ومن الحلبي تؤيد أيضاً روايات الرواة من كل قبيل اهـ^(١) .

وقد علل بعض الباحثين وجود المدنيات بعلى شتى ، منها طيب المناخ ، وكثرة المياه أو المعادن ، ومنهم من يعزوها إلى غرائز اختصت بها بعض الأجناس البشرية ، وصفات جادت بها الطبيعة على بعض الشعوب دون بعض ، وكل ذلك متوفر في هذه البلاد وأهلها .

فمن الذي يجهل ذكاء أهل اليمن الفطري ، ونبوغهم العجيب ونشاطهم ، وما في طباعهم من الوجدان ، ونفوسهم من الحماسة ، وتلك بلا شك من أكبر عوامل النبوغ والتقدم . وفي تاريخهم الغابر كنوز لا تقدر بثمن محفوظة بسياج جلاله العلم ، وطرازه القوة ، وأسراره الذكاء والفطنة ، فكل حجر أقيم ، وكل تمثال نحت ، وكل نقش جلد ، هو صفحة الخلود ، أما من غمرت عبقريتهم أتربة النسيان ، وطمست معالم خلودهم حوادث الأيام ، فلم تتصل بسمع التاريخ فهم أكثر .

وأما خصب التربة ، وبركة الأرض ، وكثرة الإنبات ، وجودة الهواء ، وإعتدال الطقس فأشهر من نار على علم ، قال بعض المؤرخين^(٢) : إن مارب كانت في بهاء ، مشاهدها الطبيعية على شاكلة مدينة دمشق ، يجري في وسطها نهر عظيم تجتمع إليه المياه المنحدرة من أعالي الجبال ، فيتألف من هذه السيول الجائشة بحر شديد الاغتمام ، يفيض مرة في العام على المراعي والحقول فلا يذر فيها حسناً ، ولا يستبقي من روائعها روعة ، وبذلك أصبحت مرتاداً للملوك والأمراء ، يرتادونه في فصل الصيف القائظ للترفيه عن أنفسهم ، وفي قوله تعالى : (بلدة طيبة ورب غفور) ما لا يحتاج إلى مزيد .

(١) تعليقات الأمير شبيب على ابن خلدون .

(٢) هو الاستاذ المعاصر معروف الارناؤود في كتابه سيد قریش .

(١) المعنا فيما سبق من أعداد (الحكمة) إلى عظمة اليمن التاريخية ، قيل في حضارتها القديمة ، ونقلنا ما جاء في وصف تلك المدنية عن قدماء المؤرخين من غير العرب كاليونان والرومان والفرس ونحوهم وكلهم أدلة متظافرة على تقدم المخترعين لتلك المدنية في الآداب والمعارف وتعمقهم في أسرار الطبيعة وما خفى من أمرها ، وبذلك يسهل الحكم بأن اليمن مهد الحضارة ، وأن مدنيتهما من أقدم ما عرفه التاريخ .

قال العلامة ابن خلدون رحمه الله في مقدمته عند الكلام على العرب وبعدهم عن الصنائع لتوغلهم في البداوة ما لفظه ، وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلى أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين في أمم كثيرة منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترفع مثل عاد وثمود (٣٨) والعمالقة وحمير ومن بعدهم من التبابعة والأذواء إلخ . . .

وقد لاحظ هذه الحقائق كتاب التاريخ الإسلامي كالمسعودي في كتابه مروج الذهب ، وابن هشام في كتابه المسمى بالتيجاني ، والهمداني في الإكليل ، وغيرهم ممن كتبوا عن التاريخ القديم ، كل أولئك قص علينا من أخبار حمير ، وعظمة ملكهم ، وسعة ما استولوا عليه من الأقاليم والأمم كالصين والهند والترك والبربر ونحوهم إلى ما يدعو إلى الدهشة والارتباك . وإليك ما رواه نشوان بن سعيد الحميري للربيع بن ضبع الفزاري في كتابه شمس العلوم ، عند الكلام على ظفار ، قال : وللربيع بن ضبع :

وقل في ظفار يوم كانت وأهلها	يدينون قهراً شرقها والمغاربا
لهم دانت الدنيا جميعاً بأسرها	يؤدي إليهم خرجها الروم دائبها
وغمدان إذ غمدان لا قصر مثله	زهراء وتشيداً يحاذي الكواكبها

(١) الحكمة : العدد ٢ ، السنة الثالثة المجلد الثالث ، ذي الحجة ١٣٥٩ هـ (ديسمبر ١٩٤٠ / يناير ١٩٤١ م) ص ٣٧ - ٤٣ .

وأرباب بينون وأرباب ناعط خلا ملكهم منهم فأصبح عازبا
ومأرب إذ كانت وأرباب مأرب توفي جباء الصين بالخارج مأربا
فمن ذا يرجي الملك من عبد حمير ويأمن تكرار الردى والنوابها
أولئك مأوى للنعيم كفاهم ولكن وجدنا الخير للشر صاحبها

وقد أبطل هذه الروايات ابن خلدون في مقدمته ، وعدها من أغلاط المؤرخين ، وأطال في نقد كل رواية جاءت بغزو حمير لأمم الشرق أو الغرب ، وعلل امتناع ذلك بعزل جغرافية وأخرى إدارية وسياسية ، ولكنه وقع فيما أنكره على غيره ، ولا أقول كما قال فيه بعض المستشرقين من أنه قليل الثبات على وتيرة واحدة ، وإليك ما قاله في نقد أقوال المؤرخين أولاً ، قال : (ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة وملوك اليمن وجزيرة العرب من أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقيا والبربر من بلاد المغرب وأن إفريقش بن قيس بن صيفي من أعظم ملوكهم الأول ، وكان بعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل ، غزا أفريقيا وأثخن في البربر ، وأنه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم ، وما قال : ما هذه البربرة الخ .

ثم ذكر رواية المسعودي أيضاً من أن ذا الأذعار من ملوكهم غزا المغرب ودوخه ، إلى أن قال : « وكذلك يقولون في تبع الآخر من أنه ملك الموصل وأفريجان ، ولقي الترك وهزمهم ، وأثخن ، ثم غزاهم ثانية وثالثة ، وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس والصغد والصين ، إلى أن قال : وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة ، عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة . وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وكرسيهم صنعاء ، وجزيرة العرب ، يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها ، فبحر الهند من الجنوب ، وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق ، وبحر السويس الهابط منه إلى السويس كما تراه في مصور الجغرافيا ، فلا يجد السالكون من

اليمن الى المغرب طريقاً من غير السويس ، والمسلك هنالك ما بين بحر
السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما ، ويبعد أن يمر بهذا المسلك
ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله ، هذا ممتنع في
العادة ، وقد كان بتلك الأعمال العمالة وكنعان بالشام ، والقبط بمصر ، ثم
ملك العمالة مصر ، وملك بنو إسرائيل الشام ، ولم ينقل قط أن التبابعة
حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ، ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال الخ .

وهو كلام ظاهر البطلان منقوض ، ولا حاجة إلى بيان غلطاته والتنبيه
عليها ، وسرد الروايات التاريخية المناهضة لها ، ولا سيما وقد نقضها هو ،
وأورد هذه الأخبار مستدلّاً بها في عدة مباحث ، منها عند الكلام على الأمم
المتوحشة ، وسعة ما تملك مستشهداً بحمير ، وكيف كانوا يخطون من اليمن
إلى المغرب مرة ، وإلى العراق والهند أخرى ، وأن ذلك لم يكن لغير العرب
من الأمم . وقال في صفحة ١٥٥ عند الكلام على طبائع الدولة في أدوارها
الخمس : وأعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش ، كيف أعطاهم من
أرطال ، الذهب والفضة والأعبد والوصائف عشراً عشراً ، ومن كرش العنبر
واحدة ، وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب ، وإنما ملكه يومئذ فرارة
اليمن خاصة تحت استبداد فارس ، وإنما حملة على ذلك نفسه بما كان لقومه
من التبابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقيين والهند
والمغرب ، وقال في موضع آخر : «وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغة من
الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف ،
وهو المسمى بالخط الحميري ، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها دولة آل
المنذر ، نسباً التبابعة في العصبية ، المجددين لملك العرب وأرض العراق ،
انتهى» .

وعلى كل تقدير فإن أجل ما كتب في هذا الباب وأقربه إلى
الحقيقة ، ما كتبه نشوان بن سعيد الحميري ، والحسن بن أحمد يعقوب
الهمداني ، وهما من فحول رجال اليمن وأعيانها ، غير أنه من المؤسف بل

الموجع أن معظم ما كتبوه سطت عليه أيدي الزمان ، ونوائب الأيام ، وكثير من ذلك خرج من اليمن ولاذ بخزائن الغرب ، لاذ ببرلين ولندن وروما والاسكريال ، وما بقي منه بالمين انكمش بخزائن العظماء ، وانحجر في ظلمات البيوت يتادم الفيران والأرضة ، مع أن مؤلفاتهما لا تخلو من المبالغة والمجازفة في كثير من الأخبار ، وذلك لبعد ما بينهم وبين من كتبوا عنهم من القرون الطوال ، فقد نقلوا ما سمعوه وفيما كتبوه طرفاً من الخبر لأنباء عن الحقيقة . وزيادة على تقادم العهد ، ميلهم العظيم إلى المجد السالف والتغني بمفاخر الآباء والأجداد إلى درجة التعصب ، وهو ما حال بينهم وبين نقد بعض (٤١) الأخبار المبالغ فيها ، مع أن تلك الأخبار ليست كذباً ، ولا يصح إهمال ما جاء فيه ، نوع من الغلو ، قال الأمير شكيب أرسلان : « جاء في الانسيكلوبيديّة الإسلامية « دائرة المعارف : « أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقي عن اليمن ، وبمعلومات مؤسسة على قواعد متينة ، مثل الهمداني ، فقد كان هذا الرجل يمانياً مولوداً في صنعاء ، فحمله حب وطنه ، والإعجاب بقومه ، على تأليف كتاب الأكليل الذي ذكر فيه تاريخ اليمن ، ووصف العاديات التي هي في الجزء الثامن من الأكليل ، كان نشره مع ترجمة ألمانية الدكتور « مولر » ، وقد أخذ من الجزء العاشر معلومات تكمل ما ورد في كتاب الهمداني الآخر المسمى بصفة جزيرة العرب ، وقد كان في كتاب الهمداني قصص أشبه بالأساطير نقلها الهمداني على علاقتها إلا أنا برغم ذلك هو الكتاب العربي الوحيد الذي يفهم منه القارئ ما اليمن ومن أهل اليمن وفيه تفاصيل عن أنساب اليمن وطبائع أهلها ، وعن مواقع مدنها ، وعن قصورها وحصونها ، لا توجد في كتب الإفرنج برغم تدقيقاتهم ، وكذلك في إكليل الهمداني عن سبأ وعن سيل العرم ما لا يتم تاريخ اليمن إلا به ، وقد ذهب مولر أن الكتابات الحجرية لا تكفي لجلاء وتاريخ سبأ ومعين وبلاد اليمن » .

وبالرغم على ما دونه الهمداني وغيره ، وما عثر عليه المستشرقون من

النقوش وكشفوه من الآثار ووجدوه من المسكوكات ، فان تاريخ أولئك الأقوام لا يزال في مرحلته الأولى ، وطريق الدراسة مهما أمعن فيها المتوغل ، وتقلب الصفحات وان استغرقت أيام الحياة ، لا تسد الحاجة ولا تروي الغلة لما هنالك من مجاهل لا تهتدي الأفكار إلى مهيبتها ، والحل الوحيد لهذه المشكلة إنما هو درس الآثار والتفهم لأسرارها ، وأظن الوقت قد حان للفوز بهذا الفخر العظيم ، فمن الخلق بتاج ذلك المجد الباهر يا ترى ؟ الأمل وطيد في همم رجال الجد ، ذوي الغايات البعيدة ، والمراتب الكبيرة ، والنفوس العالية ، والضمائر الحية ، وما ذلك عليهم بعزير .

إذن فما الحيلة ؟ وكيف السبيل الآن إلى معرفة ما لا بد منه للمؤرخ ليعرف الحاضر حق العرفان ، لأنه لا يعرف بغير الماضي لما يستتجه من المباحث التي تدرجت فيها الأمة وأدوار الانتقالات التي مرت عليها حتى يتسنى له وصف الروابط المعنوية والعادات الموروثة والأخلاق المتنقلة ، ليربط بين ماضيها وحاضرها برباط الوحدة التاريخية .

وهنا يقول القلم وهو يكاد يتعثر خجلاً ، ليس أمامك أيها الباحث غير ما كتبه المستشرقون عن هذه البلاد ، وذلك المجد الضارب أطنا به بالنجوم وبقية ما دونه أولئك الآباء الأمجاد ، ولا أقول أنه من العار نقل ما كتبه المستشرقون (فالحكمة ضالة المؤمن) ولكن من العار الجمود عليه والوقوف عند ما رسموه ، وأن نبقى عالة عليهم حتى في معرفة بلادنا ، ومهد آبائنا ، ومدافن أجدادنا .

وعلى كل تقدير فإن للمستشرقين فضلاً لا ينكر على التاريخ لإكتشافهم الآثار ، وحلهم النقوش ، ومواصلتهم البحث عن حقائق لها قيمة عالية في عالم التاريخ ، فقد أوضحوا كثيراً من خفاياه ، وعرفوا من الدول الغابرة والأمم القديمة ما لم يعرفه مؤرخو اليونان ولا الرومان ولا العرب أنفسهم كما سيأتي إن شاء الله قريباً .

ومن أهم هذه المعلومات ما عثر عليه المستشرق هاليفي وقلازر وأرنو وغيرهم من آثار دول اليمن القديمة ، فانهم جزموا بوجود حكومات متعددة في سبيل حضرموت وسبأ وما اتصل بها ، من أهمها : دولة معين وهي أقدم دول اليمن ، ثم دولة سبأ وحمير وحضرموت وقتبان ، بينما كان قدماء المؤرخين من العرب لا يزدون (٤٣) على ذكر الدولة الحميرية ، وإليها ينسبون كل عظمة ، وبعض مؤرخي اليونان أشار إلى دولة معين بعدة كلمات

أحمد بن أحمد المطاع





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

لا بدّ لنا ونحن نستطلع خلاصة التاريخ فيما أنتجه أهل اليمن من آثار فكرية رائدة، أن نقف عند شخصيات هضم التاريخ حقها وتجاهلها في نفسها وآثارها الفكرية، وإذا ذكر هؤلاء يكون رأسهم الأديب الحر الشهيد أحمد بن أحمد المطاع فهذا الرجل ثمرة صالحة لتربة الأرض اليمنية برجالها المفكرين وأحرارها الأذكياء.

وكأنني به وقد عاش في بيئة لا تشجع كثيراً المسلك الذي نحاه لنفسه، قد سبر الأغوار، وعرف ما يدور حوله من عوالم متقدمة، وومضات رائعة تمنى أن يكون لشعبه مثلها، فطالع وكتب واجتهد حتى ظفر بما رامه فانتج وأبرز على الرغم من قصر عاشها وقطف الثمرة ولمّا تأت بعد بكل ما فيها من أكل وفاكهة.

نعم نجد في النشر القصير الذي حملته صفحات مجلة الحكمة ما يعطينا صورة كاملة للعقلية المنفتحة التي عرف بها أدينا الشهيد أحمد بن أحمد المطاع، وكان ما كتبه منعطفاً تاريخياً في فكرنا الثقافي الحديث قاطبة، بل هو مرحلة مبكرة من الإبداع لا نغالي إذا قلنا إنها الأولى من نوعها في الجزيرة العربية.

لكن الإنتاج الفكري الذي رأيناه في مجلة الحكمة ليس هو كل ما في جعبة شهيدنا من إبداع خلاق، وإنما سوّد مئات الصفحات في دراسة التاريخ

اليمني وقد أراد بها أن تكون درساً عملياً وتشريحاً دقيقاً لجسم الأمة عبر أطوارها التاريخية المتعددة، وما اعتراه من أدواء متعمقة، وأمراض نخرت في كيانه على إثر تفشي الحكام المسيطرين الذين نهشوا جسمه وتركوه جثة هامدة لا تقوى على حراك.

وقد كان للشهيد أحمد المطاع رسالة وطنية عظيمة، وفكر إصلاحى ثائر، يأخذ عليه كل كيانه لم يستطع المجاهرة به في ظل الحاكم المسيطر، فما كان منه إلا أن جعل من دراسة التاريخ ستاراً يندرج تحته ويبنى في أجوائه علمه وما أرادته من قول.

فكان هذا الإنتاج الكبير الذي بين يديك، وهو ثمرة لجهد كبير، تكاتف على القيام به نخبة من مثقفي اليمن، ومفكراتها في ذلك الوقت، وهو ثمرة حية لمدرسة الحكمة التي تصدرها الأستاذ أحمد عبد الوهاب الوريث ورفقاؤه، وكانت تنتج وتؤلف تحت رعاية الأستاذ عبد الله بن يحيى بن محمد الذي شارك شهيدنا المطاع السيف والموت، وكان الرجل قد رحل إلى مصر وشجع نشر بعض الكتب اليمنية وتحقيقها فحقق أدينا المطاع تحت نظره عطر نسيم وهو أول كتاب تراثي يقوم بتحقيقه باحث يمني في العصر الحديث، وفي مصر كلف الأستاذ محب الدين الخطيب بتحقيق الجزء العاشر من الإكليل وطبعه على نفقته، ثم ترجمة كتاب رحلة ابونتي إلى اليمن ونشرها في مصر. وغيرها ثم تكونت لجنة التاريخ سنة ١٣٥٦ هـ لجمع شتات التاريخ اليمني ولمّ مصادره في تدوين شامل أضطلع به أعلام من اليمن في ذلك الوقت، كان على رأسهم المؤرخ اليمني المعروف محمد بن محمد زبارة والأستاذ أحمد بن عبد الوهاب الوريث والشهيد أحمد المطاع والأستاذ عبد الله بن محسن العزب والأستاذ عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، وقد تقسموا أدوار التاريخ وعصوره.

فأخذ الأستاذ أحمد بن عبد الوهاب الوريث تاريخ اليمن قبل الإسلام.

وأخذ المؤرخ محمد زبارة جانب التاريخ الإسلامي من صدره حتى القرن الثالث.

وتناول الأستاذ الشهيد أحمد المطاع تاريخ اليمن من عصر الدول المستقلة حتى سنة ١٠٠٦ بداية الدولة القاسمية.

والأستاذ عبدالله بن عبد الكريم الجرافي تناول تاريخ اليمن من سنة ١٠٠٦ حتى سنة ١٣٠٧ هـ سنة قيام المنصور محمد بن يحيى.

أما الأستاذ عبدالله بن محسن العزب فإنه تناول تاريخ اليمن من سنة ١٣٠٧ حتى سنة ١٣٣٤ وقد وقفنا على قطعة من عمله وقمنا بنشرها.

قلت : لعل الأستاذ عبدالله العزب شاركه فيه آخر في فترات التاريخ المكلف بها لم نعثر على اسمه لأن الذي بين أيدينا ليس كل الفترة التي أخذ على نفسه تاريخها.

ومضى هذا الجمع من كتابنا في المهمة التي كلفوا بها ، وكأنهم في مسابقة أدبية يظهر كل واحد منهم براعته وتفوقه على أن بعضهم - يخیل إلی - لم یستطع انجاز عمله لأسباب قاهرة ، والذين انهوا عملهم هم ثلاثة المطاع في العمل الذي بین یدیک ، والجرافي في کتاب یحمل اسم انباء اليمن ونبلائه بعد الألف ، وهو موجود بمكتبة الجامع الكبير برقم (١٨ تاريخ و ١٩ تاريخ) والعزب في قطعة تم لنا العثور عليها ونشرها.

وقد عبر كل قسم من الأقسام التي كتبت عن الشخصيات التي تناولتها ، فمؤرخنا المفكر أحمد المطاع حينما كتب تاريخه أتى بما لم نعرفه قبله عند مؤرخ يماني آخر من منهجية وسير للمجريات التاريخية وطبيعة الأحداث وملابساتها مع نقد للروايات والمصادر ليس لنا عهد به قبله فصَحَّ له بهذا ريادة وتفوق وحتى قال الدكتور الشاعر عبد العزيز المقالح : «لا أتردد عن القول بأنه عندما يصبح لنا مؤرخون وتكون لنا دراسات تاريخية ، فلا بد أن يكون اسم أحمد المطاع على رأس أسماء أصحاب هذه الدراسات التاريخية

لأنه الأب الشرعي للكتابة التاريخية بمعناها الحديث الذي نطلع عليه .
وقد أوفاه حقه من الدرس الدكتور السيد مصطفى سالم في كتابه عن
مجلة الحكمة فانظره هناك .

الشهيد المطاع

هو الأديب العلامة الشهيد أحمد بن أحمد بن محمد المطاع قال عنه
زميله المؤرخ محمد زبارة في ترجمته له في نزهة النظر ج ١ ص ٥٥ :

السيد الأديب النجيب أحمد بن أحمد بن محمد المطاع العباسي
مولده سنة ١٣٢٥ هـ بصنعاء ونشأ بها وأقبل على العلم والأدب بفهم صادق
وذكاء وألمعية ونجابة وهمة عالية ؛ له يد في حسن الإنشاء وإقبال على الكتابة
تولّى الكتابة بجريدة الإيمان مع القاضي العلامة عبد الكريم بن أحمد مطهر
وكتب رسائل «مقالات» في مجلة (الحكمة) التي أنشئت بصنعاء وراسل الأدباء
والعلماء وله شعر حسن .

كتب صاحب الترجمة وهو في بند رميدي من تهامة سنة ١٣٤٤ هـ إلى
صديق له بصنعاء هذه الأبيات : 

أزكى التحيات تغشى ثاقب النظر	سلام أنهى من الأزهار والزهر
ما غنت الأيك في دوح الغصون وما	ترنم الورق في داج من السحر
فنسمة الصبح لما بالصبا خطرت	أهدت لنا نفحة من طيها العطر
ويارق الجزع قد أبدى لنا خبراً	عن الهمام خدين المجد من صغر
عن الذي بسويدا مهجتي سكنوا	بيتاً من القلب لا بيتاً من الشعر

وقد كتب صاحب الترجمة نبذة من التاريخ اليمني بعبارات شيقة ،
وذلك من حدود المائتين إلى رأس الألف أيام أسست لجنة لتأليف التاريخ
اليمني ، وكان صاحب الترجمة والقاضي عبد الكريم الجرافي من أعضائها
برئاسة المؤلف والمؤرخ محمد بن محمد زبارة .

وقد توفي صاحب الترجمة شهيداً بحجة بعد ثورة سنة ١٣٦٧ بتهمة اشتراكه في إغتيال الإمام «يحيى» .

هذا ملخص ترجمة حياة الشهيد المطاع من كتاب نزهة النظر يضاف إليها أنه سجن مع أخيه محمد المطاع ، وعلي الشماحي ، وصديقه عبدالله العزب ، ومحمد المحلوي ، وصالح السنيدار ، يقول شاهد الحادثة العلامة احمد بن محمد زبارة : «لما حبسوا اختلق الغوغا أسباباً لحبسهم بأنهم اختصروا القرآن ، وسموهم درارعة يهود منحرفين ، ولعلة أول حبس للأحرار ، وكان كاتب الأحرف أحمد بن محمد زبارة يزورهم إلى القلعة بسهولة «وأعطيتهم الصحف ، وفيها مقالات لمحمد علي الطاهر ولمحي الدين العنسي ، ولوالدي المؤرخ زبارة ، من بغداد (سنة ١٣٥٤) ، وأرسل إليهم هدايا كعنب وغيره ، ثم كتبوا إلى الإمام يحيى إستعطافاً وتنويعاً يرجون إطلاقهم فأجاب بخطه : أصلح الله شأنكم ، صدرت «التصفية» للإمام يحيى بن حمزة في علم الباطن انسخوها وطالعوها ، لتصلح الباطن والظاهر ، ثم راجع لهم السيد قاسم العزي والقاضي راغب وغيرهما فأطلقوا» .

المطاع مؤرخاً

في فترة مبكرة من حياته كتب الشهيد المطاع العديد من البحوث التاريخية ، استطاع بهمته أن يوثقها في قالب عصري متماسك شهد له فيه معاصروه فقال المؤرخ زبارة :

«كتب نبذة تاريخية بعبارات شيقة» .

وقد طالع كل ما وقعت عليه يده من كتابات تاريخية قديمة وحديثة ، واستفاد من كتابات المتأخرين على وجه الخصوص في معرفة المنهج التاريخي ، فكان مؤرخنا صاحب هذا الشأن في كتابة التاريخ اليمني ، إذ لم يعرف قبله سوى كتابات متأثرة بطرق القدامى من حيث سرد الحوادث ونقلها دون تمحيص أو تحليل ، وقد شكنا مؤرخنا من هذه الظاهرة في كتابات

الإسلاميين القدماء عموماً ، فقال في سلسلة مقالاته في مجلة الحكمة :
« وإنك لتجد كثيراً من المؤرخين وغيرهم يعتبرون المؤرخ كحاطب ليل ،
ومنهم من جعل هذه الكلمة تكأة له في سيره المغلوط ، فاشبهت عليه
المخارج والموالج ، واختلط لديه الحابل بالنابل ، فجمع الغث والسمين ،
ومزج الممكن بالمستحيل » .

وليس لنا من قول بعد ما كتبه مؤرخنا من شرح واضح لمنهجه العصري
في كتابة التاريخ ، ولعله من تحصيل الحاصل أن نقول أن مؤرخنا أسس قواعد
المنهج الحديث في كتابة التاريخ عبر شتى عصوره ، لم يكتف في ذلك
بالنظرية المجردة وحدها ، وقد نشرها في فصوله الممتعة على صفحات مجلة
الحكمة . وأوردناها كمقدمة لتاريخه هذا ، بل طبق منهجه عملياً بالتجرد لكتابة
التاريخ والخوض في غماره ناقلاً وناقداً أو محللاً ومختبراً .

وعلى كثرة مطالعتي في التراث اليمني ، لم أجد من المؤرخين اليمنيين
من سبقه في عمله هذا ، سوى ما نجده عند المؤرخ الحسين بن عبد الرحمن
الأهدل المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ، الذي يقدر بعض روايات الجندي ومجازفاته
في تلخيصه لكتاب السلوك ، ولكن هذا النقد لا يعدو أن يكون ملاحظات
عابرة حول التراجم التي ضمّنها الجندي تاريخه .

وكان مؤرخنا الشهيد المطاع قد استعمل مشروط النقد والتمحيص ، في
كل مجالات التاريخ اليمني ، ولعله أول من تنبّه لهفوات المؤرخ عمارة
ومبالغاته التاريخية التي كان لها الأثر السيء على من جاء بعده ، ونسمعه
يقول - حينما يذكر عمارة في تاريخه « المفيد » أن حسين بن سلامة بنى من
صعدة إلى صنعاء في كل مرحلة جامعاً ، إلى غير ذلك يقول « فيما ذكره عمارة
مجازفة ظاهرة ، فإن البلاد في عصر الحسين بن سلامة كانت في أعاصير هوجاء
وزوابع غير مريحة ، وعلى الخصوص بلاد الزيدية ، ولم يكن له نفوذ ظاهر
عليها ، وهذه المباني تتطلب الهدو طبعاً ، أضف إلى ذلك أنا لم نجد في

كتب التاريخ التي بأيدينا ما يدل على حدوث ما ذكره عمارة فيما بين صنعاء وصعدة ، وبين زبيد وصنعاء ، ومن البعيد أن تزول آثار هذه المباني وتندرس من عرض البلاد وطولها ، ولا يذكرها أحد بحرف ، أو لا يعلمها إلا عمارة ، وعنه ، نقل أكثر المؤرخين ، ولكن على أسلوبهم المعهود من مجانبة النقد والتمحيص ، وتحكيم العقل .

بهذا المنهج الدقيق سبر أغوار التاريخ ودسائس المؤرخين ومبالغاتهم ، وما أكثرها في التاريخ اليمني ، ولنا فيما أورده من الإنتقادات الكثير من النصوص وقد توزعت عبر تاريخه الكبير هذا في أكثر من موضع وحادثة ، وهو يرى أسباب تضارب الأقوال في الرواية الواحدة إلى «اختلاف النقل ثم اختلاف كتب التاريخ ، وقد يكون المصنف واحداً والتصنيف واحداً ويختلف ما يوجد بإحدى النسخ عن الأخرى» .

ولعل من أسباب المبالغة والكذب في تتبع الأخبار أن بعض المؤرخين لم ينظروا إلى التاريخ النظرة التي يستحقها من اهتمام وعناية ، وقد «دُون القدماء كتب التاريخ للتسلية وقتل الوقت» ، وقد شبهوا المؤرخ بحاطب ليل ، فجاءت غالب مدوناتهم في هذا الفن كثيرة الأغلاط ، ركيكة الأسلوب ، طافحة بالمبالغة مملوءة بالمزاعم والخرافات لا تسقط منها على حقيقة إلا بعد إدماء الجفون ، وتقريح المحاجر ، وتقليب مئات الصفحات وعشرات المجلدات ، وقد تخرج بعد العناء الشديد مضطرب الفكر حيراناً .

هذا ما أدركه مؤلفنا بعد معاشته الثامنة لمصادر التاريخ وصعوباتها ، ومن ثم لم يكتب تاريخه لسرد الأحداث وحدها ، وإنما جعله نقداً عاماً لرواية التاريخ اليمني التي وصلتنا من خلال مصادره ، يقول بعد نقل عبارة للخزرجي في المسجد المسبوك وأخرى ليحيى بن الحسين في أنباء الزمن :

«وفيهما من الإضطراب ما لا يخفى وسيمر بك التفصيل لبقية الحوادث ومنها تعلم انهما أرادا أن يختصرا فخلط عليهما» .

فمن أسباب رداءة الرواية عند مؤرخنا التسرع في النقل واختصار العبائر دون فهم فحواها حقيقة .

وربما استعمل مؤلفنا لمحاولة فهم الحقيقة كما وردت شتى معارفه المتنوعة من تحليل منطقي ، إلى معرفة جغرافية ، إلى غير ذلك أنظر إليه ينتقد قول صاحب أنباء الزمن حول توارد الجيوش على الحبوض في ظفار ، وتجنيذ الدولة الرسولية طاقاتها لمحاربته «فاين نجد من تهامة ، والعجب من صاحب أنباء الزمن كيف يقبل مثل هذه الرواية ، وهو لم يحدثنا قط فيما كتبه ، من أن نفوذ أمراء ظفار وقلاعهم كانت شحنت بها بلاد الجوف »

ويستعمل الأقيسة والبراهين التاريخية لنقد الحدث الواحد الذي لا يقبله الواقع ، يقول في إنتقاد قول صاحب انباء الزمن ان الطريق بين اليمن والبصرة انقطعت عن مرور التجار «وقد نقلنا عنه هذه الجملة التاريخية الجغرافية بالحرف الواحد والعهد عليه ، وسيأتي ما يدل على ان المواصلات بين اليمن وبغداد عن طريق البصرة والجوف وأرض الحشرات والعقارب الناهشات ، كانت مستمرة يقطعها الواحد والجماعة فمن ذلك إرسال الملك المظفر سفيره إلى بغداد عن طريق براقش سنة ٦٥٠ والمرة الثانية عندما قُتل الإمام أحمد بن الحسين سنة ٦٥٦ أزعج المظفر رسوله إلى بغداد بذلك النبا » الخ .

فهو هنا يستعمل في نقده الوقائع التاريخية التي حدثت بالفعل معتمداً على تواريخ ، وأقوال مضبوطة لمؤرخين معروفين .

وربما لا تسعفه المادة في بعض الأحيان لنقد خبر وإو ، أو جملة جزافية ، فنجده يوردها بصيغة تضعيف تجعله في حل من تبعها ، كأن يقول : كذا قول فلان ، أو : «وقد نقلنا هذه الجمل التاريخية بالحرف الواحد والعهد عليه » .

وقد ينبّه صراحة على الخطأ بعد إعمال الجهد في تصحيحه ، والتنقيب

عن مصادره فيقول : «اعتمدنا في هذه الأنباء على رواية الخزرجي وفيها من الإضطراب ما لا يخفى ، وقد راجعنا أنباء الزمن ، وقرة العيون ، وبغية المستفيد ، وغيرها فوجدنا من الاختلاف ما تعذر معه الوفاق والملاءمة »

ومن ثم يجد مؤرخنا نفسه أمام مسؤولية كبيرة في تدوين التاريخ فلا ينساق إلى أقوال المؤرخين في كتبهم كما ترد ، وإنما يحلّل وقيس ، وقد وقف كثيراً عند قول صاحب البسامة في غزو الإمام الناصر عدن في القرن الثالث الهجري يقول مؤلفنا : «وقد أطلنا البحث في جميع المصادر الموجودة بأيدينا عما أشار إليه السيد صارم الدين بقوله عند ذكر الإمام الناصر في البسامة :

ودوخ اليمن الأقصى الى عدن مع الجبال كبغداد وكالشعر

فلم نجد تفاصيل هاتيك الملاحم ما يستحق التصدير ويرى قصور المؤرخين القدماء عن سبر الأمور وكنه أغوارها من جميع الوجوه سبباً في البعد عن الحقيقة ففي الحديث عن ثورة أهل بحران يرى تأثير النصاري الموجودين فيها خلال ذلك الوقت على تلك الحوادث أمراً لم يفتن إليه أحد يقول : «ولو أن قدماء المؤرخين نظروا إلى الحوادث ، نظر إستنتاج ، ولاحظوا أحوال البيئة ، والوسط الذي عاشت فيه هذه الطائفة والظروف الداخلية والخارجية ، التي كان لها أثرها في تكوين طباعهم وتلوين مشاربهم لظهرت النتيجة معلنة بما كان لدعاة النصرانية من يد في «تأريث تلك النار ، ولكنهم اكتفوا بالنظر السطحي في تدوين الملاحم البشرية ، والمعارك الدموية ، فجاءت الثمرة ناقصة يعوزها النضوج » .

ويتشعب البحث أمامه في تتبع هفوات المؤرخين ، ويعلل أسبابها إلى أمرين أدركهما من تتبعه الشديد لطبيعة تلك الأخبار والروايات وهما : «قوة الإيحاء وفعل المحاكاة» يقول عن بعضهم : «فقد تأثر بغلط غيره ، واندفع إلى متابعتة بقوة الإيحاء ، وفعل المحاكاة » .

على أن من أهم أسلحة مؤرخنا في تتبع تلك الأوهام وتصحيحها التنبية على حيدها عن الواقع وتتبع المصادر ونقل أقوالها المختلفة في الحادثة الواحدة ، ففي تعليل أسباب خروج الأيوبيين إلى اليمن وإرجاعه عند بعض المؤرخين إلى رسالة ابن النساخ إلى خليفة بغداد يقول شهيدنا المطاع

« وعندي انه من البعيد وعند كل من له أدنى معرفة بنزعات النفوس واتجاهات من يحكم ، ولا سيما تلك القرون وصدور مثل هذه التهديدات القاسية من رجل يطلب النصرة ويرجو النصفة ، مع ما فيها من المدح والإشادة والتنويه والتعظيم للإمام المنصور وعماله .

« وإنما نستبعد صدورها على ذلك الأسلوب من رجل لا يملك إلا ثورة نفسه ، وقوة روحه وما يضطرم بين جوانحه من براكين الحقد والضعف ، على من جرّعه كأس التَّنكيل المريرة ، وهمل من المعقول أن يحول جمر غضبه الماحق نحو خليفة بغداد الضعيف العاجز ، هذا ما يلوح للناقد من جهة الأسلوب ، وأما من الوجهة التاريخية فإنه لم ينقل أن الحكومة العباسية نهضت إلى اليمن في ذلك التاريخ ، وأنى لها ذلك والخليفة لا يملك أمر نفسه فضلاً عن قُصره ومدينته

وقد لا يكتفي بمجرد التنبية اللفظي على شطط الخبر الموهوم ، وإنما يقتله بحثاً من خلال تتبع المصادر التي أوردت ذلك الخبر ، ويبحث عنه في مظانه الأصلية ، غير معتمد على قول واحد ، أنظر إليه مثلاً في تتبع خبر وفاة منصور ابن حسن حيث تجده ينقل عن أنباء الزمن وسيرة الناصر ، وقرة العيون ، واللائلء المضيئة ، ويقول في نصّ قرة العيون حول هذه المسألة : « وهو يخالف ماسبق في ترجمة الناصر في وقعة نغاش التي أباد بها القرامطة من ناحية مسور » فهو لم يكتف بتلك النصوص المستفيضة حول تلك المسألة ، وإنما استعان فيها بقرائن تاريخية أخرى يعزّز بها قوله .

وبيلغ التحليل ذروته عند شهيدنا المطاع عندما يستعين بالجانب النفسي

لسبر غور الحادثة التاريخية أو النص الأدبي كإيراده لشعر جيش في نبذ
الحلم بقوله :

إذا كان حلم المرء عون عدوه عليه فإن الجهل أنقى وأروح
وفي العفو ضعف والعقوبة قوة إذا كنت تعفو عن كفور وتصفح
نجده يربط هذا بعمل جيش المشين بقتل وزيره ابن خلف الذي شاركه
محنته وهربه إلى الهند يقول :

« وكأنه وخزه الضمير وأنبه الوجدان وأهاب به العدل وسمع صوت الحق
يلومه ، ويقبح فعله ، لاذ بنزعات الطغاة ، وشذوذ العتاة ، فاستروح لكلمة
الطاغية ابن الزيات الماثورة ، إذا قال له المعذّب : ارحمني قال : الرحمة
خور في الطبيعة ، فرقص على ذلك الإيقاع ونظم الأبيات المتقدمة » .

على أن أهم ما يشدك في الكتاب ويجذبك إليه هو حسن التناسق ،
وروعة التبويب ، مع أنه ربط كتابه بطريقة الحوليات وذلك لمنهج ارتضاه ،
حيث تعدد الحوادث وتشتت اتجاهاتها ، بحيث يتعذر حصرها ، وقد ألمّ
بذلك في أسلوب عصري حديث يقرب إليك النافر ويسهل عليك الفهم ،
إسمعه وهو يحدثنا عن انقراض الدولة الصليحية وموت ملكتها : « وبموتها
انقرضت الحكومة الصليحية بعد أن حكمت قرابة قرن سخرت البلاد
لمصالحها ، وتركت الأمة اليمنية تعيش في جو مختنق وميدان ضيق ، رهن
القواعد المرسومة والنظريات المعلومة ، من دعاة الإسماعيلية ، وكانت الطبقة
المسيطرة تتلعب بعقول العامة ، وتستأثر بكل موارد العيش ، ومرافق
الحياة . . ولذلك تفككت عرى القومية ، وتلاشت العقلية والمنتجات الفنية .
وفقدت ملكة الإبداع والابتكار » .

ويتجلى في أسلوب أدبنا في أحيان كثيرة إشراقات أدبية رائعة ، تحول النص
التاريخي من سرد إجمالي مجرد إلى قطعة أدبية فخمة ، تجذبك إليها
وتضطرّك إلى متابعة الحدث بتشوق ولهفة ، اسمعه وهو يصف حالة ذي

الشرفين وهو محاصر ، وقد عزم على المغامرة والمخاطرة لسحق الجند المحاصر له يقول : « واستمر الحال على ذلك خمسة أشهر بعد عزم المكرم ، وبعدها رأى الأمير ذو الشرفين أن المال سيء وأن العاقبة وبيلة ، لما رأى من نفاذ ما عنده من المأكول والمشروب ، فعمد إلى محبرته ، وكتب وصيته الأخيرة ، وآل على نفسه أن يذللها في سبيل قتال الظالمين ، ثم شحذ عزم أصحابه وحمسهم وانحدر وقد وزع أصحابه طوائف ، وصبح الجند المحاصر ، والنوم ملابس جفونهم ، فأوقع بهم وأثنى فيهم قتلاً وغنيمة ، وانقلب إلى المعقل بالغنائم الوفيرة ، ونفائس الأسلاب الطريفة ، وتناول قلمه وكتب هذه القصيدة :

ألا قل لربات الخدور الكواعب يقبلن أيدينا وحد القواضب
الخ .

وهكذا يستمر في السرد ، فلا تحسن بنفسك إلا وأنت تتابع أحداث قصة مشوقة زينها أسلوب كاتبنا الرصين وطريقته البلاغية المتماسكة تجذبك إليها وتضطررك إلى متابعة الحدث كتحقيق كافيور علوم سردى

وخذ أيضاً هذه القطعة الأدبية من تعبير أدينا :

« والتقى الجمعان فاقتتلا أياماً وثبت الفريقان يخطان بدم القتلى صحيفة سوداء من أعجب ما سجله طغيان القوة في صحائف التاريخ .

ويقول في موضع آخر بعد إقام جيش على قتل الغز الواصلين إلى اليمن باستدعاء منه « فهلك أكثرهم ولم يخلص إلى زبيد منهم إلا دون الألف فلم يطمئن فؤاد ذلك الأمير وظل شبح الخوف منهم سمير أحلامه وهو اجس أمانيه رغماً عن قلتهم وأبت نوازع نفسه إلا جعل تلك الأرواح ضحايا طغيانه فجhez ، الخ .

واليك نصاً آخر تستبين منه مقدرة الرجل على التعبير وملكته في الإنشاء

«لما قتل القائد سرور على الصفة المذكورة عظم الخطب واستيقظ الهول ونشبت الفتنة واشتعل ولاية زبيد وأمراؤها بتنازع زهرة الحياة عن تدبير الملك وحياطته ، فكانت الأحداث تتوالى والمصائب تتعاقب على ما حول زبيد ، ومن بها لاهون بشهوة الحكم وفتنة المال ، وذلك البلاء المبرم والويل الرامل ، والعدو اللدود يحصي عليهم أنفاسهم ، ويراقب حركاتهم ويستطلع أنباءهم حتى إذا غمرتهم الحيرة وأعماهم الهوى وحق عليهم القول ، وآن أن يتلعمهم الفناء في ظلمات مهاويه وينظمهم التاريخ في فجائعه ومآسيه ، وثب عليهم بجنود متعطشة » الخ .

إلى آخر تعابير المؤلف الفنية وقد طرّز بها كتابه ووشى بها عمله هذا ، مما أضفى على التاريخ حلّة جديدة من التعبير الأدبي الذي أحياه ما أندرس من رفات القوم وشخصهم .

ولما كان مؤلفنا أدبيّ النزعة شاعريّ الهوى ، كان له عناية أخرى من البحث ، يفرد له زيادة ثانية في الثقافة وهي عنايته بتاريخ الأدب والحركة العلمية ، أثناء سرده لحوادث التاريخ ومجرياته فهو ما يكاد يفرغ من الحديث عن الوقائع حتى يلم إمامة سريعة بحياة الأدب والشعر ، وكأنه متأثر بمعاصريه من أعلام الأدب العربي في مصر كسطه حسين وأحمد أمين وغيرهما ، مثال ذلك قوله بعد الفراغ من الحديث عن الدولة الرسولية ووقائعها : «يجب أن نشير إلى نبذة قصيرة من الشعر ، لتكون مثلاً للباحث في الأدب اليمني في جميع أدواره ، وقد أوردنا في كل دور من الأدوار التي كتبنا عنها ، أمثلة صالحة ، لمناسبات مختلفة» الخ .

وكان معاصره الأستاذ عبدالله بن محسن العزب قد ألمّ بالتاريخ الأدبي في الفصول المسلسلة على صفحات «الحكمة» فجاء مؤلفنا ليؤيد الخطوة ويعمّق البحث ، وإن كان حديثه هنا إستطراداً عاجلاً .

ولم يكتف بالجانب الأدبي وحده والنظرة الثقافية العامة للتاريخ

اليمني ، وإنما الحقه يبحث آخر أبداع فيه مؤلفنا أيما إبداع حيث تتجلى فيه شخصيته البارزة وميوله المتحررة ذلك هو حديثه ، عن جانب العمران والتطور الحضاري وقد أدرج خلال صفحات كتابه ملاحظات عابرة عن حياة الناس والعمران يقول في أول الكتاب أثناء الحديث عن الدولة الزيدية «دفنت القرون أخبار هذه الإمارة ولم يصل إلينا من أخبارهم إلا نتفاً يسيرة وذلك ما سطرناه ولعل القارئ يستتج من أخبار الخراج وجمل الضرائب بعض ما يريد عن الحركة العمرانية وسير التجارة ، وسعة النفوذ ولكن بصورة إجمالية ، ويقدر ما فات المؤرخ من استيعاب المادة اللازمة يضعف الإنتاج ويتعذر الحكم ، والذي يلوح لنا أنه كان بكل جهة من جهات القطر دار ضرب للنقود وشبه استقلال للولاية » .

ويجعل للإستغلال وإيثار المصالح الخاصة دورهما البين في سقوط العمران وتدهور البلاد . فهذه دولة آل الحجوري وقد انشغل الإخوة بينهم البين بالقتال على الملك كان «لروح الإستغلال والإستثمار وما كان لتعارض المصالح والمنافع من أثر في العمران والسكان» .

وهكذا يكون تدهور العمران عاملاً لمؤثرات سياسية تنخر في جسم التقدم والانفتاح وتحوزه عن الرخاء والازدهار الحضاري ، فهذه دولة بني أيوب في اليمن وقد أشادت الحضارات والرقى في مصر والشام ، تفشل في إيجاد هذا الأمر في اليمن ، لأسباب يرجعها المؤلف إلى القسوة والطيش في سياسة الناس ، وعدم استعمال الرفق في الرعية : «وما رحبته اليمن ممن وصل إليها سوى العيث والدمار ، فأين الملك المعظم ومبراته العلمية ومجمعه الذي أسسه لتأليف معجم اللغة العربية ، من طيش الملك المسعود وبطشه ، وغروره وفتكه بهذه البلاد ، وأين الإحسان الصلاحي ومكارمه ورفقه ، وحسن سيرته ، من شدة طغتكين وظلم عماله وتكالب الجميع على جمع الأموال وإرهاق الأمة » .

وهكذا ينقد المؤلف ويقارن ببصيرة وذكاء بين الحضارات المتفاوتة ،
وقد نعمت بعضها بأمن وسلام وازدهار وأخرى بحروب وقلاقل وشقاء وما ذاك
إلا أن اليمن مني بولاة جور طغاة .

ويدفعه استطراده هذا إلى أن يربط أسباب قيام الدول وسقوطها
بخصيصة الرفق واللين ، أو عكسهما من قبل بعض الحكام ، فعندما يأذن الله
بزوال دولة يجعلها تجور على رعاياها ، فيكون هذا الأمر عاملاً في سقوط
تلك الدولة ، فهذه دولة بني رسول التي عرفت في اليمن في أول دورها باللين
والرفق والتقدم العلمي والعمراني تنقض غزلها في آخر حياتها ، ويميل ولايتها
إلى البطش والعدوان يقول : «كيف لا والحوادث تنطق بلسان فصيح ، وتعلن
لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فيها
سمق دوح هذه الحكومة ، ورق ظلها وامتدت أشعة شمسها على روابي اليمن
وبطاحه وسهوله ، إبان مجدها وميعة عظمتها واستقامة أخلاقها ، ولكنها لم
تثبت طويلاً تلك الأوصاف الجميلة بل أصيبت بالداء العضال والسّم الناقع
فنخر سوس الفساد في جراثيمها فشاخعت وهرمت ، وتداعى بنيان فخارها
وانهار ركن مجدها ، فكورت شمسها بمقدار ما لابسها من المرض
والضعف ، وما زالت تكور حتى انزوت أشعتها الذابلة في تعز وزبيد وما
جاورهما . . وما ذاك إلا عقوبة البغي وتفرق الكلمة ، وانقسام الوحدة واتباع
الهوى والاسترسال في القسوة والإيغال في الجور » .

المؤرخ الثائر

وهذا يجرنا إلى الحديث عن المطاع المصلح الثائر ، الذي ضحى
بحياته وباع روحه رخيصة في سبيل مبادئه الوطنية وتقدم شعبه وبلاده ، وهو
وإن عاش في أبان قوة الإمام وصولته ، إلا أن هذا لا يمنعه من أن يوجه
الانتقادات ويجعل من درس التاريخ دروساً في أخلاق السياسة وسلوك
الحكام . للعتة والإعتبار ، فالتاريخ عنده ليس إلا أخلاقاً سياسية يجب أن

يحتذى بالصالح منها ويتعد عن الطالح منها «فجلال التاريخ وعلوه إنما هما لما يستفيد الناظر فيه من آداب وأخلاق ، وتعاليم سياسية ، وعرفان بمبادئ الأمور ومصائرهما وتطورها » .

وفي غمار بحثه في التاريخ يبحث عن موقع الأمة والشعب في خضم الأحداث العاتية ، وسيطرة القوي على الضعيف ، فالتاريخ اليميني في عمومه عبر متكررة من تلك المآسي الدامية ، وها هو الشعب الذي لا يملك من أمره شيئاً وقد «تسلطن الأتابك وتحكمت المرأة ، ولكل واحد من هؤلاء المتسلطين وجهة هو موليها ، فبعضهم كان يرهق الأمة باسمه وبعضهم باسم الخليفة وآخر باسم صاحب مصر الأيوبي ، وهكذا دوائر الفوضى وأزمة الانحلال » .

وبقدر ما نعم الملوك برغد العيش وسلطان الجاه ازداد الشعب بؤساً : «ولا شك أن إفتنائهم في بناء القصور ومظاهر النعيم ووسائل الترف حمل البلاد والرعية أوزاراً باهظة ، وأحمالاً لا تطاق ، وكلما انغمس الولاة في البذخ والترف انحسر ظل الحياة عن التاجر والفلاح واقترب منهم شبح البؤس والفاقة » .

وهو لا يستغرب من شيء كاستغرابه من استكانة الأمة وسكوتها عن الظلم فيقول ثائراً ومحرّضاً :

«ومن المؤسف والمخجل أن تعيش هذه الجريمة ويستمر ذلك العسف من ذلك التاريخ إلى أيام الأشرف واغرب من كل هذا رضوخ الأمة واستسلامها واحتمالها لهذه الأوزار الباهضة »

وبعد

تلك لمحة عابرة عن ثورة مؤلفنا في كتابه هذا ، وسنجد موضوعاً في كل ما خطته يده ، وقد تحرّى الصدق والصحة في كل عصور التاريخ وأدواره ، لا يمنعه هوى ولا يستشيط به مير عن قول الحق مهما كان

فهو دوماً يتحرى الحقيقة من مصادرها المتعددة ولعلنا سنكبر المؤلف ونقدر عمله إذا علمنا أن كل مصادره التي رجع إليها في التاريخ كانت في ذلك الوقت لا تزال مخطوطة ، وقد لقي مشقة في حل طلاسمها ، وفك خطوطها حتى اننا نجده يقول : «ما أكثر التصحيف والتحريف بل المسخ في المصادر التي استقينا منها أخبار هذا القسم ولعمري ان تفهم القلم المسماري وحل رموز المسند أقرب إلى الفهم من تحريف النسخ وسوء فهم الماسخ لتلك الأسفار»

وبقدر ما عانى المؤلف الشهيد رحمه الله من مشقة وجهد في إخراج الكتاب فإن المحقق الخفير قد بذل طاقته ومستطاعه من نسخ دؤوب وتعليق وتحقيق آملاً أن يكون خدمة متواضعة لتراث هذا الرجل الوطني العظيم وإفادة لأبناء الجيل الجديد ، الذين وجدوا الأمور ممهدة متيسرة .

وبالله التوفيق وعليه التكلان

عبدالله محمد الحبشي .

مركز تحقيقات كاتوير علوم إسلامي

(تنبيه)

ما كان من هوامش بخط مؤلف الكتاب العلامة الشهيد أحمد بن أحمد المطاع
رمز إليه بـ «ص» أي في أصل المؤلف أو رمز للمصنف نفسه وما كان للمحقق
ترك بدون اشارة .



مركز تحقيقات كاپتور علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم وامن يا كريم
بنو زياد واول من ملك منهم اسباب خروجهم من وادعوا
مدينة زبيدة

قال العلامة الخريزجي رحمه الله عن كتاب المفيد الكبير تاليف ملك طبرستان
جياش من بني الحشماكان سنة تسع وتسعين ومائة هـ الى
المأمون العباسي تقدم انتساب احداهم الى تغلب ابن وادعوا بعضهم
الى سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان وبعضهم الى يزيد بن
معاوية (ا) فقال المأمون اما الامويان فيقتلن واما التغلبي
فبعضي عنده رعاية لاسمه واسم ابيهم وكان اسمه محمد بن هارون
فقال له محمد بن عبد الله بن زياد والله يا امير المؤمنين ما نزلنا يدك
عن طاعة وان كنت تقتلنا لحناية الاموية فيكم فان الله يقول
ولا تزروا وادعوا وادعوا وادعوا فاستحسن المأمون كلامه فلما كان
في المحرم سنة ثنتين واثنين ورد على المأمون كتاب عامله على اليمن
بمخرج الاستاذ عن الطاعة وهم جل عرب نعامه فوجه المأمون
محمد بن عبد الله بن زياد اميراً وارسل معه المرواني وزيراً و
التغلبى حاكماً ومفتياً وهو حجة القضاء آل ابي عفا
قضاة زبيدة فخرجوا من بغداد في الجيش الذي انقذه المأمون
لوسب ابراهيم المهدي فخرج اسر زياد ومن معه سنة ثنتين وسار
الى اليمن ففتح نعامه واخبط مدينة زبيدة في ثمان سنين

اول المخطوطة بقلم مؤلفها العلامة

الشهيد أحمد بن أحمد المطاع

من جميع جهتنا ومن يا معتمدون بباعة العقل الطبيعية ولم تكلفهم
 اعمال الصالحين الا حراسة دينهم فافتران يتوقل حثوقل او يغامر مغامر
 وطالت ايام الحصار فلم يثمن من عزم المحصورين طول الاعد ولا لانت لهم
 عريكة فاعترزم المكرم العود الى صنعنا حاضرق ملكهم وعهد الى
 طائفة من عسكرهم بمواصلة الحصار حتى يتحقق المال وفعلوا نفقة
 هذه الخطم واب الى صنعنا وترك ثلهم من الجند في ارباض
 ثم رجع واستمر الحال على ذلك فمسه اشهر بعد عزم المكرم
 وبعد ما رأى الامير ذو الشرفين ان المال شئ وان العاقبة
 وبيله لما رأى من نقاد ما عند من الاكول والمشروب فعمده
 الى مجبرة وكتب وصيته الاخيرة وآلا على نفسه ان يبذل
 في سبيل حال النظامين ثم شحذ عزم اصحابه وحسنهم وانحدر
 وقد وزع اصحابه طوائف ومبج الجند المماحر والفرم
 ملابس لجفونهم فأوقع بهم واشحن فيهم قتلا وحقيرة وانقلب
 الى العقل بالغنائم الوفير ونفائس الارباب الطريفة
 وتناول قلته وكتب هذه القصيدة

نموذج من المخطوطة

بقلم مؤلفها رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم وأعن يا كريم

(بنو زياد وأول من ملك منهم)

أسباب خروجهم اليمن واختطاط مدينة زبيد)

قال العلامة الخزرجي^(١) رحمه الله عن كتاب المفيد الكبير تأليف الملك ظهير الدين^(٢) جَيَّاش بن نجاح الحبشي مما كان سنة تسع وتسعين ومائة أتى إلى المأمون العباسي بقوم انتسب أحدهم إلى تغلب بن وائل او بعضهم إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وبعضهم إلى يزيد بن معاوية^(٣) فقال المأمون : أما الأمويان فيقتلان ، وأما التغلبي فيعفى عنه رعاية لإسمه وإسم أبيه ، وكان اسمه محمد بن هارون ، فقال له محمد بن عبد الله بن زياد : والله يا أمير المؤمنين ما نزعنا يدأ عن طاعة ، وإن كنت تقتلنا لجناية الأموية فيكم ، فإن الله يقول «ولا تزر وازرة زر أخرى»^(٤) . فاستحسن المأمون كلامه ، فلما كان في المحرم سنة ٢٠٢ مائتين واثنين ،

(١) هو العلامة ابو الحسن علي بن الحسن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢ والنقل من كتابه المسجد المسبوك ص ٩٦ ط وزارة الاعلام .

(٢) كذا في أصل المؤلف رحمه الله وفي المفيد لعمارة ص ٣٥ نصير الدين والمفيد هذا هو أصل الخزرجي .

(٣) كتب المؤلف رحمه الله تعليقاً على هذا قوله : «الذي في سائر النسخ الى زياد بن أبيه وهو الظاهر» قلت ملاحظة المؤلف هي الصحيحة ففي مفيد عمارة ص ٣٦ ط حسن سليمان «فانتسب احدهم واسمه محمد بن فلان بن عبيد الله بن زياد الى زياد» وفي السلوك للجندي عبيد الله بن زياد بن أبيه وفي قرّة العيون لابن الديبع ج ١ ص ٣٢١ يزيد بن معاوية وهو صورة عن المسجد المسبوك .

(٤) الآية ١٢ سورة فاطر .

ورد على المأمون كتاب عامله على اليمن ، بخروج الأشاعر^(١) وعك^(٢) عن الطاعة ، وهم جلّ عرب تهامة فوجه المأمون محمد بن عبدالله بن زياد -أميراً ، وارسل معه المرواني وزيراً ، والتغلي حاكماً ومفتياً ، وهو جدّ القضاة آل أبي عقامة قضاة زبيد ، فخرجوا من بغداد في الجيش الذي أنفذه المأمون لحرب ابراهيم بن المهدي فحج ابن زياد ومن معه سنة ٢٠٣ وسار إلى اليمن ، ففتح تهامة ، واختط مدينة زبيد في شعبان سنة ٢٠٤ سنة أربع ومائتين وجرت بينه وبين عرب تهامة معارك هامية ، كتب له فيها النصر فأذلّهم ، وكان وزيره المرواني فضرب المثل في الدهاء والحزم ، فكان يقال ابن زياد بجعة قال عمارة : وإليه ينسب مخلاف جعفر وهو الذي اختط مدينة المذيخرة^(٣) بجبل التومان^(٤) وقد غلّطه الجندي^(٥) وقال : (ان الذي اختط مدينة المذيخرة الأمير جعفر بن ابراهيم بن ذي المنار المناخي ، وإليه ينسب المخلاف والمناخيون ملوك ريمة^(٦) وقياض ويعرفون في عصرنا بسلاطين قياض)^(٧) وكان المأمون قد عهد إلى ابن زياد بولاية البلاد التهامية ، وما استولى عليه من بلاد الجبال ، وبادر ابن زياد بإرسال وزيره الأموي إلى بغداد بهدايا^(٨) وتحف وأموال وفيرة إلى المأمون في السنة الثانية من وصوله اليمن فحج الأموي وقصد بغداد بما حمله من اليمن ، فسّر المأمون بذلك وأعاده في السنة السادسة ، وأصبحه بألفي فارس فيهم من مسودة خراسان تسعمائة فارس

(١) الأشاعر قبيلة مشهورة من قبائل اليمن وهو ولد الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن

زيد بن كهلان بن سبأ . ومساكنهم وادي زبيد والحجري ص ٧٩ .

(٢) من قبائل اليمن من ولد عك بن عدنان بن عبدالله بن الأزو .

(٣) المذيخرة : من بلدان العدين .

(٤) التومان : غرب مدينة ذي السفال بمسافة خمس ساعات .

(٥) قلت ومنهم من يغلط عماره ويجعل الصواب قول الجندي .

(٦) ريمة : هي ريمة المناخي حصن منيع يقع غربي المذيخرة .

(٧) انظر السلوك ج ١ ص ٢١٧ .

(٨) في الأصل بهذيا « سهواً » .

لإخضاع اليمن وبهذا الجيش غلظ أمر ابن زياد واتسع ملكه وشمل نفوذه حضرموت والشحر ومرباط وعدن والتهائم الى حلي بن يعقوب ، وملك من الجبال الجند وأعماله ومخلاف جعفر ، ومخلاف المعافر وصنعاء وأعمالها ونجران وبيحان والحجاز بأسره^(١) وقلد مولاه جعفر الجبال واشترط على أهل تهامة ألا يركبوا الخيل ولم يزل موالياً لبني العباس يخطب لهم على المنابر ويحمل إليهم الأموال العظيمة والهدايا النفيسة مالكاً لليمن بأسرها إلى أن توفي سنة ٢٤٥ خمس وأربعين ومائتين .

وسنأتي على ذكر عمال حكومة بغداد على اليمن وتعدادهم تفصيلاً في السنين التي خرجوا فيها ، وكان ينبغي ذكرهم تباعاً من سنة ٢٠٦ وما بعدها ، ولكن حكومة بني زياد ستفرق أنباؤها ، ويصعب على القارئ ضبطها ، وما عمدنا إلى هذا إلا لما قرأنا في كتب التاريخ اليمنية وغيرها ، من أن بني زياد ملكوا اليمن بأسره ، وبعضهم يستثنى آخر أيام إسحق بن ابراهيم المعروف بأبي الجيش ، ويقول انه لما أسنّ وكبر ضعف عن إدارة الملك ، واستخف به بعض ولاته ، فتغلبوا عليه كما سيمر بك قريباً ، وعلى كل تقدير فإنه لا يُعقل ان ترسل حكومة بغداد عاملها على اليمن يجبي الأموال وينفذ ما يريد ، ويبطش بمن ناواه وجاذبه حبل سيادته ، وملك اليمن بأسره ، والحجاز بأسره كما زعم عمارة والخزرجي والجندي قابع قبوع القنفذ في قريته التي عمرها على وادي زبيد ، والذي يلوح لنا من خلال الحوادث انه كان يمتد نفوذ بني زياد على غير التهائم في بعض الفترات ، وقد جرى الأستاذ المعاصر الشيخ محمد الحضري في كتابه المحاضرات الإسلامية على منهاج المتقدمين ، كابي الفدا وصبح الأعشى ، وغيرهم ، فزعم أن محمد بن عبدالله بن زياد صار باليمن كملك مستقل إلا انه كان يوالي بني العباس .

ولما مات محمد بن زياد في التاريخ المذكور قام بالأمر بعده ولده

(١) راجع تاريخ الخزرجي ومفيد عمارة وتاريخ البهاء الجندي (المؤلف) .

ابراهيم بن محمد فقام بالأمر أتم قيام ، ولم يزل مالكا لليمن سائرا سيرة حسنة إلى أن توفي سنة ٢٨٩ . هكذا في الخزرجي^(١) وقرة العيون^(٢) وشرح البسامه «اللالى المضية» للسيد أحمد بن محمد الشرفي^(٣) وغيرها ، وهو يخالف ما سيأتي فإن الروايات متضاربة ، على أن ظهور الإمام الهادي إلى الحق سنة ٢٨٤ في أيام أبي الجيش وقام بالأمر بعده ولده زياد بن ابراهيم بن محمد ولم تطل مدته قال الخزرجي : ولم أقف على تاريخ وفاته .

ابو الجيش اسحق بن ابراهيم^(٤)

وبعد وفاة زياد المذكور قام أخوه اسحق بن ابراهيم بن زياد ويعرف بأبي الجيش فطالت مدته في الملك وبلغ فيه نحواً من ثمانين سنة ، فتشتت عليه أطراف البلاد ، وتغلب عليه كثير ممن كان تحت يده منهم صاحب صنعاء اسعد^(٥) بن ابي يعفر بن ابراهيم بن محمد بن يعفر بن عبد الرحيم الحوالي ، ولكنه كان يخطب لأبي الجيش ويضرب الدراهم على اسمه ويستبد بحاصلات البلاد ، فلم يكن يحمل لأبي الجيش شيئاً . قال الخزرجي : وكان مبلغ إرتفاع أموال أسعد بن أبي يعفر لا يزيد عن أربعمئة ألف دينار في السنة يصرف معظمها في سبيل المروءة لواقديته وقاصديته .

وفي أيامه ظهر الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين وكان خروجه المرة الأولى سنة ٢٨٠ ، فوصل إلى الشرفة من بلاد نهم ، وأقام بها مدة ،

(١) المسجد المسبوك ص ٩٨

(٢) قرة العيون ج ١ ص ٣٢٣ .

(٣) من العلماء المؤرخين وفاته سنة ١٠٥٥ .

(٤) وفي أنباء الزمن حوادث سنة ٢٩٠ قال وفيها : مات ابراهيم بن محمد بن زياد صاحب زييد وقام بعده ولده اسحاق الملقب بأبي الجيش وطالت مدته وهذه الرواية تخالف كل ما سبق فتأمل (ص) .

(٥) هذا يشعر أن بني الحوالي كانوا مربوطين بآل زياد وسيأتي ما يفيد أن ولايتهم كانت مستمدة من حلفاء بغداد (ص) .

وعاد إلى بلاده بجبل الرس ، ولكن اضطراب أحوال اليمن اضطّر كثير من رجالها المفكرين وزعمائها النابهين إلى استدعائه واستقدامه مرة أخرى ، وفي مقدمتهم والي صنعاء وحاكمها أبو العتاهية مولى آل يعفر وسيأتي تفصيل ذلك .

وممن امتنع على أبي الجيش وتنكر له من ولاية تهامة الأمير سليمان بن طرف صاحب عثر^(١) ومبلغ ارتفاعه في السنة خمسمائة ألف دينار عشرية ، وكان مع إمتناعه عن الوصول إلى ابن زياد يخطب له ويضرب السكة باسمه ، ولا يصل إليه ، وبعد امتناع من امتنع بقي لأبي الجيش من البلاد من عدن إلى شرحه حرض^(٢) نحواً من عشرين مرحلة طويلاً ، ومن غلافقة^(٣) إلى أعمال صنعاء عرضاً نحو خمس مراحل قال عمارة في مفيد^(٤) (رأيت مبلغ ارتفاع أعمال ابن زياد بعد تقاصرها وذلك سنة ٣٦٦ ألف ألف دينار عشرية خارجاً عن ضرائبه على مراكب الهند من الأعواد المختلفة والمسك والكافور والنيل ، وما أشبه ذلك ، وخارجاً عن ضرائبه على جزيرة دهلك^(٥) وهي خمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة من النوبة والحبش . وخارجاً عن ضرائب العنبر ، في السواحل من باب المنديب إلى الشحر وخارجاً عن ضرائبه على معادن اللؤلؤ) انتهى .

وفي أيام أبي الجيش ظهر الطاغية علي بن الفضل القرمطي ، وقيل انه هو الذي قتل الأمير المذكور^(٦) وقيل بل هرب منه ومات سنة ٣٩١ وقيل انه

(١) عثر : مدينة تهامة خربة على شط البحر الأحمر .

(٢) بلدة خربة كانت خروسة مدينة حرض .

(٣) قرية على ساحل البحر الأحمر من بلاد الزرائيف وأعمال بيت الفقيه .

(٤) المفيد ص ٣٩ .

(٥) موقع جزيرة دهلك غربي مدينة حلى وبينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلاً وملكها من الحبش

المسلمين وهو يداوي صاحب اليمن قاله صاحب صبح الأعشى (ص) .

(٦) راجع سيرة الإمام الهادي والخزرجي وانباء الزمن .

مات سنة ٣٧١ وليس بشيء لما سيأتي عند ذكر موت الحسين بن سلامة .

ويموت أبي الجيش طوى التاريخ صفحة آل زياد وتلونت صفحاته وتشعبت مناحيه ، وانتقل الملك إلى عبيد آل زياد^(١) ثم إلى عبيد العبيد وقد دفنت القرون أخبار هذه الإمارة ، ولم يصل إلينا من أخبارهم إلا نتفاً يسيرة ، وذلك ما سطرناه ، ولعل القارئ يستنتج من أخبار الخراج وجمل الضرائب بعض ما يريد عن الحركة العمرانية وسير التجارة وسعة النفوذ ، ولكن بصورة إجمالية ، ويقدر ما فات المؤرخ من استيعاب المادة اللازمة يضعف الاستنتاج ويتعذر الحكم ، والذي يلوح لنا انه كان لكل جهة من جهات القطر دار ضرب للنقود وشبه استقلال للولاة كما ان سير الحوادث وأسلوبها ، تؤيد نظرية القائلين باستقلال آل زياد لولا ما سيأتي ، وكيف كان فإن أخبار هذه الحكومة أو الإمارة غامضة جداً ، وعسى أن نجد في غير ما قد عثرنا عليه من المصادر ما يعين على البحث ، ويلقي النور على ما تكاثفت عليه ظلمات القرون والله أعلم .

أيام ابن أبي الجيش : هند بنت أبي الجيش : مولاهم رشيد الزمام مملوك رشيد الحسين بن سلامة

خلف أبو الجيش صبيًا اسمه عبدالله ، وقيل زياد ، وقيل ابراهيم فقام بكفالة الصبي المذكور هند بنت أبي الجيش^(٢) ومملوك لأبي الجيش حبشي اسمه رشيد الزمام ، ولكنها لم تطل أيام رشيد المذكور ، وهلك من قريب ، وكان له عبد نوبي اسمه الحسين بن سلامة نسبة إلى أمه ، وكان حازماً عفيفاً مقداماً حسن السيرة كبير النفس عالي الهمة قد علت منزلته وامثلت أوامره ،

(١) قال في بغية المستفيد وخرج أيضاً من ولاية أبي الجيش لحج وابن وما عداها من البلاد الشرقية (ص) .

(٢) قال الديبع : هند أخت أبي الجيش عمة الطفل لا أخته وكذلك صاحب أنباء الزمن والأولى رواية الخزرجي (ص) .

واشفقت النفوس من هيبته في حياة سيده^(١) ، لما عرف من نجابته وصرامته ،
وسداد طريقته ، فكان هو المتولي لجميع شؤون سيده فلما مات سدّ مسده ،
وذبح عن ملك مواليه ووازي الصبي ، واخته ، وملك آل زياد يومئذ متضعض
الأركان ضعيف السلطان تتناشه سباع الأطماع ، وتمزقه أيدي المتغلبين في
جميع البقاع فقام الحسين بن سلامة ، وابدى من المهارة في علاج الدولة ،
ما يعجز عنه كبار الرجال ، رغمًا على سواد لونه ويد النخاس التي عركت
أذنه :

قد يدرك الشرف الفتى ولباسه خَلَى وجيب قميصه مرقوع
غزا المتغلبين من ولاية الأطراف ، ونازل أرباب الحصون ، حتى أتوه
طائعين ، وحملوا إليه الأتاوة مدعنين ، وأعاد دولة آل زياد سيرتها الأولى ، قال
الخزرجي : ولم تبق دولة في اليمن ولا حصن إلا استولى عليه واستناب فيه
من يرضاه^(٢) .

وفي كلام الخزرجي تجوّز ، أو مجازفة على الأصح ، والأرجح ما ذكره
الديبع في كتابه بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد عند ذكر الحسين بن سلامة
قال : (وكانت دولتهم قد تضعضت أطرافها وغلب ملوك الجبال على الحصون
والمخاليف فحاربهم الحسين حتى رجع إليه غالب مملكة ابن زياد
الأولى^(٣) .

ولم يزل الحسين بن سلامة في الملك بالنيابة عن الطفل إلى أن توفي
سنة ٤٠٢ وقيل ثلاث وأربعمائة .

وكان رحمه الله عادلاً كريماً ، حسن السيرة طيب السريرة ، كثير

(١) راجع أنباء الزمن وقرة العيون واللالء المضئنة (ص) .

(٢) المسجد المسبوك ص ٩٩ .

(٣) بغية المستفيد ص ٤٠ ط المحقق .

المبررات كلفاً بالعمران ، أختط مدينة الكدرا في وادي مهام ، ومدينة المعقر ، على وادي ذوال ، وعمر الجوامع الكبار ، والمناثر الطوال في المدن ، وحفر الأبار والقلب العادية ، وعمل المصانع وبنى الأميال والفراسخ والبرد في الطرقات ، من حضرموت إلى مكة نحو ستين مرحلة في كل مرحلة جامع^(١) ومأذن وبئر ، وجدّد عمارة جامع عدن وعمر مسجد الجند المشهور ، وقال الخزرجي نقلاً عن عمارة ما لفظه : وللعسین بن سلامة في طريق مكة العليا عدّة مآثر ، فيها جامع الجوه ثم مسجد الجند المذكور ، ثم ذي اشرق ، ثم لب ، ثم النقیل ، ثم ذمار ، ثم ما بین ذمار وصنعاء مسافة خمسة أيام^(٢) ، في كل مرحلة منها بناء ، ثم جامع صنعاء وهو جامع عظیم ، ثم من صنعاء إلى صعدة عشرة أيام ، في كل مرحلة من ذلك جامع^(٣) ، ثم عقبة الطائف وهي مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة عمرها حسين بن سلامة عمارة متقنة يمشي في عرضها ثلاثة أجمال بأحمالها ، ثم أورد مآثره على طريقي تهامة الساحلية والوسطى ، وسور مدينة زبيد ، وهو أول من سورها ، وقد أطال المؤرخون فيه ، حتى قال الخزرجي : وأخبار الحسين بن سلامة في اليمن تستغرق مجلداً بل مجلداً : وكان ملكه نحواً من ثلاثين سنة

(١) هكذا روى الخزرجي وغيره ، ولم نجد ما يفيد ان نفوذ الحسين بن سلامة امتد هذه المسافة (ص) .

(٢) المسافة ما بين ذمار وصنعاء ثلاثة أيام (ص) .

(٣) فيما ذكره عمارة مجازفة ظاهرة فإن البلاد في عصر الحسين بن سلامة كانت في أعاصير هوجاء وزوابع غير مريحة وعلى الخصوص بلاد الزيدية ، ولم يكن له نفوذ ظاهر عليها ، وهذه المباني تتطلب الهدوء طبعاً ، أضف إلى ذلك إنا لم نجد في كتب التاريخ التي بأيدينا ما يدل على حدوث ما ذكره عمارة فيما بين صنعاء وصعدة ، وبين زبيد وصنعاء ومن البعيد ان تزول آثار هذه المباني وتندرس من عرض البلاد وطولها ، ولا يذكرها احد بحرف اولاً يعلمها إلا عمارة ، وعنه نقل أكثر المؤرخين ، ولكن على أسلوبهم المعهود من مجانبية النقد والتمحيص . وتحكيم العقل ، وإذا عرفت ان عمارة أرخ لليمن فيما علق بفكرة والفكر يخون وهو بمصر زال الاشكال (ص) .

ولا شك أنه من العظماء الذين أثبتوا نبوغهم وتفوقهم بالواقع الملموس ، فإنه فتح المعازل وارشد الضلال ، وأدى الأمانة لمواليه ، ووفاء بالعهد، ونهض بمشروع الزعامة فظفر بغنيمة المسجد والثناء الصالح .

وآثار الرجال إذا تنهت إلى التاريخ خير الحاكمينا

واستأثر بغاية وأسما من كل غاية ، فكان يعمل الخير للخير ويتعب نفسه ليسعد المجموع ، وكان عصامياً ، ولو لم يكن كذلك ، لما قدر على إعادة ناموس الدولة الزيدية ، بعد ذهابها ولما استطاع أن يقف في وجوه كثير من المنازعين والمواثبين لتلك الدولة التي شاخت وذوى غصن مجدها ، وانهار بنيان عظمتها ولم يبق لها من النفوذ والسطوة ما تحمي به حماها .

آخر طفل من بني زياد مرجان العبد واحداً

قال الخزرجي^(٢) : ولما مات الحسين بن سلامة انتقل الملك إلى طفل آخر منهم قال عمارة أظن اسمه عبدالله فكفلته عمته له وعبد حبشي اسمه مرجان ، وهو من عبيد الحسين بن سلامة فاستقرت الوزارة لمرجان ، وكان لمرجان عبدان حبشيان ربّاهما صغاراً ، ولولاهما كباراً ، وهما نفيس ونجاح ، وكان نجاح يتولى أعمال الكدرا^(١) والمهجم^(٣) وييش وهذه الأعمال الأربعة جل الأعمال الشامية غير زبيد ، وكان نفيس يتولى تدبير الحضرة ، فوقع التنافس بين نفيس ونجاح عند مرجان على تدبير الحضرة وكان نفيس ظلوماً غشوماً فكانت القلوب تنفر عنه طبعاً وتميل إلى نجاح لرفقه وزأفته وعدله غير أن مرجان مولاها كان يميل إلى نفيس ويحبه ، وكان ابن زياد وعمته يفضلان نجاحاً على نفيس ، فلما علم نفيس بميل ابن زياد وعمته إلى نجاح

(١) المسجد المسبوك ص ١٠٣ .

(٢) الكدري : مدينة خاربة بني المراوعة والمنصورية وأخرى في وادي سرحد .

(٣) المهجم : بلدة خاربة في وادي سرحد من أعمال الزيدية .

ومكاتبتهما له شكاهما إلى سيده مرجان ، فقبض مرجان عليهما وسلمهما إلى نفيس فأخذهما وعمر عليهما جدارا وهما قائمان يناشدانه الله عز وجل حتى ختمه عليهما، فكان آخر العهد بهما وذلك سنة ٤٠٧ سبعم وأربعمائة^(١)، وهكذا ختمت الحكومة الزيدية بمأساة مريضة بعد أن حكمت زيادة عن قرنين فسبحان من يُغَيِّر ولا يتغير :

وكل حصن وإن طالت اقامته على دعائمه لا بد مهذوم

وكان نجاح يوم هذه المأساة غائباً بالأعمال الشامية ، وكان هذا الولد وعمته آخر من ولي من آل زياد ومدة زلايتهم مئتا سنة وثلاث سنين من تاريخ اختطاط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ ، وكان بنو زياد لما علموا باختلال الدولة العباسية من قتل المتوكل ، وخلع المسنعين تغلبوا على ارتفاع اليمن ، وركبوا بالمظلة وساسوا قلوب الرعية بإبقاء الخطبة لبني العباس ، ولم يزالوا على ذلك إلى التاريخ المذكور والله أعلم .

قال الجندي : وذكر المعلق أن الحسين بن سلامة توفي سنة ٣٠٤ بزيادة سنة على ما ذكره عمارة *مركز تحقيقات كليات العلوم الإسلامية*

(واعلم أن هذه الأخبار يدخلها الصدق والكذب والزيادة والنقصان^(٢)) وسبب ذلك اختلاف النقل ، ثم اختلاف كتب التاريخ ، قد يكون المصنف واحداً والتصنيف واحداً، ويختلف ما يوجد باحدى النسخ عن الأخرى ، ويعرف

(١) راجع الخزرجي والجندي وقرة العيون

(٢) بهذا الاعتبار وهذه الفكرة دون القدماء كتب التاريخ للتسليّة وقتل الوقت ، وقد شبهوا المؤرخ بحاطب ليل ، فجاءت غالب مدوناتهم في هذا الفن كثيرة الأغلاط ، ركيكة الأساليب طافحة بالمبالغات مملوءة بالمزاعم والخرافات لا تسقط منها على حقيقة ، إلا بعد إدماء الجفون وتفريغ المحاجر وتقليب مئات الصفحات وعشرات المجلدات وقد تخرج بعد العناء الشديد مضطرب الفكر حيرانا وهنا يشكو الجندي تضارب اخبار المصادر واختلاف الروايات التاريخية ، ولكنه يعد ذلك من لوازم كتب هذا الفن كما ترى (ص)

ذلك العارف ، فربما ينكر المنكر ، ما نقلت عن المفيد وغيره ولا ينسب ذلك لقصوره على الاطلاع إلى كتب التاريخ والنظر في عدة نسخها ، فقد تمحص لك ان ملك بني زياد أستقل عن مواليتهم من سنة ٢٠٣ إلى سنة ٣٧١ مائة وثمانية وستون^(١) سنة (١٦٨) وبالنسبة عنهم ثمانية وثلاثون سنة ٣٨ لقيام ابن سلامة ، ثم كانوا أعواناً لمواليهم متآدبين معهم ، حتى كان من انيس المذكور سابقاً ما قدمنا ذكره قال الديبع في كتابه بغية المستفيد^(٢) : وقد ضبط الجندي نفيساً هذا فجعله انيساً بفتح الهمزة وكسر النون وهو وهم فليتنبه له والله أعلم .

انتقام نجاح واستيلاؤه على زبيد

ولما بلغ الخبر إلى نجاح استنفر الأحمر والأسود لحرب نفيس وقتاله ، وقصده إلى زبيد في جموع عظيمة ، والتحم القتال بينهما في عدة وقائع ، منها يوم رمع^(٣) ويوم فشال^(٤) وهما على نجاح ومنها يوم القعدة^(٥) وهو على نفيس ، ومنها يوم العرف^(٦) ، وفيه قتل نفيس على باب زبيد بعد أن قتل من الفريقين زهاء خمسة آلاف رجل ، ودخل نجاح زبيد وملكها في ذي القعدة سنة ٤١٢ ، وقبض على مرجان مولاه وقال له ما فعلت مواليك^(٧) وموالينا

(١) هذا يرجح ان موت آخر بني زياد واسحاق بن ابراهيم سنة ٣٧١ وقد ذكرنا ان ظهور الإمام الهادي كان في زمان أبي الجيش سنة ٢٨٤ فتأمل كم سيكون مدة عمره اللهم إلا أن يكون ملك من طفولته مع انه لا نص على ذلك غير قولهم انه لما بلغ في الملك ثمانين سنة ضعف وعجز عن تدبيره كما سبق .

(٢) بغية المستفيد ص ٤٣ .

(٣) نسبة إلى الوادي المشهور وهو بين وادي زبيد ووادي سهام وهو إلى زبيد أقرب .

(٤) بلدة قديمة كانت برمع شمالي زبيد .

(٥) في المسجد «العقدة» .

(٦) في المسجد «العرق» .

(٧) كذا في الأصل وفي المسجد ص ١٠٤ . «وقال له ما فعلت بسواليك» .

قال : هما في هذا المكان ، فاخرجهما نجاح ، وجهزهما ، وصلى عليهما وجعل مرجان وجثة نفيس المقتول موضعهما ، وعمر عليهما ذلك الجدار حتى ختمه جزاء وفاقاً :

ونابش الموتى له ساعة تأخذه انبش من نبشه
وتم لنجاح ملك البلاد من التاريخ المذكور ، وركب بالمظلة وضرب الدراهم باسمه ، وكاتب خليفة بغداد ، وبذل له الطاعة ونعت بالمؤيد نصير الدين ، وضبط أمر التهائم ، وخطب بالملك واستمر كذلك ، حتى سمّه علي بن محمد الصليحي ، على يد جارية أهداها إليه كما سيأتي ان شاء الله تعالى وفي أيام نجاح انتقضت معظم البلاد التي كانت خاضعة للحسين بن سلامة ، وتغلب كل رئيس على ما تحت يده .

ذكر عمال بني العباس على اليمن

لما كانت أخبار بني زياد غير مرتبة على السنين اضطررنا إلى سرد اخبارهم على ذلك الأسلوب ، وخالفنا المنهاج الذي رسمناه لأنفسنا في كتابة هذا التاريخ ، وما نحن نعود إلى تخطتنا الأولى والله ولي التوفيق .

قال الخزرجي وغيره : ودخلت سنة ٢٠٦ فيها عزل الافريقي^(١) عن اليمن بنعيم بن الوضاح الأزدي ، والمظفر بن يحيى الكندي اشتركاً في العمل ، وقدماً صنعاء في صفر من السنة المذكورة ، وسار المظفر إلى الجند ، وأقام بها مدة يجبي مخاليفها^(٢) ثم رجع إلى صنعاء ومات بها بعد أيام من رجوعه وصار الأمر جميعه لنعيم بن الوضاح ، إلى أن عزل بمحمد بن عبدالله بن محرز مولى المأمون ، فقدم اليمن سنة ٢٠٨ وأمر ابناً له يقال له ابو

(١) هو من بني شهاب واسمه ابراهيم (ص) .

(٢) نزول عامل خليفة بغداد لجباية الجند بدل على ان ابن زياد كان عاملاً على زييد وما والاها وهو الذي يقال انه ملك اليمن بأسره وزاد عمارة الحجاز بأسره (ص) .

الحميد يجبي الجند وكان في ولايته ضعف فخرج نحو الحجاز واستخلف عباد بن عمر الشهابي ، فقام بالأمر حتى قدم عليه عامل الخليفة اسحق بن العباس من ولد عبدالله بن عباس ، وكان قدومه آخر رجب سنة ٢٠٩ فأساء السيرة وعسف الرعية ، وظهرت منه اخلاق منكرة غليظة . ونال من أهل اليمن^(١) كل منال ، وتعصب عليهم تعصباً لم يفعله أحد قبله ، كان لا يسأل أحداً عن نسبه فينسب إلى حمير إلا قتله ، ولم يترك لهم ذكراً حتى أمر بقلع الخوخ الحميري مما^(٢) أسرف به في التحامل عليهم .

وفي أيامه في سنة ٢١٦^(٣) كانت الزلزلة الشديدة بصنعاء وعدن انهدمت منها المنازل ، وخربت القرى وهلك عالم لا يحصى ، ولم يزل هذا العامل يمرح في طغيانه لا يخاف خليفة بغداد لبعده ولا غيره حتى هلك بهذا العام ، واستخلف عند موته ولده يعقوب فلم تصف له اليمن ، وكان بينه وبين أهل صنعاء خلاف أفضى إلى قتال ، قتل فيه جماعة من أهل صنعاء ، ثم انهزم إلى ذمار ، فعزله المأمون بعبد الله بن علي بن عبدالله بن العباس ، فقدم في المحرم سنة ٢١٧ .

ولم يزل بها إلى أن مات المأمون سنة ٢١٨ فلهق بالعراق واستخلف عباد بن^(٤) عمر الشهابي ، ولما ولي المعتصم أقر الشهابي على عمله عدة سنين^(٥) ، ثم عزله بعبد الرحيم بن جعفر بن سليمان الهاشمي ، ثم عزله المعتصم بمولاه جعفر بن دينار وذلك سنة ٢٢٥ ، فأرسل جعفر خليفة له يقال منصور بن عبد الرحيم التنوخي ، فقدم اليمن في صفر من السنة

(١) وليت شعري أين كان ملك اليمن بأسره والحجاز بأسره ليخلص اليمن من فضائح هذا الأحق الغشوم .

(٢) في المسجد بما .

(٣) في المسجد سنة ٢١٢ .

(٤) في المسجد عبادة .

(٥) في الأصل سنين لعله سبق قلم .

المذكورة ، فضبط البلاد ووجه العمال إلى المخاليف ، وقدم عليه عبد الرحمن بن علي بن عيسى^(١) بن ماهان ، وقد أشرك معه في العمل ، فأقام مع منصور في اليمن برهة ، ثم عزل جعفر بن دينار بايتاخ التركي ، مولى المعتصم ، فأقر منصور ، وعبدالله على عملهما فلم يزالا إلى أن مات المعتصم سنة ٢٢٧ .

أول دولة الحواليين^(٢)

لما تولى الخلافة الواثق بن المعتصم ، أقر ايتاخ التركي على اليمن فوجه أبا العلاء العامري ، فلما وصل صعدة أرسل الأمير يعفر^(٣) بن عبد الرحيم الحوالي غلامه طريف بن ثابت في عسكر نحو صنعاء فخرج إليهم منصور بن عبد الرحيم في أهل صنعاء فهزمهم وقتل من موالي آل يعفر بن عبد الرحيم نحو ألف رجل وأسروا آخرين ، فضرب أعناقهم ، وقدم أبو العلاء صنعاء بعد الوقعة فأقام بها حتى مات واستخلف أخاه عمر بن العلاء ، فأقام بها مدة ثم ان ايتاخ استعمل على اليمن هرثمة ، مولى المعتصم ، فوصل في آخر المحرم سنة ٢٣٠ ثلاثين ومائتين ، ومكث أياماً ثم خرج لمحاربة الأمير يعفر بن عبد الرحيم ، وهو بشبام ، فحاربه أياماً ، وعاد إلى صنعاء ثم إن الواثق عزل ايتاخ عن اليمن واستعمل عليها جعفر بن دينار ، فسار إلى اليمن وحاصر يعفر بن عبد الرحيم مدة بشبام ، ثم كان الصلح بينهما ، وعاد العامل إلى صنعاء فلبث فيها إلى أن توفي الواثق آخر ذي الحجة سنة ٢٣٠^(٤) .

(١) في المسجد عبدالله بن محمد بن علي بن عيسى بن ماهان والمثبت هنا في غاية الاماني ص ١٥٤ .

(٢) الخزرجي .

(٣) هذا أول من ظهر من بني الحوالي مناهضاً للسلطة العباسية وتدل هذه الحادثة على تمكن وقوة لا بأس بها فقد بلغت القتلى من أصحابه نحو الألف فكتب الموفق فكم يكون مقدار الجيش (ص) .

(٤) انظر هذا الكلام بنصّه في المسجد ص ٣١ - ٣٢ .

وفي أنباء الزمن^(١) ان الذي حارب يعفر بن عبد الرحيم هو هرثمة وان بقي إلى أن مات الواصل سنة ٢٣٠ ، وقام بعده المتوكل فاستعمل على اليمن جعفر بن دينار ، فأقام فيها أياماً واستخلف ولده محمد ، وخرج إلى العراق ، فلم يزل ولده محمد على اليمن حتى قتل المتوكل واستمر على اليمن مدة المنتصر والمستعين والمهتدي إلى أيام المعتمد ، فكتب الموفق وكان هو المتولي شؤون الخلافة إلى الأمير محمد بن يعفر الحوالي بولاية اليمن فوجه عماله على المخاليف ، وفتح حضرموت ، وكانت قد تمتعت من قبل ، قال الخزرجي : هذه رواية الشريف ادريس^(٢) في كتابه «كنز الأخبار» ، وقال الجندي : لما مات الواصل وقام بالأمر بعده المتوكل أقر جعفر بن دينار على اليمن مدة ، ثم عزله واستعمل حمير بن الحرث فلم يتم له الأمر مع الأمير يعفر بن عبد الرحيم وعاد حمير إلى العراق هارباً ، واستولى يعفر بن عبد الرحيم على صنعاء ومخاليقها ، وقتل المتوكل عقيب ذلك إلى أن قال ولما ولي الخلافة المعتمد على الله واستوثقت له البلاد ، وامتدت أيامه ، أخذ البيعة له في اليمن الأمير محمد بن يعفر بن عبد الرحيم الحوالي ، وتابع له الخطبة ، فلما وصل خبره إلى المعتمد كتب إليه بنيابته على صنعاء ومخاليقها ، فغلب على صنعاء والجنذ وحضرموت وكان مع ذلك يوالي ابن زياد ويحمل إليه الخراج ، ويظهر أنه نائب عنه لعجزه عن مقاومته ، وكان وصول كتاب المعتمد سنة ٢٥٧ سبع وخمسين ومائتين ، فأقام على عمله إلى سنة ٢٦٢ ، وعزم للحج واستخلف ابنه ابراهيم بن محمد .

وفي أيامه حصل في صنعاء سيل عظيم وهو السيل الثاني في الإسلام وأخرب دوراً كثيرة .

قال الجندي^(٣) : وفي سنة ٢٦٥ بنى الأمير محمد بن يعفر جامع صنعاء

(١) غاية الأمان ص ١٥٤ .

(٢) من كبار المؤرخين توفي سنة ٦١٤ وفياته ذكره في الكتاب .

(٣) النقل هنا بواسطة الخزرجي في المسجد ص ٣٣ .

على الحال الذي هو عليه الآن^(١) (في القرن السابع) ، ولم يزل ابراهيم بن محمد بن يعفر على ولايته الى سنة ٢٧٠ ، ثم أمره جدّه يعفر بن عبد الرحيم بقتل محمد بن يعفر واحمد بن يعفر فقتلا بعد المغرب ، في صومعة شبام فانتشرت على يعفر بن عبد الرحيم الأمور ، وخالف عليه الفضل بن نفيس المرادي بالجوف وولد طريف غلامه بيحصب ورعين والمكرمال ببيحان ، ومالوا إلى جعفر بن احمد المناخي ، فجهز لمحاربتهم ابراهيم بن محمد بن يعفر ، فكانت الحرب بينهم سجلاً واستعمل بن يعفر على الجوفين الدعام بن ابراهيم ، فتغير له الدعام ، ونصب له الحرب فسار إليه عسكر ابراهيم بن محمد بن يعفر والتقوا بورود فهزمهم الدعام وقتل منهم كثيراً ، وفي كفران الدعام لما أولاه هذا الأمير الحوالي يقول الشاعر :

(١) هذا يؤيد ما ذهبنا إليه من ان الحسين بن سلامة لم يكن هو الباني لجامع صنعاء او لم يكن من بناته ، فان عصر الجندي قريب بالنسبة الى عصر ابن سلامة ، وايضاً فان الجندي روى تلك العبارة . ومع قوله على الصفة التي هو عليها الآن عن القاضي السري بن ابراهيم ، وهذا القاضي هو قاضي الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة وآله القضاء بصنعاء ومن البعيد أن يجهل من عمر جامع صنعاء وهو مؤرخ أيضاً فيقول انه بناء ابن يعفر على الصفة التي هو عليها الآن (أي في أيامه) ويهمل ذكر الحسين بن سلامة ، وأغرب من هذا ما ذكره صاحب أنباء الزمن مؤرخ اليمن في القرن الحادي عشر من ان الجناح الشرقي من جامع صنعاء الكبير عمارة السيدة بنت احمد الصليحية الموجودة أول القرن السادس وقد شاعت رواية صاحب أنباء الزمن لشهرة تاريخه في اليمن ، وأصبحت تلك القضية مسلمة ، وقد انفرد بهذه الرواية ، ورواية الجندي عن القاضي السري تخالف ذلك والجناح الشرقي يعدّ من عجائب الآثار الاسلامية وابدعها ، لكثرة ما على اخشاب سقفه من الحفر والنقش ، والأصباغ الملونة ، وقد رسمت بالحفر بعض سور القرآن الكبار ، على اطراف جدرانه فيما يلي السقف بالخط الكوفي ، وهو يقوى ما ذهبنا إليه من ان عمارته في أيام محمد بن يعفر ، وان كان لا يصح الاستدلال به وقد ذكرنا في خبر اسلام أهل اليمن انه عمر بأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله في بستان باذان ثم توسيعه أيام الوليد بن عبد الملك الأموي على يد عالمه باليمن أيوب بن يحيى الثقفي ، ثم تبويه على يد عمر بن عبدالمجيد نائب عامل السفاح ، وفي أيام ابن يعفر حصل السيل العظيم في صنعاء وخرب الجامع فعمره ابن يعفر كما سبق (ص) .

ودعام جدّ أبنا يعفر	رفعوه في عظيم المنزله
كان في طوداتان ساكنا	صاحباً للفقير لا حيلة له
فحباه ملك ابنا يعفر	بهبة جمة متصله
ثم ولّاه بوادي غرق	فغدا يعمل فيه عمله
ثم جازاه بأن خالفه	من تجرّى جر وسوء اكله

وقدم^(١) عهد يعفر بن ابراهيم بن محمد بن يعفر على صنعاء ومخاليقها من صاعد بن مخلد وزير المعتمد ، فاعتزل ابراهيم بن محمد عن الإمارة وولي ابراهيم بن عبد الرحيم فأقام بصنعاء مدة واستعمل على صنعاء ولاية كثرأ ، وكان أكثر مقامه بشبام ، ثم اجتمع أهل صنعاء من الأبناء وغيرهم والشهابيين على عمال ابي يعفر فقاتلوهم واخرجوهم من صنعاء ونهبوا دار أبي يعفر واحرقوها ، ولم يلبث ابو يعفر ان قتل بشبام آخر المحرم سنة ٢٧٧ ، فقام بالأمر بعده ابن عمه عبد القاهر بن احمد بن يعفر اياماً حتى قدم من العراق احمد بن الحسين جفتم عاملاً على صنعاء ، وكان قدومه في ٦ صفر سنة ٢٧٩ ، فقاتله الدّعام في صنعاء فهزّمه جفتم ، ودخل عليه صنعاء وطرده عنها ، ودامت صنعاء في يد جفتم الى ان توفي المعتمد في رجب سنة ٢٧٩ ، فقام بالخلافة المعتضد بن الموفق طلحة فأقر جفتم على ولايته بصنعاء فلم يزل بها إلى سنة ٢٨٢ ، وكان حازماً شديد الحذر ولما عاد إلى العراق في السنة المذكورة ، وثب الدّعام على صنعاء ثم هرب منها ، ورجع الأمر الى بني يعفر ، ولم يزل لإبراهيم بن يعفر على صنعاء ومخاليقها ، وهو يهادن ابن زياد ولم تطل مدّته ، وقام بعده ابنه أسعد بن ابي يعفر بن ابراهيم بن محمد يعفر بن عبد الرحيم ، وفي أيامه ظهرت القرامطة فخرج قوم من اليمن إلى

(١) اعتمدنا في هذه الأنباء على رواية الخزرجي وفيها من الإضطراب مالا يخفى وقد راجعنا أبناء الزمن وقرّة العيون وبغية المستفيد وغيرها فوجدنا من الاختلاف ما تعذر معه الوفاق والملائمة (ص).

جبل الرّس بالمدينة فقدم مولانا الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام^(١) .

ظهور الدولة العلوية الإمام الهادي نسبه ومناقبه آثاره العلمية فتوحه وحروبه

مؤسس الدولة العلوية الامام المجتهد المطلق الهادي الى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام قال فيه الفقيه حميد الشهيد^(٢) رحمه الله في كتابه الحقائق الوردية^(٣) بعد ان ذكر صفاته ونعوته (فضله عليه السلام لا يُخفى ونور مجده لا يطفى ، وظهور حاله يغني عن ذكر محاسن خلاله ، إلا انا نذكر من أحواله طرفاً ، رعاية لحقه الواجب ، وهو الذي فقاً عين الضلال ، وأجرى معين العلم السُّلّال ، وضارب عن الدين كافة الجاحدين ، حتى عرف الله من أنكره ، ومناقبه أكبر من أن تنظم في سلك المدائح ، وقد روينا عن بعض علمائنا رحمهم الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال يخرج من هذا النهج وأشار بيده إلى اليمن رجل من ولدي اسمه يحيى الهادي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، يحيي الله به الحق ويميت به الباطل : فكان عليه السلام هو الذي نشر الاسلام في أرض اليمن بعد أن كانت ظلمات الكفر فيه متراكمة ، وموجات الالحاد متلاطمة ، حتى انهل من نحورهم الأسل الناهلة ، وأنقع من هامهم السيوف الضامية فانتعش الحق بعد عثاره ، وعلا بحميد سعيه مناره فسلام الله على شخصه الكريم)

(١) الخزرجي وفي ابناء الزمن ان المقتول بشبام والذي نهل أهل صنعاء داره هو ابراهيم بن محمد .

(٢) هو العلامة شيخ الاسلام حسام الدين حميد بن احمد بن محمد بن محمد المحلي الهمداني الوداعي ولد سنة ٨٢ ، وتوفي شهيداً قتيلاً سنة ٦٥٢ .

(٣) الحقائق الوردية ج ٢ ص ١٣ ط المؤيد .

وقال فيه السيد صارم الدين الوزير^(١) في بسامته^(٢)

وفي إمام الهدى الهادي المتوج بالعليا اكرم داع من بني مضر
من خص بالجفر من أبناء فاطمة وذو الفقار ومن اروي ظلما الفقر
وصاحب المذهب المذكور في اليمن المشهور من غير لا إفك ولا نكر
ومنها في ذكر وقائعه عليه السلام :

وفي ابن فضل ومن لبي لدعوته وفي مسودة تدعو إلى سقر
قضت بتسع مع التسعين معركة غر كبدر وأوطاس وكالنهر
قضى بها نجه صيد غطارفه مضوا وأشياع صدق من بني الطبر
سائل شاما وصنعاء وصعدة مع نجران منه وسفح القاع من عصر
وسل بني يعفر عنه وكندتهم وغلب همدان والأخلاف من مضر
تخبرك عن ضربات منه قاطعة قذت دروعاً وأودت كل ذي صعر

ذو الفقار سيف امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خرج بعد
الإمام الهادي إلى اليمن وتقدم الكلام على ذي الفقار عند كلامنا على
صمصامة عمرو بن معدي كرب الزبيدي والجفر جلد ثور صغير مكتوب فيه
علم ما سيقع لأهل البيت عليهم السلام مروى عن جعفر الصادق قال أبو
العلاء المعري :

لقد عجبوا لأهل البيت لما أتاهم علمهم في سك جفر
ومرأة المنجم وهي صغرى أرتة كل غامرة وقفر
كان خروج الإمام الهادي عليه السلام إلى اليمن المرة الأولى سنة

(١) هو العلامة ابراهيم بن محمد بن عبدالله بن ابراهيم بن علي الوزير ولد سنة ٨٣٤ وتوفي سنة ٩١٤ وقصيدته البسامة تسمى الجواهر المضيئة في سيرة الأئمة الأخبار المرضية جعلها على وزن قصيدة ابن عبدون الفهري في رثاء بني الأفتس وأول بسامة ابن الوزير :
الدهر ذو عبر عظمى وذو عبر وصرفه شامل للبدو والحضر
(٢) البسامة قصيدة للسيد صارم الدين ذكر فيها أئمة أهل البيت عليهم السلام (ص) .

٢٨٠^(١) فوصل إلى الشرفة قرب صنعاء ومكث بها مدة ، اشتغل فيها بنشر مبادئ الإصلاح وتهذيب العقول ، ولكن الأمة كانت اذ ذاك في سبات عميق وجمود جاف ، وغفلة سادت على العقول واستولت على الأفكار ، فمنعتها عن التفكير في الوسائل المخلصة من آفات المقاصد الذاتية والمطامع الشخصية ، فساء ما عرف من خراب في الذمم ، وفساد في الضمائر ، وتيقن ان الإصلاح لا يستسيغونه بحال وما لبث أن غادر إلى بلده بالحجاز وبقيت الأمة ترزح بأصاها^(٢) وتنوء بأعبائها وشملها ما لا يطاق من البلاء والأرزاء والفتن العمياء ، والغارات الشعواء كف^(٣) تقصيرهم ومعاندتهم للحق وأهله ، ولما اشتد بهم الحال وأضر بهم البلاء كتبوا إلى الإمام الهادي يسألون النهوض اليهم ، ويعلمونه بتوبتهم ورجوعهم إلى الله من خطاياهم ، وعند ذلك رأى من الواجب عليه تلبية دعوة أهل اليمن وامتشاق الحسام لإصلاح الفاسد ، وتقويم مناد^(٤) المعاند ، وإحياء ما اندرس من معالم الدين ونصر شريعة سيد المرسلين واقتحام الغمرات في سبيل ذلك :

فالحق أخفى ما يكون مجتهداً وتراه أوضح ما يكون مدرعا
ولم يحفل بما كان من تقصير اليمنيين وخذلانهم ، ولا بالي بما أمامه من العقبات ، بوجود الطامحين إلى السيادة من أهل اليمن والمتغلبين من غيرهم ، واثقاً بنفسه معتمداً على ربه ، لا يثنيه عن وثبه العلوية ، طول المدى ووعورة الطريق غايته إحدى الحسينيين الفوز أو الشهادة ولسان الحال منه تنشد :

(١) باستدعاء من بني فطيمة من قبائل خولان صعدة بعد وصوله إلى الرمس من أرض الحجاز كما في أنباء الزمن .
(٢) جمع أصر وهو الذنب .
(٣) كذا في الأصل .
(٤) كذا .

سأحمل اعباء الخطوب فطالما وانتظر العقبى وان بعد المدى
واني لأقرى النائبات عزائما واحقر دنيا تسترق لها الطلا
تجافيت عنها وهي خود غريرة ولي مقلة وحشية لا يروقها
تماشت على الاين الجمال القناعس وارقب ضوء الفجر والليل دامس
تروض أبي الدهر والدهر شامس مطامح لحظي دونها متشاوس
فهل ابتغيها وهي شمطاء عابس نفائس تحويها نفوس خسائس

قال مصنف سيرته السيد علي بن محمد بن عبيد الله العباسي رحمه الله : سمعت منه عليه السلام ما لا أحصيه إذا اجتمع عنده الناس يقول : (والله إن أطعموني لافقدتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شخصه إن شاء الله^(١)) . قال وسمعت له ليلة وهو يقول : (والله لو ددت أن الله أصلح الاسلام [بي]^(٢) وأن يدي معلقة بالثريا ، ثم أهوي إلى الأرض فلا أصل إلا قطعاً) قال وسمعت يوماً يحلف بالله مجتهداً ويقول : (لو ددت أن أصلح أمر هذه الأمة واني جعت يومين وشبعت يوماً) وكان أيضاً يتمنى لو أن معه خمسمائة رجل ليدوس بهم اليمن^(٣) ، ومناقب هذا الإمام وآثاره وما خلّده في اليمن أجل من أن تحصر ، وقد أورد مصنف سيرته وغيره في فضله ومناقبه آثاراً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها قوله : يخرج من هذا النهج ، وأشار بيده إلى اليمن الخبر المتقدم ، عن الفقيه حميد الشهيد ، وعن علي عليه السلام^(٤) قال رسول الله (ص) يخرج رجل من عترتي اسمه اسم نبي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً يميز بين الحق والباطل ، ، انتظروه في

(١) انظر سيرة الهادي ص ٤٩ ط سهيل زكار .

(٢) زيادة من سيرة الهادي ليستقيم المعنى .

(٣) انظر سيرة الهادي ص ٥٠ .

(٤) في سيرة الهادي ص ٣١ والحدائق ص ١٤ ورد هذا الحديث عن علي كرم الله غير مرفوعاً إلى صلى الله عليه وسلم .

الأربع والثمانين ومائتين ، في أول سنة واردة ، وأخرى صادرة قال كاتب سيرته ، وكذلك كان فاسمه اسم يحيى بن زكريا ، وطار علمه صلوات الله عليه في الآفاق حتى صارت أقواله في أقصى بلاد العجم ، يأنسون بها أكثر من بلاد اليمن ، وعليها يعتمدون وبها يفتنون ويقضون ، وفي الحدائق الوردية^(١) روى السيد أبو طالب باسناده عن المرتضى محمد بن الهادي عليهما السلام قال : ان يحيى بن الحسين بلغ من العلم مبلغاً يختار^(٢) عنده ويصنف ، وله سبع عشرة سنة وهذه من عجائب الروايات التي تضمنت خرق العادات ، ولا عجب ممن كانت أعراقه تنتهي إلى الذروة العالية النبوية ، أن يبلغ هذا الكمال ، ويفوز بمحاسن الخلال ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل العلم والفقه في عقبي وعقب عقبي وزرعي ، وزرع زرعي فتناوله هذا الدعاء الشريف الموثوق باجابته فارتوى من سلسال العلم المعين ، وتفيأ ظلال العرفان ، حتى تفجر العلم من جوانبه ، ونطق من الحكم بغرائب وصنف التصانيف الفائقة ، والكتب البديعة الرائقة ، نحو كتاب الأحكام ، وهو مجلدان في الفقه ، متضمناً تفصيل الأدلة من الآثار والسنن النبوية ، ، والأقيسة القوية^(٣) ، ما يشهد له بالنظر الصائب والفكر الشاقب ومنها كتاب المنتخب^(٤) في الفقه أيضاً ، وهو من جلائل الكتب ، وفيه فقه واسع وعلم رائع ، ومنها كتاب الفنون في الفقه ، مهذب ملخص ، وكتاب المسائل ، ومسائل محمد بن سعيد ، وكتاب الرضاع ، وكتاب الزراعة ، وكتاب أمهات

(١) الحدائق ص ١٤ .

(٢) في الحدائق ص يحتار عنه وصنف .

(٣) ويعرف أيضاً بجامع الأحكام في الحلال والحرام بدأ تأليفه في المدينة ولم يتمه فقام بجمعه وتبويبه العلامة علي بن حسن بن أبي حريصة وعليه شرح ضخم للعلامة أحمد بن إبراهيم الشرفي ومن الأصل عدة نسخ خطبه . انظر كتابنا مصادر الفكر الاسلامي في اليمن ص ٥٠٩ .

(٤) اجاب فيه على اسئلة الفقيه محمد بن سليمان الكوفي منه نسخة بمكتبة المتحف البريطاني انظر المصدر السابق ص ٥١٥ .

الأولاد ، وكتاب الولاء ، وكتاب القياس ، ومنها في التوحيد كتب جليلة
القدر ، نحو كتاب التوحيد ، وكتاب المسترشد ، وكتاب الرد على أهل
الزيغ ، وكتاب الإرادة والمشبه ، ومنها كتاب الرد على ابن الحنفية في الكلام
على الجبرية ، وفيه من الأدلة القاطعة ، والإلزامات النافعة ما يقضي بأنه
السابق في الميدان المبرز على الأقران ، وكتاب بوار القرامطة ، وكتاب أصول
الدين ، وكتاب الامامة وإثبات النبوة ، والوصية ، وكتاب الرد على الامامية
وكتاب البالغ المدرك وهو قطعة لطيفة فيها كلام كأنه الروض ملاحه ونظارة
والسحر لطافة ، ودقة ، وكتاب المنزلة بين المنزلتين ، ومنها كتاب الديانة ،
وكتاب الخشية ، وكتاب تفسير خطايا الأنبياء ، وكتاب الرد على ابن جرير ،
وكتاب تفسير ستة أجزاء ، ومعاني القرآن تسعة أجزاء وكتاب الفوائد
جزءان^(١) ، وكتب سوى ذلك كثيرة ما تقرب من عشرين كتاباً تركناها ، وهي
ظاهرة مشهورة قد شحنت من مسائل العلم ودور الفهم ما يشهد بأنه عليه
السلام في العلم القمر الباهر ، والبحر الزاخر) انتهى

وفيما أوردناه من أسماء الكتب التي ألفها هذا الإمام العظيم دلالة كافية
على تفننه في العلوم واستبحاره في المعارف مع صفاء نفس وجس مرهف
وقريحة خصبة مواتية أضف إلى ذلك ما كان عليه من لين الكف وكثرة
الإحتمال والزهد والورع ولعلماء الزيدية اعتماد عظيم على مؤلفاته وآرائه ،
وإليه تنسب الهدوية مذهبها .

خبر صلح الإمام بين قبائل صعدة وعزمه إلى نجران

كان خروج الإمام الهادي إلى صعدة في شهر صفر سنة ٢٨٤ وكانت
بين أهل صعدة وقبائل سعد وربيعه من قبائل تلك الجهات حروب مستعرة

(١) انظر هذه الكتب ومظان وجودها في الكتاب السابق .

وغارات مدمرة ، قد عظم أمرها ، واستحكمت أحقادها وطال أمدّها ،
فاضطرب حبل الأمن ، واجدبت البلاد ، وتقطعت السبل وغلّت الأسعار
وهلكت المواشي :

رمى الدهر أهلها بحرب ولم يرد بها الشر لكن الحروب هي الشر

فلما وصل الإمام الهادي إليهم ، لم يدخل البلد حتى قطع دابر الفتنة ،
وأصلح بين الفئتين ، فأنزل الله عليهم السماء مدراراً ، واخصبت أرضهم
وصلحت ثمارهم ، ورخصت أسعارهم ، وامنوا في طرقهم ، بعد الذي كانوا
فيه من الجذب والقحط والخوف والعداء المستحكم ، قال كاتب سيرته :
ولقد أخبرني بعضهم ، أن قائداً لآل يعفر كان معه ألف من العسكر أتاهم ،
فأراد الصلح فيما بينهم ، وانهم يقتلون ، وهو واقف ماله فيهم حيلة ، حتى
وقع بينهم عشرون قتيلاً ما استوى له صلح بينهم^(١) .

ولما دخل الإمام صعدة ، كتب إلى عموم أهل اليمن يدعوهم إلى
الجهاد ، وأرسل عماله على المخاليف ، وكتب لهم العهود ، وأوصاهم بتقوى
الله والعدل والرفق ، وحسن السيرة ، وأقام كذلك أربعة أشهر ، وكتب أهل
اليمن تتوارد عليه ، ووصل إليه أهل نجران يطلبون خروجه إلى بلدهم ،
وكان الوافد عليه منهم قبيلة شاكر^(٢) وثقيف^(٣) ووادعة^(٤) والأحلاف وجماعة
من بني الحارث^(٥) ، فأجابهم الإمام وخرج من صعدة آخر يوم من جمادي
الأولى من السنة المذكورة ، فدخل نجران وأقام فيها العدل وأصلح أمورها

(١) سيرة الهادي ص ٤٢ .

(٢) بطل من بكيل من ولد شاكر بن نهم .

(٣) قبيلة معروفة .

(٤) من قبائل حاشد الهمدانية

(٥) قبيلة من ولد الحارث بن كعب بن نمله بن جلد بن مذحج .

ونظم الأحوال ، وكان قد لفت نظره كثرة ما يملك أهل الذمة^(١) من الأراضي والمزارع ، وسعة ثروتهم ، فخشي أن يستفحل أمرهم ، ويتنقل ما بأيدي^(٢) المسلمين من المزارع والنخيل إليهم ، لثروتهم ، فرأى أن يضع حداً لهذا ، ولاحظ في ذلك مراعاة حقوق الفقراء والمساكين من أهل البلد ، الذين حرّموا بسبب انتقال الأموال من المسلمين إلى الذّميّين ، جانباً كبيراً ، من واجبات هذه الأموال كما صرّح به الإمام في كتاب صلحه المشهور^(٣) ، مع أهل الذمة بنجران فيما يجب عليهم من الخراج والجزية ، وهو كتاب طويل مشهور صالحهم فيه على التسع فيما يسقى سيحاً^(٤) ، أو بماء السماء ونصف التسع فيما يسقى بالدوالي^(٥) والخطارات^(٦) إلى آخره .

عزم الإمام إلى وشحة ثم إلى برط

مكث الإمام بنجران إلى شهر رمضان من تلك السنة ثم رجع إلى صعدة واستخلف على نجران أحمد بن محمد بن عبيدالله العلوي من ولد العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، فلم يلبث بصعدة إلا قليلاً ، وعزم إلى وشحة^(٧) فأصلحها ، وضبط أمورها ، وخلف بها محمد بن عبيدالله العلوي ، وعاد إلى صعدة ، ومنها عزم لإصلاح أحوال أهل برط^(٨) ، وكان قد أرسل

(١) لم يبين كاتب سيرة الإمام الهادي ديانة من بنجران من أهل الذمة الذين صالحهم الإمام وكذلك صاحب انباء الزمن وغيره من المؤرخين وقد وجدنا في سيرة الامام القاسم العباسي انهم نصارى وسيأتي ايضاح ذلك (ص) .

(٢) في الأصل ما بدى .

(٣) انظر نص الصلح في سيرة الهادي ص ٧٣ .

(٤) سيحاً : من ساح الماء اذا جرى على وجه الارض .

(٥) جمع دلو وهو معروف .

(٦) انظر سيرة الهادي ص ٧٦ .

(٧) وشحه : بلدة في اعلى جبل حجور وهي مركز ناحية مربوطة بلواء حجة .

(٨) جبل مشهور في الشرق الشمالي من صنعاء لمسافة ٢٣٢ كم (المقحفى : معجم المدن اليمنية ص ٤٨) .

عامله على جبل برط قبل مسيره إلى نجران ، فلما وصل عامله إلى برط ، تمنع عليه بعض أهل برط ومنعوه من صلاة الجمعة ، فكتب بذلك إلى الإمام ، فما كان بأسرع من خروجه إليهم ، ولما وصل أسفل الجبل أرادوا منعه عن توغل الجبل ، فنصحهم ، وحذّروهم فلم يلتفتوا إلى نصحه ، فلم يتمهل أن طلع واستولى عليه ، فبقي به مدّة ، حتى أصلح الفاسد وقوّم المائل ، وأرشد الجاهل فسمعوا له وأطاعوا ، واستعمل عليهم رجلاً يقال له عبد العزيز بن مروان ، وذلك لآخر يوم من صفر سنة ٢٨٥ ، وعاد إلى صعدة فأقام بها شهر ربيع الأول وبعض أيام من ربيع الثاني

خلاف أبو دغيش الشهابي

في شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة ، ورد على الإمام من عامله بوشحة ، محمد بن عبيدالله كتاب فيه : أن أبا دغيش الشهابي جمع جموعاً كثيرة من الرجال ومنع الصدقة ، وأنه قد اشتبك معه في حرب على ذلك ، فبادر الإمام الهادي بالخروج من صعدة وعسكر بقرية يقال لها البقعة بالقرب من صعدة ، ثم وجه إلى أبي دغيش رجلاً يدعونه إلى الله ، ويسألونه الدخول في الحق والرجوع إليه ، فأبى ، وتمنع وكان الإمام الهادي عليه السلام ، لا يحارب قوماً حتى ينذرهم ويحذّروهم ، ويدعوهم إلى الحق فإن رجعوا ، وإلا قاتلهم متحرّياً العدل في كل أحواله ، مقتفياً سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وله في ذلك كلمات ماثورة منها قوله : (إن هي إلا سيرة علي وإلا فالنار) ولما عرف من أبي دغيش الإصرار ، وعدم الإنقياد وجه أخاه عبدالله بن الحسين في عسكر جرار لتأديب ذلك الثائر^(١) :

نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا واستكبروا شرع الرماح فاسمعا

(١) انظر هذا في سيرة الهادي ص ٨٦ .

والحق أعزل لا يروع فلان بدا مستلثماً لاقى السطفاة فرؤعا
فسار الجيش مع أميرهم ، حتى نزلوا وشحة وبعد الانذار منهم ثانياً
والدعوة لأولئك العصاة خرج عبدالله بن الحسين مع عامل وشحة إلى عفاة
قرية أبي دغيش المذكور ، فنشب القتال بينهم وكانت الدائرة على أبي دغيش
وأصحابه ، وانهزموا هزيمة منكرة ، فدخل الجيش قرية عفاة وملكوها
وأحرقوا منازل المقاتلين ومكثوا بها مدة لإصلاح أمورها ، وأعطى عبدالله بن
الحسين ، أهل القرية ، وبعض المستأمنين من المحاربين ربع أموال
الصدقة ، ونصف سدسها ، عوضاً عما أخذ عليهم ، واستحلهم من معرة
الجيش .

ثم عاد أبو جعفر محمد بن عبيدالله إلى وشحة وأخو الإمام إلى
صعدة .

وفي هذه السنة أيضاً خرج الإمام إلى نجران مرة ثانية ، وذلك انه خرج
بعض عمال الصدقة بمال الصدقة ، حتى بلغوا موضع الركب في طريق
نجران ، فتلقاهم رجل يقال له خبيش^(١) بن وادعة ، في جماعة من أصحابه ،
فأخذوا المال ، وقتلوا رجلاً كان مع العمال ، فلما بلغ الإمام هذا الحادث ،
خف لتأديب المتمردين ، ونزل بقرية شوكان من قرى نجران ، وفي قرية
المفسد خبيش المذكور ، وكان قد فر منها وله فيها أموال وأعنان ونخيل ،
فأمر الإمام بقطع نخيله وأعنانه ، وهدم منزله وراسله ليرد المال المنهوب ،
ويرجع إلى الحق فعاند واستكبر ، وجمع لصوص البادية وعزم على الفساد ،
وقطع الطريق ، ولما بلغ الإمام ما اعتزم عليه من العبث والفساد دعا عليه
فأهلكه الله وأراح من شره .

(١) انظر خبره في سيرة الهادي ص ٨٩ وفيه حنيش بالحاء والنون .

الدعام وكتبه إلى الامام ، انتقال الإمام إلى خيوان وأثافت خبر الصلح وغدر أرحب بن الدعام

وفي هذه السنة وصلت كتب الدعام بن إبراهيم إلى الامام الهادي ، يستمد منه الولاية على ما تحت يده من البلاد ، فأجابه الإمام إلى ما طلب وشرط عليه الطاعة والعمل بالكتاب والسنة ، وكان الدعام من الولاة المتغلبين الذين لا يتقيدون بنظام سوى نظام الاستغلال والاستئثار ولا يخضعون لغير قانون الارادة المطلقة ، وقد ذكرنا بعض أحداثه وأخباره في أيام يعفر بن عبد الرحيم الحوالي ، وما بعده ، فلم يوافق ما شرط الإمام ، وتعبت الرسل بينهما على غير طائل ، وكان الإمام أثناء هذه المراسلة بنجران ، فخرج منه في خلق كثير ، وقصد خيوان فدخلها وأصلح أمورها وفرح به الناس واطمأنوا إليه فمكث بخيوان^(١) زهاء ثلاثة أشهر ، ثم انتقل إلى بطننة حجور ، ولما قرب من البلد استقبله السكان بالسمع والطاعة ، وجاؤوا إليه يهرعون بالعلف وما يحتاجه الجيش ، فأبى عليهم ذلك ، ولم يقبل لأحد منهم علفاً ولا غيره ، وبعد ثلاثة أيام انتقل إلى قرية يقال لها الحصن^(٢) لقوم من همدان فأصلح أمورها وانتقل منها إلى أثافت^(٣) ، فصلى بها الجمعة ودعا الناس إلى البيعة ، فبايعه بشر كثير ، وبالقرب من أثافت محل يقال له بيت زود^(٤) في يد الدعام فوصل أهل هذا المحل ، فيمن وصل إلى الإمام واستغاثوا به من الدعام وجنوده ، فبعث معهم الإمام رجلاً من بني عمه والياً عليهم من قبله ، فلما وصل عامله إلى بيت زود ، خرج من كان فيه من ولاة الدعام ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ونفى الفواحش .

(١) خيوان : بلد مشهور في حوث شمال صنعاء بمسافة ١٢٢ كم .

(٢) في سيرة الهادي الحصن بالصاد المهملة .

(٣) أثافت : بلدة خربة في بلاد حاشد على مقربة من دماج شرقي خمر

(٤) بيت زود : قرية من ناحية خارف وهي بالغرب من ريدة .

ثم كتب الإمام إلى صعصعة بن جعفر صاحب ريذة فأجاب بالسمع والطاعة ، فوجه إليه الإمام نفرأ من همدان لضبط البلد ، وإخراج من فيه من ولاية الدعام ، ثم ان الدعام جمع جموعه ونهض يريد البون^(١) فبلغ الإمام ، وكان قد انتقل من أثافت إلى خيوان ، فخرج من خيوان إلى بيت زود ، ونزل الدعام بحملة من قرى البون ، فصار الإمام بعسكره إلى موضع يعرف بنجد الطين^(٢) ، وهناك أمر بتعبية أصحابه ، ولما رآه الدعام كذلك عبأ عسكره ، وقبل أن يلتحم القتال ، بين الفريقين أرسل الإمام رسولا إلى الدعام ، وقال له : يقول لك الهادي لا تقتل العرب فيما بيننا وبرز إلي ، ويتوقف الناس حتى أقاتلك ، فإن قتلتنني استرحت مني وإن قتلتك استراح منك أهل الإسلام ، فلما وصل الرجل الدعام واخبره بمقالة الإمام رد رداً جميلاً وقال انه لا يريد الحرب ، فأعاد إليه الإمام رسولا يعظه ويوقفه على ما هو فيه من الضلال ، ودامت الرسل بينهما تختلف إلى ان انتهت بالصلح ، ودخول الدعام في عداد الخاضعين لراية الإمام ، وحلف له على السمع والطاعة ، واختلط العسكران^(٣) ، وعاد الإمام إلى بيت زود وسار الدعام إلى حمدة فأقاما ثلاثة أيام ، والرسل بينهما تختلف لتقرير مواد الصلح ، وفي اليوم الرابع أغار أرحب بن الدعام على أثافت بقوم من همدان يقال لهم بنو سليمان^(٤) كانوا بطانة أرحب المذكور، وقد ساءهم الصلح فزَيَّنوا له الغدر ونكث العهد وجرَّوه على قتل عامل الإمام واطهار الفساد:

ومن يكن الغراب له دليلاً يمر به على جيف الكلاب
ولما بلغ الدعام الخبر اغتم ، وانتقل إلى ورور ، ثم لحق بأثافت ، وما

(١) البون : يقع شمال صنعاء بمسافة ٤٨ كم من قراه عمران وريذة .

(٢) في سيرة الهادي ص ٩٦ نجد الضير بالراء المهملة .

(٣) انظر خبر الهادي مع الدعام في السيرة ص ٩٦ .

(٤) سيرة الهادي ص ٩٨ سلمان .

كاد نبأ الحادث يتصل بالإمام حتى خرج من موضعه إلى موضع يقال له مشوط لبني ربيعة ، وذلك آخر يوم من رمضان ، وأرسل الصوارخ في الناس ، فاجتمعوا إليه لثلاث خلون من شوال ، وأجمع أمرهم على منازل الدعام ومحاربتة ليزدوق وبال أمره (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) فصار الإمام الهادي بجموعه إلى اثافت وجرت بينه وبين أصحاب الدعام معركة حامية الوطيس ، ثبت فيها الإمام ثبات الأطواد الشوامخ ، وأظهر من شجاعته واقدامه ما حير الكمأة ، وقهر الأبطال قال مصنف سيرته^(١) حدثني سعيد بن أبي سورة وهو مع الدعام وكان من فرسان اليمن المعدودة ، قال انتخبت من عسكر الدعام ثلاثين فارساً من الرجال أهل البأس وقد مارست الشجعان فما رأيت مثل وقوف الهادي إلى الحق وقلة مبالاته بنا : ودامت المعركة سحابة ذلك اليوم ، إلى أن حجز الليل بين الفريقين فانصرف كل فريق إلى معسكره ، وظل جيش الإمام يراوح من باثافت القتال ويغاديهم حتى يمشوا وملأوا واضناهم الحصار ، والبرد وانقطاع المدد فخرج الدعام متسللاً منها إلى خيوان لأربع بقين من ذي القعدة وهو يدعو بالويل والثبور على من الجأ لحرب الإمام (على نفسه يجني الجهول ويجرم) والله القاتل :

لا تنبش الشر فتبلى به فقلما تسلم من نبشه
إذا طغى الكبش بلحم الكلى ادرج لحم الكبش في كرشه

وقد كان بعض أهل خيوان يكاثره ويسأله المصير إليهم رغبة في إثارة الفتنة ، وإضرار نيران الخلاف ، ولما خرج الدعام من اثافت ، بادر بعض جند الإمام ، ودخل القرية ونهب ما بقي فيها والإمام لم يزل بعسكره ، ولما بلغه خبر النهب والاحتلال اغتم غمًا شديدًا وقال : (لولا اني اخاف ضيعة الإسلام لما أقمت باليمن ولمضيت إلى بلدي فما احسب أن هؤلاء يحل

(١) سيرة الهادي ص ١٠٣ .

المقام بينهم ولا أستحل أقاتل بهم) وأمر برد جميع ما نهب ، وارسل إلى أهل
اثافت ، من كان له شيء فليحضر يأخذه ، فجعل أهل اثافت يحضرون
فيتعرفون على امتعتهم فمن كان له شيء أخذه حتى استكملوا جميع ما أخذ
عليهم^(١) .

ولأن الإسلام في نظره عليه السلام كما قال بعض الصحابة رضوان الله
عليهم ، حائط منيع ، وباب وثيق ، فحائط الإسلام العدل وبيابه الحق فإذا
انقض الحائط وحطم الباب استفتح الإسلام ، فلا يزال الإسلام منيعاً ما أشتد
السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء
بالحق واخذاً بالعدل انتهى .

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب
وهكذا فهم أسلافنا روح الدين ولبابه وبذلك اخترقوا صفوف الأمم
واختطروا ديارها ، فاستولوا على المالك أحقاباً وأخذوا إمرة الأرض اغتصاباً ،
وعنت لهم الوجوه إكباراً وإعجاباً والله القائل *وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمُ الْمَقُورُ*

نصر الله أمة اذ تولى	أمرها العادلون بين الخلائق
وكمأة في المكرمات تباروا	وهم الأسد في صدور الفيالق
دَوَّخُوا الأرض وطَدُوا الملك	قاموا بفروض الكتاب تحت البيارق
ثم عزوا والملك صار عضوضا	فاستكنوا كأنهم في حدائق
وإذا الظلم والفساد اقاما	نضب الحوض من حماة الحقائق

(١) كان الإمام الهادي من أحرص الناس على نصرة الحق ونشر العدل ، والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم ، مهما كلفه الأمر وما ذاك إلا لعظم شعوره بتبعة ما
تحمله من أعباء الخلافة والإمامة عملاً بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ .

(أبو العتاهية ونسبه مكاتبته للإمام وامداده)

هو عبدالله بن بشر بن طريف بن ثابت ، مولى يعفر بن عبد الرحيم الحوالي ، ويكنى بأبي العتاهية ، والي صنعاء ومخاليفها لآل يعفر ، كاتب الإمام الهادي وراسله ، ووعدته النصره والمؤازرة ، ولما كانت وقعة أثافت ، وفرار الدعام إلى خيوان كما سبق عزم الإمام إلى التحول من بني ربيعة إلى موضع من بني صريم^(١) يقال له الدرب أيضاً ، وذلك لأيام باقية من ذي الحجة سنة ٢٨٥ ، وكان قد أرسل إلى صنعاء إسماعيل بن مسلم يستنجز من أبي العتاهية الوعد بالمدد فأمدّه ببعض الجنود وخرج اسماعيل بن مسلم إلى ريذة^(٢) بمن معه ، وأقام بها ينتظر باقي العسكر ، ولما تأخر عززه الإمام بمحمد بن سليمان ، ولما وصل إلى أبي العتاهية ، وجّه معه أخاه جراحاً ، وبعد جماعة من الفرسان فلحقوا بالإمام إلى درب بني حريم آخر المحرم سنة ٢٨٦ فانتقل الإمام وجراح بن بشر ومن معه إلى خرفان والسيبع من أرحب ، وهم جند الدعام ، وقوته وأبناء عمومته ، ولما بلغهم إنتقال الإمام إليهم ، فرّوا من قراهم ، واعتصموا برؤوس الخيال وتركوا بيوتهم وما فيها ، فكف الإمام جنوده ومنعهم عن التعرض لشيء من زروع القوم وأشيائهم^(٣) ولم يزل بهم ، حتى أمنوا ونزلوا إليه فأمنهم واستحلفهم على السمع والطاعة ، فحلفوا ، وكان الدعام عند ان بلغه وصول المدد من أبي العتاهية جمع أهل خيوان وقال لهم : (ليس من العجب أني أصبحت مسوداً وأصبح أبو العتاهية

(١) بنو صريم من حاشد وهم صريم بن مالك بن حرب بن وادعة بن عمرو بن عامر بن كاشع بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد .

(٢) ريذة : بلدة أثرية في الشمال الغربي من صنعاء بمساحة ٤٩ كم .

(٣) انظر سيرة الهادي ص ١١١ .

مبيضاً^(١) فأما أنا فقد عزمت على أن لا أقاتل ابن رسول الله فما تقولون ، فقال بعض أصحابه : بل تقاتل ونقاتل معك ، ولا يأخذ ملكاً قد قاتلت عليه آل يعفر وغيرهم ، ثم يدفعه إلى هذا العلوي ، وكانت كتب الدُعام تترادف إلى الامام ايام إقامته بدرب بني ربيعة ، وكان يشترط فيها لنفسه شروطاً ، مثل جباية بعض البلد ، وولايته على بعض فكان الهادي ، يقول : لو سألتني ان أوليه شبراً من الأرض ما وليته على المسلمين ، ولا جاز لي ذلك عند رب العالمين ، وبعد صلاح خرفان والسيبع ، انتقل الإمام ، إلى حوث لمناجزة الدُعام فازداد قلق الدُعام ، واغتم لذلك وغادر خيوان إلى عُرق (الجوف الأعلى) وقبل تنفيذ ما اعتزم عليه من الخروج ومبارحة البلاد جمع أصحابه واستشارهم في أمر الإمام فاختلفت آراؤهم ، فقال لهم : أما أنا فأول من أجلب^(٢) هذا الرجل وأخرجه من بلده ، وراسله حتى قدم هذا البلد ، وقد كانت أمور الله المستعان عليها ، وقد عزمت على أن لا أقاتله أبداً وان اسمع له واطيع ، فاعلموا لأنفسكم ، وأنا خارج من خيوان إلى بلدي وأرسل جماعة من مشايخ خيوان وأعيانها بهذا الكلام إلى الإمام ، ولما وصلوا إليه طلبوا لأهل خيوان الأمان فأمنهم الإمام ، ثم انتقل إلى بلدهم ولبس الناس العافية واطمأنوا :

بعض الأنعام إذا رأى نور الهدى عرف الطريق ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينتهي عن غيّه حتى يخاف ويفزعاً

(١) هكذا في سيرة الإمام الهادي (ص) فلك يغني بالمسودة اتباع بني العباس والمبيضة العلوية لأن السواد شعار بني العباس .

(٢) وكان الدُعام قد استقدم الهادي من الحجاز ثم من طبرستان وحلف للهادي عليه السلام مراراً ذكر ذلك الهادي عليه السلام في رسالته المشهورة الى الدُعام .

قال السيد العباس مؤلف السيرة^(١) (ووصل خبر الدعام انه لما صار إلى بلده أمر بالأذان بخي على خير العمل ، وأضرب^(٢) عن الخمر وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأرسل إلى الهادي إلى الحق يطلب منه لقاءه ، حتى يحلف له ويتوب إلى الله فما كان منه ، فأجابه الهادي إلى ذلك ولقيه بالقرب من خيوان ، فحلف له هو وبنو عمه وولده ثم انصرف إلى بلده) ووجه الإمام معه أبا جعفر محمد بن سليمان والياً من قبله ليأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، ويجبي الصدقات ، ومكث الإمام يتردد إلى أثافت وبني حريم ، ويصلح ما بين التماثل في تلك الجهات ، حتى استقامت الأمور وصلح الجمهور وعاد إلى صعدة في النصف من جمادي الآخرة من السنة المذكورة ، ومنها عزم إلى نجران لتأديب المفسدين ، وأقام بها أياماً ، ثم رجع إلى صعدة ، ولم يلبث ان خرج إلى خيوان لإصلاح بعض قبائل تمردت من حاشد وهم العمريون ، وفي أثناء قيامه باصلاح هذه القبائل تأمر أهل نجران بعماله ، وهجموا عليهم إلى منازلهم فاشتبكوا معهم في قتال وكتبوا بذلك إلى الامام .

مركز تحقيقات كميونر علوم اسلامی

عزم الإمام إلى نجران وثورة ابن عباد

لم يترث الإمام وقد بلغه ما كان من أهل نجران بل بادر بالعزم لتقليم أظفار تلك القبيلة العاتية ، فتحول من خيوان بمن معه من الجنود في ذي القعدة وقصد صعدة وكانت مؤامرة قد امتدت ، واشترك بعض رؤساء خولان

(١) السيرة ص ١١٥ .

(٢) في السيرة وضرب .

منهم ابن عباد رئيس الاكيليين^(١)، فلما علم بوصول الإمام وما ينويه من العزم لتأديب الثائرين بنجران أراد تشييطه، وبذل كل مجهود في صدّه عن المسير، وصمّم الإمام على المضي إلى ما أتجه إليه فأيس ابن عباد، وعرف انه اخفق مسعاه في التشييط والمخادعة، ولم يبق أمامه غير الظهور بالخلافة، فاعلن بذلك وثار بمن معه داخل بلد صعدة، فقابله بعض أصحاب الإمام، وقضوا على ثورته سريعاً، ثم تجهز الإمام وخرج أول ذي الحجة سنة ٢٨٦، ولم يلبث ان دخل نجران في عسكر عظيم، فكانت له هناك وقعات هائلة، منها وقعة الحضن وميناس^(٢) والهجر وغيرها، دارت رحى معظم هذه المعارك على سيف الإمام وبسالته، فإنه اقتحم ثيج الحروب فيها بنفسه، واعتمد بعد الله على سيفه قال السيد العباسي عند الكلام على وقعة الهجر ما لفظه^(٣) : كسر الهادي ثلاثة أرماح في القوم، ثم ضرب بسيفه حتى امتلأ قائم سيفه علقاً ولصقت أنامله على قائم السيف، وفي ذلك يقول الإمام من قصيدة أولها :



طرقت لعمرك زاهر مولاهم ~~تحتل كافي~~ والحرب مسعرة يشب لظاها

ومنها :

نحن الفسواطم لهونا طعن القنا	ومدامنا حرب تدور ^(٤) رحاها
هلا سألت فتخبري اذ لم تري	اذ سار يطلب مهجتي أعداها

(١) من خولان .

(٢) ميناس من حصون نجران المشهورة (ص) .

(٣) سيرة الهادي ص ١٧٠ .

(٤) السيرة تدور .

لاح الضياء^(١) وابرقوا بكتيبة شهباء تدفق خيلها وقناها
والجيش في ايديه كل عقيقة^(٢) القين احكم سنّها وجلاها
والمشرفية في اكف حماتها تحكي البوارق لمعها وسناها
إلى آخرها ، وكان النصر حليف الإمام ، وقتل من أهل نجران خلق
كثير قال في سيرته^(٣) : ثم إنه أمر بجمع القتلى ، وتعليقهم بعراقيبهم في
الشجر منكسين على كل شجرة جماعة مؤزرين بالخرق والشمال^(٤) ، وأقام
بالقرية (الهجر) ثلاثة أيام أو أربعة إلى أن قال ثم أتت بنو الحرث واستوهبوا
الإمام جثث اخوانهم ودفنوها في الحفر والآبار .

أبو جعفر محمد بن عبدالله العلوي وولايته على نجران

لما فرغ الإمام من حرب الشائرين ، أقام فيهم مدة شهرين لإصلاح
البلاد ، ثم أرسل إلى أبي جعفر محمد بن عبدالله العلوي ، وكان عامله على
صعدة يستقدمه إليه ، فلما وصل استخلفه على نجران ، وقفل راجعاً إلى
صعدة في جمادي الأولى سنة ٢٨٧ ، وما كاد يصلها ، حتى بلغه خبر
إنتفاض قبائل خولان ، وتمردوا ، وهم الأكيليون وبنو كليب والمهاذر ،
والغويرات ، والبحريون ، وطرف من بني جماعة ، فأمر الإمام بهدم منازل
الأكيليين ، وقطع أعنابهم وجرت بينه وبين المخالفين عدّة وقعات ، انتهت
بهزيمتهم وانظامهم في سلك الخاضعين لسطوة الإمام ، وبعد أن قضى على

(١) السبرة الضباب .

(٢) العقيقة : السهم الذي يرمى به نحو السماء .

(٣) مسيرة الهادي ص ١٧٣ .

(٤) جمع شمله معروف .

جميع حركات المشاغبين في الجهة الشمالية ، كما مرّ ، جمع جموعه وقصد صنعاء .

دخول الإمام صنعاء قتال الجفّاتم^(١) وآل طريف تسليم أبي العتاهية ، وتنقل الإمام في البلاد

ودخلت سنة ٢٨٨ في المحرم منها دخل الإمام الهادي صنعاء وذلك ليلة الجمعة لسبع بقين من المحرم ، ومعه أبو العتاهية يسير بن يديه ، حتى أدخله إلى الدار التي كان فيها ، وكان قد دبّر حيلة وأخرج الجفّاتم ، وآل طريف إلى السر^(٢) ، ليكونوا قوة في وجه الإمام تمنعه عن قصده ، وأظهر لهم انه يتجهز لمحاربته وصلّاه عن صنعاء ، وكانت جميع المخابرات ، والمراسلات ، تجري بصورة سرّية لم يطلع عليها سوى وزيره ابن عباد المقتول مع الإمام في حرب شبام ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وبلغ عبدالله بن جراح والجفّاتم صبيحة ذلك اليوم خبر دخول الإمام صنعاء فأقبلوا من السر يركضون وانضم إليهم آل طريف ، وآخرون من أصحاب أبي العتاهية ، وأميرهم إبراهيم بن خلف واجمع رأيهم على الوقعة بالإمام وأصحابه وجعلوا موعد تنفيذ هذه الفكرة وقت صلاة الجمعة ، ولما خرج الإمام للصلاة بادروا بنهب أثقاله ، وبعض أصحابه ، فبلغه ذلك ، وهو على المنبر فاتم خطبته ، وصلّى بالناس ، ثم خرج في أصحابه حتى بلغ منزله ، وكان أبو العتاهية ، قد خرج إلى ابن عمه ، ومن معه من رواد الفتنة ، وهم بالجبانة ، وعساكرهم على الدرب يحثّهم على السكينة ، والهدوء ، والرجوع عما اعتزموه من المخامرة على الإمام ، وشقّ عصا المسلمين فسبّوه وشتّموه ورموه بالنبل والحجارة ، وانضم إليهم من أهل صنعاء زهاء عشرة آلاف رجل من صغار الأحلام الهمج ، فزاد غرورهم ، وداخلهم العجب :

(١) الجفّاتم هم جنود عامل بغداد الحسين بن أحمد جفتم (ص) .

(٢) السر : واد مشهور بالشمال الشرقي من صنعاء بمسافة ٣٣ ك.م .

ولو علموا عقبى الأمور لقابلوا أوائلها بالحزم وأطرحوا العجبا
ولكنه المقدور يلوي بذى الحجى فيسلبه ان حم آراؤه سلبا

وبدأ القتال بينهم وبين الطبريين أصحاب الإمام ، فانهزم الطبريون ،
وخرج الإمام في أصحابه ، وحمل عليهم حملة ، فانهزموا وقتل خيارهم ،
وتبعهم إلى الجبانة^(١) ، فسأله أبو العتاهية الرجوع فرجع ، ثم ان الجفاتم ،
أرسلوا إلى أبي العتاهية يسألونه طلب الأمان لهم من الإمام ، فأمنهم الإمام ،
ورجعوا إلى دورهم ، وفي اليوم الثاني أمر منادياً ينادي بالعطاء للعسكر ،
فركب بعض الجند إليه ، وتخلف آخرون ، وبلغ الإمام عنهم كلام قبيح
 واجمعوا على حربه ، فلما كان من الغد ، وجّه الإمام إلى كبارهم وأهل
البأس منهم والعناد ، قال السيد العباسي^(٢) : (فلما أتوه وصاروا في داره أمر
بهم في الحبوس والحديد ، وأخذ سلاحهم ودوابهم وفرّقها على الطبريين ،
وهذا البلد ، وانقطعت الفتنة ولبس الناس العافية : ولما استقرت الأحوال
بالإمام سلّم أبو العتاهية جميع ما في يده من الأموال والدواب والخيول
والأسلحة وهجر الولاية وترهّد)

من أخمل النفس أحياءها وزوَّجها ولم يبت طأويأ منها على كدر
ان الرياح إذا اشتدت عواصفها فليس ترمي سوى العالي من الشجر

ولعل القارىء يستغرب ما هنا ولا يقتنع بالبرهان الشعري على مدح
الخمول وتحسينه ، ويستبعد أن يكون الحافظ لأبي العتاهية الى التنازل عن
الملك ومأثرة الضنك والبؤس ، حب الخمول ، وتغلب النزعة الصوفية على
روحه ، ولا سيما إذا عرف انه لم يلبس المسوح ، ويطيل السَّبحَة ويأخذ زاوية
المسجد ، ينتظر الموت فحسب ، بل نزل عن منصّة الإمارة إلى ميدان
الكفاح ، فخاض المعامع ، وقارع الأبطال وزجّ بنفسه في غمرات الموت

(١) يعني جبانة صنعاء

(٢) سيرة الهادي ص ٢١٠ .

طائعا مختاراً ومات موت الجندي في ساحة القتال ، قصفاً بالسيوف وطعناً بالرماح :

ويلوح لنا أن زمن أبي العتاهية كان ملاناً بالاضطراب ، فياضاً بالفتن : لخلو البلاد عن السلطة الوازنة ، لضعف خلافة بغداد وسوء طالعها على هذه البلاد ، وضيق دائرة نفوذها في ربوع جنوب الجزيرة فتتج من ذلك طبعاً ، اختلال النظام ، واضطراب الحبل وانتشار الأمور ، واشتباه المخارج والمواجع^(١) ، ورفع كل موائب عقيرته بما يريد ، بحيث أصبح كل طامع ، أو متغلب يناهض الآخر ، ويصاوله ، ويحاول بكل قواه القضاء عليه ، وسلبه كالوحوش الضارية ، والذئاب العاوية والأمة بين الغالب والمغلوب كالحبة تحت الرحا والخيط بين شقي المقرض

والناس في فتنة عمياء قد تركت أشرافهم بين مقتول ومحروب وكان خليفة بغداد يقنع من المتغلب على القطر بالخطبة وضرب السكة ومن أولئك آل يعمر^(٢) وبني زياد ، وهؤلاء وأولئك وجد فيهم الصالح والطالح ، ومن خانته البخت ، ومن يساعده الحظ ، والبلاء كالمرصد المهيأ لتدوين حركات الزلازل غرض النابل وفريسة الصائل .

ومن ملك البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد فهي دائماً ترتقب راجفة : خسف وزلزال محنة لا تهدأ إلا لشور ، ولا تسكن إلا لتب ، فلم ترق هذه الحياة المضطربة أبا العتاهية ورأى أنه لا ندحة له عن الإنغماس في ذلك التيار المخيف : إلا بالقضاء على كل مشاغب ، وتقويم عناد كل معاند (وَهُمْ كَثُرُ)^(٣) والفوضىاء ضاربة أطنابها في

(١) كذا كتبها المؤلف رحمه الله ولعلها (المواجع) .

(٢) كذا في الأصل ولعله سبف قلم من المؤلف رحمه الله ويعني آل يعفر .

(٣) جز من بيت أبي فراس الحمداني (أراك عصي الدمع) .

جميع الأنحاء اليمنية ، كما أشار إلى ذلك كثير من مؤرخي اليمن ، وأسلفنا الإشارة إليه أيضاً .

فلما عرف حراجة الموقف وكثرة المثبطات ومفتررات السعي اختصر لنفسه طريق العمل بالـ (١) إلى رجل عظيم فيه الأمل المنشود :

فيه ما تشتهي العزائم ان هُـم ذويها ويشتهي الأذكيا
فلمن حاول النعيم نعيم ولمن آثر الشقاء شقاء
وكانت الآمال مشرّبة والنفوس متطلعة ، والأعناق متطاولة من أبي
العتاهية ، ومن غيره إلى الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن
القاسم عليه السلام ، فكانوا يرأسلونهم ، ويفدون إليه كما فعل الدّعام ،
وأهل نجران ، وغيرهم ، بيد أن أطماع الكثير منهم كانت تحذوهم إلى
الإنحراف عن جادة السلوك وتنبو بهم إلى هوة الحضيض ، وتقطع أعناق
الرّجال المطامع ، فبادر أبو العتاهية ، إلى التخلي من متاعب الزعامة ،
وانصاع إلى التقشف والعزلة ، وآثر حياة الفرد وعيش الجندية على الملك
والرفاهية ولسان الحال منه عند ذلك تنشد :

إذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً فكن عبد المالك مطيعاً
وان لم تملك الدنيا جميعاً كما تهوى فاتركها جميعاً
هما سبيان من ملك وترك ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
فمن يقنع من الدنيا بشيء سوى هذين عاش بها وضعياً

وأقام الإمام بصنعاء وضرب السكة باسمه ، ودعا الناس إلى البيعة له
قال الشرفي في اللآلي ، نقلاً عن المنصور بالله عليه (٢) السلام : أنه لما

(١) كذا وكتبها ولعله كتبها بالالتجا فمسح الأحرف الأخيرة ، من الكلمة لأن الالتجاء لا يكون إلا إلى الله وقد ظهر أثر الكشط واضحاً .

(٢) المتوفى سنة ٦١٤ سيأتي .

فتح صنعاء وأهلها جبرية^(١) ، وكان فيها سبعة آلاف فقيه ، وكانوا يصلون خلف الهادي عليه السلام ، فاختاروا منهم سبعمائة فقيه ، ثم سبعين عالماً ، وشيخهم جميعاً القاضي يحيى بن عبدالله بن كليب جد بني النقوى ، وتقدموا إلى بين يدي الهادي لمناظرته ، فتقدم يحيى النقوى ، وقال : ما تقول يا سيدنا في المعاصي ، فقال عليه السلام : ومن العاصي ، فسكت يحيى النقوى ، ولم يجبه بشيء ، وقام وقام معه أصحابه إلى مؤخر المسجد فوبّخه أصحابه ، وقالوا فضحتنا عند هذا الشريف ، فقال : يا قوم ان قلت ان الخالق العاصي كفرت ، وان قلت المخلوق العاصي ، خرجت عن مذهبي إلى مذهبه ، فقاموا بأجمعهم فبايعوا الهادي عليه السلام وصاروا على مذهبه :

وبعد أن أصلح شؤون صنعاء وبعث العمال على المخاليف انتقل إلى شبام كوكبان ، وبث عماله على البلاد ، ووعظ الناس ، وذكرهم ورفع عنهم المظالم ، ونظم جميع الشؤون وعاد إلى صنعاء ، واستخلف ابنه أبا القاسم محمد المرتضى على شبام ، وجهاتها ، ولم يلبث بصنعاء إلا يسيراً ، وسار فيها إلى ذمار ويحصب^(٢) ورعين^(٣) وجيشان^(٤) ينتقد أمور رعيته هنالك ، وكان خروجه من صنعاء آخر شهر صفر من السنة المذكورة ، وخرج معه ابو العتاهية ، واستخلف على صنعاء أخاه عبدالله بن الحسين ، ولم يلبث أن عاد إليها ، ثم خرج إلى شبام مرة أخرى ، واستخلف على صنعاء ابن عمه سليمان بن علي ، وكان الإمام قد ألقى القبض على كثير من آل يعفر وآل طريف ، وسجنهم في صنعاء

(١) قال في التعريفات ص ١٠١ الجبرية من الجبر وهو إسناد فعل العبد الى الله والجبرية اثنان متوسطة تثبت للعبد كسباً في الفعل كالاشعرية وخالصة لا تثبت كالجهمية .

(٢) يحصب : قبيلة من حمير ومناطقهم ذمار وجهران ومن سمارة إلى ذي الكلاع .

(٣) مخلاف من لواء إب .

(٤) مدينة خربة في عزله الأعشور بالعود شمال قعطبة لمسافة ١٥ ك . م .

وشبام ، وقدم^(١) ثم وجه ابنه ابا القاسم في جماعة من الجند إلى بلد همدان ، وبقي في عدد قليل ، فطمع آل يعفر ، وآل طريف في البلاد لقلة الجند بها ، وأجمع أمرهم على إثارة القبائل فخرج نفران من آل يعفر من شبام سرّاً إلى أهل قدم ، واستشاروا حماستهم ، وطلبوا منهم النجدة ، فلبوهم وبلغ أمرهم صعصعة بن جعفر صاحب ريدة البون فانضم إليهم ووثب على البون ، وفرق أموال الصدقة ، وخيلاً كانت للإمام هنالك ، وزحف الثوار إلى بيت ذخار ، لمناجزة الإمام فطلب الإمام من عامله بصنعاء إرسال كل حامل سلاح من أهل صنعاء ، فخرج منهم بشر كثير ، ولما وصلوا إلى شبام ، طلع الإمام ، ومعه ابو العتاهية ، ومن معه من الجنود لطرد الثوار من جبل ذخار^(٢) ، وخلف على شبام محمد بن عباد ، وأهل صنعاء ولما علم الثوار بخروج الإمام عن شبام ، باغتها ، فدخلوها وأخرجوا من بالسجن من الجفاتم وغيرهم ، وما كادت تقع أعين الجند الصنعائي على الثائرين ، حتى فروا وانهزموا لا يلوون على شيء ، فقتل محمد بن عباد ، وطارت الأنباء إلى الإمام ، فأرسل أبا العتاهية ، ومحمد بن الدعام ، لطرد الثوار ، واسترداد شبام ، فانقضوا عليهم إنقضاض البواشق من جبل ذخار ، وطردوهم عن شبام وفرقوهم شذر مذر ، وبات الامام ليلته بالجبل المذكور ، وهرع صبيحة اليوم الثاني إلى شبام ، وحضر دفن ابن عباد وجنازته .

انتقاض أهل صنعاء وضهر على الإمام

وتداعي سائر البلاد

لما انهزم أهل صنعاء وغيرهم من شبام ، فروا نحو صنعاء وضهر^(٣)

(١) قدم : بلاد جنوبي حجة وهم بطن من همدان .

(٢) ذخار : جبل مشهور يعرف اليوم بضلاع كوكيان .

(٣) هكذا في السيرة ولعل المراد به وادي ضهر المعروف (ص) .

والبون ، ولقيهم في الطريق عدد كان أرسله عبيد الله بن محمد الحسيني ، عامل الإمام على ضهر لمن بشبام ، فقال بعضهم لبعض : قد قتل ابن عباد وخالفت العساكر والأولى أن نعود على من يظهر من جند الإمام لتكون لنا يد عن آل يعفر :

وكانوا كذّاب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما أحال على الدم

ورجعوا على أعقابهم القهقري ، ووثبوا على حبس ضهر فكسروه وأخرجوا أبا الغشام بن طريف ، ومن معه من آل يعفر وخرج عامل الإمام لا يلوي على شيء (من نجا برأسه فقد ربح) وقصد صنعاء فما تلعثم أهل صنعاء ان (جاؤوا بمطفية الرّضف)^(١) وصنعوا صنيع أهل ضهر وأعلنوا الخلاف لأيام بقيت من جمادي الآخرة بقيادة رجل منهم يقال له أحمد بن محفوظ فكسروا السجن ووثبوا على عامل الإمام علي بن سليمان مفاقصة ، فانفلت من بينهم في ستة فوارس من بني عمه ومن الطبريين ، وكان في سجن صنعاء جماعة من آل طريف والجفاتم ، وتداعت سائر البلاد فكأنما كانوا على ميعاد ، وأخرجوا عمال الإمام من بين أظهرهم ودب ديب الشر والفساد في عراصهم : ومن يتعود عادة ينجذب لها على الرغم منه والعوائد أملك

وكان الإمام يومئذ في شبام ، فلما وافته الأنباء ، وعرف الحقيقة وجأهه الناس بالخلاف بعد أن ساعفته الأيام وانقادت له الأمور ، جمع حرمه وأثقاله وقبل أن يغادر البلاد ، أطلق من كان بسجن شبام من آل يعفر وآل طريف ، وقد سبق أن الثوار أخرجوا من كان في السجن ، ولعل هؤلاء غير من أخرج الثوار قال السيد العباسي (٢) : (أطلق الهادي عليه السلام أسعد بن أبي يعفر وإبراهيم بن خلف من حبس شبام وأعلمهم بما كان من سوء نيتهم إليه ، وقال

(١) اب بداعية اشد من الأولى وهو قتل عربي (ص) .

(٢) سيرة الهادي ص ٢٢٢ .

قد وهبت لكم أموركم فاتقوا الله في سركم وعلانيتكم) .

وكأنه أراد أن يعلمهم درساً بليغاً في التسامح والعفو والإغضاء فأتى بأعجب ما عرف في تاريخ الفاتحين ، وأجل ماسطر في باب العدل والتسامح والعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ ، وعدم اللجاج في الإنتقام ، وقديماً قيل «من انتقم فقد شفى غيظ نفسه وأخذ أقصى حقه ، ومن أخذ حقه وشفى غيظه لم يجب شكره ، ولم يذكر في العالمين فضله» ، ولم نر أهل النهي والمنسوين إلى الحجى والتقى مدحوا بالحكام بشدة العقاب ، وقد ذكروهم بحسن الصّفح وبكثرة الاغتفار وشدة التغافل :

أخذ التاريخ مما تركوا عملاً أحسن أو قولاً أصاباً
ومن الإحسان أو من هذه نجح الراغب في الذكر وخابا
ثم فيه أكبر برهان على حبّ الإمام للوثام والسلام مع قوة نفس ، وشدة
بأس وشجاعة ، وكرم أخلاق نادرة المثال تحلّت بها شخصيته الفذة حيث
عامل أعداءه ، بهذه المعاملة ، في أشد الأوقات حرجاً وضيقاً ، ولو كانوا مع
غيره لما كان حظهم منه غير السيّئ ، وقد أشار بذلك محمد بن الدعاء ، وأبو
العتاهية كما نقله صاحب السيرة ، فلم يقبل الإمام ذلك منهم :

يفر جبان القوم عن أم رأسه ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف البخيل أقاربه

وهكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وقّافون عند
الشبهات ، ولولا صرامته في الحق ورغبته الشديدة في اتباع أثر السلف لكان
له مندوحة في معاقبتهم والتشديد عليهم .

ثم إن أهل شبام تجمعوا ، وهمّوا بالإمام قبل أن يقوم من مقامه ، ولما
عرف ذلك منهم ، رجع عليهم ومعه أبو العتاهية ، فكانت معركة قتل فيها
جماعة منهم ، وقتل الإمام أكثرهم ، وانقطع من الجمال ، التي كان عليها

رجل الإمام جملان كانا مثقلين لا يطيقان السير ، فأخذوهما ، ولما وصل
 البون عارضه أهل البون ، فحمل عليهم ابو القاسم ، وفلّ جمعهم ، وبات
 الإمام ومن معه في ريدة ، وانتقل اليوم الثاني إلى بيت زود وَوَجَّهَ بالحرم الى
 درب بني صريم ، وعاد إلى ريدة ، وفي اليوم الثالث باغت الإمام ، ومن معه
 أبو زباً^(١) مولى آل طريف ، وصعصعة بن جعفر في جيش كثيف ، فدخلوا
 القرية ولزموها من كل جهة ، ففشل جند الإمام ، وفرّوا على وجوههم ، لا
 يلوون على شيء ، وبقي الإمام في نفر يسير حمل بهم على المغيرين ،
 وأصدقوهم الطعن والضرب ، حتى أخرجوهم من القرية مدبرين والبواتر تعمل
 في أفقيتهم ، قال السيد العباسي : وكان مع الإمام عليه السلام ، في ذلك
 اليوم ذو الفقار سيف علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبه كان يقاتلهم وفي
 ذلك يقول :

الخيل تشهد لي وكل مشقف	بالنصبر والابلاء والإقدام
حقاً ويشهد ذو الفقار بأنني	أرويت حذّيه نجيع طغام
نهلاً وعلاً في المواقف كلها	طلباً بشار الدّين والإسلام
حتى تذكر ^(٢) ذو الفقار مواقفاً	من ذي المعالي السيد القمقام
جذّي علي ذو الفضائل والنهي	سيف الإله وكاسر الأصنام
صنو الرسول وخير من وطى	الثرى بعد النبي إمام كل إمام

وفر أبو زباً ، وصعصعة إلى قرية يقال لها الغيل من قرى البون فتعقبهم
 الإمام وقاتلهم بالغيل قتالاً شديداً ، حتى أمسى ثم انصرف الى ريدة سالماً ،
 لم يقتل من أصحابه أحد قال مصنف سيرته^(٣) : فلما كان في بعض الطريق

(١) في مطبوعة السيرة أبو زياد.

(٢) سيرة الهادي ص ٢٢٣ .

(٣) في السيرة تذكروا .

(٤) السيرة ص ٢٢٤ .

لقيه أصحابه الذين كانوا انهزموا عنه وخلوه فانصرف بهم ، فبات بريدة فلما أصبح أمر بقطع رؤوس المقبلين فقطعت ، ثم أمر بها فحملت إلى صعدة ونجران .

عودة الإمام إلى صنعاء المرة الثانية

ثم انه جمع جموعه وقصد صنعاء ومعه أخوه عبدالله بن الحسين على اثر عودته من الحجاز ، فلما علم آل يعفر وآل طريف بمقدمه تجمعوا من صنعاء وشبام وضهر ، وخرجوا في جيش عظيم لمقاتلته فالتقى الجيشان خارج صنعاء وكانت ملحمة عظيمة ، انهزم فيها آل يعفر ومن معهم ودخل الإمام صنعاء وكان قد أرسل إلى الدّعام يستنجد به فتخاذل ولم يجب خوفاً من آل يعفر ، وكان دخول الإمام صنعاء يوم الجمعة آخر رجب سنة ٢٨٨ ولم يخسر من جنده سوى نفر واحد

وكان أهل صنعاء في خوف شديد لما يتوقعونه من عقوبة الإمام لما سبق منهم من اخراج عامله علي بن سليمان وما أحدثوه ، فلما دخل صنعاء لم يعاقب أحداً قال في سيرته^(١) ، ولما كانت الجمعة الثانية من دخوله صنعاء خرج إلى المسجد، ووعظ الناس، ثم قال: أيها الناس ما نقمت علي إلا ما حكى الله سبحانه عن قوم لوط في قولهم : «أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون»^(٢) ، ولكني أقول لكم كما قال عمي يوسف صلى الله عليه وسلم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»^(٣) واستمرت الحرب بين الإمام وآل يعفر وآل طريف سجّالاً من تاريخ دخوله صنعاء إلى جمادى الآخرة سنة ٢٨٩ تسع وثمانين ومائتين ملئت هذه الفترة بحروب ومعارك قتل فيها عدة من خيار أصحاب الإمام كأبي العتاهية ، وعلي بن سليمان وغيرهم ،

(١) السيرة ص ٢٢٦ .

(٢) الآية ٢٧ سورة النمل .

(٣) الآية ١٢ سورة يوسف ٩٢ .

وأصيب فيها الإمام بجراحات عظيمة ولم يتمكن من التوسع في البلاد ، بل ظلّ شبه محصور ، فلم تطمئن به الحال ، وكانت صنعاء وجبل مقم ، وحدة ، وسناع ، وبيت بوس وحدين ، وعصر^(١) ، ميادين النزال فاضطر والحالة كذلك إلى مغادرة صنعاء تفادياً من عواقب الفتن المستمرة والغارات الدائمة ، أضف إلى ذلك ضعف المالية فقد طلب من أهل صنعاء القرض أو المعونة ، فلم يسعفوه بشيء ، فخرج من صنعاء إلى صعدة في جمادي الآخرة من السنة المذكورة .

إنتفاض أهل نجران ومسير الإمام لتأديبهم

في أثناء هذه المدة وصلت الإمام كتب عامله بنجران بانتفاض قبائلها واجتماعهم على الفساد وإخراجهم العامل من قرية الهجر ، مركز ولايته إلى الحضن ، فلما وصل الإمام صعدة بادر بالخروج إلى نجران لتأديب الثائرين ، فلقه أبو جعفر محمد بن عبيدالله وابنه علي بن محمد وأخوه القاسم بن محمد في جماعة من همدان ، ولما علمت بنو الحرث بمقدمه البلد ، لابسهم من الخوف والوجل ، ما أفقدهم القرار ، فأتوه طائعين مستسلمين ، يلتمسون منه الصفع والتجاوز عما أحدثوه فأجابهم إلى ما طلبوا ، وشرط عليهم إرجاع ما أخذوه على الناس من الحقوق ، فامثلوا لأمره ، وانصاعوا إلى إشارته ، ودخل الإمام مع عامله قرية الهجر وعادت المياه إلى مجاريها ، وبعد أن مكث بها أياماً رجع إلى صعدة واستقر العامل بموضعه .

ودخلت سنة ٢٩٠ فيها تحرك الإمام لمطاردة ابن عياد الأكيلي ، وكان ابن عياد بعد فشله وهزيمته في حركته التي أشرنا إليها سابقاً ، عزم إلى آل طريف ، والتمس منهم المدد لمحاربة الإمام فأمدّوه ، وكانت الحرب بينه وبين الإمام بموضع يقال له الحدائق ، وبأول معركة انهزم ابن عباد ، واستولى

(١) قرى تحت صنعاء .

الإمام على حصنه حصن علاف ، وأمر بقطع أعنابه ، وهدم منازلها ، ولما فرغ من أمر ابن عباد تحول بجيشه إلى بلد وائلة ، وكانت قد أحدثت في طريق نجران أحداثاً أيام كان الإمام بصنعاء قال مصنف سيرته^(١) : فغدا حتى وصل موضعاً يقال له كتاف من بلد وائلة ، وكان موضع المحدثين فنهب العسكر ما وجدوا فيه من مال وغيره وقطع أعنابهم وخربها ، ثم تقدم إلى موضع آخر يقال له المطلاع ففعل به كما فعل بكتاف ، ثم أقبلت إليه وائلة بسمعهم وطاعتهم وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم ، وضمن بعضهم بعضاً ، وأخذ منهم جماعة من المحدثين ، ورجع إلى صعلة .

الخلافا بين آل يعفر وعبيدهم واستقدامهم الإمام وما كان من الأحداث

وفي هذه السنة وقع الخلاف بين آل يعفر وعبيدهم فكتب آل يعفر إلى الإمام يستجدون به ويستنهضونه فتأقلم لما يعرفه منهم من الغدر وقلة الوفاء بعد التجربة والاختبار (ان المعافى غير مخدوع) وكان الدعام هو المضطلع بأعباء هذه الوساطة حيث جعله أبناء يعفر الوساطة بينهم وبين الإمام ، وتكررت الكتب منهم فلم يسعفهم الإمام بما راموه ، ولا التفت إلى ما أملوه وكان الدعام يرغب في نهوض الإمام ولكنه لما عرف ثقافته عزم إليه بنفسه ، ورغبه في الوثوب على صنعاء لملاءمة الظروف ومواتاة الأحوال ، وقال له قد استوت لك الأمور واستوثقت لك من القوم ، ولم يبق غير النهوض ، فانخدع الإمام بذلك ، وخرج من صعلة ، وبرفقة الدعام ، ولسان الحال منه تنشد :

طورا يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعدنان
وكانه وقد أخطاه المجد من طريق المغالبة والمصاولة يريد الآن من

(١) السيرة ص ٢٤٤ .

جهة الانتهاز والاستغلال فطوح بالإمام على حساب أمله المزعوم ، ولم يبال بما كان .

ولما وصل الإمام إلى خيوان مكث بها مدة وكان بها ابن الضحاك^(١) من قبل آل طريف ففر من وجه الإمام ثم إن الإمام أرسل الدعام لأخذ العهود والمواثيق من آل يعفر ، فكتب إليهم الدعام لملاقاته إلى البون ، ففعلوا وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، واتفقوا على الاشتراك في العمل لفتح صنعاء فمضى الإمام مشرق خولان ، حتى نزل بيت حاضر^(٢) ، وخرج لقتاله من صنعاء إبراهيم بن خلف ، ودارت بينهما عدة معارك ، لم يتمكن فيها الإمام من التغلب على قوة عدوه ، واستمرت الحال كذلك ، حتى عرف الإمام في جيشه الضعف ، فانتقل من بيت حاضر ، إلى موضع يقال له مدر^(٣) ، وعندما حط رحله بهذه القرية ، استأذنه أصحابه من خولان وهمدان ونجران ، في الانصراف فأذن لهم ، وبقي في عدد قليل فبلغ آل طريف قلة من معه فانتهزوا الفرصة ، وأرادوا القضاء عليه ، ونهضوا لحربه في جموع كثيرة ، ونزلوا بالقرب منه ، فانتقل من مدر إلى موضع يقال له إتوه^(٤) ، وأرسل الصوارخ في همدان تستنفرهم للقتال ، فلم يجبه أحد ، وكان كلما وصلت رسله قرية من قرى همدان نهض أهلها إلى آل طريف وصاروا ليأ عليه وحرباً له :

ورها تخذل من يقوم بنصرها وتظل تنصر دونه الخذالا
واذا أهاب بها الهداة رأيتها تعصي الهداة وتتبع الضللا

(١) هذا أول ذكر لابن الضحاك ولد فيما سياتي أخبار كثيرة ولم يبين اسمه العلم في سيرة الامام ولا في غيرها (ص) . قلت وفي صفة جزيرة العرب تحقيق القاضي العلامة محمد بن علي الأكوخ اسم المذكور هو احمد بن محمد بن الضحاك الحاشد ثار على الامام الهادي واسر ابن محمد . ٣٠ - ٣١ .

(٢) بيت حاضر قرية أثرية في (وادي الأجبار) وادي التناغم من بلاد سنجان .

(٣) مدينة أثرية في ارحب بالشمال من صنعاء .

(٤) إتوه بكسر الهمزة وسكون التاء جبل وقرية في ارحب بالشمال من صنعاء .

وفي أول يوم من شهر رجب من السنة ، تحرك جند آل طريف ، وقصد الإمام إلى موضعه بالقرية المذكورة فلم يجبن الإمام عن عدوه ولا بالى بقوة عدوه ، وقلة عَدَدِهِ ، وعُدَدِهِ ، بل كان أملك ما يكون لنفسه وأضبط لشعوره ثبت في جماعة قليلة من الطبريين والعلويين ، كأنهم حقيقة بين أغلاط لا ترهبهم الأهوال في مواقف القتال ، فكافحوا كفاح الأبطال ، وصبروا لعدوهم وقد أحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم :

لقي الرجال الحادثات بصبرهم حتى انجلت غمم لها وغبار لانوالها في شدة وصلابة لين الحديد مشت عليه النار

وما زالوا يقاتلون حتى قتل أكثرهم ، وأسر محمد بن الإمام^(١) بعد أن أصيب بجراحات سقط منها عن فرسه مغشياً عليه ، فلحقه القوم ، وكان فيهم ابن الضحاك الخيواني ، فحال بين القوم وبين إصابته ، ومضوا به إلى ابن خلف ، ومعه جماعة من أصحابه ، وخرج الإمام من هذه المعمة في نفر يسير ، وسار حتى نزل بؤرور^(٢) ، وقد كان لما (التقت حلقتا البطان) و(وقعت بقر^(٣)) أرسل ابنه أحمد إلى الدعام يسأله المصير إليه فيمن معه ، فكره الدعام ذلك ، وتثاقل ، وكان من رده عليه أن قل لأبيك ينجو بنفسه ، فليس هذا وقت قتال :

ولم يزل الإمام يكرر استصراخ همدان ويجيل قداح الرجاء في تلك الأنحاء عله أن يجد المطلوب ، لاستئناف المقارعة ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، فلم يظفر بما يريد (إذا عظم المطلوب قل المساعد) فقد صممت

(١) انظر خبر أسر المذكور في سيرة الهادي ص ٢٤٩ ط سهيل زكار وعنه يلخص المؤلف الحوادث هنا .

(٢) يقال حبابت بقراي نزل الأمر بقرارة وصابت من الصوب وهو النزول ويروى وقعت بقر مثل بضرب للشدة وكذلك ما قبله .

عنه همدان آذانها وجاهره الناس بالخلاف ، فكتب إلى الجعفري^(١) يسأله أن يوجه إليه معونة من المال يستعين بها على حرب القوم ، فثقل عن ذلك فثبت الإمام مكانه والدّعام يكاتب ابن خلف في الصّلع والخلاص لمن عنده ، فلم يجبه ابن خلف إلى ما طلب ، وبعد لأي أسعد ابن خلف بشرط ، أن ينصرف الإمام من وُزور فإذا وصل صعدة أطلق ابن خلف محمد بن الإمام وأصحابه ، وأخذ على ذلك الدّعام العهد والميثاق ، فأبى الإمام أن ينتقل ، وبينما هو يرجو ويؤمل أن تساعد الأيام ، وينقاد له الحرون ، إذ وافته الأنباء بوصول علي بن الحسين جفتم ، عامل المكتفي على اليمن إلى مكة فخشي الإمام على ما خلفه ، وبادر بأسراج جواد الأوبة ، وعاد إلى صعدة ، ولبت بها قليلاً ثم خرج منها إلى بلد وائلة ، وكانت هذه القبيلة ، قد أظهرت الفساد ، وخرجت عن الطاعة ، فنهض لتأديبها في عساكر كثيرة وذلك في النصف الأخير من ذي الحجة عام تسعين ومائتين (٢٩٠) .

ولما وصل بلاد وائلة أذاقهم كأساً مترعة بالبطش والتنكيل جزاء لما استمرؤوه من المرتع الويل :

هو دان الرباب اذ كرهوا الديـ من دراكا بغزوة وصيال
قال السيد العباسي^(٢) : ومضى العسكر كله حتى قرية أملح^(٣) ونهبوا ما وجدوا فيها وأقاموا بها أياماً يخربون المنازل والآبار ، ويقطعون النخيل والاعناب ، والقوم في ذلك يطلبون الأمان وهو كاره لذلك ، لما يعلم من شرارهم وقلة وفائهم ، وما زال ينتقل في قراهم ويخربها قرية قرية ، حتى طرحوا عليه بأنفسهم فأمّنهم ، ورجع إلى صعدة بعد النكاية الشديدة بهم :

(١) الجعفري المراد به جعفر بن أحمد المناخي وقد أطلق عليه في سيرة الامام اسم الجعفري فقط وانما استفدنا من هو من غير هذا الموضع من المصدر نفسه (ص).

(٢) سيرة الهادي ٢٥٠

(٣) أملح : واد مشهور من أودية شاعر في صعدة.

دخول علي بن الحسين جفتم صنعاء وخروج أبي القاسم محمد بن الإمام من السجن ، وما كان من الأحداث

في شهر شوال من هذا العام ، وصل علي بن الحسين جفتم عامل حكومة بغداد^(١) على اليمن إلى مخلاف بني شهاب وأقام بقرية ارتل^(٢) ستة أيام ، وفي صنعاء إبراهيم بن خلف متغلباً عليها ، وفي اليوم السابع خرج ابن خلف في جماعة من أصحابه كالمسلمين على جفتم ، ثم انهم قبضوه وحبسوه في بيت بوس^(٣) ، فلم يلبث أن احتال وهرب من السجن ، وقصد صنعاء ولما دخلها انضم إليه أصحابه والجند الذي بها ، فانتشرت الأمور على ابن خلف وارتبكت أحواله فهرب منها إلى تهامة ، وخرج أبو القاسم محمد بن الإمام في أثناء من حبس بيت بوس ودخل صنعاء في اليوم الذي دخل فيه جفتم صنعاء وقد مكث في سجن آل طريف في صنعاء وبيت بوس ، مقيداً^(٤) بالحديد بعد أن طافوا به في أسواق صنعاء عند إدخاله إليها مقدار ستة أشهر ، ولد في محبسه ومحتته عدة قصائد كتبها إلى والده الإمام منها قوله^(٥) :

ولا تحفل ببعدي واغترابي ^(٦)	امير المؤمنين تعز عني
بأطراف الأسنة والحراب	وهبني كنت في القتلى صريعاً
فمثلك لا يعلم بالصواب	وقم لله مجتهداً مجداً
وابصر بالعلوم وبالكتاب	وكيف وأنت أفضل من عليها

(١) هذه الولاية هي المرة الثانية وقد سبق ذكر الولاية الأولى (ص) .

(٢) ارتل : من قرى بلاد البستان (بني مطر) .

(٣) بيت بوس : قرية من ناحية البستان قرب صنعاء .

(٤) في الأصل مقديداً سبق قلم .

(٥) أوردها في السيرة ص ٢٦١ .

(٦) في مطبوعة السيرة اقترابي .

وكان أسعد بن أبي يعفر وابن عمه عثمان بن أبي الخير قد وثبا على صنعاء بعد فرار إبراهيم بن خلف ، فأحسنا إلى أبي القاسم محمد بن الإمام وسيراه إلى شبام وكانا يغدوان على جفتم كل يوم فارادهما على تسليم الأمر إليه فاستنظراه وعرف انهما يماطلانه ، ويراوغان ، فكبسهما وأرادا أن يهربا فلم يتمكنّا فخرجا في مواليهما ، ومن أنضم إليهما من أهل صنعاء وحاربا جفتما وقتلاه وجماعة من أصحابه ومال الجيش إليهما ، ويقال أن بعض أهل صنعاء أكل من لحم جفتم تشفياً وانتقاماً لما كان يرتكبه أصحابه من المنكرات والقبائح^(١) ثم ان أسعد بن أبي يعفر وثب على ابن عمه عثمان بن أبي الخير فحبسه واستبد بالأمر وحده إلى سنة ٢٩٣ كما سيأتي .

ولما قتل جفتم حاذر أبو القاسم محمد بن الإمام أن يبدو لآل يعفر في أمره ما لا يحمد ، وعزم على الخروج من شبام خلصة تحت جلاباب الظلام فاتفق مع رجلين من خولان ، وتواعدوا لليلة معينة ، ينتظرانه الخولانيان بفرس معدّ خارج البلد في موضع معين ، وفي تلك الليلة باهر أبو القاسم^(٢) فتدلى من السور ، وتبعه أصحابه وقصيدوا المحل الذي تم الإتفاق على إنتظار الخولانيين فيه ، وكان الليل قد تولج ، والنجم قد تبلج ، ولم يجدوا السروجي ولا المسرح^(٣) ، وبينما هم كذلك إذ ظهر أمرهم على الحامية التي في الطريق ، فأمسكهم ، وأرجعهم إلى شبام ، وعلم بما كان الأمير عبد القاهر ابن أبي الخير الحوالي فجرى بينه وبين أبي القاسم كلام ، وأمر باعادتهم إلى المنزل الذي كانوا فيه ، فكتب أبو القاسم إلى أسعد وعثمان كتاباً يشكو طول مقامه وضجره ، بموضعه ، فأرسلوا إليه بدواب وخلع وسيف ونقود ، وكتبوا يعتذران إليه وكتبوا أيضاً إلى علي بن الحسين الأقرعي ليرافقه في الطريق وسيراه معزراً مكرماً ، ولما وصل ريذة تلقته عمال الدعام فصرف رفيقه

(١) يعني به محمد بن الإمام الهادي وهذه الرواية انظرها في السيرة ص ٢٧٣ .

(٢) من عبارة مقامات الحريري .

الأقرعي ورافقه إلى غُرق ، فأقام هنالك أياماً ثم صحبه ابن الدّعام إلى
حضرة والده الإمام لأيام مضت من المحرم سنة ٢٩١ .

وقد يجمع الله الشّيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا
وفي هذه السنة اشتد القحط وعَمّ الجوع عموم اليمن ، حتى أكل الناس
بعضهم بعضاً ، قال أبو القاسم محمد بن الإمام ، انه لما دخل صنعاء في
السنة الماضية ، كان السّعر بها خمسة مكايي^(١) بدينار ، فلم يزل ينقص حتى
خرج وهو على مكوك بدينار والنّاس قد هلك عامتهم هولاً .

خلاف أهل نجران

ولما اشتدت أزمة القحط وتعاضم الهول على أهل نجران ، تحرك أهل
الشر والفساد من يام وبنو الحرث واضطربت البلاد واختل الأمن ، وساءت
الأحوال ، فقابل العامل محمد بن عبيدالله تلك الحركة بالحزم واليقظة ،
وتتبع الأشرار قبل استفحال شرهم ، وضرب على أيديهم ، وطهر البلاد
بتشريدهم ، وإخراجهم منها إلى صعيدة وحظر على الناس حمل السلاح من
أعلى الوادي إلى أسفله ، فلم يحمل أحد سلاحاً فهدأت الأمور ، وأمن
النّاس ، ولم يكن معه إلا خدم له ، ستة وعشرون رجلاً ، بهذا العدد القليل
ضبط البلاد ، وحفظ الأمن إلى شهر جمادي الأولى سنة ٢٩٢ اثنتين وتسعين
ومائتين ، ورجعوا عوداً على بدء وتنادوا من كل مكان شاحط^(٢) ، لاستئناف
الثّورة ، وتحالفوا على الفساد والانتقاص ، وكان ذلك إبان حضور الثمرة ،
والمتولي كبر هذه الأحداث الهوج ابن حميد وبنو الحرث ، منيع الشر ومادته
وارسلوا إلى أبي جعفر محمد بن عبيدالله يؤذّنونه الحرب فكتب أبو جعفر إلى

(١) التغير ثمانية مكاييك والمكوك صاع ونصف صاع ، أفاده الجاحظ في كتابه البيان والتبيين
(ص).

(٢) بعيد .

الإمام ، فأجاب الإمام بكتاب طويل كله تهديد ووعيد ، وزجر وتنديد ، وذيله بقصيدتين حماسيتين ، ولما وصل هذا الكتاب إلى المفسدين أجمع رأيهم على مناجزة العامل ، والقضا عليه ، فبادروا من ساعتهم عقيب قراءة الكتاب بالوثوب عليه إلى قرية الهجر ، وتبادلوا معه القتال إلى الليل ، وكان معه ابن بسطام ، ولما عرف إجتماعهم عليه وامتناع المقاومة بتلك المدرة^(١) ، أشار عليه بالانتقال معه إلى حصن (ميناس) وهو في الظاهر معه ولكن هواه مع ابن حميد وبني الحرث ، غير أن ميله لم يظهر جلياً لأبي جعفر إلا بعد أن صار معه بميناس ، وحين عرف القوم بتحويله إلى ميناس ، انقضوا عليه كالسباع الضارية ، فصمد لهم صمود الشوس اللهاميم^(٢) ، وبعد قتال عنيف ، قال له ابن بسطام : إني لا آمن عليك هنا ولا آمن على نفسي ، فإن رأيت ان تصير في حمدان ، وأكون لك عيناً على بني الحرث ، فذلك رأيي ، وإن رأيت غير ذلك فافعل ، فلم يسعد غير التحول والانتقال إلى (وادعة) وأقام فيهم حتى قدم الإمام في رجب من السنة المذكورة ، وكانت قبيلة شاكر وثقيف قد انضمتا إلى وادعة وتحالفوا على نصرته .

وصول الإمام عليه السلام إلى نجران

لما وصل الإمام أعلى الوادي لقيه أبو جعفر محمد بن عبيدالله في جماعة من الوادعيين ، فسار إلى الحضرة ، ويات به ولما أصبح أتته الأحلاف ومن كان يسكن بنجران من يام يعتذرون من اجتماعهم مع بني الحرث على عامله ، لأنهم استرهبوهم فعذرهم الإمام ، وصفح عنهم ، وأقام ذلك اليوم بالحضن ، ثم سار إلى قرية الهجر ، فكان القتال بينه وبين بني الحرث ، فقتل منهم ثمانية رجال ، واستشهد أربعة من أصحابه فحملهم إلى الحضن ، ودفنهم هنالك ، ثم انتقل إلى قرقر قريباً من الهجر ، وأمر بنهب جميع أسواق

(١) أي القرية .

(٢) الدهاة .

بني الحرث وخرابها ، فكانت العسكر تفسد واخضاعاً وتروح بطاننا ، واستمر يضيق الخناق على من بالقرية يغاديرهم القتال ويرأوهم النكال ، بقطع نخيلهم ، وهدم صياصيرهم ، فاستأمن إليه ابن بسطام ومن معه من بني ربيعة ، وذلك آخر رجب .

ولما رأى ذلك ابن حميد ، تحول من میناس إلى الهجر لتلافي الخطر ، وتأيد من بقي ، فشد الإمام عليهم وأصدقهم القتال ، وأمر بقطع نخيل بني حثيمة^(١) أصحاب ابن حميد ، ولم يكن قطع عليهم قبل ذلك اليوم فلم يطيقوا عند ذلك صبراً ، وأسرعوا في طلب الأمان بعد التأني والامتناع واستماحوه العفو ، فعفا عنهم ، وخرجوا من القرية ، ودخلها الإمام ، في النصف الأخير من شعبان ، وأقام بها إلى آخر رمضان ، ثم وافته الأنبياء بأن ابن حميد يستميل أعراباً من يام وبني الحرث ويحثهم على التمرد والعصيان ، فبادر الإمام بالخروج ، لخضد شوكته والقضاء على بذرته فلم يجده بالمكان ، الذي قيل انه فيه ، فأمر بقطع نخيله ، فجاءت بنو الحرث ترجوه أن يكف عن القطع يومه ، ريثما تجتمع بابن حميد فأسعدهم الإمام ، ورجع إلى الهجر .

وفي اليوم الثاني أقبل أولاد ابن حميد ، وطلبوا لأبيهم الأمان فوهبهم النخل ، وأجاب أني لا أؤمنه حتى يطا بساطي ، وسأطلب نفسه وإبله ، فإن ظفرت بشيء من ذلك فلا لوم لكم علي ، وبلغ ذلك ابن حميد ، فسار من ساعته إلى البادية يجوس خلال ديار شعب^(٢) نائر صعب المقدادة^(٣) ، نزاع إلى الشر على استعداد تام وأهبة كاملة للعيث والانتقاض ، فلا يحتاج إلى مداورة وطول عناء لإثارتها ، داحسية^(٤) شعوى ، تضطر الإمام إلى مواصلة الزحف

(١) في سيرة الهادي بنو حثيمة بالخاء المعجمة .

(٢) اي بعيدة .

(٣) اي الانقياد .

(٤) نسبة الى حرب داحس معروفة .

وسوق الجيوش ، وتكبّد المشاق ، ثم لا يقف سيل هذه الفتنة ، حتى يجترف عامل الإمام ويقضي عليه القضاء الأخير كما سيمر بك قريباً ولله القائل :

إن الذئباب قد اخضرت برائتها وليس يؤمن ذئب مسّه ضرر
ورب هيجاً خيراً من موادة ورب سلم هو السم الذي ذكروا
وأقام الإمام بنجران وقد ذلت له الرقاب وتضاءلت له النفوس ،
واستأمنت إليه جميع القبائل يام وبني الحرث وغيرهم ، ولم يبق غير ابن
حميد كما مرّ ، ثم رجع الإمام إلى صعدة لسبع مضت من ذي القعدة .

نزول الإمام إلى تهامة

وعزم أبي القاسم محمد بن الإمام لحرب القرامطة

فيها وصلت الإمام كتب من الفطريف الحكمي^(١) وإبراهيم بن علي
الحكمي يسألانه المصير إليهما وإنهما سيصلمان إليه ما في أيديهما من مال
وعسكر ، ومخلاف وأعطيا على ذلك العهد الغليظة والمواثيق الأكيدة ، فلم
مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

(١) بنو الحكمي هم سلاطين المخلاف السليماني ونسبهم في الحكم بن سعد العشيرة ، وقد نسب
المخلاف إليهم فيقال مخلاف حكم قال القاضي العلامة الحسن بن أحمد عاكش الضمدي
في كتابه (التاج الخسرواني) : واعلم ان هذا المخلاف من أحسن مخاليف اليمن ونسبه الى
السلطان سليمان بن طرف الحكمي كما ذكره الديبع ، وغيره من المؤرخين ، وقد تسلطن في
هذا المخلاف وكان رجلاً عظيماً الشأن ، ونسبة المخلاف إليه قبل سكون الأشراف فيه كما
ذكره الوالد العلامة علي بن محمد النعمان رحمه الله في شرح الصادح والباغم وحدوده من
حلي ، الى شرجة حرض ، كما قاله الديبع : وكان استيلاء الأشراف آل موسى الجون على
المخلاف السليماني عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة ، وكان سلاطينه قبل ذلك الحكميين ، وهو
مشمعل على أودية عظيمة ، ومحارث جسيمة ، ومدن وقرى كثيرة ، والساكون فيه من
الأشراف أمم كثيرة ، الخواجيون ، والذروات والأمة وبنو النعمي وبنو المعانا والحوازمة
والمهادية ، وقد تفرعوا الى بطون كثيرة ، وفخوذ واسعة وهم معروفون ، وتدرج أنسابهم
مدون بأيديهم وأيدي العلماء من أهل جهتهم انتهى ، وتجدد الكلام على الأشراف والمخلاف
في القسم الذي بعد هذا في حوادث سنة ١٠٤٥ فراجع .

يثق الإمام بما بذلا حتى أرسل جماعة من ثقاتهما إليه ، ليوجبوا عليه الحجة وسألوه أن يرسل إليهم من ثقاته من يستحلفهم على ما أعطوه ، فوجه إليهم نفراً من أصحابه لذلك ، وبعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق ، عادوا إليه ، ولما صَحَّ له ما أعطوه من أنفسهم أرسل الصوارخ في خولان فاجتمع إليه منهم عسكر كثير .

ووجه ابنه أبا القاسم إلى خيوان ، وأمره أن يكون على أهبة ، فإذا جاءت كتب من زبيد سار لحرب القرامطة ، إلى صنعاء بهمدان ، ومن قدر على جمعه من غيرهم ، وعزم الإمام بمن معه نحو تهامة حتى وصل إلى شرس^(١)، فكتب إليه الحكمي أن يصير إلى محل يقال له طرطر^(٢)، وبذلك المحل تلقته رسل الحكمي بالغنم والبقر والطعام والعلف ونحو ذلك، نُزلاً له ولأصحابه ، وبلغه أن جميع ذلك أخذ على الرعية ، وأنه كما قيل (جَدَحَ جُورين من سوق غيره)^(٣) فأرسل الإمام إلى أهل القرية ، ورد عليهم ما أخذ منهم وأخبرهم أن ذلك لا يحل له ولا يستجزئه ، ولما علم الحكمي بما كان سقط في يده وندم على استدعائه الإمام ، ورجع القهقري ، وكثر للإمام عن نابه وجمع جموعه لمحاربته فالتقى الفريقان ، والتحم القتال بينهما فكانت الدائرة على الحكمي ، وعلى الباغي تدور الدوائر^(٤) .

وفيها قتل ابراهيم بن خلف مولى آل طريف وقد ذكرنا هربه من صنعاء

(١) شرس: بلدة أسفل مدينة حجة .

(٢) واد قريب من حرش وصعدة (صفة جزير العربي ص ٢٣٥).

(٣) انظر هذا المثل في مجمع الأمثال للميداني ص ١٤٠ والمستقصى ج ٢ ص ٤٩ .

(٤) إلى هنا انتهت أنباء هذه الحادثة ولم نعر على ما تم فيها بعد ، فإن المرجع الذي استقيناه منه اخبار الإمام الهادي عليه السلام هو كتاب سيرته لمؤلفه علي بن محمد بن عبيد الله العباسي ، وقد جعل في النسخة التي لدينا بياضاً ، وزعم أنه كذلك بالأم المنقول عنها ، ثم راجعنا عدة نسخ من السيرة ، فوجدناهم كذلك فعدلنا إلى أنباء الزمن واللالء المضئية ، فلم نجد ما يدل على أنهما وجداً غير ما وجدناه باعتبار سياق الحوادث بعد حادث شرس فتأمل . (ص) انظر سيرة الهادي ص ٢٩٦ .

إلى تهامة وكان استقراره بالكدرا ثم إنه طلع منها هذه السنة وأراد الاستيلاء على جبل ذخار فقتله عبد لعدنان صاحب الجبل وبعث برأسه إلى مولاه .

كلمة عن القرامطة وما قيل في هذه النحلة الباطنية أو الإسماعيلية

في أواخر القرن الثالث للهجرة كانت الدولة العباسية ، قد كبرت وشاخت ، وأصبحت تعيش في ظلّ الأمراء والمتغلبين ، من فرس ، وترك ، ودّيلم ونحوهم ، وكانت الدّعاية لأهل البيت النبوي عليهم السلام والإنتصار للذين تكأت كل ناثر ، وسلاح كل طامع ، وكان أهول الدعايات خطراً ، وأبعدها أثراً النحلة القرمطية ، تلك النحلة التي أحدثت أعظم زلزلة هزّت الإسلام ، وساقطت شرفاته ، وأحدثت أكبر انقلاب عرفه تاريخ المسلمين ، وكان مشير هذه الفتنة التي طال جثومها واشتدت غيومها ، وتلونت مكائدها ، وتعدّد مصائدها ، رجل قدم من خوزستان ، ونزل بسواد الكوفة ، فمرض ذات يوم فساعده رجل يدعى كرميته ، لحمرة في عينيه واللّفة نبطية ومعناها ، حمرة العين فلما شفي شيخ القرامطة المذكور ، سمي باسم ذلك الرجل ، وخفف بعدئذ فسمي قرمط ، وقيل إنما لقب بقرمط لقرمطته أي تقريبه في خطه أو خطوه ، والقرمطة كلمة عربية معناها إخفاء الكتابة أي دقتها ، وعدم إظهارها ، وكان ظهور هذه النحلة الضالة حوالي سنة ٢٧٨^(١) وأول من أظهرها أبو سعيد الجنابي القرمطي ، وكان ورعاً زاهداً متقشفاً لا يأكل إلا من كسبه كثير الصلاة والعبادة ، أقام على ذلك مدّة ، واعلم الناس انه يدعو إلى امام من أهل البيت عليهم السّلام ، فانتشر مذهبه في الشّام وسواد الكوفة ، وكثر أتباعه ، وخضعت لهم دمشق ، واستولوا على كثير من البلدان وأسّسوا دولة بالبحرين ، وامتد نفوذهم إلى الحجاز واليمن كما سيأتي ، وغاية نحلتهم تعطيل الشرائع

(١) راجع أبي الفداء (ص) قلت تاريخ الاسماعيلية منشعب الأطراف وقد كتب فيه كثير من الباحثين منهم الدكتور محمد حسين كامل وعارف تامر ومصطفى وهما من أهل النحلة ورنار لويس من المستشرقين ومن القدامى الطبري وابن الجوزي وابن الاثير ونشر الدكتور سهيل زكار كتابا في اخبار القرامطة لسان .

وإنكار النبوءات والبعث والجزاء ، وتحريف نصوص الكتاب والسنة بتأويلها إلى باطن وظاهر في أول الأمر والخروج إلى الإلحاد والتعطيل في النهاية ، قال المقرئ في خطه^(١) (وكان ابتداء أمر قرمطة هذا في سنة ٢٦٤ أربع وستين ومائتين ، وكان ظهوره بسواد الكوفة فاشتهر مذهبه بالعراق ، وقام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الحال ، والمدثر ، والمطوق ، وقام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابي من أهل جنابة^(٢) ، وعظمت دولته ودولة بنيه من بعده ، حتى أوقعوا بعساكر بغداد ، واخافوا خلفاء بني العباس ، وفرضوا الأموال التي تحمل إليهم في كل سنة ، على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر واليمن ، وغزوا بلاد الشام ومصر والحجاز ، وانتشرت دعائهم بأقطار الأرض ، فدخل جماعات من الناس ، في دعوتهم ومالوا ، إلى قولهم ، الذي سمّوه علم الباطن ، وهو تأويل آيات القرآن ودعواهم فيها تأويلاً بعيداً انتحلوا القول به بدعاً ابتدعوها بأهوائهم فضّلوا ، وأضلوا كثيراً) انتهى .

وقد اختلف الناس في تسميتهم فمنهم من يسميهم بالقرامطة ، ومنهم من يطلق عليهم لقب الباطنية أو الإسماعيلية ، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق عليه وعلى آبائه السلام ، ومذهب الإسماعيلية : أن الأئمة سبعة ، وهم علي عليه السلام والحسن والحسين وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي وجعفر بن محمد الصادق ، وهم مختلفون فيما بينهم ، فمنهم من يعد محمد بن إسماعيل بن جعفر ، ويسقط إسماعيل ، ومنهم من يعد إسماعيل ، ثم يعد بعده ابنه محمد ، وهذا مذهب خلفاء مصر^(٣) ، ومذهب الإسماعيلية ، ومذهب الإمامية متفق في المبدأ العام للتشيع وهو أنه لا بد للناس من إمام

(١) صفحة ١٨٣ الجزء الرابع (ص).

(٢) جنابة : بلدة صغيرة من سواحل فارس وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك من شمالها من

جهة البصرة مهرويان وجنوبها سينيز (مرصد الاطلاع ص ٣٤٨) .

(٣) راجع المقرئ .

معصوم يبلغهم الشريعة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأي ، ويتفقون منهم على إمامة الستة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ، ومنه يتبدىء الخلاف فالإثنا عشرية ، ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم ، والإسماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل^(١) ولما كان الإمام ، هو حجة الله في أرضه على عباده ، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة ، والإيمان بالإمام جزء من الإيمان وعبادة الله ، ومعرفة الله ، لا تتم إلا بمعرفة الإمام ومن مات ، ولم يعرف إمامه ، مات ميتة كفر ونفاق ، ولم يبق أحد من ولد إسماعيل ويظهر للناس ، قالوا : إن الإمام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره ، ولا بد له من نائب لتبليغ الدعوة وساقوا الإمامة إلى محمد بن اسماعيل ، ثم أولاده من بعده ، ولهم بعالم يسترون كثيراً منها عن الناس ، ومن أجل ذلك يطلق عليهم اسم الباطنية : وبعضهم يقول : أن أصل هذه النحلة يرجع إلى النحلة الديصانية^(٢) ، وأن عبد الله بن ميمون القداح وأبوه ميمون كانا ديصانيين ، وأن عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية العبيدية ، من نسل هذا الرجل والخلاف في صحة هذا القول وعدمه مشهور ، وهو يدور حول نسب العبيدية وليس ذلك غرضنا الآن ، والذي يهمنا من البحث معرفة الفرق بين الإسماعيلية والقرامطة والباطنية ، لعلاقة البحث بالتاريخ اليمني ، وهل الثلاثة الأسماء لمسمى واحد أم لعدة مسميات ، قال في تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام : أن أعظم مسألة وأكبر مشكلة

(١) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية .

(٢) نسبة إلى ابن ديصان رجل فارسي ، ظهر قبل الاسلام ببلاد فارس ثم ظهر بعده ماني وخلاصة مذهب ماني وابن ديصان ومركيون متقارب فهم يقولون بوجود أصليين قديمين هما النور والظلمة . وأن كوناً ثالثاً هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث إلى آخر ما زعموه وإلى هذه المزاعم الباطلة أشار صاحب البسامة السيد صارم الدين في ذكر وقعات الإمام الناصر أحمد بن الإمام الهادي عليهما السلام بالباطنية :

وبالمصانع أخرى منه تشبهها حلت عرى الشرك من كوني ومن قدر

عرفها التاريخ حركة الاسماعيلية ، فقد قدروا على توفيق ما لم يوفق من مصالح طبقات الناس المتباينة وهذا تاريخ الإنسانية كله يشهد شهادة صادقة على أنه لم يقم حتى اليوم وأرجح أنه لن يقوم في المستقبل ، حزب أو دين أو مذهب أو جمعية ، أو شركة تضم تحت لوائها الغالبين والمغلوبين ، وأصحاب الأفكار الدينية ، والمتعصبين للدين من جميع الطوائف ، وتتخذ المؤمنين واسطة لنقل السلطة إلى الكافرين ، وتستعمل الغالبين آلة لهدم ما بنوه من الملك وتسليمه إلى غيرهم

ثم هي تؤلف حزباً كبيراً متلاحماً مطيعاً تستند عليه لوضع تاج الملك عند سنوح الفرصة إن لم يكن على رأس مؤسس ذلك المذهب فعلى رأس أحد خلفائه : هذه كانت غاية عبدالله بن ميمون القداح الأساسية وهذه كانت أفكاره ، وهي كما نرى أفكار غريبة مذهنة جريئة ، وقد ساعده على تحقيقها دهاؤه النادر ، ولياقته الغريبة ، ومعرفته العميقة لمصالح الناس ، فلو فتشت صفوف الإسماعيلية لوجدت بينها ممثلي جميع الأمم الخاضعة يومئذ لخلفاء بغداد ، من عرب وعجم وكرد وترك وغيرهم ، وجميع الأحزاب السياسية والاجتماعية ، ولرايت بينهم الفوضويين والشيوعيين ، على اختلاف نحلهم ومبادئهم ، وممثلي جميع الأديان والمذاهب ، من السنة والشيعة إلى الملحدين والدهريين ، وغاية الكل واحدة^(١) ، وهدفهم الوصول إلى نتائج لم يصل إليها أحد قبلهم ، وهذا من غرائب الأمور ، ولهم أسرار لا يطلع عليها إلا من قطع مراتب ، أو مراحل التكرس المطلوبة ، واقسم القسم الغليظ أمام الداعي وهذه أسماء الدرجات :

التفرس التأنيس التشكيك التعليق الربط التدليس التأسيس : ولكل درجة من هذه الدرج علم يتلقاه المدعو^(٢) في تلك الدرجة ومن قواعد هذه

(١) اي الغاية السياسية .

(٢) وقد أشار إلى ذلك المقرئ في خطه .

الفرقة أنه لا يحلف القسم المطلوب ولا يؤخذ الرتبة الرابعة^(١) ، وما عداهم إلى هذه الرتبة لا يعرفون من سر الجمعية إلا مبادئها الدينية والأدبية فقط .

أما تعاليمها الأساسية والاجتماعية فلم يكن يكشف لهم عنها إلا بعد الدرجة الرابعة ، والسّر في نجاح هذه الفرقة تغلبها على العصبية القومية التي لم يقدر عليها بنو أمية ولا بنو العباس فانهم أظهروا أن المسائل القومية لا تهمهم ، ولا هي من أغراضهم فسواء لديهم العربي والعجمي والنبطي والمسلم والكافر ، فقد كانوا ينشرون دعوتهم بين جميع الأمم الخاضعة للدولة العباسية . وبين جميع الأحزاب والنحل لا يفرقون بين دين ودين ، ولا بين حزب وحزب انتهى .

فإذا عرفت ما تقدم وقدرت على درس كتبهم وعلى ما يلقونه من التشكيك والهديان ، على المدعو إلى نحلتهن والمجذوب إلى حظيرتهن ، من المفتريات الكاذبة والمزاعم الباطلة الموصلة إلى تعطيل الشرائع ، من أن لكل آية أو أثر معنيين ظاهر وباطن ، وأن التكاليف الشرعية أغلال ، المراد منها سياسة الإنسان غير المذهب ، عرفت سر تسميتهن بالباطنية هذه خلاصة ما قيل عن الفرق الثلاث ، أو الفرقة ذات الأسماء الثلاثة كما يؤدّيه ظاهر الكلام المتقدم .

وذهب الأستاذ محمد الخضري في محاضراته^(٢) إلى أن النحلة الفاطمية نحلة سياسية الغرض منها تحطيم الدولة العباسية والقضاء عليها ، إلا أنها شيتت بشيء من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساساً لها حتى لا يفجأ المدعو بالغرض السياسي لأول وهلة ، والتعاليم ، متى كانت سرّية حامت حولها الظنون ، وجعلتها الشكوك في ظلمات ، حتى لا تتميز حقيقتها وقد نشأ

(١) كتب المؤلف عند هذه الكلمة لفظة (سقط) ولكنه لم يدرج هذا السقط .

(٢) كتاب محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للعلامة محمد الخضري المتوفى سنة ١٣٤٥ هـ من أقدم ما عرفه المثقفون اليمنيون من كتب عصرية لقدم طبعته وانتشارها .

عن هذا المذهب قوتان كبيران ، احدهما منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص ، وهي مؤئل الدولة ، الفاطمية العبيدية ، ومجمع أسرارها ، والثانية قوة ذات فوضى وجور ، ونكوب عن حسن السياسة ، ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق ، وهي القرامطة وهذه أولاهما في الظهور ، فإنها ظهرت بوادر شرّها في عهد المعتمد على الله :

وفي الأحداث الكائنة أيام الفاطمية ما يؤيد نظرية الأستاذ الخضري ، فقد كانت الحروب على أشدها بين الفاطميين والقرامطة ، وذلك على عهد المعز لدين الله أول من ملك مصر من العبيديين والقائد جوهر ، ولما هلك المعز ، وتولى بعده ابنه العزيز سنة ٣٦٥ أغارت القرامطة على دمشق وكان بها القائد جوهر ، ففر منهم إلى عسقلان فحاصروه بها سبعة عشر شهراً حتى افتدى نفسه منهم بمال ، ثم قصدهم العزيز وقاتلهم^(١) قتالاً شديداً ، وانتصر عليهم ، بعد أن قتل من أصحابه نحواً من عشرين ألفاً ، وهذه الأحداث وإن كانت تدل على العداء المستحكم والتباين بين الفريقين ، فإن في غيرها ما يدل على الإتصال الوثيق بين الطائفتين ، وذلك فيما رواه ابن الأثير وغيره ، عن أبي طاهر القرمطي ، لما أخذ الحجر الأسود وقتل الحاج ، وانتهك حرمة البيت الحرام ، كتب إليه المهدي عبيدالله الفاطمي من المغرب ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ، ويقول : قد حققت على شيعتنا ، ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت ، وإن لم ترد على أهل مكة ، وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة ، ولما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود إلى موضعه ، وقال : أخذناه بأمر ورددناه بأمر^(٢) .

وذكر المعري في رسالة الغفران : أن للقرامطة بالاحساء بيتاً يزعمون أن

(١) في الأصل قتال سهواً من المؤلف رحمه الله .

(٢) وفي رواية أخرى ان الخليفة العباسي استفداه بمبلغ كبير فأعاده .

إمامهم يخرج منه ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام ويقولون للطفام هذه الفرس لركاب المهدي يركبه متى ظهر ، وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل وتوصل إلى المملكة وتضليل ، ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم ، لما حضرته المنية جمع أصحابه ، وجعل يقول لهم لما أحس بالموت (إني قد عزمت على النقلة ، وقد بعثت موسى وعيسى ومحمداً ، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء : فعليه اللعنة لقد كفر أعظم الكفر في الساعة التي يؤمن فيها الكافر ، ويؤوب إلى آخرته المسافر) انتهى .

والذي يمكن الجزم به أن هذه الطائفة المتذبذبة الملحدة توافق الإسماعيلية في المبدأ والغاية ، مبدأ التشيع والدعوة إلى الامام المزعوم ، والغاية التغلب والاستيلاء على الملك والكيد للدول الإسلامية ، ولذلك تصافحوا أول الأمر ، واتفقوا على الكيد والغدر وتنابدوا في النهاية على الملك والفساد في الأرض ، والله لا يصلح عمل المفسدين .

اليمن وحظه من الدعايات الثلاث منصور اليمن

وابن خلیع علي بن فضل

عرف أهل اليمن من قديم الزمان بالحب لأهل البيت النبوي عليهم السلام ، وعلى الخصوص قبيلة همدان المشهورة بما كان لها يوم صفين مع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ولم تزل رجالات همدان تتقرب من الإمام علي كرم الله وجهه بمناصرته ، ولزوم جماعته حتى أثنى عليها بقوله :

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام^(١)

وفي هذا البيت من عاطفة الحب والإحترام ما لا يفتقر إلى مزيد بيان ، ولما قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وكان ما كان من المحن والرزايا ،

(١) هذا البيت من قصيدة طويلة لأمير المؤمنين علي عليه السلام تقدمت بكمالها في القسم الأول من هذا التاريخ في الكلام على همدان .

أصاب اليمن ، رذاذ من سبيل الفتنة الجارف ، فظهر بعض رجال في اليمن بالتعصب^(١) لعثمان وراسلوا معاوية بن أبي سفيان ، فانتهاز معاوية الفرصة ، وأرسل بـشربن أرطاة العامري ، فدخل بسر اليمن وأظهر من القسوة والجبروت ، والخبث المتناهي في معاملته لأصحاب علي عليه السلام وشيعته ، ما ينكره الدين ، ويمقت مرتكبه وتشمئز منه الإنسانية والحق والفضيلة ، حتى أفضت به الحال في تجاوز الحد إلى قتل قثم وعبد الرحمن ابني عبيد الله بن العباس ، عامل أمير المؤمنين على اليمن ، وهما صبيان لم تخضر مآزرهما^(٢) فأنحازت همدان إلى جبل شبام همدان ، وهو ذمرمر وتحصنت فيه من طغيان بشر المذكور^(٣) .

ولم تزل تحتفظ بحبها للإمام علي وأولاده عليهم السلام ، حتى تكونت من ذلك الحب فكرة سياسية ، وقام بتمثيل هذه الفكرة رجال خبراء بطرق الاستغلال ، ومن جملتهم أحمد بن عبد الله بن خليع بعدن لاهه وكان خبيراً برجال الشيعة ، ومن ينتمي إليهم وكانت نحلة الاثنا عشرية ، وشقيقاتها ، في طور الاكتمال والنمو ، فكان ابن خليع يوهم أتباعه باقتراب ظهور المهدي ، ويبث فيهم سمومه الفتاكة ، ويقول قيام المهدي في العام الذي يدخل فيه منصور اليمن ، وهو يدخل في هذا العام ، وجعل يعدّ عدته من سلاح ومال^(٤) ونحوه فاتصل بنا ذلك الدّاعية ، وما يقوم به من الخدمات لجمعيته السرية ، بملك صنعاء ابن أبي يعفر ، فأمر من أتاه به وسجنه حتى مات في سجنه ، وكان رئيس الجمعية علم بما كان فأوفد إلى اليمن من قبله الحسن بن فرج بن

(١) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

(٢) نباتهما أي شعرهما .

(٣) تاريخ الداعي ادريس بن الالف .

(٤) المصدر نفسه (ص) قلت : وهذا الكتاب طبع بتحقيق مصطفى غالب وهي طبعة رديئة مليئة بالأخطاء انتهى منه الى السبع الخامس .

حوشب ويعرف بمنصور اليمن للدعوة إلى المهدي ، وأمره أن يقصد عدن لآله^(١) ، فأنتهى به السير إلى عدن ابين فوجد هنالك من رجال مذهبه من دله على عدن لآله ، فسار إليها ووجد بها انصاره الذين قد تسممت عقولهم بذلك المذهب ، فأكرموا وفادته ، واقترن بأبنة أحمد بن عبدالله^(٢) الداعي قبله الهالك في سجن بن يعفر ، وقبض ما كان قد أعد ابن خليع من مال وسلاح ، وأظهر الدعوة وأقام بنشر أفكاره الهدامة وابتنى بيت ريب بجبل مسور ، وملك الجبل المذكور ، وكوكبان ، وما بينهما من البلدان ، والتف حوله لفيف من همدان واستفحل شأنه ، إلى أن بعث إلى السند داعية ابن أخيه المعروف بالهيثم ، وبعث إليه رئيس الجمعية بأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن زكريا الشيعي الصنعاني ، وأمره بامثال أوامر منصور ، في المنشط والمكره ، وإن يترسم خطاه ، ويحتذي أعماله ، وبعد أن يفهم الدرس ويجيد الدس ، يذهب حيث أراد ففعل الشيعي ما أمر به ، وحلق الصنعة ، وسار إلى إفريقية لبث الدعوة بها ، وما زال ، دائماً عاملاً ، حتى تغلبت الدعوة على القيروان ، وغيرها في إفريقية ، وأزالت ملك بني مدرار من المغرب ، وكان لهذه الدعوة بكتامة ، وبلاد البربر ما هو مشهور وخروج مع الحسن بن قنرج داعية أيضاً علي بن الفضل اليافعي الخنفري^(٣) ، ولكنه لم يقف عند رموز ذلك المذهب بل تجاوز الحد فأظهر الكفر والردة والإباحية جهاراً بلا موارد ولا توارى ، بل تجاوز ذلك وجاذب فرعون حبل كفره الملعون ، وتلك غاية السخف والطغيان ، وقد

(١) انظر عيون الأخبار للداعي أورس عماد الدين (السيح الخامس) ص ٣٦

(٢) يعني الخليع

(٣) قلت : علي بن الفضل ممن كثر الحديث حولهم ونادراً ما يخلو كتاباً من كتب التاريخ اليمني من إشارة إليه وإلى دعوته شيء من الإنكار والتكفير وقد نقل مؤلفنا العلامة الشهيد أحمد المطاع رحمه الله ما جاء في كتب تلك الكتب ونقد بعضها ، ومن الباحثين المعاصرين من يحسن الظن بابن فضل ويرى أن ما كتب عنه من تعصبات أهل المذاهب وأهواء دينية وسياسية والله أعلم بالحقيقة .

فعل من العيث والتدمير والتخريب والتقتيل في الأمة اليمنية مالا يوصف ولا يحيط به البيان ، وسنأتي على أخباره تفصيلاً ، وإنما سقنا هذه الجملة لبيان أصل هذا الداء ومن أين بدا وكيف ظهر ، وفوق كل ذي علم عليم .

قال الجندي في تاريخه^(١) ، كان علي بن الفضل من عرب يقال لهم الاجدون ينسبون إلى ذي جدن ، وكان شيعياً على مذهب الاثنا عشرية^(٢) ، فحج مكة ثم خرج مع ركب العراق لزيارة مشهد الحسين فلما وصله جعل يولول ويصيح ، ويقول ليت من كان حضرك يا ابن رسول الله حين جاءك جيش الفجرة ، وميمون^(٣) القداح ملازم للضريح ومعه ولده عبيدالله يخدمه ، فحين رأيا ابن فضل على تلك الحالة طمعا في اصطياذه ، ثم خلا به ميمون ، وعرفه انه لا بد لولده من دولة يتوارثها بنوه لكن لا تكون حتى تكون بدايتها من اليمن فقال ابن فضل ذلك يمكن في اليمن ، والناموس^(٤) جائز عليهم فأمره بالتبثيت والوقوف حتى ينظر ما في الأمر ، وكان ميمون في الأصل يهودياً قد حسد الإسلام ، واغترار على دينه فلم يجد حيلة غير العكوف على تربة الحسين بكربلاء وإظهار الإسلام وأصله من سلمية مدينة بالشام وانتسب إلى العلوية ، وأكثرهم ينكر صحة نسبه^(٥) . والله أعلم .

(١) انظر السوك للجندي ج ١ ص ٢٣١ طبعة وزارة الاعلام وتحقيق الاستاذ محمد بن علي الأكوع .

(٢) فيه دلالة على ما سبقت الإشارة إليه من ظهور مذهب الإمامية في اليمن واعتناق بعض رجال من اليمن ذلك المذهب قبل ظهور الاسماعيلية أو القرامطة ، فإن المذهب الجديد ، فظهر على يد ابن فضل بعد عودته من العراق (ص) .

(٣) هو عبدالله بن ميمون القداح المتوفي حوالي (٢٦١) وابوه يسمى أبا شاكراً ميمون بن ديصان صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة ، وأصله من بلدة قرب الأهواز وسمي عبدالله القداح لأنه كان يعالج العيون ويقدها ومن أتباعه حمدان قرمط ومحمد بن الحسين : انظر تاريخ الفلسفة في الاسلام ، وفهرس ابن النديم ، والكامل لابن الاثير .

(٤) الناموس في الأصل صاحب السر وصاحب سر الوحي ومنه حديث ورقة بن نوفل .

(٥) راجع ما كتبه شيخ المؤرخين ابن خلدون في نسب العبيدين .

قال^(١) وقطع ابن مالك بأنه يهودي ، وصحبه رجل من كربلاء يعرف بمنصور بن الحسن بن حوشب بن الفرّج بن المبارك من ولد عقيل بن أبي طالب ، كان جده زادان^(٢) اثنا عشري المذهب أحد أعيان الكوفة . وسكن أولاده على تربة الحسين فحين قدم ميمون تفرّس بمنصور النجابة والرياسة فاستماله وصحبه وكانت له دنيا يستمد منها ، وكان ذا علم بالفلك ، فأدرك ان له دولة وانه احد الدعاة إلى ولده ، فلما قدم ابن فضل وصحبه رأى انه قد تم له المراد وان ابن فضل من أهل اليمن خبير به ، وبأهله ، فقال ميمون لمنصور : يا أبا القاسم ان الدين يمان والكعبة يمانية والركن يمان وكل امر يكون مبتداه من قبل اليمن فهو ثابت لثبوت نجمه ، وقد رأيت ان تخرج انت وصاحبنا علي بن فضل إلى اليمن وتدعوان إلى ولدي فسيكون لكما شأن وسلطان ، وكان منصور قد عرف من ميمون إصابات كثيرة ، ويعد أن أوصاهما بالاتفاق وحذرهما من الافتراق أرسلهما وأمرهما بإخفاء أمرهما وأمر منصور ان يقصد عدن لاعة من بلاد حجة ، فلم يعرف منصور عدن لاعة ، وقصد عدن أبين ، ثم انه خرج من عدن أبين صحبة جماعة من التجار من تلك البلاد وما زال يظهر الورع والعبادة حتى استمالهم إليه ودعاهم إلى المهدي المنتظر ، وحلف منهم جماعة على القيام ، وصاروا يأتون إليه بركة أموالهم ، ثم انتقل بما معه من الأموال وبنى عين محرم وهو حصن كان لبني الفدعا^(٣) وتبعه خمسمائة رجل ممن تابعه وعاهده^(٤) فأظهر الدعوة علناً ، ومال إليه خلق كثير ، ولما أخذ جبل مسور استعمل الطبول والرايات ، بحيث كان له ثلاثون طبلًا ، إذا أقبل من مكان سمعت الى مسافة بعيدة ، وكان للحوالي حصن

(١) يعني الجندي في السلوك ص ٢٣٢ .

(٢) هذه رواية الجندي ولا أدري من أين جاء ، زادان وقد رفع نسبه إلى عقيل بن أبي طالب فتأمل .

(٣) في مطبوعة السلوك العرجا .

(٤) كذا لعل صوابه وعادهم وفي السلوك وعاهدوني .

بجبل مسور ، به وال انتزعه^(١) منه ، وكتب إلى ميمون بخبره بقيام أمره وظهوره على من عانده ، وبعث له بهدايا وتحف جليلة وذلك عام (٢٩٠) ، ولما وصلت الهدايا قال لولده عبيد الله : هذه دولتك قد قامت لكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب ، وهذا عبيد الله هو الملقب بالمهدي جد ملوك المغرب ومصر وإليه ينتسبون :

وأما علي بن فضل فإنه قصد أول أمره بلد يافع ، وجعل يتعبد في الأودية والشعاب حتى اغتر به أهل البلاد وانخدعوا بزوره وتمويهه ، وسأله أن يطلع جبلهم فأبى أول الأمر ثم أجابهم على شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

جعلوا الحق لبغي سلما فهو كالبتار لهم والترس
وقديماً باسمه قد ظلما كل ذي مأذنة أو جرس

فسمعوا له وأطاعوا ، وأتوه بركة أموالهم ، وأخذ عليهم العهود بالسمع والطاعة ، وأمرهم بعمارة حصن في ناحية السرو ففعلوا وانهبهم اطراف البلاد وأراهم أن ذلك جهاد في سبيل الله حتى يدخلوا في دين الله طوعاً أو كرهاً ، وكان يومئذ في لحج وابين رجل يعرف بأبن أبي العلاء من الأصابع مالكا لها فقصده ابن الفضل بمن معه من يافع وغيرهم ، فكانت الدائرة عليه وانهزم إلى صهيب^(٢) واجتمع هنالك أصحابه فقال لهم : إني أرى رأياً صائباً قالوا : وما هو ، قال : اعلموا أن القوم قد امنوا منا وارى أن نهجم عليهم فانا نظفر بهم فأطاعوه وأعادوا الكرة على ابن أبي العلاء ، فظفروا به ، وقتلوه واستباح ما كان له ولأصحابه ، ووجد في خزائنه سبعين بكرة ، وبذلك طار ذكره وغلظ

(١) قال الشرفي في لآليه : ثم ان منصور شهر السيف فطلع جبل مسور واستنجد واسر العامل الذي كان فيه للأمير ابراهيم بن محمد بن أبي يعفر الحوالي ، وبني حصن مسور ونزل به وغلب على ملك الناحية :

(٢) صهيب : بلدة في الجنوب الشرقي من الضالع

أمره، وقصد المذيخرة^(١) سنة ٢٩١، وبها جعفر بن احمد المناخي وإليه ينسب
مخلاف جعفر، وكان ابن فضل، قد كتب إلى المناخي: بلغني ما أنت عليه
من ظلم المسلمين، وأخذ أموالهم، وإنما قمت لاقامة الحق وإمارة الباطل،
وكان جعفر قد قطع من أهل جهته على حجر^(٢) بالمذيخرة ثلثمائة يد فاقترح
عليه ابن فضل تسليم دية الأيدي المقطوعة، ثم جمع جموعه وقصد
المناخي، ولما التقى الجمعان انهزم ابن فضل وعاد إلى بلد يافع، وكانت
الوقعة يوم الخميس لثمان خلون من رمضان من السنة المذكورة.

ودخلت سنة ٢٩٢ في صفر منها تجهز الطاغية لمنازلة جعفر المناخي
وقصد المذيخرة فدخلها، وأخذ حصن التعكر ففر المناخي إلى تهامة وبلغ
القرتب من وادي زبيد فأمدّه صاحب زبيد بجيش كثيف، فرجع يريد استرجاع
المذيخرة فلقية علي بن الفضل في جموعه، وكانت بينهما ملحمة كبرى قتل
فيها جعفر بن ابراهيم وابن عمه ابو الفتح، وحملت رؤوسهم إلى
المذيخرة، وتم للطاغية الاستيلاء على بلاد المناخي^(٣) وجعلها مستقر
طغيانه.

قال الجندي^(٤) ولما ملك ابن فضل بلد الجعفري استباح البلد وسبى
الحريم وجعل المذيخرة دار ملكه، ثم ادعى النبوة، وأحل لأصحابه شرب
الخمر، ونكاح البنات والأخوات، ودخل الجند في موسمها أول خمس من
رجب، فصعد المنبر وقال الأبيات المشهورة وهي:

خذي الدف يا هذه والعبي وغني هزارك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم وهذا نبي بني يعرب

(١) مدينة اعلا جبل ثومان بالعدين.

(٢) المسجد المسبوك ص ٣٩.

(٣) ومدة دولة المناخي من سنة ٢٤٩ الى سنة ٢٩٢ ثلاث واربعين سنة ٤٣.

(٤) السلوك ص ٢٣٦.

لكل نبي مضى شرعة وهذي شريعة هذا النبي
فقد حطّ عنا فروض الصلاة وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضي وان صوموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ولا زورة القبر في يشرب
ولا تمنعي نفسك العرسين من الأقربين مع الاجنبي

وهذه الأبيات الإباحية وإن كانت تمثل نزعة الطاغية واستهتاره فإننا نستبعد ان يكون هو قائلها والأرجح ما رواه الشرفي في لآليه من انه قالها فيه بعض شعراء عصره^(١) .

ودخلت سنة ٢٩٣ فيها سار إلى بلاد يحصب ودخل منكث فأخربها ، ولما وصل دمار وجد بها جيشاً عظيماً للأمير الحوالي بهران فكتب إلى والي هراّن ويقال له اليافعي كتب إليه يستميله فأجابهم اليافعي ، ومال إلى نحلته ، ثم قصد ابن فضل صنعاء بجنود جرّارة فنزل ضبوة ، وخرج إليه امير صنعاء اسعد بن أبي يعفر فحاربه يومه وقتل من أصحاب الطاغية بن فضل أربعمائة رجل ، ورجع أسعد آخر ذلك اليوم إلى صنعاء فتعقبه بن فضل ليلاً ، ولم يتمكن من دخول المدينة ، فحط بجبل تقم ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع هاجم صنعاء في خمسة آلاف مقاتل ، ودخلها من ناحية الشهابيين بسعاية مهلب الشهابي فحاربه أسعد بن أبي يعفر إلى عصر ذلك اليوم ، وكان يوماً عصيباً على أهل صنعاء ، وخرج منهم جماعة بأهلهم وأولادهم وتركوا منازلهم ، وامتعهم ، فاستباح الطاغية صنعاء قتلاً ونهباً ، وأباح المحارم وفر ابن يعفر إلى شبام ، فحاربه القرمطي صاحب جبل ذخار ، فخرج ابن يعفر بأهله وأثقاله إلى بلاد الدعام^(٢) قال في أنباء الزمن : ولما تمكن ابن فضل من

(١) وكذا في كشف اسرار الباطنية وهو أول من أوردها ونقلها عنه كل من اتى بعده وفي رسالة الغفران منسوبة إلى الصناديقي وسيأتي للمؤلف ان الصناديقي هو اسم لعلي بن الفضل .
(٢) سيرة الامام الهادي .

صنعاء لم يحسن فيها صنعاً أظهر مذهبه الخبيث ، ودينه المشؤوم وارثك
محظورات الشرع وادعى النبوة^(١) ورقا منبر جامع صنعاء وخطب خطبة منكرة
صرح فيها بعقيدته الكفرية ، وحمل عليها من تابعه من تلك الفرقة الغوية ،
وقد ذكر هذه الخطبة كثير من المؤرخين ، وإنما تركناها تنزيهاً لكتابنا عن كلام
هذا المارق اللعين ، وإن كانت شاهدة عليه بالكفر الصريح ، غير أن في
أعماله ما يغني عن التصريح ضاعف الله له العذاب ، في يوم الجزاء
والحساب ، فإنه هدم أركان الاسلام ، وبالع في دحض الشرائع الواردة عن
سيد الأنام صلى الله عليه وعلى آله الكرام ، وأباح لتابعيه الخمر ، وإتيان
الذکور ، وارثك المحرمات من نكاح البنات والأمهات ، وأسقط حج بيت
الله الحرام ، ومن قبيح فعله أنه اتخذ جامع صنعاء إصطبلًا للخيل بعد تلاوة
القرآن فيه بالنهار والليل^(٢) .

ولما علم منصور بن حسن بدخول الطاغية صنعاء تجهز بالمسير إليه من
مسور ، وحين اجتمع به لأمه على ما فعل بصنعاء وأقاما أياماً وابن فضل يعظم
منصوراً ويجهله ويقول : إنما أنا سيف من سيوفك ، ويوهم أصحابه أن
منصور بن حسن من جملة أتباعه ، وكان منصور يهاب ابن فضل لجراته
وفتكه ، فكان كل واحد منهما يضم الشر للآخر ، ويتربص به ولسان الحال
تنشدهما :

شقيان في خلق واحد تؤلف بينهما الزندقة
كشقي مقص تجمعتا على غير شيء سوى التفرقة

(١) يستفاد من هذه الرواية أن خطبة الطاغية الاباحية كانت بجامع صنعاء الجندي يذكر أنها كانت
بجامع الجند ، ولا مانع من تكررها غير أن الظروف التي يمكن أن تقع فيها هي بصنعاء أقرب
حيث قد اتسع نفوذ سلطانه ، وسيأتي بعد هذا أنه جعل الحج إلى الجرف والعمرة إلى
التالي ، وهما موضعان بالقرب من المذيخرة .

(٢) انظر المسجد ص ٣٩ .

ولما عزم ابن فضل على قصد تهامة نهاه منصور بن حسن وقال له :
 الرأي ان تقف بصنعاء وانا بشبام سنة ، حتى نصلح البلاد التي استفتحناها ،
 وتمكن فيها اليد ، فلم يسعد ابن فضل ، وسار في ثلاثين ألفاً وجعل طريقه
 على بلاد المغارب ، ولما توسط مضايق البلاد ثارت عليه القبائل ، ولزموا
 الطرق ، فلم يقدر على التخلص فانجده منصور وخلصه من أيدي الثائرين
 فسار ابن فضل لطيته^(١) وكان مروره على ملحان ومنه توجه إلى المهجم ،
 فقتل صاحبها ، ثم سار إلى الكسدر ، فأخذها ، وتقدم إلى زبيد ففر منه
 اسحق بن ابراهيم بن زياد فنال منه ابن فضل ما يريد ، وملك زبيد ، وقتل من
 أهلها وسباً من نسائها أربعة آلاف عذراء ، ثم خرج منها راجعاً إلى
 المذيخرة ، ولما وصل بعض الطريق قال لأصحابه ان هؤلاء النساء شغلنكم عن
 الجهاد ، ونساء الحصيب فتنة فاذبحوا ما في أيديكم منهم فذبحوهن في ساعة
 واحدة ، فسمى ذلك الموضع الذي ذبحن فيه المشاحيط ، ولعمري ان القلم
 ليتعثر خجلاً من تسطير تهافت هذا الطاغية واستهتاره لولا أنها حقائق
 تاريخية ، وكيفما كان فإن ذلك لا يمنعنا من إرسال اللعنات على مرتكب تلك
 المخازي والمقت العظيم ، لتلك الدعاية التي عبت الطرق لملحد مستهتر
 يستبيح المدن ومن فيها ويقتل أربعة آلاف عذراء في ساعة واحدة لا قوة إلا
 بالله .

أحوال صنعاء بعد عزم الطاغية عنها

ورجوع الإمام الهادي إليها

في هذا العام بعد رحيل ابن فضل عن صنعاء وثب بها ابن كبال^(٢)
 فاستولى عليها وقتل من بها من فلول القرامطة وكتب بذلك إلى الدعام لينجده

(١) كذا في الأصل وفي المسجد ص ٤٠ صنعاء .

(٢) الحسن بن كبال من موالى آل يعفر (ص) وفي المسجد كالة وفي سيرة الهادي ابن كباله بالياء
 المثناة .

فارسل الدعام ولده الحسين في عسكر إلى صنعاء وكتب إلى الامام الهادي عليه السلام يعلمانه بما كان ، ويدعوانه اليها فأجابهما الإمام ، وأرسل ابنه أبا القاسم ، فسار إلى صنعاء في جمادى الأولى ثم ان جماعة من أهل صنعاء ساروا إلى حضرة الإمام يستنهضونه ، فبادر إلى صنعاء ، ودخلها لأربع ليال من جمادى الآخرة من السنة ، ودخل معه آل يعفر والدعام ، وولده وابناء الروية وولد جعفر بن ابراهيم المناخي ، وغيرهم من رؤساء اليمن وسراته ، وكانت إقدام القرامطة قد تزعزعت وحاربهم ابن كباله في شهر وشبام وطردهم عنها ، فبعث الإمام ابنه أبا القاسم إلى ذمار وولى القضاء بصنعاء احمد بن يوسف الحدادي .

وكان ابن فضل يحارب اسحق بن ابراهيم بن زياد في زبيد ولما فتحها وفر صاحبها كما تقدم عاد إلى المذيخرة وقد قوي أمره وارتفع دخانه فأرسل عيسى الياضي إلى ذمار فخرج منها أبو القاسم ولحق بالإمام إلى صنعاء وسار ابو العشيرة احمد بن محمد بن الروية إلى ثاه رداً فانحاز إليه كثير من عشيرته وأهل البلد فقصدته الياضي إلى رداً وقتله واستباح البلد^(١) .

ودخلت سنة ٢٩٤ فيها وثب ابن كباله على الامام الهادي فندب الامام لحربه أهل صنعاء فتخاذلوا ، فخرج الإمام من صنعاء وعاد إلى صعدة في عاشر المحرم وكان أسعد بن أبي يعفر قد صار بهمدان ، وأقام بورور ، قبل أن يرتكب ابن كباله جريمته ، فكتب إليه يستقدمه ، وكان جراح بن بشر بشبام فأخرجه القرمطي منها وعاد إلى صنعاء ووصل اسعد بن أبي يعفر وأقاموا جميعاً بصنعاء وأقرأ احمد بن يوسف قاضي الإمام على القضاء .

وفيها عزم ابن ذي الطوق القرمطي وعيسى الياضي الى بلاد المغرب ، فخرج لحربهما جراح وابن كباله في أهل صنعاء وعسكرهما ، فقاتلوهما

(١) كل هذه الأنباء مستقاة من سيرة الإمام الهادي (ص) .

وانهزموا عنهم بعد أن قتل من أهل صنعاء وغيرهم أربعمائة قتيل ، وعادوا إلى صنعاء ثم ان ابن ذي الطوق القرمطي وثب على عيسى الياضي القرمطي فقتله ، وجماعة من أصحابه غدرأ فاستأمن بقية أصحاب الياضي إلى صنعاء .

رجوع الطاغية إلى صنعاء

وفيها عزم الطاغية ابن فضل على قصد صنعاء ولما بلغ جَزِيْرًا^(١) خرج إليه أسعد بن أبي يعفر ومن معه فقاتله ، وقتل من أصحابه نحو ستين رجلاً ، ولم يثبت له فدخل ابن فضل صنعاء أول يوم من رجب من هذه السنة واستباحها ، ونال من أهلها منالاً عظيماً ، وسار اسعد وابن كباله إلى قدم ، ومكثت القرامطة تعيث وتفسد في صنعاء ونواحيها ثلاث سنين ، إلا أحد عشر يوماً وأصابتهم علة فمات منهم من لا يحصى والحمد لله رب العالمين^(٢) .

نجران وماكان به من الأحداث

وفيها ظهرت الدّعاية القرمطية بنجران على يد رجل من موالي بني أمية يقال له حسين بن حسين الحاشدي فتطاولت أعناق بني الحرث والياميين الى مساقط الفتنة ومراتع الضلال ، وهتوا بمالهم ينالوا ورئيسهم ابن حميد ومرزوق بن محمد المري ، وعلي بن الربيع المداني ، ولما عرف ابو جعفر ما يضمرونه من الشر والفساد ، كتب إلى الامام يستحثه على المسارعة لاختماد ذلك الفساد وكتب إليه قصيدة أولها^(٣) :

دار لمية ما بها آثار	فالرّبع منها موحش مقفار
قد غيّرتها بعد ساكنها الصبا	وتقادم الأزمان والأمطار
ومحا مغانيها الدّهور فأصبحت	دار الأوانس ما بها سمار

(١) من قرى سنجان جنوبي صنعاء بمسافة ١٣ ك. م .

(٢) سيرة الامام (ص) .

(٣) انظرها في سيرة الهادي ص ٣٣١ .

وتنكرت عرصاتها وادرورست
من بعد ما كنا بها في لذة
إلا ثلاث في الرماد رواكد
لما وقفت العيس في عرصاتها
انهل دمي عند ذاك لذكرهم
وذكرت ايام الشباب وطبيها
نلهو نلعب في رياض نعيمها
فالدّار من تلك الحسان بوار
اضحت خلاء ما بها عمار
سود ومسجوع^(١) الجبين مطار
أسل الديار فلم يجبني الدار
ومع غزير واكف مدرار
اذ نحن فيها قاطنون صغار
لا تنقضي من طيبتها الأوطار

ومنها في مخاطبة الإمام واستحثائه وذكر القرامطة ومذهبهم الخبيث

يا خير من قاد الجياد ومن به
يا خير من غمر الأنام بفضله
ظهر الفساد بأرضنا وبلادنا
كفروا برب الناس بابن محمد
قالوا إمامهم اله قادر
فانهض نصرت عليهم فابدهم
فلما وصل الكتاب إلى الامام تهض مبادراً إلى نجران لسبع بقين من
رجب ، وأقام بنجران يتبع القرامطة ويقلم اظفار المفسدين في تلك الديار ،
ويقيم الحدود على من ظهر منه انتهاكها من الاشرار ، فرجم امرأة ثبت لديه
بالشهادة العادلة المعتبرة انها زنت بعد إحصان ، وقتل رجلاً من العبيد كان
يبيع الخمر ويجمع بين الرجال والنساء ، وبعد صلاح البلاد وزوال دواعي
الشرور والفساد ، عاد الى صعدة أول يوم من رمضان واستاق جماعة من
القرامطة والياميين وعلي ابن الربيع وغيره وأودع الجميع سجن صعدة .

ولكن ذلك لم ينهه اهل نجران عن الغدر ونقض العهود (وليس بغان

(١) في مطبوعة السيرة (مشجوع) .

طيشهم والتقلب) فسرعان ما رجعوا إلى ما ألفوا فحرس العامل غفلته منهم ولم يطابق بين جفونه ، وأمعن في تتبع عوار أتباع الغي منهم حتى استقامت قناتهم وسكنت دهماؤهم ، وبينما هم كذلك إذ وردت أوامر الإمام قاضية بسحب الجنود من نجران وارسالها مدداً لعبدالله بن الخطاب الحكمي ابن عم الغطريف الحكمي إلى تهامة ، فخرج محمد بن عبد الملك الوادعي إلى الامام وراجعته في اطلاق اليامين الذين استاقهم الامام من نجران وحبسهم بصعدة فأطلقهم بعد أن حَمَلَهُم للوادعيين سبع عشرة دية ، عدد قتلاهم ، ولما وصلوا الى نجران طمع ابن بسطام في تخلية ابن الربيع فسار إلى الامام وسأله ذلك فكره الإمام إطلاقه ومراد ابن بسطام من إطلاق ابن الربيع التحزب للفساد ، فلما أيس من إطلاقه ، راجع في القرامطة فأطلقهم الإمام ثم خرج محمد بن الهيثم ، وأحمد بن الأربد وكانا في الظاهر مع الإمام وطلبا منه إطلاق موسى الذهب العمري ، والحماسيين فأطلقهم وصاروا كلهم في وادي نجران وازدادوا حيفاً على السلطان ، ولم يشكروا ما صنع لهم من الاحسان .

إذا انت اكرمت الكريم ملكته وان أنت اكرمت اللئيم تمردا
ولما كان شهر الحجة قدم الحاج من مكة وأخبر أن المسود واصل من مكة الى صعدة فأجمع امرهم على الفتك بعامل الإمام . وبلغ ذلك العامل ، فكتب إلى الإمام باضطراب البلد وما أجمعت عليه الأشرار وذيل الكتاب بقصيدة أولها^(١) :

لاح المشيب بمفرقي ويراسي	وبعارضي فعاد كالقرطاس
يابن الحسين تحالفت حار على	ان يقتلونا يا بني العباس
من ال خيشمة ومذحج ^(٢) كلها	والحي من يام وحي حماس

(١) سيرة الهادي ص ٣٤٨ .

(٢) في مطبوعة السيرة مدمج .

وبني ربيعة من يحل بضاعن^(١) والقاطنين بحافتي میناس وهي طويلة ، ولما دخلت سنة ٢٩٥ بلغهم قدوم المسود^(٢) إلى صعدة فكاتبوه يستنهضونه فحثهم على الفتك بالعامل ان كانوا صادقين ، فزاد طمعهم وهم كما ترى من أحوالهم يهطعون إلى كل بارقة تلوح ، ويفترون بكل سانحة تمر ، ويصيحون لكل صيحة ، ويهتبون مع كل ناعق ، دائمو الانتقاض والخروج والثوران والتمرد ، لا سيما بني الحرث مهد الفتنة ومربع العصيان ، فصار ابن حميد يستطيل على عامل الإمام ، وتبدو منه بوادر الشر ، فكتب أبو جعفر محمد بن عبيد الله إلى الإمام وسأله ان يسبق القوم الى البلد ، قبل فوات الوقت ، وذيل الكتاب بهذين البيتين^(٣) :

ارى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها اضطرام
فان النار بالعودين تورى وان الحرب أولها كلام
وارسل بالكتاب ولده علي بن محمد^(٤) ، فلما وصل إلى الإمام وعرف الواقع بادر بالنجدة ، وتحرك على رأس قوة كبيرة من خيل ورجال ، ولما وصل الحضر تلقاه ابن بسطام معتذراً عن بني الحرث ، فلم يقبل منه الإمام قبل ان يتفق بعامله ويستفصل منه الواقع ويادر إلى قرية الهجر مقر العامل

(١) في المطبوعة بصاغر وضاعن بلد من جحور .

(٢) هكذا في سيرة الإمام ولم يظهر من المسود ولا وجدنا في جميع المصادر ما يدل على وصول عامل بغداد ، أيام الهادي عليه السلام الى صعدة ، ان يريد بالمسود عامل بن عباس فتأمل .

(٣) البيتان لنصر بن سيار والى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية انظر هامش سيرة الهادي ص ٢٥٣ للمحقق .

(٤) علي بن محمد هذا هو مؤلف سيرة الإمام الهادي مات في خلافة الإمام الناصر بن الهادي في الجوف ونقل إلى خيوان وقبر بها ورثاه الإمام الناصر بقوله :

قبر بخیوان حوى ماجداً	منتخب الأبناء عباسي
من يطعمن الطعمنة خواره	كأنها طعمنة حساس
قبر علي بن ابي جعفر	منجدل كالجبل الراسي

ومكث بها أياماً ، ثم خرج منها غرة ذي القعدة من السنة الى موضع كانت بنو الحرث قد تحصّنت فيه بجبل يقال له اللواء فنزلهم الإمام وضايقهم حتى أجلاهم ، ثم تحول إلى حصن لبني الحرث يقال له بلاد حطّ بالقرب منه فأمر بهدمه وإحراقه ، وجعل يتتبع بني الحرث في السهل والجبل ، ولما رأى ذلك ابن بسطام خاف الهلاك عليهم فصار الى مينا ، وأرسل الى ابن حميد يأمره بالتغيّب ، فصار ابن حميد يصرخ بالناس في ارض زُبَيْد ونهد ، وأرسل الى الجوف فلم يجبه أحد .

مقتل ابن بسطام

لما رأى ابن بسطام ما حل من الخذلان لبني الحرث أتى إلى الإمام يستأمنه لجماعة منهم ، فأمنهم الإمام ، وما زال يستأمن بني الحرث قبيلة قبيلة ، والإمام يؤمنهم ، وكانت بين ابن بسطام وبين يام والأحلاف تراث وذحول فساءها نفوذ ابن بسطام ووجاهته عند الامام ، ودبّرت حيلة لاغتياله وقتلوه بقرية الهجر ولما علم الامام جمع الجنود وعزم على غزوهم للأخذ بثأر ابن بسطام ، فأرسلوا إليه وطلبوا منه التروي ، وقالوا انهم قتلوه بمن قتل منهم وكان ابن بسطام قد قتل ستة من الياميين والأحلاف ، فتوقف الإمام عن تأديبهم ومعاقبتهم لهذه الشبهة ، فأجتمعت بنو الحرث بمينا ، وزعموا ان ابن بسطام قتل بأمر الإمام وارادته ، وانه المطلوب به قبل غيره فأنكر الإمام هذه التهمة وتبرأ منها ، وحلف لبني الحرث وغيرهم ، فأقتنع البعض ، وتشكك آخرون ، ثم انه أخذ جماعة من يام والأحلاف ، وحبسهم وأمر عامله أن يتولّى حسم المادة بينهم ، ورجع إلى صعدة ، وقد كان أبو جعفر قبل قتل ابن بسطام ، طلب من الإمام أن يعفيه عن ولاية نجران ، لما يعلمه من غدرهم ومكرهم وتلّونهم وصعوبة مقادتهم ، وانهم وان وضعوا السلاح عند الغلب ، لا يضعون الانتقام عند سنوح الفرصة ، فقال له الإمام : لا نحب أن نحمل عليك امراً تكرهه ، فاستخر الله في أمرك وانا نرجو ان لا تخالف ما أمرناك به إن شاء

الله فلما سمع جواب الإمام رجع عن فكرته ، ووطَّن نفسه على الصبر حتى النهاية ، وكان يريد نقل حرمه وأولاده إلى الحَضْن فلما قتل ابن بسطام نهاه الإمام عن ذلك وقال له انه مما يوهن أمره ويطمع عدوّه فيه ، وأمره ان يترك عائلته في الدار التي كانوا فيها ، وقال له ان بني الحرث ان أرادت الحرب عليك فإنما يقصدون هذه الدار اي التي كان فيها الإمام الهادي عليه السلام .

رجوع الإمام إلى صعدة وقتل عامله على نجران

تحرك الإمام من نجران في شهر ذي الحجة من سنة ٢٩٥ ، وترك من الجند ثلاثة وعشرين فارساً وخمسة وخمسين راجلاً بمعية عامله لإخضاع من تحدّثه نفسه بالتمرد ، وقد أخذ العهود والمواثيق من بني عبد المدان على السمع والطاعة لعامله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ولما انقضت ايام عيد الأضحى ثار ابن حميد ومعه بنو الحرث ، وكان عند علي بن محمد أولاده الثلاثة علي وجعفر والقاسم ، فأمرهم بالمصير إلى الحَضْن^(١) فكرهوا فراقه ، وسألوه ان يخرج معهم فانهم لا يثقون ببني عبد المدان عليه ولا عليهم فلم يصنع الي مقترحهم وقال : انه قد أخذ عليهم العهود والمواثيق وهو يرجو الا يغدروا به :

والمرتجون من ابن الشر خيرهم كمن يؤلف بين الذئب والضأن واقسم انه لا يخرج من القرية وفيه عرق ينبض بالحياة ، وأبت له نفسه العالية وشجاعته العلوية إلا الثبات والدفاع عن الحق إلى آخر نفس من انفاس الحياة .

وقد صدقت فراسة أولاده في بني عبد المدان ، فلأنهم لما جد الجد وحزبت الحوازب مالوا العدو عليه ونسوا كل عهد واستخفوا بكل ميثاق فقد

(١) يتردد ذكر الحَضْن كثيراً وهي بالتحريك والضاد المعجمة قرية وضياع زراعية من اعمال بيش (انظر المعجم الجغرافي للعقيلي ص ٨٧) .

هاجم ابن حميد ومعه بنو الحرث قرية الهجر وغدر بنو عبد الممدان وفي ذلك يقول ابو جعفر رحمه الله (١) :

غدرتم يا بني عبيد الممدان وكان الغدر من شيم الجبان
حلفتكم لي بإيمان غلاظ تخر لها الصخور مع القنان
بانكم على نصري حراص غداة الرّوع في وهج السطعان
فلم تعرفوا بعهدكم وكنتم شراراً يا بني عبد الممدان

بقي ابو جعفر في نفر قليل من خلص انصاره بقلوب يغمرها الإيمان بالله والرّضا بحكمه ، وقد أحاط بهم العدو من كل جهة ، ولم يبق أمامهم غير الفرار أو الموت (وهما أمران أحلاهما مر) .

أبوا أن يفرّوا والقنا في نحورهم ولم يرتقوا من خشية الموت سلماً
ولو أنهم فرّوا لكانوا أعزة ولكن رأوا صبراً على الموت أحزماً
وقد أشار عليه بعض أصحابه بالركوب فقال لهم : ليس هذا الوقت
وقت ركوب ، ولكن أنزلوا معنا نجالد القوم عن أنفسنا وحرمانا ، حتى يحكم
الله بيننا وبين عدونا ، وهو خير الحاكمين . ومضى قدما بنفس هاشة ، ووجه
طلق يهزأ بالخطوب ، ويحتقر الموت ولسان حاله تتمثل :

ردي حياض الرّدى يا نفس واتركي حياض خوف الردي للشاء والنعم
ان لم اذكرك على الأرماع سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

وبعد عراك شديد تحصن ومن بقي من أصحابه بالدار التي كان فيها الإمام الهادي ، وجعلوا يجالدون القوم ويدافعون دفاع الليوث عن اشبالها ، حتى اقتحموا عليهم الدار من جميع جهاتها ، ورموهم بالنار والحجارة فلم يؤثر ذلك في نفوسهم ، وجعلوا يبرزون للقوم الرجل بعد الرجل ، فاذا ما قتل الأول سد مسده الآخر ، حتى أفضت النوبة إلى أميرهم البطل الأروع ،

(١) الأبيات في سيرة الهادي ص ٣٧١ .

فكانت معركة شديدة ثاروا عليه من كل جانب ، وهو ثابت كأنه خنذيذة^(١) من جبل يفلّ شبا عدوانهم ، بمن يُرّديه من أبطالهم فتلاءمت تلك الجموع وتلاحمت وقالت : انه الذل والعار ، رجل واحد أشجاكم ، وبلغ مكروهمكم وقتل رجالكم أجمعوا عليه ، ثم احمّلوا عليه حملة رجل واحد ، ففعلوا ، فلقّاهم ذوي البيت ، ثم حمل عليهم وحمّلوا عليه ، ولم يزل يصولهم حتى أعياهم ، فكمن له رجل وراء الباب وضربه في قفاه فسقط بينهم فحمّلوا عليه ووضعوا فيه سيوفهم فقطعوه واخذوا سلبه رحمه الله ورضي عنه :

فتى مات بين الضرب والطعن ميته تقوم مقام النصر إن فاتته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان قوت الموت سهلاً فردّه إليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر

ثم احتزوا رأسه وكان يرتجز الذي اجترأ رأسه ويقول^(٢) :

شيخ لشيخ وصبي لصبي شفيت نفسي منك يا نسل علي
فلا أبالي بعدها ما حلّ بي من سخط الله ومن لعن النبي

وطافوا به في بلدانهم وصلبوه على خشبة بقرية الهجر ، وأخذوا جثته وجثث أصحابه رحمهم الله ، والقوها في سطح الدار التي قتلوا فيها ، وجعلوا يطؤونهم بحوافر خيولهم وعملوا بهم من ضروب التمثيل ما برهن عن تجردهم من كل عاطفة بشرية وانسلاخهم من كل معاني الانسانية ، ولم يكتفوا بما اجترموه من عار الغدر ونكث العهود وذل القسوة في التمثيل بقتلهم ، حتى تجاوزوا ذلك واقترفوا أعظم جريمة ، وأشنع جريمة تتحاماها الجاهلية والاسلام ، وينكرها الخلق العربي والشمم العربي ، ومدوا أيديهم وشهروا سيوفهم القذرة على النساء والصبيان والأطفال فسلبوهن ، وأخذوا ما عليهن

(١) رأس الجبل.

(٢) هو ابو العوارم بن موسى القطين . انظر البيتين في سيرة الهادي ص ٣٧٨ .

وتركوهن عوار لا يتوارين بقليل ولا كثير ، وما منهن امرأة إلا وقد نالها ضربة سيف ، أو رمية منهم ، وأخذوا صبياً ابن ستة أشهر ليضربوا به الجدار فلحقته أمه واستنقذته بعد أن جرّوه على الأرض وشجّوه وأخذوا طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها أربعة أعوام فضربوها بالسيف ضربتين ، وفعلوا أفعالاً تنم عن روح جامحة متمردة تحفزها الذكريات ، إلى دارسٍ بالٍ ، وعهود بالجماء أيام كعبة نجران ونشيد الرهبان^(١) وقد قدمنا لك أيها القارئ ما فعله الإمام عندما دخل نجران أول مرة مع أهل الذمة ، وهم من النصاري كما سيأتي بيانه عند الكلام على نجران أيام الإمام القاسم بن علي العياني ، ولو أن قدماء المؤرخين نظروا إلى الحوادث نظر استنتاج ، ولاحظوا أحوال البيئة والوسط الذي عاشت فيه هذه الطائفة والظروف الداخلية والخارجية التي كان لها أثرها في تكوين طباعهم وتلوين مشاربهم لظهرت النتيجة معلنة بما كان لدعاة النصرانية ، من يد في تأريث تلك النار ، ولكنهم اكتفوا بالنظر السطحي وتدوين الملاحم البشرية والمعارك الدموية ، فجاءت الثمرة ناقصة يعوزها النضوج ، والاكتمال ، وانظر إن شئت إلى هذه الحوادث الجليلة^(٢) ذات الشأن في تاريخ اليمن ، تجدها شغلت معظم أيام أكبر الأئمة وأعلامهم شأنًا ، وأخرت سير إصلاحه الديني والمدني كثيراً ، وكادت تقضي على بنيانه لولا عناية الله ، ومع ذلك فإنك لا تكاد تظفر بكلمة لكاتب يشير بها إلى السبب الحقيقي^(٣) ، والباعث الأول لوجود تلك المشاكل ، ومما يقوّي ما ذهبنا إليه من أن بعض قبائل نجران كانت تساق أو تتأثر بطقوس النصرانية ودعاتها ما جاء في قصيدة للإمام الهادي قالها لما تأمرت عليه نجران وبعض

(١) توسع المؤلف في خبر مقتل محمد بن عبيد الله العباسي نقلاً عن المصدر الذي ينقل عنه وهو سيرة الهادي وكان مؤلفه ابن القتيل كما أن مؤلف هذا الكتاب وهو الشهيد المطاع يتمي في نسبه إلى العباسي المذكور فيعلم .

(٢) في الأصل الجلي .

(٣) في الأصل الحقيقي .

قبائل خولان ، فشار ابن عباد الاكيلي في صعدة كما تقدّم ، وأول هذه القصيدة :

نام خدن الحرب من بعد الأرق واستلذ العيش من بعد الشرّق
ومنها :

جهلوا حربي وظنوا أنه أكلهم خبز النصارى بالمرق^(١)

هذه نظرة عجلى في الموضوع وسنعود إليه في الكلام على نجران أيام الإمام القاسم إن شاء الله ، ولنعد إلى تنمة أخبار أبي جعفر محمد بن عبيدالله ، بعد قتله انتقلت عائلته الى دار محمد بن منجاب^(٢) المداني فقام هو وحرمة بأمر هذه العائلة أتم قيام ، وجمع الصبيان من أيدي شرار بني الحرث ، ومن جملةهم موسى ومحمد وعبيدالله وعمره عشر سنين ، فأرسل ابن حميد في طلبه وأمر ابن منجاب ان يأتيه به ليقتله فانكر ابن منجاب وجوده وحلف على ذلك ، ثم أتى نفر من أهل نجران الى ابن حميد وطلبوا منه جثة محمد بن عبدالله فوهبها لهم فأخذوها وكفنها وصلّوا عليها ، ودفنوها بالقرب من قرية الهجر في موضع يقال له البلاط .

وها نحن نسجل كلمات الشكر لأولئك الرجال بعد مضي أكثر من عشرة قرون ونعد نفوسهم العالية من نواذر الطبيعة ، وأمثلة الابداع ، بذلك المجتمع الذي لا ترى فيه إلا نفوساً متوحشة ، وضماير منحرفة ، وطبائع ملتوية واتجاهات إلى غير غاية وبين تلك الأوشاب ، تظهر نفوساً تحلت بالرحمة ، وتجلت عليها آثار الرأفة وقلوباً مملوءة بالحنان ، وجناناً يحنو على البائس من بني الانسان ، فما أجدر تلك النفوس بالشكر وأحقها بالثناء :

ما مات من نبل الرجال وفضلهم يحيا لدى التاريخ وهو عظام

(١) انظرها في سيرة الهادي ص ١٩٨ .

(٢) في مطبوعة السيرة منجاب .

وقد كان علي بن محمد أرسل إلى يام ووادعة ، يطلب منهم
النصرة لأبيه ، فلم يجيبوه ، واعتذروا بفتنة بين عشائريهم ، وبينما هو كذلك إذ
وافته الانباء بقتل والده فعاد إلى الحضن وهو أياس من غريق^(١) وله في ذلك
قصيدة رثى بها والده وذكر تخاذل الأقوام عنه أولها^(٢) :

منع الحزن مقلتي ان تناما	وذرا الدمع من جفوني سجاما
يوم ناديت حي الاحلاف للنصر	على مذبح وناديت ياما
ودعونا للنصر بالوادعين	فلم ينصروا الأمير ^(٣) الهاما
لا يجيئون صارخا قام يدعو	يا لهدان انصروا الاسلاما

ومنها :

قتلت حارث بن كعب شريفاً	خير من وخذ الاله وصاما
قتلوه فأفحشوا القتل فيه	حين اضحى لديهم مستظاما

إلى آخرها : وقد أجمل القول كاتب سيرة الإمام الهادي فيما كان
بنجران بعد قتل محمد بن عبيدالله ، وأشار إلى أن آخر حروب الإمام كان
بنجران ، وأنه كان عليلاً من علته التي توفي منها ، وأن العدو هاجم الإمام
إلى الحضن ، فخرجت خيوله ، وكان مريضاً فلم يخرج ، ولما تراءت
الخيول كانت الحملة على أصحابه ، فولّوا مدبرين وقتل رجل من أصحابه
يقال له يوسف بن حرب العبسي^(٤) ، وهو آخر شهيد استشهد مع الإمام
الهادي ، ولم يكن له بعد ذلك قتال حتى توفي عليه السلام ، ولعلك قد
عرفت ايها المطلع فيما أسلفناه أن قتل محمد بن عبيدالله كان في سنة ٢٩٦ ،
وسيمر بك قريباً خبر وفاة الإمام في سنة ٢٩٨ ، ولعله لم يغز نجران إلا بعد

(١) مثل أورده الزمخشري في المستقصى ج ١ ص ٤٤٨ وكذا في الميداني .

(٢) القصيدة في السيرة ص ٣٨٣ .

(٣) في السيرة الأمين .

(٤) في السيرة يوسف بن ابي حرب العبسي .

مستتين من الحادث ، وانها وافته المنية قبل بلوغ الامنية والله أعلم .

أخبار القرامطة واستيلاء الإمام على صنعاء

ودخلت سنة ٢٩٧ في صفر منها خرج الطاغية بن فضل من المذيخرة قاصداً زبيد فدخلها بعد قتال وفر صاحبها إلى المهجم فاستباحها وقتل من أهلها خلقاً كثيراً وسبى نساءها، وأقام بها سبعة أيام وعاد إلى المذيخرة ، وخلف بزبيد عاملاً من قبله ولكنه لم يلبث بها إلا يسيراً وطرده صاحبها المنهزم عنها وفيها أظهر^(١) القرمطي نحلته الاباحية المجوسية ، وأباح شرب الخمرة وسائر المنكرات وصرف الناس عن الحج .

وفيها بعث الإمام علي بن محمد بن عبيد الله العلوي في جماعة إلى صنعاء وكتب إلى الدعام ان يخرج معه ففعل وسارا حتى دخلا صنعاء يوم الخميس لأيام باقية من رجب وطردا عامل القرمطي وأصحابه واستقر علي بن محمد بها ، ثم ان الامام بعث ابنه ابا القاسم في جماعة من خولان وهمدان إلى صنعاء ولما وصلها ارسل الى مخلاف مقرأ^(٢) والهان^(٣) وحراز وهوزن^(٤) ، فدخلت جميعاً في طاعته ، وقتلت من دعاة القرامطة جماعة وامنت البلاد وتآلفت الرعية وبلغ ابن كباله الخير وهو بتهامة ، فقدم حتى صار بالهان فمال إليه خلق كثير من الناس ، رغبة في الفساد وأرسل الى حراز من أخرج أصحاب الإمام ، فكتب ابو القاسم بما كان إلى والده الإمام فأمره بمفارقة صنعاء لئلا يجمع حرب القرامطة وابن كباله فخرج من صنعاء في شوال سنة ٢٩٧ وبادرت القرامطة من شبام ، فدخلوها وأقاموا بها أربعة عشر يوماً ، ولم يجدوا بها أحداً ، وقدم جراح بن بشر من تهامة بعد خروج محمد بن الإمام

(١) هذه رواية صاحب سيرة الامام الهادي وهي الارجح عندي (ص) .

(٢) هو الاسم القديم لمغرب عس من ذمار .

(٣) جبل في آنس .

(٤) من حراز .

من صنعاء ودخول القرامطة إليها فدخل إلى ناحية منها ، وخرجت عنها القرامطة لقتلهم ، وقدم أيضاً أسعد بن أبي يعفر فاستقر بصنعاء ، وإليه مخاليفها ومعه جراح بن بشر ، وابن كباله أقام بدمار ، وإليه مخاليفها .

ودخلت سنة ٢٩٨ فيها في ربيع الأول منها خرج أسعد بن أبي يعفر لحرب القرامطة فكانت بينهم حرب شديدة على درب شبام كان النصر فيها لأسعد فدخل شبام بعد هزيمة القرامطة وأقام بها أياماً ، ثم أعادت القرامطة الكرة ونزلوا من بيت ذخار ، فانهزم أسعد ، وخرج من البلد ، وقتل عبد القاهر بن حمدان بن أبي يعفر ، وقدم ابن كباله مُمدداً لأسعد فدخلوا شبام ، وطرردوا القرامطة عنها وطلعوا جبل ذخار ، وتم لهم طرد القرامطة عن الناحية ، وأقاما أياماً ثم انصرف ابن كباله وبقي أسعد بشبام يتبع القرامطة في الجبل أياماً ثم رجع إلى صنعاء وتخلّى عن شبام من دون حرب ، ولا هزيمة ، فعادت إليها القرامطة وأخربوها .

وفاة الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام

فيها مات الإمام الهادي بصعدة يوم الأحد لعشر بقين من ذي الحجة من السنة ودفن يوم الإثنين قبل الزوال بمسجده المشهور بصعدة ، ومولده بالمدينة المنورة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام سنة ٢٤٥ وقد قدمنا كثيراً من ترجمته وأحواله وهو بلا شك ، أكبر مصلح أرتفع اسمه في أفق التاريخ اليمني ، ونال من الاحترام والحب في قلوب اليمنيين مكانة لم يتبوها أحد بحيث أصبحت آثاره وأعماله وصفاته العالية قبلة الأبصار ومهوى الافئدة ، وقد مربك آثاره العلمية فإنه كان بمكانة عليا ، من العلم والفضل والورع ومكارم الأخلاق والحلم والتواضع ، كثير الصفح والتجاوز عن سيئات الناس وهفواتهم وفيما اسلفناه من الحوادث والماجريات المتعددة ما يشهد بصحة ذلك ، وناهيك بمعاملته لآل يعفر ومواليهم عندما رحل من شبام وهم إذ ذاك في سجنه ، وكلمة واحدة منه تكفي لإلحاقهم بأمس الدابر ، وكان شجاعاً مقداماً

ثابت الجأش ماضي العزيمة :

يباشر في الحرب المنايا ولا يرى
اخو غمرات ما يوزع جأشه
لمن لم يباشرها من الموت مهرباً
إذا الموت بالموت ارتدى وتعصّباً

دائم الحركة جم النشاط قوي الشكيمة عظيم الهمة مقدراً لمسؤولية
الحكم شديد الشعور بواجب الزعامة :

على خير ما كان الرجال خلاله وما الخير إلا قسمة ونصيب

حريصاً على مصالح الناس الدينية والدنيوية كثير العناية بشؤونهم
الاجتماعية والاخلاقية كان يصلي بالناس الجماعة ثم يقعد للارشاد وفصل
الخصومات ، ثم ينهض فيدور الأسواق والسكك فإن رأى جداراً مائلاً أمر
أهله باصلاحه ، أو طريقاً فاسداً أو خلفاً مظلماً أمر أهله ان يضيئوا فيه للمار ،
وان رأى امرأة أمرها بالحجاب ، وإن كانت من القواعد أمرها بالتستر ومن آثاره
الاصلاحية إحداث البراقع للنساء باليمن ، والزامهن بذلك ، وكان يقف على
أهل كل بضاعة ويحذرهم من الغش ويسعر لهم بضاعتهم ، وينهاهم عن
الظالم ، وكان يقول انما ورد النهي عن التسعير على أهل الوفاء وأهل التقوى
فإذا ظهرت الظلامات ، وجب على أولياء الله ان ينهوا عن الفساد كله ويردوا
الحق إلى مواضعه ، ويزيحوا الباطل من مكانه ويأخذوا على يدي الظالم
فيه .

كان يتفقد السجون بنفسه ويسأل عن ذنوب المسجونين ، فمن كان في
دين نظر في جدته أو إفلاسه ، ومن كان في ذنب تفقد جرمه وأمره ، وفحص
عن احوالهم ، وكان رحيماً بالفقراء والأيتام ، قال كاتب مسيرته : رأيت يفت
الطعام للأيتام ويشروه بالسمن ثم يقول ادخلوهم ثم ينظر فمن كان فيهم ضعيفاً
في المأكّل قال : هذا مغبون فيأكل مع المساكين ، ثم يعزل له شيئاً ،
قال : وكان لا يأكل حتى يطعم منه المساكين وكان يأمر صاحب بيت المال أن
يطعم الطوافين من المساكين على قدر ما في بيت مالهم ، وكان يأمر بالكسوة

لهم في كل وقت فيجعل للشتاء الصوف ونحوه ولغير الشتاء ، ما يوافقه ، ويقول لكل زمان لباساً ، وكان يكسو الرجال والنساء والصبيان . وكان كثير الاهتمام بأهل الذمة والعناية بهم . فكان يقول لهم : من آذاكم فأعلموني به ، ومن اطلع على محرمكم أو تعرض لكم احللت به ما أحل بمن نكث عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم انتهى .

وكان عليه السلام صدوقاً ، لا يعرف شيئاً من دهاء الساسة ومكرهم ولذلك اشتدت عليه المحن وتنوعت الرزايا ، وأما صرامته في الحق وزهده وورعه فقد قدّمنا لك أمثلة منها وحسبك ما مرّ .

وفي الزحيف^(١) ما لفظه : قال علماؤنا انه لما قرّر قواعد المذهب الشريف والدين الحنيف ، وقد كان في اليمن مذاهب مختلفة قرامطة وأباضية قوم من الخوارج ، وجبرية فاستأصل الله بحميد سعيه أكثر أهل تلك المذاهب الردية ، وأظهر مذهب العترة الزكية فامتلات اليمن عدلاً وتوحيداً وارشاداً وتسديداً . انتهى .

قيام الإمام المرتضى محمد بن يحيى عليه السلام

ببيع بالخلافة بوصية من الإمام الهادي في المحرم سنة ٢٩٩ وكان كثير العلم والعبادة زاهداً ورعاً فكاتب العمال بأمرهم بالتحري على العدل وحسن السيرة واشتغل بحرب القرامطة ، إلى شهر ذي القعدة من تلك السنة . ثم انه جمع الجند وأعيان الناس وعاب عليهم أشياء انكرها وخطب فيهم خطبة بليغة ، وتخلّى عن الإمامة ورفع عماله من خولان وهمدان ونجران ، ولزم منزلة ، وأقام بعض بني عمه للنظر بين الناس واستمرت الحال على ذلك إلى أن قدم أخوه احمد بن الهادي من الحجاز آخر ذي الحجة سنة ٣٠٠ فأقام مع

(١) يعني به كتاب مآثر الأسرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار شرح بسامة ابن الوزير تأليف العلامة محمد بن علي به يونس الزحيف المتوفي سنة ٩١٦ .

أخيه إلى صفر سنة ٣٠١ ثم اجتمع عليه الناس وبايعوه كما سيأتي .

بقية أخبار القرامطة والحرب بين

الطاغية ابن فضل ومنصور بن حسن

لما توفي الإمام الهادي عليه السلام جمع أسعد بن أبي يعفر من قدر عليه ونهض بهم لحرب القرامطة الذين بشبام فطردهم عن الشبام ، وأقام بها أياماً حتى وافته الأنباء بحركة الطاغية من المذيخرة نحو صنعاء فكرر راجعاً ووصل ابن كباله منهزماً من ذمار ودخل صنعاء .

وفي اليوم العاشر من المحرم سنة ٢٩٩ دخل ابن فضل صنعاء فهرب منها أسعد ، فلم يبق الطاغية فيها بل ترك فيها من يحفظها ، وسار إلى شبام ، وطلع بيت ذخار ، وخلع طاعة صاحبه المهدي وأراد من منصور بن حسن أن يخلع طاعة المهدي ، وينضم إليه فعاتبه منصور ولامه على تلك النزعة ، فأجابه الطاغية أن لي بأبي سعيد الجنابي أسوة ، إذ قد دعا إلى نفسه ، فلم يساعده منصور وتعكر الصفو بينهما ، وكان ابن فضل متهوراً سفاكاً طاغية ، فتوعد صاحبه وبادر لخضد شكوته وإهلاكه ، في جيش كثيف ، فتحصن منه منصور بجبل مسور ، ودارت بينهما عدة معارك قتل فيها كثير من الناس وطالت مدة الحرب والنزال إلى ثمانية أشهر ولم يظفر أحد منهما بصاحبه ، وقد شق بهما الحال ، فأرسل منصور في طلب الصلح ، فأجابه الطاغية بشرط أن يرسل منصور ولده إليه ليقال انما تركه تفضلاً لا عجزاً فقبل منصور وأرسل ولده إليه فطوقه ابن فضل بطوق من ذهب ، وسار به إلى صنعاء ودخلها لسبع ليال خلت من رمضان من السنة ، ونزل بالجامع الكبير ، هو وأصحابه فذبحوا وشربوا الخمر ولم يتعرضوا لأحد من أهل صنعاء ، ثم كر راجعاً إلى المذيخرة مبأة كفره ، وعش فجوره ، وكان أسعد قد ولّى علي بن الحسن الأقرعي على صنعاء ، وأقام بدمار ومعه ابن كباله ، فاجتمعت إليه جماعة من مذحج وابن الروية المذحجي ووعدوه النصرة على القرامطة فبث أسعد عماله

على النواحي ، ومات ابن كباله^(١) بدمار ، في ربيع الأول من السنة ، وقال الخزرجي^(٢) : إنَّ أسعد وثب على ابن كباله وقتله ، ثم انتقل الى كحلان لما بلغه ان بعض رجال من كحلان يكاتب القرامطة ، ثم ان ابن فضل كاتب أسعد بن أبي يعفر ، ولاطفه وولاه على صنعاء ومخاليقها فدخلها أسعد ، وبثَّ عماله على مخاليقها ، وخطب للطاغية ، وقطع خطبة بني عباس ، ولبس البياض وفيها قتل عبدالله ابن أبي الغارات المجيدي صاحب مخلاف المعافر ابن ذي الطوق القرمطي وهو من أكبر قواد الطاغية .

ودخلت سنة ٣٠٠ فيها عظم نشاط القرامطة لبثَّ الدعوة وأرسل الطاغية بقائدين من قواده فأمسكهما عامل الحرمين الشريفين^(٣) وضربهما بالسياط حتى هلكا .

وفيها تحرك ابن فضل لمناجزة ملاحظ بن عبدالله^(٤) الرومي صاحب زبيد ، ولما قرب من زبيد ، خرج ملاحظ منها بجميع من معه ، وخرج أهل البلاد أيضاً وتفرقوا في تهامة ، فدخلت القرامطة وليس بها أحد .

وفيها مال جراح بن بشر إلى القرامطة ، وكاتب ابن فضل فاستدعاه ابن فضل إليه وكان في بلاد الشرف فهرع لملاقاته ولما وصل وادي مور لقيه ملاحظ الرومي فقتله (ان الشقي وافد البراجم) ثم عاد ملاحظ إلى زبيد وقد فارقها الطاغية ورجع أدراجه .

وفيها انتشرت النجوم بكثرة حتى أشفق الناس ، وفيها بعث أسعد بن أبي

(١) سيرة الامام الهادي .

(٢) المسجد المسبوك ص ٤٢ .

(٣) في غاية الأمان ص ٢٠٢ اسم هذا العامل عيج بن ساج وفي سيرة الهادي ٤٠١ عيج بن حاج .

(٤) سيرة الإمام الهادي ولم نقف على أول أمر هذا الرومي وفي أنباء الزمن انه نائب ابن زياد ، وقد سبق ذكر الدولة الزيدية ونوابها فارجع إليه فانك غير واجد هذا الاسم أو النائب فتأمل .

يعفر أخاه عبدالله إلى ثاه من بلاد رداق فقبضها .

وفيها ظهر المذهب الشافعي في بلاد اليمن وكان الداعي إليه في الجند ومخلاف جعفر عمر بن محمد الخراشي السكسكي ، وقيل إنه لم يظهر إلا في المئة الرابعة^(١) .

خلافة الإمام الناصر احمد بن يحيى عليه السلام

ودخلت سنة ٣٠١ فيها بايع المرتضى ابو القاسم محمد بن الإمام الهادي أخاه الإمام الناصر ، وقد ذكرنا تنازل المرتضى عن الخلافة ، وقدم الناصر من الحجاز ، فاجتمعت خولان وسألوه القيام وبذلوا له السمع والطاعة ، وبايعوه على ذلك ، وأقبلت إليه أيضاً رجال همدان ونجران وبايعوه فبعث عماله على البلاد وشمر لحرب القرامطة الساق فكانت له فيهم فتكات عابسة ، ووقعات هائلة كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، ولما أخذ البيعة على من حضر ركب في ذلك اليوم إلى صعدة القديمة واجتمع معه خلق كثير، قيل انهم ملؤا ما بين صعدة والغيل^(٢) ، وانشده شاعره ابراهيم ابن محمد التميمي^(٣) قصيدة أولها^(٤) :

عادات قلبك يوم البين أن يَجِبَا وان تراجع فيه الشوق والطربا

وهي طويلة ، ثم شاور الإمام الناصر خولان في نهوضه الى الحجاز ، فجددوا له البيعة على السمع والطاعة ما بقوا على الأرض ، وبايعه عليم همدان احمد بن محمد بن الضحاك الحاشدي .

وفيها خالف أبناء الدعام أباهما وفارقاه ، ووثبا على غرق فبناها

(١) أبناء الزمن .

(٢) راجع اللآلئ المضئية .

(٣) انظرها في ترجمة المذكور في مطلع البدور .

(٤) غرق بالتحريك سبف ذكرها وهي موضع بالجوف الاعلا .

وأخرباها ، وكان فيها^(١) عاملاً للإمام فاخرجاه إلى المراشي^(٢) فنهض الإمام لتأديبهما في عسكر كثيف وطردهما إلى جبل نهم ، ثم اتجه إلى مراد لمطاردة الدّعام فالتجأ إلى ملح من بلاد نهم ، وبقي الإمام يتأثر آل الدّعام فشردهم إلى أطراف البلاد ، واستعمل على غرق علي بن محمد بن عبيدالله^(٣) العلوي ، وعلى اثافت أخاه القاسم بن محمد بن عبيدالله ، وعلى نجران عبد الرحمن الأقرعي ، ثم ان ابني الدّعام راسلا الطاغية ابن فضل ، وأمدهما بمال فخرجا إلى مطرة من بلاد عذر ، وهي من أطراف بلاد الإمام وكان منهما ما سيأتي ، وفيها قتل محمد بن الدعام بفرق قتله ابن عمه^(٤) ابراهيم بن ابراهيم .

ودخلت سنة ٣٠٢ فيها أغار عمّال الناصر على ابن الدّعام فهزموه إلى خيوان وسار ابراهيم ابن الحسن في أثره فوصل إلى مرهبه ونهم ثم عاد إلى الإمام .

ودخلت سنة ٣٠٣ فيها مات ملاحظ صاحب زبيد وولّى بعده عبدالله ابن ابي الغارات ، ولم تطل أيامه فولّى ابراهيم بن محمد الحرملّي^(٥) .

وفيها سار الإمام الناصر إلى نجران لتفقد شؤونها فأقام بها أياماً وعاد إلى صعدة ولما استقر بها وافته الأنباء بظهور القرامطة في بلاد عذر والأه نوم وميل تلك القبائل إلى مذهبهم الخبيث ، وتظاهروا بترك الصلاة وشرب الخمر ، وإتيان المنكرات جهرة ، فنهض الإمام إلى خيوان وأرسل أبا جعفر محمد بن

(١) في الأصل في .

(٢) المراشي : جبل مقابل نرط من جهة الشرق .

(٣) هو مصنف سيرة الإمام الهادي كما تقدم .

(٤) راجع سيرة الإمام الناصر ومع كذيل سيرة الإمام الهادي ولا ندرى هل هي لمؤلف السيرة أم لغيره (ص) قلت سيرة الإمام الناصر من تأليف عبدالله بن عمر الهمداني وهو من الكتب المعقودة ينقل عنها الشرقي في اللآلئ المضيئة وابن ابي الرجال في مطلعته وغيرهما .

(٥) لم يذكر في سيرة الناصر من طرف من ولي اولئك ، وزاد صاحب انباء الزمن عند ذكر الحرملّي به وكان من قواد السلطان .

الضحاك الهمداني ، إلى أصحابه من همدان ، وأهل عذر والأهنوم ، وظليمة ، وحجور ، لغمز قناتهم ومعرفة ما هم عليه فرجع ابو جعفر واخبره بتكرهم ، فتحرك الإمام لمناجزتهم وسار إلى حجور ، ونزل بالبطنة فألقاه أهل عذر ، ثم تقدم إلى السوق بجنود كثيرة وقابلته القرامطة فهزمهم وخضعت ظليمة والأهنوم ، وكان بين هاتين القبيلتين احقاد وحروب ، فأصلح الإمام بينهم واستأمن إليه من كان قرمطياً ، ثم سار إلى اثافت وأقام بها أياماً وعاد إلى صعدة واستعمل على اثافت الحسن بن احمد البعداني .

وكان الإمام الناصر ، قد أرسل بكتب دعوته إلى كثير من بلدان اليمن ، ولما وصلت دعوته إلى بلاد حجة ، لم يقبلوا عليها ، ومزقها بعضهم فداهمتهم القرامطة ، ومزقتهم كل ممزق ، وكان وصول القرامطة باستدعاء من أهل قدم لينصروهم على بني أعشب ، فهرعت القرامطة من جبل مسور ، ودخلوا حجة وقتلوا رئيسها عبدالله بن بديل الحجوري ، ونهبوها وعادوا أدراجهم بعد ان استعملوا رجلاً منهم على حجة ، ولم يلبث أهل قدم أن تورطوا في خلاف جديد مع أهل بجير^(١) فعاودوا الاستنجاد بالقرامطة فأنجدوهم ، ونشبت المعركة على حصن مدرج من بلاد الجبر ، فهزمت القرامطة أول الأمر ، ثم أعادت الكرة وعطفت على أهل الجبر فهزموهم ونهبوا بلادهم ، واخربوها ، وذبحوا الأطفال ، فاستنجدوا بالإمام الناصر وطلبوا منه العفو عما سبق فأنجدهم ، وكتب إلى أبي جعفر ابن الضحاك وأمره بالمسير معهم .

هلاك الطاغية علي بن الفضل القرمطي

وفيها هلك ابن فضل القرمطي مسموماً وكان الذي سمه رجل غريب قدم من بغداد ، وقيل من الحجاز ، وكان جراحياً^(٢) ماهراً اتصل بأسعد بن

(١) الحبر مقاطعة في مخلاف الشرف مربوطة بلواء حجة .

(٢) كذا في الأصل ولعله جراحيا .

أبي يعفر ، فرأى من خوفه وقلقه من الطاغية المذكور ، ما حفزه على المغامرة بنفسه ، والتطويح بها في سبيل انقاذ المسلمين من كبول طغیان ابن فضل باغتيالہ ، ولما صمم على ما أعتزمه أخبر أسعد بذلك العزم فرغبه أسعد ووعدہ المشاطرة فيما يملك ، فرحل الشريف إلى المذخيرة واختلط برجال الدولة ، ووضع لهم الأشربة ، وركب الأدوية ، ووصف لهم العقاقير ونحوها مما^(١) تستدعيه حالة الترف ورغد العيش طبعاً ، ومكث يعاني هذه الصنعة بمهارة فائقة ، حتى نال شهرة عند رجال الدولة ورفع خبره إلى الطاغية ، وكان قد اضطر إلى الفصد فطلبه ليقوم بعملية الفصد فافترض فرصة الاتصال بفريسته ودس له السم في مشرطه ، وما هو إلا أن فرغ من مهمته حتى أدرك الطاغية سر عمله ، وأحس بمفعول السم يجري لطرد روحه الشريرة من جسده الخبيث ، جريان النار في يابس الهشيم فأمر بطلب الشريف فأسرعت الجنود في البحث عنه ، وكان قد بارح تلك القرية الظالم أهلها ، فأسرعوا في طلبه في الجهات الأربع ، وأدركه بعضهم بوادي السحول^(٢) ، فحاولوا القبض عليه فدافع عن نفسه حتى قتل رحمه الله وشالت نعامة^(٣) الطاغية ، عقيب ذلك منتصف ربيع الآخر سنة ٣٠٣ ودفن بالمذخيرة^(٤) .

ونقل الزحيف عن كتاب كشف الأسرار وهتك الاستار عن محجوب الكفار للسيد يحيى بن القاسم^(٤) الحمزي إن سبب موته كان على يد السيد الشهيد

(١) في الأصل منما .

(٢) وله مشهد هناك يعرف بفرمات اسم الرجل .

(٣) يقال في المثل سالت نعماتهم : أي تفرقوا وذهبوا لأن النعامة موصوفة بالخفة وسرعة الذهاب والهرب ومنه قول صخرالقي :

دعاه صاحبا حين شاك نعماتهم وقد صفر القلوب

(٤) كذا ينسب المؤلف رحمه الله كتاب كشف الأسرار إلى يحيى بن القاسم الحمزي المتوفي سنة ٦٦٦ (ترجمته في مطلع البدور) والمعروف أن هذا الكتاب من تأليف الفقيه محمد بن لمك الحمادي المتوفي نحو سنة ٤٧٠ وهو في كشف فصائح الباطنية وقد طبع عدة مرات . ولعل الذي أوقعه في هذا السهو مصدره الذي ينقل عنه وهو كتاب مآثر الأبرار للزحيف .

علي بن محمد الحسيني رحمه الله ، فإنه باع نفسه من الله لما رأى أفعال عدو الله فأعمل الحيلة وتهياً بهيئة طبيب عارف ، وأوهمه أن به علة أن لم يفعل فيها ما يأمره هلك فأمره بفصد عزفين في رجله وفصده بمبضع مسموم بسم قاتل . فما مضى عليه إلا القليل حتى بلغ الألم شغاف قلبه ، وهرب السيد بعد فصده حتى بلغ نقييل صيد فقتل هناك شهيداً ثم مات ابن فضل عقيب ذلك يوم الأربعاء للنصف من ربيع الآخر سنة ٣٠٣ انتهى .

وفي تنمة سيرة الإمام الهادي عليه السلام ، ما لفظه : وأصاب ابن فضل لعنه الله مرض في بدنه فتفجر من أسفل بطنه ، وأماته الله على أسوأ حال لعنه الله . ولم يذكر ما أشار إليه غيره من مؤرخي اليمن^(١) ، أن قتله بالسم على يد الشريف ، وقد أشار إلى ذلك أبو الحسن علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح في رسالته التي كتبها إلى أبي العلاء المعري وضمنها عيوب الملاحدة ومذاهبهم . جاء فيها : والصناديقي^(٢) في اليمن ، فكانت جيوشه بالمذيخرة وسفينة^(٣) وخطوب بالربوبية^(٤) ، وكوتب بها فكانت له دار إفاضة ، يجمع إليها نساء البلدة كلها ، ويدخل الرجال عليهن ليلاً قال من يوثق بخبره : دخلت إليها لأنظر ، فسمعت امرأة تقول : يا بني فقال يا أمه نريد أن نمضي أمر ولي الله فينا ، وكان يقول إذا فعلتم هذا لم يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد ، فتكونون كنفس^(٥) واحدة فغزاه الحسيني من صنعاء

(١) راجع تاريخ عمارة والجندى والخزرجي وقرة العيون وأنباء الزمن (ص) .

(٢) تسمية ابن فضل بالصناديقي لم نجده في غير رسالة ابن القارح (ص) .

(٣) سفينة قرية من أعمال الجند وهي سفينة بتقديم الفاء الموحدة على الهاء لا كما رسمها ابن القارح ، وتعرف الآن بالسفنة باسقاط الهاء الأولى (ص) .

(٤) قال الخزرجي أن الطاغية كان يكتب عنوان كتابه إذا كتبه من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان انتهى . ولكن رواية الثقة التي استند إليها ابن القارح عن الذي دخل دار الافاضة وسمع الخطاب الذي دار بين الولد وأمه يخالف ما ذكره فتأمل (ص) .

(٥) هذه عين الاشتراكية الشيوعية الروسية الآن (ص) .

فهزّمه ، وتحصّن منه في حصن هناك ، فانفذ إليه الحسنى طيّباً بمبضع مسموم ، ففصله به فقتله انتهى .

ولقد غلط ابن القارح كما ترى ، فظن الحسنى ملك صنعاء وانه لَمَّا عجز عن القرمطي دسّ إليه السّم بواسطة الطّبيب ، ولما كانت هذه الرسالة قد طبعت ونشرت ، وهي مشهورة اضطربنا إلى الإشارة إليها صوناً للحقيقة التاريخية من التشويه .

وقال الأستاذ المعاصر عبدالله بن علي القصيمي في كتابه «الصراع بين الاسلام والوثنية» : ان هلاك الطاغية المذكور كان بصنعاء والصحيح ما قدمناه .

استئصال القرامطة وخراب المذيخرة

لما هلك الطاغية وبلغ أسعد بن أبي يعفر بادر بالنهوض من صنعاء وجمع الجموع لاستئصال شافة القرامطة ، وقطع دابرهم ، وكان قد انتصب بعد الطاغية ولده الفأفا ، فأساء السيرة في أصحاب والده ، وقتل منهم كثيراً ، وما عثم أسعد بن أبي يعفر أن أناخ بجموعه على جبل ثومان ، وقد وافته القبائل اليمنية من كل صوب وحذب فشنّ بهم الغارات على مخلاف جعفر ، وأغار على الحصون ، وكلما خرج عليهم عسكر من المذيخرة كسرهم المسلمون حتى وهنت قوة القرامطة ، وغارت عزائمهم ، وأسعد يشدّد عليهم الحصار ويبالغ في التضييق إلى أن عجزوا عن المقاومة ، ودخل أسعد المذيخرة قهراً بالسيف يوم الخميس ، لسبع ليال بقين من رجب سنة ٣٠٤ فكانت مدة الحصار والمنازلة سنة كاملة ، قال الجندي^(١) : (قيل انه لم ينزع أسعد فيها درعه ، ولم يزل متقلداً لسيفه ، وانقطعت دولة القرامطة من مخلاف جعفر ولم تزل المذيخرة خراباً الى عصرنا) .

(١) السلوك ج ١ ص ٢٤٥ .

ولما دخلها اسعد نهب ما فيها وسبي جميع أهلها ، وقتل ألفاً ابن علي بن فضل ، وجميع من ظفربه من خواصه وأهله ومن دخل في مذهبه ، ومن جملة السبي بنات الطاغية الثلاث أعطى إحداهن ابن أخيه قحطان بن عبدالله بن أبي يعفر ، فولدت له عبدالله بن قحطان الآتي ذكره ، وبقيتاهن لإثنتين من رؤساء أصحابه ، وقال في أنباء الزمن : ان اسعد أسر ابن علي بن فضل ، وأمر بضرب عنقه ومن معه من الأسرى ، وكانوا نيفاً وعشرين رجلاً ، وبعث بالرؤوس إلى بغداد في شهر القعدة من هذه السنة واستخلف على أهل تلك الجهة إبراهيم بن اسماعيل بن العباس .

بقية أخبار الإمام الناصر

ودخلت سنة ٣٠٥ في المحرم منها نهض الإمام الناصر بعساكر كثيرة إلى حوث^(١) لمناجزة القرامطة الذين بشطب ، وهم جموع كثيرة فوجه الإمام لحربهم الفطريف بن أحمد الصائدي ومعه حمدان ، فانهزمت القرامطة من غير قتال وانتهب الجيش تلك الجهة ، وغنموا ما فيها من المغانم الواسعة ورجعوا إلى الإمام ، فعادت القرامطة تارة أخرى ، ودخلوا قرن الناعي وكان إبراهيم بن الضحّاك في جبل شطب^(٢) فحاربهم ثم كانت مهادنة بينهم وبين ابن الضحّاك .

وقعة نغاش

ودخلت سنة ٣٠٧ ، فيها كانت وقعة نغاش^(٣) المشهورة قال في اللآلي المضيئة ما خلاصته : كانت آخر الوقعات وأهمّها وقعة نغاش ، وكان قد أجمع من القرامطة خلق كثير من المغارب وناحية تهامة ، وقائدهم يومئذ عبد الحميد بن محمد بن الحجاج صاحب مسور ، وندب الامام قواده وهم

(١) حوث : بلدة مشهورة من حاشد .

(٢) شطب : جبل واسع يطل على مركز السودة .

(٣) نغاش : بلدة في جبل عيال يزيد شمال عمران .

ابراهيم ابن المحسن العلوي ، وابو جعفر احمد بن محمد بن الضحاك
وعبدالله بن عمر الهمداني^(١) وعبدالله بن محمد السعدي في ألف وسبعمائة
مقاتل ، وكان ابتداء القتال لليلتين من شهر شعبان سنة ٣٠٧ بموضع يقال له
بيت الورد^(٢) فدامت المعركة ، من صلاة الظهر إلى غروب الشمس ، ثم
وُلَّت القرامطة الأدبار ، فنهض عسكر الإمام إلى قصر محمودي بالقرب من
نغاش ، وكان الفطريف الصائدي يرتجز ويقول^(٣) :

سيدنا الناصر باد علمه	مثل الهلال زيته انجمه
همدان في كل مغار تقدمه	طراً وخولان جميعاً تخدمه
لا بد من حصن اللعين نهده	ونستحل ماله ونعيمه
وفي غد نبصر مالا نعلمه	من أخذ مال بالقران نقسمه ^(٤)

والحق فينا لا يجور قلمه

وأمسى جند الناصر على ماء الحمودي ليلة الثلاثاء وفي ذلك يقول راجز
خولان :

نحن حميناكم وحزنا القنطر ما الحمودي يضرب قسراً^(٥)
ومنه تقدموا الى نغاش ، وهناك التقى الجمعان واصطدم الفريقان ،
وحمل الوطيس وقطفت الرؤوس ، ودارت بالحتوف الكؤوس فاستحرق القتلى
في القرامطة ، وهبَّت ريح النصر مع أصحاب الإمام ، وكان قد انتظم في
الجيش القرمطي ، جل قبائل بلاد حجة وحجور وحفاش وملحان والضلع
ومسور ، وغيرهم ، ورأسهم عبد الحميد المذكور فصار الجميع جزراً

(١) هو مؤلف سيرة الإمام الناصر .

(٢) قرية في عزلة الاشموور من فضاء عمران .

(٣) الرجز في الحداثق الوردية ج ١ ص ٥٠ .

(٤) في الحداثق القرار وهي نسخة خطية مصورة .

(٥) انظره مع تمامه في الحداثق ص ٥٠ .

لأصحاب الإمام ، وباء الباقون بهزيمة فاضحة ، قطعت دابرهم وأخمدت نيران طغيانهم ، قيل ان عدد القتلى منهم تزيد على خمسة آلاف قتيل ، وفقد من دعائهم واهل الرئاسة منهم ثمانية وأربعون داعياً ، وقال السيد صارم الدين في بسامته :

وكان يوم نفاش منه ملحمة على القرامط لم تبق ولم تذر
وعد سبعة آلاف مضوا عجلاً حصائداً بين مرمي ومجتزر
وبالمصانع أخرى منه تشبهها حلت عرى الشرك من كوني ومن قدر^(١)

ولم يقتل من أصحاب الإمام سوى رجل واحد ، وافلت عبد الحميد بن محمد وفر إلى حلملم^(٢) واستقر بها ، وتفرق فلول عسكره شذراً مذر ، وفي ذلك يقول عبدالله بن احمد التميمي^(٣) في أرجوزته^(٤) : التي أولها (عوجا خليلي أوان الموسم) ومنها :

القرمطي ذي الضلال المجرم عبد الحميد ذي الفعال المؤثم
إذ فر لا يقصر عن حلملم وخلف الدعاة لحم الوضم

فكتبوا الى الإمام بخبر هذه الواقعة وبما جازوه من النصر العظيم ، فعاد جوابه بالحث على متابعة القرامطة ، وترسم آثارهم ومطاردتهم فنهض الجند الإمامي ، فهرب عبد الحميد ومن معه إلى جبل موتك^(٥) فدخل جند الإمام حلملم ، فأحرقوها واستولوا على ما فيها ، وطلع عبد الحميد إلى جبل مدع

(١) تقدم الكلام على كوني واما قدري فلم نجد في النحلة الديبانية معناه ، ولعله من خرافات القرامطة ان المراد به قدري نسبة إلى القدر ولكنه بعيد (ص) .

(٢) حلملم : قرية من عزلة الأشحور السابق ذكرها .

(٣) من الشعراء العلماء كان معاصراً للهادي وولده الناصر وله شعر اورده ابن ابي الرجال في مطلع البدور (خ) .

(٤) انظرها كاملة في الحقائق ج ٢ ص ٥١ .

(٥) قال صاحب الحقائق الوردية موتك ويعرف الآن بميتك : وسيأتي في هذا التاريخ ان المراد به جبل مسور .

ثم نهض جند الإمام إلى المصانع وفيها كانت المعركة الثانية ، وفر منهم عبد الحميد إلى مسور ولم يزالوا في مطاردته ومحاربتة والنصر حليفهم في كل معركة إلى ان داهمتهم الجنود الواصلة لنجدة عبد الحميد من حكومة زبيد وكان قد استغاث بهم ومناهم الأمانى . قال في أنباء الزمن في حوادث سنة ٣٠٦ : ان الجند الإمامي قتلوا من هذه الفرقة الظالمة أمة لا يحصرها العدد ، ولا ينتهي صاحبها إلى أمد واستولت العساكر الإمامية على ما أجلبت به تلك الفرقة الغوية من سلاح وغيره ، وانهزم بقيتهم إلى سور بالخط الآخر ، فتبعهم جند الإمام وحاصروهم ، حتى روى ان الدماء سالت وسمع لها دوي كدوي السيل حتى أيقنوا بالهلاك ففزعوا إلى صاحب^(١) زبيد ، وطلبوا منه النصرة فلم يغن عنهم شيئاً غير أن الناصر عليه السلام رأى من المصلحة رفع المحطة عنهم وبهذه الواقعة انحلت عروة القرامطة ، وكسرت شوكتهم ، وخمدت نار فتنهم والحمد لله رب العالمين ، وقال في تنمة سيرة الإمام الهادي : انه لما تضايقوا بالحصار ، كاتبوا الحرمل صاحب زبيد وارسلوا اليه بمال ، فارسل عسكرياً في نصرتهم ، فلما بلغ ذلك احمد بن يحيى عليهما السلام كره حربه لئلا يقع عند السلطان انه يحارب قائده ، فينقطع الموسم عما في بلاده من التجار انتهى .

ثم قال في أنباء الزمن^(٢) بعد كلامه المتقدم : ودخلت سنة ٣٠٧ . وذكر وقعة نغاش في حوادث سنة ٣٠٦ ، وقد مر بك ما نقلناه عن اللآلىء المضئية ، وفي سيرة الإمام الناصر ان انصراف جند الناصر من محاصرة مسور سنة ثمان وهو يؤيد ما ذكرناه ، وفي الحقائق الوردية^(٣) : ان وقعة نغاش سنة سبع ، وصرح أيضاً في أنباء الزمن ان الإمام الناصر اشترك بنفسه في هذه

(١) تأمل كيف اجمل العبارة صاحب أنباء الزمن ولم يصرح من هو صاحب زبيد كأنه لخط الاشكال المتقدم فلم يقطع بأنه ابن زياد ولا غيره .

(٢) غاية الأمانى (مختصر أنباء الزمن) ص ٢١١ وقد أوردها في حوادث سنة ٤٠٦ .

(٣) الحقائق الوردية ص ٥١ .

الحرب ، وهو غير صحيح ، والظاهر صحّة ما ذكرناه اعتماداً على ما في سيرته :

ولم يذكر صاحب أنباء الزمن ولا غيره شيئاً من الحوادث التي من بعد وقعة نغاش إلى سنة عشر .

وفاة الإمام المرتضى محمد بن يحيى عليه السلام

ودخلت سنة ٣١٠ في المحرم منها مات الإمام الزاهد الورع أبو القاسم محمد بن الإمام الهادي إلى الحق عليهما السلام ، ودفن بجانب والده وله إثنان وثلاثون سنة وكان في الزهد والورع والعلم والعمل بمكانة عالية ، وله عدة مؤلفات منها كتاب الأصول في العدل والتوحيد وكتاب الإرادة والمشية ، وكتاب التوبة ، وكتاب الردّ على الروافض ، وكتاب فضائل أمير المؤمنين علي عليه السلام وكتاب الرد على القرامطة وغيرها .

وله من الولد أبو محمد القاسم واسماعيل وإبراهيم وعلي وعبدالله وموسى ويحيى أبو الحسين الخارج بالديلم الملقب بالهادي ، الذي روى عن عمّه كتاب الأحكام والمنتخب^(١) والحسن والحسين ، والعقب للمرتضى في جهات اليمن من ذرية عبدالله بن المرتضى ، ومن في العراق من ذرية يحيى وهو أبو الحسين الخارج بالديلم^(٢) .

قال في أنباء الزمن ، بعد ذكر وفاة المرتضى ما لفظه : ولم يزل أخوه الناصر مجاهداً للظالمين منابداً للمعاندین ، واستولى على كثير من البلاد وسار إلى عدن^(٣) فدخلها في ثمانين ألفاً نصفهم أهل قسي ، ودانت له أهل تلك

(١) الجدة الهادي يحيى بن الحسين .

(٢) اللآلئ المضيئة .

(٣) وقد أطلت البحث في جميع المصادر المرجوة بأيدينا عما أشار إليه السيد صارم الدين بقوله عند ذكر الإمام الناصر في البسامة :

النّاحية ، وخضعت له الرّقاب العاصية ، وفي هذه السّنة وقع حرب بين دهمّة واختها وائلة بني شاكر قتل فيها ثلثمائة رجل بسبب جار لوائلة قتلته دهمّة .

ودخلت سنة ٣١١ لم يتفق فيها ما ينبغي ذكره عن اليمن وذكر كذلك عدة سنين الى سنة ٣٢٢ قال وفيها مات الإمام الناصر .

ودخلت سنة ٣٢٢ فيها وقعت فتنة بين الاكيليين والبرسميين والصنعانيين بصعدة ومال أهل صنعاء الى الاكيليين ، فلزم احمد بن يحيى عليه السلام منزله ومال عليه العشيون واليرسميون ، وكاتبوا حسان بن عثمان بن أحمد بن يعفر . وكان مقيماً بغرق ، واستدعوه فصار إلى برط وأعطاهم مالاً كان معه وسار الى بني الحرث بنجران في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، وأتى جماعة من خولان ممن لا يعامله إلى أحمد بن يحيى فسألوه القيام وعاتبوه على ما كان منهم فبايعوه وحلفوا له ، ووصلت كتب من همدان والأحلاف يستدعونه فنهض إليهم يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى من هذه السنة فصار إلى الأحلاف ونزل براحة واعتلّ علة شديدة^(١) .

مركز تحقيقات كميّات علوم اسلامی

= ودوخ اليمن الاقصى الى عدن مع الجبال كبعدان وكالشعر فلم نجد عن تفاصيل هاتيك الملاحم ما يستحق التصدير ، وغاية ما هنالك ما رواه صاحب أنباء الزمن في حوادث سنة ٣١٠ الكلام المتقدم ، وكذلك الخزرجي والديبع في قرة العيون والشرفي اللاليء والزحيف في شرحه والكسبي وغيره كلهم يشير بكلمة اجمالية ، كما فعل صاحب أنباء الزمن ، أما في سيرته فلم يتكلم عنها . ويقول الشرفي في وقعة نغاش انها كانت آخر الوقعات وأهمها ، ويقول عن الجيش الذي جمعه الإمام ، انه ألف وسبعمائة ولا شك ان تلك الوقعة من أكبر الوقعات ، وأما انها آخر فمشكل لما ذكره صاحب البسامة وأنباء الزمن وغيرهما ، والشرفي ذكر دخوله عدن في شرح بيت البسامة بكلمة لجملة وذكر ان وقعة نغاش آخر الوقعات وأهمها ، عند ذكر نغاش فتأمل .

(١) خبر فتنة الاكيليين وغيرهم منقولة من الملحق بسيرة الامام الهادي ، وقد نقلناها باللفظ تقريباً ، ولم نقف على كيفية وصول حسان بن عثمان إلى غرق والحال انها من بلاد الإمام ، وقد ذكرنا ان مصنف سيرة الإمام الهادي تعمل للإمام الناصر عليها .

حرب الباطن ومقتل الحسين بن الإمام الهادي

وفي اليوم الخامس من جمادى الآخرة كانت الحرب بين الإمام الناصر والأمير حسان بن عثمان . ولما كان الإمام علياً خرج عسكره ، ولا قائد له فلم يثبتوا وتفرقوا منهزمين وقتل الحسين بن الهادي وجماعة من أصحابه وانصرف كل إلى مكانه واشتدت علة أحمد بن يحيى فانصرف إلى صعدة^(١) وفي انباء الزمن ان قتل الحسين والهادي كان بصعدة .

وفاة الإمام الناصر عليه السلام

لم تطل ايام الإمام بعد وصوله فقد توفي على الأثر لثمانى عشرة ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ عن إحدى وعشرين سنة من ولايته ، وكان عليه السلام زاهداً ، ورعاً عالماً متبحراً له عدة مصنفات منها كتاب في التوحيد في غاية البيان والتهذيب ، وكتاب النجاة ثلاثة عشر جزءاً ، وكتاب مسائل الطبريين جزآن ، وكتاب أجاب به على الخوارج الاباضية ، وكتاب الدامغ أربعة أجزاء^(٢) .

وملك عليه السلام الجوفين ، فكانت له زراعة قوية فيها بلغ عدد البقر السود على حدها ثلاثمائة ثور أسود ، وزراعته بشط معين^(٣) ، وله من الولد القاسم أبو محمد والحسن وجعفر ويحيى وعلي ومن أولاده محمد الوارد إلى حلب ، وأحمد أعقب بحلب ومصر ، وغيرهما ومنهم أبو الفضل الرشيد بن أحمد ، وله ولد باليمن ، ومنهم الحسن قام بالأمر ، بعد أبيه الناصر ، ومنهم يحيى بن الناصر ، قاتل أخاه على الإمامة ، هكذا قال الشرفي في اللآلئ

(١) المصدر نفسه .

(٢) راجع شرح البسامة للزحيف .

(٣) اللآلئ المضيئة (ص) ومعين بلده في الجنوب الشرقي من مدينة الحزم لمسافة ٥٠ كم اعلا وادي الجوف .

نقلًا عن ابن عنبه^(١) ، وليس بصحيح فإن الحسن مات بعلاف^(٢) ، ولم يقتل كما سيأتي بيانه ، والقاسم المختار ، قتله ابن الضحاك بريدة وقد غفل الشرفي عن التنبيه على ذلك ، وفي الزحيق ان وفاة الإمام الناصر سنة ٣٢٥ .

تتمة أخبار ثورة قبائل صعدة

اشار صاحب أنباء الزمن إلى خبر ثورة القبائل الصعدية بكلمة واحدة سردها بعد خبر وفاة الإمام ، ثم قال والأقرب ان هذه الفتنة كانت قبل وفاة الناصر رحمه الله .

وقد اشار إلى هذه الفتنة وما جرته من الأحداث الخزرجي في الجزء المخصوص بالتراجم^(٣) في ترجمة الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني صاحب الاكليل وصفة جزيرة العرب ، وذكر ان السبب في ذلك قصائده التي قالها من سجن الناصر ، مستنجداً بتلك القبائل ، ومُستفزاً لحماستهم ، على الإمام وكان قد سجنه بسبب قصائده التي قالها في المفاضلة بين القحطانيين والعدنانيين (وعرض فيها بهجور الحسين بن علي بن الحسن بن القاسم الرسي ، وأحمد بن أبي الأسيد السلمي^(٤) ، وأيوب بن محمد اليرسمي الفارسي ، وكان هؤلاء يتعصبون للعدنانيين على قبائل اليمن فانبرى للرد عليهم والمفاخرة بقومه فذكر خصومه أن في بعض قصائده الغرض من الجناب المقدس لسيد ولد آدم صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال صاحب اللآلئ المضيئة : وممن أسره الإمام الناصر الحسن بن أحمد بن يعقوب الأرحبي العبدي ، نسابة همدان ، وكان من أهل النصب والعداوة لأهل البيت عليهم السلام ، وكان كثير الإفتري في النسب مع معرفته به ، ومما قاله وهو في سجن الناصر عليه السلام بصعدة القصيدة المسماة

(١) ابن عنبه هو أحمد بن علي مؤلف كتاب عمد الطالب في أنساب آل أبي طالب توفي سنة ٨٢٨ .

(٢) موضع قرب مكة .

(٣) وهو المعروف بكتاب طراز اعلام الزمن .

(٤) كذا في الأصل وفي بعض تراجمه الأسلمي .

الجار أولها :

خليلي اني مخبر فتخبرا بذلة كهلان وحيرة حميرا
عذيري من قحطان اني مشتك عواديكما ظلما وخذلا فانكرا

إلى أن قال :

وأصبحت مأسوراً بأيدي معاشر رضاً لهم بأقبح ذا متذكرا
أظل أقاسي كل احمر ضيطر^(١) زبانية حولى وكبلا مسمرا^(٢)

إلى آخرها ، وفي كتاب مطلع البدور^(٣) ومجمع البحور للقاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال في ترجمة شيخ الزيدية العلامة أبو السعود بعد الكلام على نسب شيخ الزيدية المذكور قال : وقد عنّ هنا ذكر ابن الحائك مصنف الإكليل ، وهو من علماء اليمن وقد تكلم فيه الإمام شرف الدين .

وقد ترجم له ياقوت الحموي والتكريتي^(٤) والسيوطي في بغية الوعاة قال : الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، هو الأوحد في عصره الفاضل على من سبقه المبرز على من لحقه ، لم يولد في اليمن مثله علماً وفهماً ولساناً وشعراً ورواية وفكراً ، واحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة ، والغريب والشعر والأيام والسير والمناقب والمثالب ، مع علوم العجم من النجوم والمساحة والهندسة ، والفلك ولد بصنعاء ونشأ بها ، ثم ارتحل وجاور بمكة وعاد فنزل بصعدة وهجا شعراءها فنسبوا إليه هجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فسجن وله تصانيف منها الإكليل في الأنساب ، وله ديوان نحو ستة مجلدات ، انتهى ما أردت نقله من البغية ، ثم قال بعد أن أورد كلام السيوطي هذا ، وذكر بعض مؤرخي أصحابنا في تاريخ له ان المذكور ، اعتقل لسيئات في دينه قيل بصعدة وقيل بصنعاء أيام الناصر للحق بن الهادي ، وأيام أسعد بن أبي يعفر واستعان بأبي الحسن ابن القاسم المنصور

(١) انصح اللثيم العظيم الاست .

(٢) قلت الموجود في مطلع البدور (المخطوط الذي بحوزتي) البيت الأول فقط .

(٣) يحقق التكريتي المذكور ، ولعله يعني القفطي مؤلف طبقات النحاة .

من بني منصور اليمن ، ومنصور اليمن هو منصور ابن فرج بن حوشب ذكره
القاضي النعمان^(١) وغيره ، إلى أن قال : لهج ابن الحائك بتفضيل قبيلة
قحطان على عدنان ، وحقر ما عظم الله وتجاسر على انتقاص ما اصطفاه الله
فمن ذلك قوله جواباً للكميت :

ألا يا دار لولا تنطقينا فانا سائلون ومخبرونا
بما قد غالنا من بعد هند وماذا من هواها قد لقينا
إلى آخرها .

وله قصيدة الجار انشأها وهو مسجون أولها (خليلي اني مخبر فتخبراً)
فحبسه الناصر للحق ، بيد أسعد بن أبي يعفر ، فلما كثر تهيج القحطانية
دخل إلى فطيمة ، فطلبوا الشفاعة ، فأعلمهم انه لم يسجنه وان أسعد حبسه
لجرم اجترمه إليه .

فركب الحسن بن محمد بن أبي العباس من أهل العشة^(٢) إلى أسعد
فأفهمه انه لا يخرج إلا بأمر الناصر فعادوا إلى الناصر فأغلظ لهم وخرجوا من
عنده وظهروا للخلاف وقول الحسين بن أبي العباس جمعاً من بني جماعة إلى
أن قال : واستدعى حسان بن عثمان بن أحمد بن يعفر وكان عدواً للناصر
فكانت حروب ومن جملتها حرب الباطن ، وقد مضى ذكره انتهى .

قلت : وقد تناولت أقلام اليمنيين الهمداني نقداً وتفنيداً ونسبوا إليه وفرا
من النقائص والملاحظات^(٣) وليس من غرضنا تحليل ما كتبوه ، فالشوط بطين
وانما سقنا ما مرّ لعلاقته بثورة القبائل الصعدية وانتقاضهم على الإمام الناصر ،
وما كان من الحوادث بعد ذلك ، فجلال التاريخ وعلوه إنما هما لما يستفيده

(١) من علماء الاسماعيلية وهو النعمان بن محمد وفاته سنة ٣٦٣ .

(٢) العشة : بلدة أهلة بالسكان من عزلة الأبقور ناحية سحر بصعدة .

(٣) قلت : ابو الحسن الهمداني مفخرة اليمن ولسانها وقد اصابه من رذاذ السياسية ما نهته ظلماً
وزوراً فلما يعتد بقول متفص حاقده .

الناظر فيه من آداب ، وأخلاق وتعاليم وسياسة ، وعرفان بمبادئ الأمور ومصائرهما وتطورهما . وضاحيتها ليلافي حلقات الوحدة التاريخية برباط وثيق ، وأما نزعة الفخر بالقبيلة والعصبية لها ، فنصرة سادت أيام الأموية ، وما زالت تنمو وترعرع ، حتى كان من أمرها ما كان بين عرب الأندلس وخراسان وسورية ، وغيرها من البلدان الاسلامية ، وكان لها شعراء ورؤساء يمثلون هذه النزعة السيئة ، ويشيرون وتري حقدتها ويجحمون^(١) خامد جمرها .

ونال اليمن حظه من الوجهتين السياسية والأدبية أما الناحية الأدبية فظهرت في شعر الهمداني وفخرياته ونشوان بن سعيد الحميري وقصائده والدائمات ومطولات دعبل ونحو ذلك .

وأما الوجهة السياسية ففي أعمال معن بن زائدة الشيباني ، وعقبة بن سالم أمير البحرين وعمان ، حيث قتل الأول من الحضرميين تعصبا لقومه من ربعة ستة عشر الفا وهناه شاعره مروان ابن أبي حفصة^(٢) بقوله :

وطئت حدود الحضرميين وطأة بها ما بنوا من عشرة قد تضعفعا فأقموا على الاستياء أقعاء معشور يرون اتباع الذل أولى وأنفعا فجاذبه عقبة بن سالم عامل البحرين بقتل القيسيين تعصبا^(٣) للقطانين وكيدا لمعن لما عمله في اليمن وأمثلة ذلك كثيرة .

دخول حسان بن عثمان الحوالي صعدة وقيام الإمام يحيى

ابن الناصر وخلاف اخوته وما كان من الأحداث^(٤)

لما علم حسان بن عثمان بوفاة الإمام بادر بالنهوض إلى صعدة فخرج

(١) حجم النار أوقدها والجمر الجاحم الشديد الاشتعال (ص) .

(٢) هو مروان بن سليمان بن يحيى ولد سنة ١٠٥ وكان شاعرا عالي الطبقة قدم على معن بن زائدة ومدحه بقصائد عدة توفي سنة ١٨٢ .

(٣) راجع ما كتبه الاستاذ المعاصر احمد امين في كتابه ضحى الاسلام .

(٤) سيرة الإمام الناصر .

العلويون منها ، واستغاثوا بأسعد بن أبي يعفر وكان مالكا لصنعاء ومخالفها فكتب لهم إلى قبائل همدان وخولان ، وبلغ ذلك حسان فخرج منها إلى برط ، ودخل العلويون صعدة وبايعوا الحسن بن الناصر ، فخرج أخوه القاسم بن الناصر الملقب بالمختار ، إلى همدان ، وجاذب أخاه أهداب الخلافة ، ودعا إلى نفسه ، وكان الحسن أيضاً ينازع أخاه يحيى زمام الزعامة ، ويريد تنفيذ احكام الإمامة ، فكانت بينهم حروب وفتن وبلايا ومحن^(١) ، سنأتي على شرحها وتبينها ، حتى قيل ان خراب صعدة القديمة ، كان على يد المختار وأخيه الحسن ، لكثرة ما كان بينهما من الفتن ، وتتابع المحن ، وما زالت أحوالهم متقلبة ، وأمورهم مضطربة إلى سنة ٣٣٠ .

خلاصة ما كان من الأحداث بين أولاد الناصر^(٢)

لما خرج المختار إلى همدان كمنّا قدمنا انضمت إليه جموع كثيرة من همدان فنهض بهم إلى كانط^(٣) ، وفيها مظفر بن عليان بن الدعام فوقع الحرب بينه وبين جيش المختار ، فانهزم مظفر بن عليان ، وكان من أصحاب حسان بن عثمان ، وخرج من ريذة ، إلى غرق مدخل سنة ٣٢٣ ، وقيل ان مظفر بن عليان كان بريذة ، وإنما أرسل جيشاً لمحاربة المختار فلما انهزموا رجعوا إليه إلى ريذة ثم انه خرج منها إلى غرق .

وفيها نهض حسان وقصد صعدة في بني الحرث ونهد وزبيد واستنفر من حوله من قبائل خولان وغيرهم فحاربه أهل صعدة محاربة شديدة ، وهزموه

(١) قلت : لعل هذه الحروب هي أول الحروب التي وقعت بين الأئمة انفسهم في سبيل الاستحواذ على الحكم وشغلت التاريخ اليمني بمعارك طاحنة أخذت الكثير من صفحات الكتب وجهد المؤرخين .

(٢) سيرة الإمام الناصر واللائىء المضيفة .

(٣) قرية أثرية من عداد خاراف حاشد على بعد ٨٠ ك.م من صنعاء شمالاً .

إلى نجران فأقام بالهجر ، والحرب بينه وبين حمدان نجران ، ثم عاد إلى برط .

ودخلت سنة ٣٢٤ فيها ظهر بالسرو^(١) رجل يدعي النبوة ، فمال إليه من بقي من أصحاب ابن فضل ، فوجه الأمير أسعد بن أبي يعفر العساكر والقواد إلى رداع ، ولم يزل بمدعي النبوة حيث أمسكه بلا عهد ولا أمان فحبسه حتى هلك من محبسه بعلّة الجدري .

وفيهما وقع الخلاف بين المختار^(٢) ، وأحمد بن محمد بن الضحاك فمال ابن الضحاك إلى الحسن بن الناصر ، وكاتبه وأمه بمال ولما حصلت المواد^(٣) لديه ، سار إلى قرقر وصار ابن الضحاك إلى ريذة ، وكاتب مظفر بن عليان وأمه بمال ، هو والحسن بن أحمد على أخيه فنهض مظفر من غرق ، وقد عامل من وثق بهم المختار ، فمكروا به ولم يعينوه ، وصار الضحاك إلى قرقر في لقاء مظفر ، فخرج القاسم بن أحمد منها اقبح مخرج ، لثلاث باقية من شهر ربيع الآخر من السنة ، فصار إلى بلد بني ربيعة ، ولم يتم ابن الضحاك لمظفر ما شرط له ، فكاتب القاسم بن أحمد وعامله على أن يجعل له سهماً في بلده ، وحلف له وانصرف إلى غرق ، وصار القاسم بن أحمد إلى وزور ، ووقع بين القاسم وبين ابن الضحاك حرب بناحية مشرق هذان بالقرب من أكانط في موضع يقال له قطوان وعسكر على القاسم بن أحمد ، أهل أكانط ، فوقعت الهزيمة على أصحابه ، وقتل منهم نفراً كثيراً وعاد إلى وزور في ربيع الأول سنة ٣٢٦ ، وجرى بينه وبين مظفر بن عليان مكاتبة ، حتى التقيا فأشار عليه مظفر بن عليان بالرجوع إلى صعدة فصار إليها

(١) هو ما يعرف بمنطقة البيضاء ونواحيها وهو سرو مذحج وسرو حمير يافع ونواحيها .

(٢) اللآلئ المضيئة وانباء الزمن .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) أعدها الهمداني من مواطن بني الحارث في نجران انظر الصفة ص ٢٨٣ .

حتى وصل بلاد خولان ومكث بها أياماً وجرت بينه وبين أخيه الحسن مراسلة وكره الحسن دخوله صعدة ، فخرج الحسن إلى الغيل^(١) ، ولقي المختار في جماعة من بني سعد ويرسم^(٢) ، وغيرهم ، وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمال إليه كثير من الناس ، واصطلح هو وأخوه وتحالفا وأقاما على ذلك أياماً ، ثم نهض القاسم إلى صعدة وقد عامل الحسن جماعة من السفهاء ، على إثارة الفتنة مع دخول أخيه البلد ، ففعلوا ذلك وقتلوا رجلاً ، من أصحاب المختار ، وهاجت الحرب من الصبح إلى المغرب ، قتل فيها ثمانية رجال ، ثم أمر القاسم المختار أصحابه بالكف عن أموال الناس ، وبات على ظهر فرسه تلك الليلة حتى أتاه المخالفون يطلبون الأمان ، فأمنهم وسكنت الفتنة ، وظهر للناس نكث العهد من الحسن ، فمالوا عنه إلى أخيه القاسم المختار ، وشكروه على صبره فسار فيهم أحسن سيرة ، وشدد على السفهاء ، ولما علم الحسن انه قد ظهر أمره للناس ، وتحقق عندهم غدره خاف على نفسه ، فخرج إلى بني سعد ثم سار إلى خيوان ، وكاتب ابن الضحاك^(٣) ، فاتفقا على محاربة المختار ، واستعاناً بحسان بن عثمان ، واتفقوا على السير إلى صعدة في يوم معين فمرض حسان في ذلك اليوم ، فانتفض ما كانوا ابرموه ، وبعد أيام عامل الحسن وابن الضحاك جماعة من بني كليب وبني جماعة ، على نهب صعدة ، فدخلوها وانضم إليهم من أهل صعدة من كان مائلاً إلى الحسن وغيرهم من السفهاء ، ووقعت الحرب بينهم ، وبين أصحاب المختار ، واستمرت ثلاثة أيام ، ثم مالوا إلى خديعة المختار ، فطلبوا الصلح على أن يخرج من صعدة حتى تسكن الفتنة ، فأجابهم إلى ذلك ، فلما افترق أصحابه اعدوا الحرب ، فانهزم إلى الغيل ، وتمكن القوم

(١) قرية خرية في صعدة .

(٢) يرسم : ارض في الغرب من صعدة بمسافة نحو ميل .

(٣) هو احمد بن محمد السابق ذكره .

من صعدة فتهبوا نهباً شديداً ، وقتلوا من أهلها وسبوا وفعلوا بهم أعظم من فعل القرامطة ، وخرج أكثر أهل صعدة عنها ، ثم ان المختار جمع القبائل من نجران ووائلة ودهمة وبنى سليمان ، فاجتمع إليه عسكر عظيم فسار بهم إلى صعدة وحارب المتغلبين عليها محاربة شديدة ، كانت الدائرة على المتغلبين ، وكان الحسن بن الناصر فيهم ، كأحدهم ليس له من الأمر شيء إلا إثارة الفتنة ، وصاح صائحهم يطلب الأمان ، فلم يجبههم المختار إلى ذلك وأمسى وقد أحاط بهم ، وعلموا أنه داخل عليهم فكسروا جانباً من القرية ، وهربوا منه ، ولم يعلم بمخرجهم إلا آخر الليل ، ودخلت القرية ، فوجد فيها من أموال الناس مالا يوقف عليه^(١) ، وخربت منازلهم ، وصاروا إلى علاف فخرج الهيصم بن عباد الأكيلي قائد بني كليب إلى ابن الضحاك ، صاحب ريذة يستنجده على المختار فخرج ابن الضحاك معه ، وانضم إليهم الحسن بن الناصر ، فكانت بينهم وبين المختار معركة قتل فيها من الفريقين سبعة عشر رجلاً ، واختل على المختار بعض من كان معه فانهزم إلى العشة من صعدة ، فدخلها القوم وانتهبوها وأقاموا بها ثلاثة أيام ، ثم صاروا إلى علاف وسار الحسن معهم خوفاً من أخية المختار ، ورجع ابن الضحاك إلى ريذة ، وعاد المختار إلى صعدة فلبث بها أياماً ، وقد تفرق أهلها ، ونالهم الضر من أثر ما وقع .

ودخلت سنة ٣٢٧ فيها نهض ابن الضحاك من ريذة ومعه عسكر من همدان لحرب القاسم المختار ، فوصل علاف واتفق بالأكيليين ، وراسل بني سعد كلها ، وطلب منهم ان يصطلحوا ويولوا الحسن بن احمد فكروا ذلك ، وجعلوا بينهم هدنة لمدة سنتين على ان يعزلوا الأخوين الحسن والقاسم عن الأمر ، وصار ابن الضحاك إلى صعدة ، ولم يقع بينهم حرب ومكث بها مدة وأمر بهدم الحصن الذي بناه الناصر عليه السلام ، وكانت صعدة يومئذ خالية

(١) انباء الزمن واللالىء المضيفة .

من التجار ، وأهل اليسار ، قد تفرّقوا أيدي سبا وذهبوا تحت كل كوكب ، فجعل ابن الضحّاك على من بقي من تجارها ضريبة المكس^(١) فنفروا من البلدة وتركوها (أقفر من جوف حمار^(٢)) فأرسلت بنو سعد إلى ابن الضحّاك انك قد أحدثت في البلد^(٣) أحداثاً واجتمعوا إلى القاسم المختار ، فنهض بهم ، وبمن أجابه من شاكر وأهل نجران ، وبلغ الأكيّليين وابن الضحّاك حركة القاسم ، فخرجوا من البلد وصاروا إلى علاف ، ومعهم الحسن وصار القاسم المختار إلى «الغيل» فاتفقوا على قصد المختار إلى الغيل ، فخرج القاسم ، بمن معه ، وكانت الحرب بينهم ، فقتل جماعة من أصحاب ابن الضحّاك ، وانهزم الباقون إلى علاف ، وأسر منهم جماعة ، فمنّ عليهم المختار ، ورَدّهم إلى ابن الضحّاك ولم يزل ابن الضحّاك بعلاف ينتظر اجتماع عشائره لاستئناف القتال حتى بلغه وفاة ولده قيس بن أحمد ، وكان قد استخلفه على ريدة فترك علاف وعاد إلى ريدة .

واعتل الحسن بن أحمد بعلاف ، ومات يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٣٢٧ . ودفن بعلاف ، وثبت القاسم المختار إلى شهر ربيع الآخر فاستنهض الأكيّليون ابن الضحّاك ، فخرج معهم إلى علاف ، وكاتب بني سعد ، ثم نهض فحاربه اليرسميون ، وقتل منهم ودخل شق يرسم مخربه ، ومالت بنو سعد عن القاسم ، فخرج عنهم وصار اخوه يحيى بن أحمد إلى الغيل ، فلزمه ، وانصرف ابن الضحّاك إلى ريدة ، وعاد الأكيّليون إلى علاف ، فأقام يحيى بن أحمد في الغيل ، ولم يعد إليه أحد من

(١) المكس : هو ما يأخذه اعدوان السلطان ظلما عند البيع والشراء وانشد :

وفي كل أسواق العراق اتاوة وفي كل ما باع امرء مكس
وفي الحديث لا يدخل صاحب مكس الجنة .

(٢) يقال في الأمثال اخلّى من جوف حمار لأنه اذا أصيب الحمار الوحشي لم ينتفع بما في جوفه ولكن يرمي به انظر «الحيوان في الأدب العربي» ج ١ ص ٣٠٦ .

(٣) كذا في الأصل ولعله يريد «بلدا» فهي عنه .

التجار ، ومضى القاسم إلى غيل جلاجل^(١) فاستنصر بابن عمر السنحاني ووادعة ، فخرج معه منهم ألف رجل وخمسمائة راكب ، ولقيته سعد كلها ودخل البلد وانصرف اخوه يحيى الى علاف :

هذه خلاصة ما عثرنا عليه من أخبار أولاد الإمام الناصر الثلاثة منقولة من (انباء الزمن) و(اللائىء المضيئة) و(ملحق سيرة الإمام الهادي) وقال في (اللائىء)^(٢) بعد أن أورد أبيات البسامة التي أشار فيها إلى يحيى بن الناصر بقوله :

ولابنه الماجد المنصور ما سمحت بقود ذى لجب كالبحر معتكر
ما لفظه : هؤلاء ثلاثة أئمة ذكرهم السيد رحمه الله (اي صاحب البسامة) لم يذكرهم الإمام المهدي عليه السلام في البحر^(٣) ولا الحاكم^(٤) في شرح العيون الأول المنصور يحيى بن أحمد بن الهادي عليه السلام مات في شهر محرم سنة ٣٧٦^(٥) وقبر في مشهد الهادي بصعدة ، قال السيد : كان من أعلام الأئمة وهداة هذه الأمة ، وله مسائل يذكر فيها عن أبيه وجدّه ، ويكثر الرواية عن عمه المرتضى وعارضة أخوه القاسم ، وهو المسمى بالمختار ، وأخوه الحسن بن الناصر ، وكان خراب صعدة القديمة على يدي الحسن هذا ، وأخيه المختار سنة ٣٢٧ ، ثم توفي الحسن بعد ذلك في شوال هذه السنة . وأسر أخوه المختار في سنة ٣٤٥ ذكر ذلك في تأريخ صنعاء الصغير^(٦) : انتهى .

(١) بضم الجيم بلدة وغيل في وادعة الشمال الغربي من صعدة .

(٢) يعني اللائىء المضيئة السابق ذكرها .

(٣) يعني مقدمة البحر وهي الرسالة المعنونة بواقيت السير .

(٤) هو الحاكم الجشمي المتوفي سنة ٤٩٤ وكتابه المشار إليه فيه فصل عن التاريخ وطبقات المعتزلة .

(٥) سيأتي ان وفاته قبل هذا التاريخ (ص) قلت في اتحاف المهتدين للمؤرخ زيارة ص ٤٦ وفاته سنة ٣٦٦ فيحقق .

(٦) هذا الكلام الشرفي في اللائىء المضيئة ولعله بتاريخ صنعاء الصغير كتاب اسحق بن يحيى بن =

وفاة الأمير أسعد بن أبي يعفر الحوالي

ودخلت سنة ٣٣١ فيها مات الأمير أسعد بن أبي يعفر الحوالي الحميري في كحلان وحمل في تابوت إلى شاهرة^(١) ضلع التي حبسها على جامع صنعاء الكبير ، ودفن بها ، وكان رحمه الله عالي النفس ، كبير الهمة حسن العقيدة ، مقداماً ، لقيت منه القرامطة محاكمة شديدة ، أطاش بها سهامهم ، وزلزل أقدامهم في عدة وقعات ، ولم يزل بهم حتى بدد شملهم ، وفرقهم عباديد^(٢) وخرب ديارهم ، وأزال خضراءهم^(٣) وعفراءهم ، بوقعة المذيخرة السالفة الذكر ، وبها قرضهم آخر الدهر من المخلاف الأخضر^(٤) ، وامتد نفوذه وشمل سلطانه بمخلافي صنعاء والجند وأعمالهما ، وبقيت مسور وبلاده بيد منصور بن حسن وصعدة وأعمالها بيد أولاد الإمام الناصر وابن الضحاك ، وحسان بن عثمان كما مر .

وقد حفظ لنا التاريخ نتفاً ضئيلة جداً من أخبار آل يعفر لكنها تنم عن حصافة ورجاحة ، ولا سيما الأمير أسعد فإنه ظهر وسلطة مواليتهم عليهم^(٥) قاهرة ، ففضى على المشاغبيين والمواثيين لدولتهم من الموالي والقرامطة واسترجع ما اغتصبته الموالي ومحقته القرامطة .

وكان الإمام الهادي قد منّ على أسعد ، وأطلقه من سجن شبام ، فلم

= جرير الصنعاني وهو من الكتب المعقودة أما تاريخ صنعاء للرازي فلا شيء فيه يتعلق بالحوادث المتأخرة إلا نادراً .

(١) قرية في ضلاع همدان شمالي صنعاء بمسافة ١٥ ك.م وبها قبر عبدالله بن قحطان أحد سلاطين بني يعفر .

(٢) أي اشتاتاً .

(٣) يقال : أباد الله خضراءهم أي سوادهم وجمعهم وغضراهم أي خبزهم وغضارتهم .

(٤) يعني لواء لب .

(٥) راجع ما تقدم عند ظهور الإمام الهادي عليه السلام وما بعده (ص) .

يجحد هذه المنة للإمام وحسبك ما عمله^(١) مع الإمام المرتضى لما خرج من الحبس وأسعد في سلطان ومنعة ، والإمام المرتضى كالأسير بين أولئك ، فعامله أسعد معاملة رفيق وكرم ، ولم يزل حريصاً على موالاة الإمام الهادي وأولاده ، حتى الممات ، وقد وصفه كثير من مؤرخي الآل بكرم الطباع وسلامة المعتقد .

قال الخزرجي واستولى الأمير اسعد على البلاد^(٢) في رجب سنة ٣٠٤ وفي أيامه قدم الوزير على زعيس الجراح من العراق ، فأقام بصنعاء على أوفى كرامة ، وقدم له مالاً جزيلاً ، فرجع الوزير إلى بغداد ، وهو من الشاكرين لأسعد بن أبي يعفر وعمل على رفع الخراج عن اليمن فجزاه الله خيراً^(٣) وتولى بعده أبو يعفر سبعة أشهر ، ثم ولي عبدالله بن قحطان بن عبدالله بن أبي يعفر ، وهو الذي أمه معاذة بنت علي بن فضل ، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ٣٥٢ ، وكانت له وقعات مشهورة منها أن أبا يعقوب المحابي^(٤) وازر الحسين بن سلامة على قتال بني الحواري فالتقوا للحرب في اليوم السادس عشر من شوال سنة ٣٤٠ ، فقتل منهم مقتله عظيمة نحواً من ألفي رجل وكانت الدائرة على أبي يعقوب المحابي وهو من جهة الحسين بن سلامة والله أعلم^(٥) .

(١) راجع سيرة الإمام الهادي (ص) .

(٢) المراد ما استولى عليه بعد هلاك ابن فضل (ص) .

(٣) المسجد المسبوك ص ٤٣ وقرة الميون ج ١ ص ٢٠٩ .

(٤) في الأصل المخائي والاصلاح من كتب التاريخ .

(٥) هذه رواية الخزرجي وقد نقلها عنه صاحب اللآلئ وغيره ، وهي تخالف ما سبق فإن

الحسين بن سلامة ، لم يكن قد وجد في سنة ٣٤٢ وسيأتي ما يخالف هذه الرواية ويدل على

ان محاربة عبدالله بن قحطان كانت لأبي الجيش إسحاق بن ابراهيم سنة ٣٧٩ (ص) .

هلاك منصور بن حسن ومقام الشاوري وقتله وما كان من الأحداث

ودخلت سنة ٣٣٢ فيها هلك منصور بن حسن داعية المهدي العبيدي ، ويلقب بمنصور اليمن ، وقد أشرنا إلى نسبه وكيفية خروجه في السنة التي خرج فيها ، وكان على جانب من الدهاء والفتنة مبالاً إلى الدعة محباً للمسالمة ، استمر على عهده لمولاه لم يطمح إلى ما طمح إليه رفيقه الطاغية ابن فضل ، وفي سبيل المحافظة على العهد والثبات على المبدأ ، اشتبك في حروب مع ابن فضل فحاصره ، ونازله مدة ليست بالقصيرة كما تقدم واستمر على ما بيده من البلاد ، إلى أن مات ، وعهد إلى ابنه الحسن بن منصور ، وإلى رجل من أصحابه يقال له : عبدالله الشاوري كان خصيصاً به ، وحضهما على السمع والطاعة لمولاه المهدي والمحافظة على المذهب ، والدعاية إليه وأمرهما بالكتابة إلى المهدي فيمن يتولى ذلك المنصب فكتب الشاوري وبعث حسن بن منصور بهدية وبالكتاب إلى القيروان وكان المهدي قد عرف الشاوري أيام منصور ، وكان حسن بن منصور يرجو أن تؤسد إليه الرئاسة ، فخاب أمله ورجع بخفي حنين^(١) فإن المهدي أمر الشاوري بالاستقلال وبعث إليه بتسع رايات ، فعزم حسن بن منصور على الانتقام لنفسه ، وأخذ الإمارة نهياً واغتصاباً ، وكان الشاوري يجلّ أولاد منصور ، ولا يحتجب عنهم ، فدخل عليه الحسن في بعض غفلاته فقتله ، وقعد على سريره ، وتبع أصحاب الشاوري وكل من يدين بالقرامطة قتلاً وتشريداً ، وأعلن للناس رجوعه عن معتقد أبيه وانخراطه في عداد أهل السنة والجماعة ، فدانت له البلاد ومالت إليه القلوب ، وأحبّه الناس وبسط نفوذه على مسور ولاعة ، وما صاقبها من البلاد ، وكان قتل الشاوري سنة ٣٣٣ كما أشار إليه في أنباء الزمن^(٢) .

(١) لهذا المثل قصة وهي ان حينما كان اسكافيا من أهل الحيرة فساومه اعرابي بخفين فاختلفا حتى اغضبه في قصة طويلة انظرها في مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) غاية الأمان ص ٢٢٠ .

واستمر حسن بن منصور نافذاً الكلمة ضابطاً لما تحت يده من البلاد
ثلاث [سنوات]^(١) الى سنة ٣٣٦ كما في أنباء الزمن .

فخرج ذات يوم من مسور إلى محل يعرف بعين محرم^(٢) ، واستخلف
على مسور ابراهيم بن عبد الحميد التّباعي جدّ بني المنتاب سلاطين مسور
فلما وصل عين محرم ، وثب عليه عامله المعروف بابن العرجاء ، وقتله طمعاً
في السيادة ورغبة في الاستبداد :

استووا بالأذى ضرّاً وبالشـد ر ولوعاً وبالدماء نهامة
وما كادت أنباء قتله تتصل بابراهيم بن عبد الحميد حتى أظهر مكنون
سرّه واحتجن^(٣) الأمر لنفسه :

ولربما زلق الحمار فكان من غرض المكاري
وبادر بإخراج أولاد منصور بن حسن وحريمه إلى جبل بني أعشب
فتخطّتهم الناس وأبادوهم قتلاً وتنكيلاً ، وسبوا حريمهم ، ولم يبقوا على احد
منهم واتفق ابن العرجاء^(٤) وابراهيم بن عبد الحميد على قسمة البلاد بينهما ،
وانضوى ابراهيم في أهل السنة وخطب لخليفة بغداد ، وراسل ابن زياد وسأله
أن يرسل إليه برجل من قبله للإشراف على الإدارة ، فلم يحفل ابن زياد بما
أظهر من الانقياد وأسرّ له سوءاً في ارتغا ، وأوعز إلى معتمده الذي أرسله من
قبله ، ويعرف بالسراج أن يقتل ابراهيم بن عبد الحميد ، عند أول فرصة
تلوح له ، وكان ابراهيم قد أجلّ ممثل ابن زياد وأكرمه حتى بلغه ما اعتزم من
الغدرية ، فقبض عليه ، وحلق رأسه ولحيته ونفاه من بلاده ، وقطع مواصلة

(١) ساقط من الأصل والزيادة من عندنا لأن هذا مراد المؤلف رحمه الله .

(٢) سبق ذكره في حوادث علي بن الفضل .

(٣) احتجن الشيء جذبته بالمحجن وهو العود المعطوف .

(٤) في قرّة العيون ج ١ ص ٢١٥ العرجي .

ابن زياد ، فما اخطأ ولا كاد ، ولم يزل يتتبع القرامطة بالقتل والسبي ، حتى أفناهم ، ولم يبق منهم إلا طائفة قليلة بناحية مسور كاتمين أمرهم لهم رئيس يقال له : ابن الطفيل ، فقتله ابراهيم عبد الحميد ، فانتقلت الدعوة إلى رجل يعرف بابن دحيم ، فكان لا يستقر في موضع خوفاً من ابن عبد الحميد ، وكان يستمد سلطته الروحية من إمامه المعز ، وكان إذ ذاك بمصر ، كما أشار إليه الخزرجي^(١) والذي في (الخطط للمقرئزي) ان دخول المعز لدين الله الفاطمي مصر كان سنة ٣٦٢ .

ولما حانت وفاة مقيم الدعوة المذكور استخلف رجلاً من شبام^(٢) يقال له يوسف ابن الأسد فقام بما عهد إليه إلى أن مات ، واستخلف سليمان بن عبدالله الزواحي ، وهو رجل من حمير ينسب إلى قرية من أعمال حراز يقال لها الزواحي ، فقام الزواحي ببيت الدعوة واستماله الرعاع بالمال ، وكل ما هم به احد دافع بالجميل^(٣) ، وأظهر التبري من كل نحلة غير الإسلام ، وكان فيه كرم نفس ، وإفضال على الناس ، ولما حضرته الوفاة استخلف علي بن محمد الصليحي وسيأتي الكلام عليه في موضعه إن شاء الله^(٤) .

وفي (أنباء الزمن)^(٥) بأن ابراهيم بن عبد الحميد استمر على ولايته إلى أن مات ، وقام بعده ولده المتتاب ابن ابراهيم ، وهو الذي ينسب إليه مسور فيقال : (مسور المتتاب) ولما استقل بالأمر بعد أبيه في تلك الجهة كتب إلى المعز العبيدي إلى مصر ، ولما حضرته الوفاة استخلف رجلاً من شبام يعرف بابن الاسد^(٦) ، فقام بالدعوة إلى أن حضرته الوفاة فاستخلف سليمان بن

(١) انظر المسجد المسبوك ص ٤٥ .

(٢) لعلها شبام حراز .

(٣) وكان هذا المسلك سياسة خلفه علي بن محمد الصليحي .

(٤) الخزرجي واللائل المضئية وقرعة العيون .

(٥) غاية الأمان ص ٢٢١ .

(٦) في الغاية سيف بن الأسد .

عبدالله الزواحي :

وفي (ملحق سيرة) الإمام الهادي ان هلاك منصور بن حسن كان في شهر جمادي الآخرة سنة ٣٠٢ اثنتين وثلاثمائة وثبت ابنه ابو الحسن في موضعه هو واخوته ولما ينازعهم أحد فيما كان في ايديهم ، وفي (قرة العيون ايضاً^(١)) ان وفاة منصور بن حسن سنة ٣٠٢ وذكر أحداث الحسن بن منصور ، وقتل الشاوري ، وإعلانه بالبراءة من مذهب القرامطة ، ثم ذكر خبر مقتله ، وتغلب ابن العرجاء وإبراهيم بن عبد الحميد ، وبقية الأحداث على الأسلوب المتقدم ، وهو يخالف ما سبق من ترجمة الإمام الناصر عليه السلام ، ووقعة نغاش التي أباد بها القرامطة من ناحية مسور فتأمل .

قال في أنباء الزُمن ودخلت سنة ٣٣٧ ، وذكر عدة سنين بعدها ، لم يتفق فيها ما يستحق الذكر الى سنة ٣٤٤ ، قال^(٢) : وفيها وصل المختار ابن الناصر إلى ريدة ، فخرج إليه ابن الضحّاك من صنعاء واستمدّ منه الولاية على صنعاء فولاه .

ودخلت سنة ٣٤٥ فيها غدرت ~~ابن الضحّاك~~ ^{ابن الضحّاك} الهمداني بالمختار الناصر وحبسه في قصر ريدة ، وأقام محبوساً من صفر إلى شوال من السنة ثم قتله ابن الضحّاك قال الزحيف : انه الزم بتأديب أولاد الضحّاك وتعليمهم القرآن ، وإنه علّم قيس بن الضحّاك فنشأ على محبته وولايته ، فلما قتل انتصر له قيس هذا وجمع الجنود من نجد ونجران والسّراة ، ثم أقبل بتلك العساكر حتى أوقع بقومه بخيوان فكان ممن قتل أبوه ووطى بلاد همدان ، واستولى على الأمر ، ويقال ان اكثر الأسباب في ظهور مذهب الهادي باليمن قيس هذا ، لأنه قوى مذهب شيعة الهادي بتعصّبه لهم . انتهى .

(١) قرة العيون ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) غاية الأمان ص ٢٢٢ .

وفي اللآلئ المضيئة ان وفاة قيس بن الضحاك سنة ٣٢٧ ، وكان والده بجلاف كما تقدم .

احداث علي بن وردان والأسمر بن أبي الفتوح وآل الضحاك

فيها^(١) تغلب مولى آل يعفر علي بن وردان على صنعاء وثار الأسمر يوسف ابن أبي الفتوح الخولاني ، ومعه خولان فعارض آل يعفر وآل الضحاك ، وكانت صنعاء وجهاتها لابن الضحاك ، فقصدوه إلى حراز فهزمهم ، وقتل طائفة من عسكرهم ، ومات علي بن وردان سنة ٣٥٠ ، واستخلف اخاه سابور ، فقام بالأمر وصار ابن الضحاك معه ، كما كان مع أخيه فخرجوا جميعاً لقتال ابن أبي الفتوح ، وقد صار في بلد خولان فلم يظفروا منه بطائل ، فعاد الضحاك إلى صنعاء وسار سابور نحو ذمار فلحقه الأسمر بن أبي الفتوح وقتله في ثقل يكلا^(٢) سنة ٣٥١ .

استنجاد الضحاك بآل زياد

ودخول عبدالله بن قحطان صنعاء

ودخلت سنة ٣٥٢ فيها كتب الضحاك إلى ابن الجيش بن زياد صاحب زييد وبذل له الطاعة وخطب له بصنعاء فكتب الأسمر بن أبي الفتوح إلى الأمير عبدالله بن قحطان الحوالي إلى شبام يستنهضه فتحرك الأمير الحوالي إلى كحلان ، وأقام به مدة ، ثم سار إلى صنعاء سنة ٣٥٣ ، فخرج منها الضحاك منهزماً ، ولكن الحوالي فارق صنعاء وشيكاً ، فعاد إليها الضحاك وأعاد خطبة آل زياد قال الخزرجي^(٣) ، فلم يستقر له أمر ، وعاد أمر البلاد إلى عبدالله بن قحطان ، وامتدت أيامه قال في أنباء الزمن^(٤) : ولم يزل يتبع القرامطة حتى

(١) راجع الخزرجي وأنباء الزمن واللآلئ المضيئة .

(٢) يكلا مدينة أثرية على ربوة حمراء اعلا مخلاف الكيميم بالحداء .

(٣) المسجد المسبوك ص ٤٦ .

(٤) غابة الأمان ص ٢٢٣ .

ظفر بولدين لعلي بن الفضل وجماعة من رؤساء القرامطة فأمر بقتلهم ، وبعث برؤوسهم إلى مكة أيام الموسم .

ودخلت سنة ٣٥٤ لم يتفق فيها ولا في السنين التي بعدها ما ينبغي ذكره .

قيام الإمام المنتصر لدين الله محمد بن المختار

لما قتل القاسم المختار على الصفة المتقدمة ، قام بعده ولده الإمام المنتصر لدين الله محمد ، فأخذ بشار والده وقصد آل الضحاك إلى عقر ديارهم ، فأمكنه الله منهم ، وكان معه قيس بن الضحاك ، وكان قيس بن الضحاك المذكور قد جمع الجنود من نجد ونجران والسراة ، وأوقع بقومه بخيوان فكان ممن قتل والده ووطى بلاد همدان واستولى على الأمر ، وللمنتصر لدين الله قصيدة طويلة ضمنها معنى أخذه بشار والده وأولها :

علام ألام يا سلمى علاماً عداني اللوم فاطرحي الملاما ومنها :

جلونا حينما صلنا عليهم بأجمعنا عن أوجهنا القتاما
واقطر سيف ثار بني علي ومنهم طال ما قد كان صاما
وحكمنا البواتر في طلاهم فخرت هامهم فلقاً تراما
رأينا قتلهم اذ ذاك أخرى بنا من أن نذل وأن نضاما

والى هذا الإمام أشار صاحب البسامة بقوله :

واستعبرت من بني الضحاك اذ فتكوا ظلماً بأفضل مختار من الخير
فعاجلتهم رزياها بمننتصر لغدرهم ثابت الأقدام في الغدر^(١)

ولم يذكر الزحيف ولا غيره تأريخ وفاة المنتصر ولا تأريخ قيامه ولا مدة خلافته وعن الزحيف نقلنا خبر هذا الإمام .

(١) انباء الزمن .

قيام الداعي الإمام يوسف بن يحيى بن الناصر

ودخلت سنة ٣٥٨^(١) فيها قام الامام الداعي يوسف بن يحيى ، وفي الزّحيف ان قيام الداعي سنة ٣٦٨ قال : قال الامير شرف الدين الحسين بن محمد^(٢) مصنف الشفاء والتقرير ، فيما نقله عن خط يده المباركة ما لفظه : ان يوسف هذا قام في سنة ٣٦٨ ، وأقام بريدة أياماً ثم صار إلى صنعاء في هذه السنة ، وخطب لنفسه ، ثم خرج في اليوم الثاني فهدم ما كان قد بنى في درب صنعاء وهي أول هديمة هدمها في درب صنعاء واقام بصنعاء اياماً وعاد إلى ريذة ، وكان معه عسكر عظيم زهاء ألف فارس من حمير وهمدان وغيرهم ، ووقع بينه وبين قيس الهمداني وقعة ، وكان قيس قد بنى الدرب فلما دخل الإمام صنعاء المرة الثانية ، أمر بهدمه أيضاً وذلك سنة ٣٦٩ وخرب ما كان حول صنعاء وقطع في شهر : انتهى .

ولما ظهر الإمام الداعي ، نهض إلى نجران وجهاته ، ثم عاد إلى ريذة فاستخرج منها جسد عمّه المختار بن الناصر رحمه الله فوجده على حالته التي كان عليها في حياته لم يتغير ، فحمله إلى صنعاء ودفنه فيها^(١) .

وسار إلى صنعاء فدخلها وخرج منها ابن الضحّاك الى بيت بوس ، وخرج الإمام إلى الرّحبة وفيها جنود ابن الضحّاك وأسعد بن ابي الفتوح الخولاني في جند عظيم من مارب وغيره ، وجند الامام يومئذ زهاء ألف فارس من همدان وحمير وغيرهم ، فحمل جند ابن الضحّاك على اول عسكر الامام فقتلوا منهم جماعة وكان الإمام في آخر العسكر ، فلما وصله أول عسكره منهزمين ، خرج في الخيل فحمل على بني الحارث وابن الرويّة ، فانهزموا

(١) هو العلامة الحسين بن بدر الدين محمد بن أحمد ولد سنة ٥٨٢ وتوفي سنة ٦٦٢ ومن مؤلفاته كتاب شفاء الأوام والتقرير في الفقه وغيرهما .

(٢) انباء الزمن .

ولم يزل القتل فيهم الى ان دخل الليل وصاروا الى جبل الصَّمْع^(١) فقتل من بني الحارث ستين رجلاً ، ومن مراد وغيره ، أربعين رجلاً ، ورجع الإمام من ساعته ، وأمسى في شعوب ، ودخل بكرة اليوم الثاني صنعاء وأقام بها أياماً^(٢) .

ثم انه خرج الى الأبناء وعاملهم على أسعد بن أبي الفتوح ، وعاد إلى صنعاء وخشى ان يهاجمه قيس وأسعد بمن معهما في بيت بوس ، فغادرها إلى البون ، وبقي يتردد في البون وهمدان ، وبني صريم ودخل قيس صنعاء في الليلة التي خرج فيها الإمام منها ، ولما استقر قيس بها لم يطمئن ، وخاف أن يهاجمه الإمام الداعي فاستنجد بإبن زياد فأمدّه بالشريف يحيى بن الحسين بن الهادي في عسكر عظيم ، فدخل الشريف الهدوى صنعاء ، ومكث بها مدة ، ثم أراد العود إلى زبيد واستخلف على صنعاء ولده الحسين بن يحيى ، وسار إلى زبيد ، ثم إن الإمام نهض بمن معه وقصد صنعاء ، فوصل إلى باب السُّبْحَة ، فكانت معركة قتل فيها من عسكره ومن أهل صنعاء جماعة ، ولم يتمكن من دخولها ، فعاد إلى ريده ، فدخل أسعد بن أبي الفتوح ، وأقام بصنعاء مع الشريف الحسن بن يحيى أياماً ثم فسد ما بينهما ، وخرج الحسن بن يحيى مغاضاً ولحق بالإمام الداعي وقصداً^(٣) صنعاء ، فقابلهما ابن أبي الفتوح ، على أبواب صنعاء أربعة أيام ، ولم يظفرا بشيء ، ولم يزل أسعد ابن أبي الفتوح بصنعاء حتى فسد ما بينه وبين سلمة بن محمد الشهابي ، وكان أهل صنعاء مع سلمة ، فاخرجوا ابن أبي الفتوح وصاروا إلى بيت بوس ، ولما خرج من صنعاء أرسل قاضيه محسن بن جريش إلى الإمام يوسف وحلف له على السمع والطاعة ، وطلب منه النهوض إلى حرب صنعاء وهدم السور فلَبَّاه

(١) حصن أثري وهو من آخر قلاع الرجة وأوائل أرحب .

(٢) اللآلئ المضيئة والخزرجي .

(٣) الخزرجي وأنباء الزمن .

الدّاعي ، وبادر مسرعاً ، وسار إلى ضلع فتلقاه ابن أبي الفتوح في ميدان عباد آخر شعبان من السنة ودخلا صنعاء عشية ذلك اليوم وكان أسعد قد استغوى بالمال قوماً من^(١) بني يعمر كانوا في عداد الجند المحافظ على صنعاء ففتحوا موضعهم لأسعد والإمام ، ولم يشعر أهل صنعاء إلا وسيوف المغيرين تحصدهم ، ولما دخل الإمام ، وفتح باب الدرب ، دخلت همدان من طريق الجبانة ، وانهزم سلمة وبنو شهاب إلى دار أبي جعفر بن خلف في السّرار^(٢) ، وكان مع الدّاعي وابن أبي الفتوح عسكر عظيم من همدان وخولان كلها ، ونهبت صنعاء يوم الثلاثاء فلما كان بكرة الأربعاء خرج الدّاعي ، وقصّدر دار ابن خلف ، وأخرج سلمة الشهابي ، وقتله ومعه زهاء أربعين رجلاً ، ونهبت دار ابن خلف ، وغنموا ما فيها .

قال الإمام المنصور بالله عليه السلام : (وسبى من دار ابن خلف ودار أبي جعفر نساء كثيرة) ثم إن الامام أمر بالأمان، ورفع أيدي الناس عن النهب آخر نهار الأربعاء ، ومركب يوم الخميس ، ومعه أهل صنعاء لهدم السور ، وكان يضرب من لم يجتهد في الهدم^(٣) .

وكان قد بلغ أسعد بن أبي الفتوح أن الدّاعي يتوعدّه فخاف وخرج من صنعاء ومعه خولان فلم يتأخر الإمام عن محاربته ، وسار إليه في همدان ، والأبناء ، وأهل صنعاء ، ونهب طرفاً من بلاد خولان ، وهدم السّرين وهو بيت الحسن بن أبي الفتوح ، والد أسعد ، ثم رجع إلى صنعاء ، وأقام فيها أياماً ، وصار أسعد بن أبي الفتوح إلى بيت بوس ، فسار إليه الامام في همدان

(١) اللّاليء المضيفة والخزرجي .

(٢) موضع من صنعاء .

(٣) اللّاليء المضيفة والخزرجي (ص) .

وغيرهم ، فاقتلوا ، ودارت الدائرة على أسعد ، فانهزم الى حدين^(١) ، وعاد الإمام وقد ربح المعركة ورجع أسعد إلى بلده مذخوراً .

ودخلت سنة ٣٧١ فيها خالفت همدان على الإمام الداعي ، وكسروا باب السجن واخرجوا من فيه ، فسار الإمام آخر النهار إلى بلد الأبناء بالمشرق ، وأقام به أياماً ، ثم وصل إليه قوم من همدان ، كانوا له أصحاباً فكتبوه بالرجوع إلى صنعاء فرجع لأربع عشرة بقين من شعبان من السنة ، ولم تطل إقامته بها ، وكره المقام معهم ، فرجع في حاضرتهم^(٢) إلى بلد الأبناء وأقام فيهم قليلاً ، ثم مضى إلى بلد عنس لأنه خاف من أسعد بن أبي الفتوح ، ولما علم أسعد بمسيره أعد له رَصداً^(٣) في الطريق ، ومرَّ الإمام من التَّقِيل^(٤) ليلاً ، فشعر به الرُّصد فأخذوا عليه خيلاً وبغلة ، وفاتهم إلى ذمار ، وأقام في عنس مدة ، ثم فارقه ، وصار إلى مارب عن طريق الغائط^(٥) ، ثم انتقل إلى الجوف ، ثم إلى وَرُور وريدة ، وذلك بعد أن تغيَّر عليه أمر عنس بمعاملة الأمير عبد الله بن قحطان الحوالي^(٦) .

وفي الخزرجي^(٧) انه لما فسَد ما بين الإمام ، وابن أبي الفتوح ، وخرج إلى خولان وأخرب دوراً منها دار^(٨) ابن أبي الفتوح وعاد إلى صنعاء واتفق هو وابن الضَّحَّاك وجعل له الإمام جباية صنعاء ثم اختلفت عليه همدان ، فسار إلى بلد عنس ، وأقام فيه زمناً وهدأت الفتنة هذه المدة ، وكل من هؤلاء ،

(١) قرية تحت صنعاء .

(٢) أي من معه من الناس .

(٣) عيوناً ترصده (تراقبه) .

(٤) هو نقل صيد أو ما يعرف الآن سمارة .

(٥) الغائط موضع هناك قريب من الجوف .

(٦) اللالء المضيئة اما صاحب انباء الزمن فإنه عدَّ سنة ٧١ من الأعوام الخالية من الحوادث .

(٧) المسجد ص ٤٧ .

(٨) في المسجد الادار ابي الفتوح فيحقق .

ثبت على ما تحت يده وقنع به ، وفي انباء الزمن^(١) وغيره انه لما عاد الإمام الداعي من مارب إلى ريدة جمع همدان وسار بهم إلى صنعاء ، فخالفت عليه همدان فرجع إلى مكاتبة ابن أبي الفتح ، وبذل له نصف جباية صنعاء ، فسار إليها ، وطرد عمال ابن الضحاك ، وخطب للإمام ولعبد الله بن قحطان ، ولما ليم على ذلك قطع ذكر الجميع ، فسار الإمام إلى حوث ، وعمر بها داراً نقل إليها أولاده ، هكذا أورد الخزرجي^(٢) وصاحب أنباء الزمن^(٣) وصاحب قرة العيون^(٤) ، سلسلة الحوادث المذكورة من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٣٧٤ .

وفي اللآلئ المضيئة زيادة أشرنا إليها ، ثم قال في أنباء الزمن ودخلت سنة ٣٧٥ لم يتفق في هذه السنة ولا فيما بعدها ما يستحق الذكر إلى سنة ٣٧٩ ، وذكر خبر عبد الله بن قحطان الآتي ، وفي اللآلئ المضيئة : انه لما وصل إلى ريدة ، جمع همدان وأغار بهم على صنعاء ، فخرج عنها ابو العشيرة ، عم أسعد وكان والياً عليها من قبل أسعد ، وذلك يوم الجمعة سلخ ذي القعدة من سنة ٣٨١ ، ولم يزل يتنقل من صنعاء إلى ريدة إلى ناعط^(٥) إلى مدر^(٦) ، وكان قد عمر حصن ناعط ، وأقام فيه ، ثم هدمه ، وتحول إلى مدر ، وجعل يدور في مخاليف همدان ، ثم أن همدان خالفوا عليه ، ورفعوا أيدي عماله فانتقل إلى توابة ، ثم صار إلى بلد بني ربيعة إلى حوث ، فبنى بها منزلاً ، ونقل إليها خدَمته ، ثم إن قوماً من همدان كاتبوه ، فسار بمن معه إلى الحصبة قريباً من صنعاء ، وكان بها جماعة من أصحاب أبي حاشد ،

(١) غاية الأمان في حوادث سنة ٣٧٤ انظر ص ٢٢٦ .

(٢) المسجد ص ٤٧ .

(٣) غاية الأمان ص ٢٢٦ .

(٤) قرة العيون ص ٢٢٦ .

(٥) ناعط : جبل اثري في بلد خارف من حاشد بالشرق من مدينة عمران بمسافة ١٢ ك . م . .

(٦) مدينة اثرية في أرحب بالشمال من صنعاء .

(٧) واد من أعمال ذي بين في بلاد بكيل ينحدر ماؤه إلى الجوف .

فخرجوا وقاتلوا الإمام وأصحابه ، وهزموهم ، وذلك في رجب سنة ٣٨٢ فرجع الإمام الى ريدة ، وأقام بها أقل من شهر ، وعاد إلى صنعاء فدخلها مسلماً وأقام بها أياماً ، ثم رجع إلى ريدة ، وفست عليه همدان ، فانصرف الى حوث لعشر بقين من شعبان من العام المذكور ، ولم يلبث أن رجع الى ريدة ، وحلفت له همدان على الطاعة ، فأرسل واليه على صنعاء ، وخطب له بها ، وذلك في صفر سنة ٣٨٧^(١) ، وولى القضاء البوسني ، وعزل القاضي سليمان بن يحيى بن محمد النقوى وصادره ، ثم سار إلى صنعاء فوصلها آخر جمعة من رجب ، ثم رجع إلى حوث في شعبان من السنة .

هذه حوادث سني الإمام يوسف الداعي قبل ظهور معارضة الإمام القاسم بن علي العياني ، وقد ذكرنا ما كان منه أيام الإمام القاسم في موضعه وسنشير إلى بقية حوادثه بعد وفاة القاسم بن علي العياني إن شاء الله .

نزول عبد الله بن قحطان لمحاربة ابن زياد

ودخلت سنة ٢٣٧٩^(٢) فيها نهض الأمير عبد الله بن قحطان الحوالي إلى زبيد ، فتلقيه صاحبها ابن زياد إلى حجرة حيران ، فاقتلوا هنالك ، وكانت الهزيمة على ابن زياد ، وقتل من عسكره خلق كثير ، فصار منهزماً نحو زبيد ، وتبعه الأمير الحوالي ، ودخل زبيد ونهبها اقبح نهب ، وأقام بها ستة أيام ، ورجع إلى كحلان وأقام فيه الى سنة ٣٨٠ ، وفيها نهض الى مخلاف جعفر فاستولى عليه ، وأقام بباب ، ثم أنه اضطرب عليه أمر ذلك المخلاف ، فأمر بعمارة المنظر ، وتحول من إب إليها ، وجعل أمر الهان إلى أسعد ابن أبي

(١) هكذا في اللآلئ المضيئة انه دخل صنعاء سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وهو لا يلتئم مع سياق الكلام (ص) .

(٢) هذا على رأى صاحب انباء الزمن وبينها بعد بعيد فتأمل (ص) .

(٣) لعلها المعروفة بالحجرة من أعمال الحيمة الخارجية وتعرف بحجرة ابن مهدي وهو قاع خصيب له مجموعة قرى .

الفتوح ، وأعانه على من ناواه من أمر العرب ، وقطع خطبة بني العباس ، وخطب للعزیز العبيدي ، ومات الأمير عبد الله بن قحطان سنة ٣٨٧ ، وقام بالأمر بعده ولده أسعد بن عبد الله بن قحطان ، وكان أمر صنعاء مضطرباً تارة يتغلب عليها الإمام الداعي وابن أبي الفتوح ، وتارة آل الضحاك ، وكانت همدان وحمير وخولان وبني شهاب ، متفرقة معهم فمن كثر جمعه غلب على صنعاء وقيل ان وفاة الأمير عبد الله بن قحطان سنة ٣٨٩^(١)

الامام المنصوب بالله القاسم بن علي العياني

ودخلت سنة ٣٨٨ : فيها ظهر الإمام المنصور القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم الرسي عليهم السلام ، وتجاذب هو والإمام الداعي يوسف بُرْدَةُ الخلافة ، وتنازعا ثوب الزعامة ، وكان كل واحد يثني على الآخر ، وربما لاه ، وكل ما كان بينهما من وفاق وشقاق يقول صاحب البسامة :

ويوسف العترة الداعي الذي شرفت منه المناصب زاكي الأصل والثمر والقاسم القائم المنصور من شرفت به عيان على ما شيد من مدر جرت بأعجب أمر كان بينهما كأمر يوسف والأسباط فاعتبر ونازلا كل طاغ في زمانهما وحاولا كل جبار وكل جري وسائل السور^(٢) من صنعاء ما فعلت به الجنود وقاضي الجبر والقدر

قال في سيرة الامام المنصور^(٣) : لما بلغ الإمام إلتياث الأحوال على ولاته باليمن وهو مقيم بترج^(٤) بعث عمار بن أحمد الجعدي وأحمد بن

(١) راجع الخزرجي وقرّة العيون وأنباء الزمن (ص) .

(٢) إشارة إلى ما تقدم من هدم سور صنعاء بأمر الداعي يوسف وقاضي الجبر هو سليمان بن يحيى النقوي الذي عزله الإمام الداعي وصادره (ص) .

(٣) نقل ذلك في اللآلئ المضيئة (ص) .

(٤) بالثناء المثناة من أعلا والراء والجيم وهي معدودة من بيثة ونواحيها .

خالد بن صبيح^(١) في شوال سنة ٣٨٨ لجمع الأعشار^(٢)، واستنهاض الناس وزودهما بكتب، فلما وصلا همدان تحشد لذلك رجال من المسلمين من البونيين^(٣) والخشب^(٤) والمشرق والصيد، ولم يخالطهم من بكيل ولا من الظواهر الا الشيخ أحمد هندي من خولان، فجمعوا نحواً من عشرة آلاف درهم، ولما وصلوا صعدة نهض معهم اثنا عشرة رجلاً منهم أبو العشيرة ابن أيوب اليرسمي، وساروا، وقد اجتمع زهاء مائة وثلاثين، وخيلهم ثلاثة عشر فوصلوا إلى القاسم بن علي عليه السلام، وهو بحصن عمره بهرجاب أسفل وادي بيشه، فلقاهم بنوه جعفر وعلي وسليمان وعربها وكان الإمام ثقيلاً من شكوى اشتكاها، ولما سلموا عليه استأذنه الحسين بن أحمد بن يعقوب^(٥) من انشاد قصيدة، فقال عليه السلام: إذا كان محروساً من ذم العرب فأنشد:

دعانا القائم المنصور يبغي عنايتنا ويمنعنا الأثاما
فلبيّننا لدعوته وقمنا عجلاً في إجابته كراما
نبادر نفعه نبغي رضاه نجيب السيد العلم الإماما



القصيدة إلى آخرها

وفي أنباء الزمن^(٦) والخزرجي^(٧) كيتوما خلاصته كان الإمام المنصور بالله ببلاد خثعم^(٨) فسار عنها إلى صعدة فملكها، وخرج إلى نجران، ثم عاد إلى

(١) هو مؤلف سيرته.

(٢) جمع عشر وهو ما يؤخذ من تجارة أهل الحرب وأهل النمة. وما يؤخذ من زكاة الزروع.

(٣) يعني البون الاعلا والبون الأسفل سبق ذكره.

(٤) بلد من أرض شمال صنعاء.

(٥) هو مؤلف سيرة الإمام المنصور القاسم بن علي العياني، ومن كتابه نسخة خطية بمكتبة الامبروزيانا بايطاليا، وكان المذكور قد تولى القضا للإمام القاسم وله شعر بليغ أورده له في ترجمته صاحب مطلع البدور.

(٦) غاية الاماني ص ٢٢٨.

(٧) المسجد المسبوك ص ٤٨.

(٨) خثعم قبيلة من ولد خثعم بن غار بن كهلان مساكنهم جبال السراة من عسير.

تباله^(١) فخالف عليه اهل صعدة فجمع همدان وسار إليها فدخلها وأخرب دروبها ، وأخرج منها الداعي يوسف بن يحيى فاستعمل الإمام عليها ولده جعفر ، وجعل له نصف خراجها ، والنصف الآخر لبني الهادي للضرورة ، وضيق الوقت ومهما حصل ما يكفيهم انتزع منهم ووضع في موضعه الشرعي وأصطلح هو والإمام الداعي فناصره الداعي وانضم إليه :

ولم نقف على تفاصيل ما كان من الأحداث في خروجه المرة الأولى ولا في أي تاريخ كان خروجه .

نهوض الامام القاسم الى صعدة وانتقاله إلى عيان

ودخلت سنة ٣٨٩ في المحرم منها تحرك الإمام بمن معه من الجنود إلى صعدة ولما قرب منها خرج لملاقاته الأمير عبد الله بن محمد بن المختار في عسكر من بني سعد فسلموا عليه وانضموا إلى عسكره ، فنزل بالمحرقة هذا صعدة ، ولقيه الداعي يوسف بن يحيى في عسكر عظيم ، وكان الامام القاسم قد ركب للقاءه ، وتبعه عسكره ، فخاف ان يحدث بين العسكرين شر ، لما بينهما من ذحول^(٢) الفتن واحقادها ، فكبح جماح فرسه ، وعاد إلى معسكره ، وقال : إن كان ابن عمي يريد السلام عليّ بغير هذا الجمع فليأت^(٣) ، فلقية الداعي في عشرة رجال ، فلقية الامام وسلم كل منهما على صاحبه ، وأمره بالإنصراف إلى منزله ، ورجع الإمام إلى مضربه ، وأمر ولده جعفر بدخول صعدة ، في طرف من عسكره ، وأن يخطب على منبرها لأبيه وجده ، ويقطع ذكر يوسف الداعي والأمير عبد الله بن محمد ، وكانا من قبل يذكران معه ، فأراد إختبارهما بذلك فسألما ولم يعارضا ، ثم ألحق ذكرهما

(١) تباله بلد مشهور من عسير .

(٢) احقاد .

(٣) كذا في الأصل .

بعد ذكره ، فيما بقي بعد ذلك ، وطلب منهما ومن الحسن بن يحيى ، وسائر أولاد المختار البيعة ، فبايعوه ، ودخل صعدة ، فمكث بها أياماً ، ثم انتقل الى عيَّان^(١) واستخلف على صعدة ولده جعفر ، وجعل خراجها وخراج ما حولها رَسمًا مجرى على الشرفاء من ولد الهادي عليه السلام ، نصف الأعشار بعد إخراج المؤن يقبضه يوسف الداعي ، والنصف الثاني إلى أولاد المختار ، وسائر الخراج يقبضه خزَّان الأمير جعفر ، وذكر في كتاب لهم نصف هذا الخراج يجري عليهم حتى يفتح الله عليه من أرض الخراج والأفيا^(٢) والأخماس^(٣) ، ما يغنيهم عن ذلك ، ثم يتزعه ويضعه في مواضعه المشروعة وانما رسمه لهم لضيق الوقت والضرورة .

الامام القاسم بعيان وانتقاض بعض قبائل خولان

ما كاد الإمام يستقر بعيان حتى وافته الأنباء بانتقاض آل الربيعة من خولان ، وقتلهم رجلاً من اصحابه بقرب صعدة ، وميل بعض أهل صعدة إليهم ، وفيهم الداعي يوسف ، فثار ثائر الإمام وفرق الصربخ^(٤) في البلاد ، فاجتمع عليه من الاجناد الجرم الغفير ، وبادر إليه الداعي يوسف في أشياخ من وادعة متوسلاً بهم إليه في العفو عنه والأمان له ولقرايته ، فأسعفه الإمام بذلك ، ونهض بجيوشه حتى نزل منزلاً يقال له الحبط من بلاد سفيان فبات فيه ، وأمر مناديه ان يؤذن العسكر بالرحيل على ثلاث كتائب : الأولى بكيل ، والثانية وادعة ومن أنضم إليها ، وعليها الشريف الحسين بن المختار ، والثالثة أهل البونين والأخشاب وحمير ، وعقد لكل كتيبة لواء وكان هو وخاصته في

(١) عيَّان : جبل عال مطل على مدينة حجة من جهة الجنوب والمعنية هنا عيَّان قرية في سفيان بالقرب من خيوان شمال صنعاء .

(٢) جمع في اصله ما يؤخذ من أموال الكفار .

(٣) جمع خمس وهو حصّة الدولة من الغنائم الحربية .

(٤) أي الداعي .

مؤخر الجيش ، وله لواء أبيض ، وكذلك ألوية الكتائب ، ولما قرب من
صعدة بلغه أن أول العسكر دخل البلد ، فأسرع بإرسال من صرفهم عن
البلد ، وأرجعهم إلى المعسكر العام ، ولقيه ابنه جعفر بمن انضم إليه من
مخلاف صعدة فأمر بعض العسكر بهدم سور صعدة فظلوا يومهم يعملون في
الهدم ، ثم نهض ونزل وسط بلد الربيعية فحضرت الصلاة ، فصلّى
بأصحابه ، وما كاد يفرغ منها حتى رأى قبائل الربيعية قد أصطفت للقتال ،
وتأهبت للنزال ، فأمر بقتالهم ، وحرّض عسكره عليهم ، فهزم الثوار وقتل
منهم نيفاً وسبعين رجلاً ، وحجز الليل بينهم وكان ابتداء القتال ، وقد مالت
الشمس للغروب ، وغنم جند الإمام ما وجدوه من متاع ونحوه ، ثم إن الإمام
أمر بهدم حصون الثوار ونسف زروعهم ، وطم آبارهم ، وتحول إلى
الجبجب^(١) وله في ذلك قصيدة طويلة أولها :

أقول لأصحابي ونحن بجانب من « الحبط » تزهانا خيول العساكر
هل الجمع جمع المشعرين كجمعنا ولا يزهدن فينا إمروء غير خابر
ومنها في ذكر مآل أولئك القوم :
فصَبَّحت خيلي حرثهم ووكانيا وغنمت جيشي ما خبوا في المحافر
وأشعلت ناري في الحصون ونلتها بهدم فعادت كالتلول الكنادر^(٢)
كأن لم يحلّ الهالكون بسوحها ولم يهتنوا منها بطيب المعامر
إلى آخرها .

رجوع الإمام إلى عيان ومسيره إلى الجوف

لما رجع الامام إلى عيان ، تواردت عليه كتب أهل اليمن بالسمع

(١) الجبجب بالضم : بلد بالقرب من سفيان أرحب .

(٢) جمع كنذر وهو ما غلظ من الأرض وارتفع .

والطّاعة ، وطلب ولاته وعمّاله ، ومن جملة من راسله أبو جعفر احمد بن قيس بن الضحّاك ، وكان رأس همدان وزعيمها ، فأسعد الجميع إلى ما طلبوه ، ووصل إليه أشياخ من بني الدّعام أهل الجوف يسألونه : ان يبطأ بلادهم ، فنهض ومعه في جمادي الأولى من السنة فأمسى بالمراشي ، ونهض من الغد ، فتلّقاءه بنو الدّعام في جمع كبير ، فأقام ببلدّهم ثمانية أيام ، وولى عليهم رجلاً حسينياً يقال له : سلمان بن صالح ، وعاد إلى عيان ، وعند نهوضه ، وفد عليه الشريف القاسم بن الحسين الزيّدي الحسني ، وكان محله بالطائف من بلاد الحجاز ، وفد على الإمام في خيل وركائب من أصحابه وغيرهم من بلد خثعم ، فسار معه فأمسى بخيوان ، ثم سار إلى بلد الربيعة ، فبات في سوق لهم يسمّى الحَضَن فأصلح بينهم في دماء ونحوها ، ثم سار إلى أثافت وحد بني صريم ، ثم تقدّم إلى أعلا غولة عجيب^(١) ، فأقبلت إليه القبائل من كل صوب وهم على أتم اهبة وأكمل استعداد ، فغصّ عجيب بالناس ، وصارت الجبال حول عجيب كقرون عرفة من كثرة من عليها ، وبعد أن حيّاهم الإمام ، سار بين تلك الجموع ، وراياته البيضاء ترفرف عليها كأنها قطع السحاب ، وكان بين بكيل ووادعه وأهل البون من الأحقاد والثارات ما يتعذر معه الوفاق ، فكان في اجتماعهم بذلك المعسكر الوثام والحب والإخاء :

سحبت على الأحقاد أذيال الهوى ومشى على الضغن الواد الماحي وجاءته وفود همدان^(٢) فأخذ عليهم البيعة وبث ولاته في بلدانها ، وسألته النظر في صنعاء إذا كانت من أجل بلدانهم ، ومدينة اليمن ، وكانت الفوضى قد أضرت بسكانها ، وافترق أهلها إلى فريقين أهل القطيع وأهل السرار^(٣) ، وكل فريق يغير ويقتل في الآخر ، فأمر الإمام عليها الشريف

(١) غولة عجيب جبل في أقصى البون من جهة الشمال الغربي من ريدة بمسافة ٨ ك.م .

(٢) اللآلئ المضئية .

(٣) حارثان من صنعاء .

القاسم بن الحسين الزيدي ، فصلحت بولايته وأمن الناس ، وجاءته أيضاً حمير من نواحي شبام وسألوه أن يطاء بلادهم ، فأجابهم وسار إلى حللم ، وولى الشريف أبا البركات إسماعيل بن أحمد بن محمد بن القاسم بن ابراهيم عليه السلام .

كما أنها وصلتته قبائل المغرب كبني شاور وبني أعشب وغيرهم ، وسلاطين مسور ، فبايعوه ، وأعانوه بمال فقبله منهم ، وجاءه وفد من الحجاز أيضاً ، فأكرمهم وعرض عليهم جنوده وأهل طاعته لأنهم كانوا يزعمون ان السلطان في اليمن لصاحب مصر فرجع الوفد ، وقد شهد له بالفضل والإمامة ، وأوجب على شرفاء الحجاز طاعته وموالاته ، وكان ذلك في رجب من السنة المذكورة ، وأقام الإمام بريدة إلى مستهل رمضان ثم رجع الى صعدة .

وفي هذه السنة خرج^(١) الإمام الداعي يوسف إلى وادعة مغاضباً للإمام القاسم لقطعه المكوس في صعدة ، وما كان يؤخذ من التجار مقابل الزكاة والأعشار ، وكان التجار قد شكوا إلى الإمام جور العمال ، وأنهم يسلمون المعين بصنعاء ، وكان للداعي يوسف وأهل بيته قسط من ذلك فاستاء للقطع ، وخرج مغاضباً ، ثم أنه سعى بالصلح بين الامامين الحسن بن محمد بن يحيى .

وفيها بلغ الإمام القاسم أن رجلاً من بني خيثمة من نجران ، وجماعة من أصحابه نكثوا ووثبوا على عاملين من عماله فقتلوهما .

مسير الامام القاسم بن علي الى نجران وخبر صلح الإمام الهادي

الى الحق واحتجاج نصارى نجران به

ودخلت سنة ٣٩٠ فيها جمع الإمام جموعه واستنهض أهل طاعته

(١) انباء الزمن واللالىء المضيفة .

فاجتمع منهم خلق كثير ، وكانت أوفر الكتائب خيلاً ، وأكملها عدداً أصحاب القاسم الزيدي عامل صنعاء ومخاليقها ، ثم كتيبة يحيى بن المختار ، وكان عامل الإمام على همدان فتحرك بهذه الجموع لثلاث خلون من المحرم وقصد نجران ، ولما وصل أعلا نجران وفيه حصون همدان ووادعة ويام وشاكر ، وكلهم من أهل طاعته رحل عنهم إلى الدحامس فهرب الدحامس من حصنه ودخلته الجنود فهدموه وقطعوا نخله ، ونخل من كان معه من أهل بيته ، وقبض الإمام ممن جنح إلى حكمه ، ورجع إليه ستين رجلاً وحبسهم ، فيما يحب من الحقوق ، وسار بهم إلى صعدة وفي هذه الواقعة يقول ابو الفلاح احمد بن عبد الله مرتجزاً^(١)

قد عملت ذات الهجار الحابس كالشمس فوق الشمخ الأوانس
انا نوطي عزمة الدحامس بألف خطي وألف فارس
ثم ان الإمام أمر عماله ان يفرضوا على التجار والنصارى والمزارعين .
ضريبة على كل بقدر ما يملك ، ليستعين بها على مؤنة عسكره ، فوصل إليه مشيخة النصارى^(٢) ، وفي مقدمتهم ابن أبي الجهم ، فقالوا : يا مولانا نحن

(١) انظر الرجز في اللآلئ المضيئة للشرفي .

(٢) أشرنا إلى هؤلاء في خبر دخول الإمام الهادي الى الحق عليه السلام نجران ، وألمعنا إلى ما كان منهم من القلاقل والفتن في ذكر مقتل عامل الإمام الهادي على نجران : ولا ريب ان هذه الرواية مشكلة جداً لما سبق في القسم الأول من هذا التاريخ في ترجمة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب من انه أجلاه عن نجران نص على ذلك ابن الاثير في تاريخه وياقوت الحموي في معجمه ، وغيرهما من كتاب المغازي والسير والتاريخ ، وأعجب من هذا إنا لم نقف على عاقبة أمر نصارى نجران وكيفية خروجهم من اليمن نهائياً ، وسيمر بك في هذا التاريخ ذكرهم في موضعين الأول في أيام هشام بن القيبب الهمداني سنة ٥١٠ ، والثاني في أيام الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة لما استولى على نجران وبعد ذلك لم نقف على شيء من أمرهم ، وقد ذكرت بعض علماء اليمن فيما رواه أهل التاريخ من أن عمر أجلاه من اليمن حتى قال ياقوت في معجمه انهم بنوا نجران الكوفة عوضاً عن وطنهم الأول فقال : انه اطلع على رواية في الاستيعاب لابن عبد البر ان تلك الرواية لم تصح عن عمر والله اعلم (ص) .

رعيّتك في ذمّة جدك ، وقد أخرجنا الجزية إلى ساعاتك ، فلم تكلفنا غيرها ، فقال لهم الامام : ليس الجزية شرطكم ، ولكنّا أجريناكم مجرى اليهود نصرائكم ، حتى ننظر في الأمر بعد ذلك ، ثم أنا أعلمكم بما يجب فإن اقمتم بما شرط على أسلافكم تمت لكم ، فقال النصراني : وما ذاك أيها الامام ، فقال له الإمام : النبي صلى الله عليه وآله وسلم صالح سلفكم بأن يدعهم على دينهم ومؤمنهم في بلدهم ، على تسليم اربعمائة أوقية تبراً وأربعمائة حلة من وشي اليمن ، فأختاروا الآن اما تسليم ذلك وادعكم على الحال التي وادعكم عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو تسلمون فلا أسألكم إلا ما أسأل المسلمين ، فقالوا يا مولانا : ذلك حين كان سلفنا يملكون الوادي أو أكثره ، ونحن اليوم جيران مستضعفون ، وقد صالح ابن عمك الهادي بصلح فاقبله منا ، فقال لهم : الامام ان الهادي لم يدع معكم الاماروني أعوانه دونه ، واليوم قد أيد الله دينه باعوان أولى قوة وعزّ فانظروا لأنفسكم ، فتقدم أشياخ من بني الحارث وسألوا الامام أن يجريهم على قبض الجزية والمعونة إذا سئل المسلمون معونة غير زكواتهم فأوجب لهم ، قال مؤلف سيرته : فسألنا الإمام عليه السلام لم ترك النصارى من شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، فقال : لسبب أنا أبصر به منكم وأعرف بالسيرة في ذلك^(١)

رجوع الإمام إلى صعدة

لما أكمل الامام أمر نجران عاد إلى صعدة ، وعزم على ان لا يرد المليح بن ابراهيم بن محمد بن المختار على عماله نجران ، وخشى أن يكون من تفريط فيجرب مثل الذي جرى ، وكذلك عزم على عزل أخيه يحيى بن محمد من ولاية البون وريدة ، فلما علموا بذلك سألوه أن يشبّتهم على

(١) انظر هذا في اللآلئ المضيئة للشرقي (خ).

ولايتهم ، فقال لهم : يا أهل بيتي أنا أعوضكم عما كنتم تنالون منها من وجوه غير الولاية فإنني رأيت ولايتكم لم تجر عليّ وعليكم خيراً ، وعليّ لكم أن أواسيكم بنفسي في كل الحالات من المعاش والملايس ، فلم يرضهم ذلك وقاموا من مجلسه غاضبين نافرين ، وكاتبوا أنصارهم من القبائل ، وابن عمهم يوسف الداعي إذ كانوا يعلمون منه الكراهية للإمام ، فلم يساعدهم أحد فعادوا إلى الإمام وسألوه العطف ، فعطف عليهم وأحسن اليهم وسيأتي خبر أحداثهم وما كان منهم قريباً .

كتاب الامام القاسم بولاية الزيدي على صنعاء ومخالفاتها^(١)

ولما رجع الإمام إلى عيان سأله القبائل : أن ينهض معهم إلى بلدانهم فاعتذر بكثرة أشغاله وارجع النظر في ذلك إلى القاسم الزيدي ، وكتب له عهد جاء فيه : واعلم ان الناس سبع طبقات منهم القضاة وهم المقدمون ، إلى ان قال : وأما السلاطين سلاطين البلد فهم رجلاؤنا ، رجل دخل معنا ليعلم فعلنا في أنفسنا ، وفيمن اتصل بنا ، والآخر قد استوقفنا وتربص بنا ، وليس من السلاطين من قد دخل معنا بما ذكرت إلا الأمير ابو جعفر احمد بن قيس ، فراعته منك بعين الصيانة واعرفه بالنقاء والأمانة وكريم أفعاله فإن لم يوسطنا أحد من الملوك ما وسطنا من داره وعشائره إلى أن قال : واعلم أن الملوك نشأوا في النعمة ، وألفوا من الخاصة والعامة الكرامة ، ومتى ورد على أمر غير ما يعرف ، كرهه ، وأما سائر من قبلك من السلاطين ، فهم أربعة ، أحدهم المنتاب بن ابراهيم ، وسبأ عبد الحميد ، وأسعد بن أبي الفتوح ، وابراهيم ابن نزيل ، فأما سبأ والمنتاب وابراهيم بن نزيل ، فقد دخل كل هؤلاء على ما تحت أيديهم والكل دخل معنا مدخلاً لم يرينا به ، ولا بد أن نخبر كل أولئك ونذكره بما قد أوجب لنا على نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله)

(١) انظر نصه في اللآلئ المضيئة .

الآية (١).

. وأما ابن أبي الفتوح فبينه وبينه مكافاة فكف عنه ما أنكف عنك ، وأما ابن قحطان فبينه وبين صاحبي مكافاة فارغ منه ما رعى ، فقد وعدته بذلك من نفسي والذي بيدك يا سيدي من المخلاف ما حاز عجيب^(٢) إلى حدود ابن أبي الفتوح في ناحية صنعاء ومشرق بلاد همدان جملة وبلاد حمير ومغارب مخلافك كالصيد^(٣) وشاحذ^(٤) والناقر^(٥) ونضار^(٦) والاحبوب^(٧) وشمر^(٨) والطرف^(٩) ، ؛ وما اتصل بذلك ، وحراز فهذه البلدان فيها مبدأ مؤنتك ومؤنة أعوانك وأخدامك وتبر^(١٠) من رأيت من أهلها وتوفر خراجات هذه البلدان حق التوفير ، وتطلق واجباتها لمن ثبت اسمه في ديوان النجدة .

والذي في صفقة الحسين بن المختار

الظاهر [هكذا في الأصل ولعلها الظواهر] ظاهر الصيد ، وظاهر بيت زود ، ثم الظاهر معرضاً حدة حلملم ، وحلملم معك ، وقارن والأشموور ، وما حاز هذه البلدان إلى الظاهر ، فهو بموصول بمخلاف الحسين بن المختار ،

مركز تحقيقات كليات العلوم الإسلامية

(١) الآية ١ سورة الفتح .

(٢) يعني عوله عجيب السابق ذكره .

(٣) بلد من حاشد معروف والمقصود هنا اسم لناحية من الخيمة الداخلية .

(٤) يسمى اليوم بالشاحذية وهي عزله من ناحية الرجم وأعمال الطويلة بالغرب الجنوبي من كوكبان .

(٥) في الأصل النافر بالنون ولعله الباقر بالباقر بلدة قرية من عزلة بني العباس من مخلاق اقيان كون .

(٦) بلد تابع لأعمال المحويت .

(٧) عزله من ناحية الخيمة الداخلية بالغرب من صنعاء .

(٨) لعله جبل شمر في عزله وادي عصام ناحية حبان .

(٩) من ناحية صعفان في بلاد حراز .

(١٠) في اللاليء وبر رجال .

ومغارب هذه البلاد ومعه بنو أعشب وبنو شاور ، وقدم ، وميتك ، ودروان^(١) وحجة ، وما بيد المنتاب فهو بيده إلى عيان ، وما بيد بن عبد الحميد فهو بيده حتى تنظر طاعته ، وأعلا وادي لاعة ، بيد ابن أبي جعفر [كذلك بالأصل ولعله ابن أبي يعفر] وعليه فيها رسم وبيد العرجيين منها طرف وعليهم تسليم [كذا بالأصل] بلا شرط فتعاملهما بحسب ما ترى إلى آخر الكتاب^(٢) .

وصول الأشراف ووفد عنس إلى الامام القاسم

وفي هذه السنة وفد الى الامام بنو ابي الطيب الحسينيون من أمراء الحجاز وأهل الثروة فيهم والجاه ، وغرضهم من هذه الوفادة تحفيز الامام على فتح تهامة الشام ، وتوليتهم عليها ، وكان وصولهم في شهر صفر .

وفيه وصل متقدّم عنس وعميدها الحسن بن أحمد العنسي ومعه كتب من رؤساء عنس ، يطلبون من الإمام أن يولّي عليهم من قبله ويخبرونه بطاعتهم ، وانضوائهم تحت رايته ، وكانوا من أعز أهل اليمن وأكثرهم خيلاً ، ولما رأى الامام إقبال أهل اليمن عليه ، ومبادرتهم إلى طاعته أراد إغتنام الفرصة والوثوب على تهامة الشام ، طلبه الأشراف فكتب إلى عموم اليمنيين يستنهضهم ويستثيرهمهم بقصيدة أولها :^(٣)

طال الشؤ بصدّة وعيان	ومذاب والأحراج من سحان
حولا تحرم لأنهم بنية	تدعولمبتعد من البلدان
فهل الزمان ساعف لموائك	يقصر ويقرب مرة ويداني
ناطته همته لأعلى مطلب	لا يستفاد من الحلّى بتواني
فناى وأخلى من وني في رائه	واضاف ظن الخير في قحطان

(١) دروان قرية من ضواحي حجة

(٢) وقد أثرنا نقل هذا الكتاب لأنه يعطينا صورة وان لم تكن كاملة عن التقسيمات الإدارية (ص) .

(٣) انظر القصيدة كاملة في اللآلئ المضيئة للشرفي

ومنها :

اما اجبتهم دعوتي فتأهبوا لهبوط بيش منزل العبدان
فيه مغانم لا تجلّ لجمعنا لو كان كالحسين من قحطان

إختلال صعدة ، وأحداث المليح بن إبراهيم وإخوته ،

وأخبار الزيدي وما كان منه

قبل ان يستكمل الإمام القاسم أهبة للوثوب إلى غايته التي ندب إليها ووعد الاشراف بإنجازها . فوجيء باختلال صعدة ووثب المليح^(١) وإخوته عليها ، فخفف الإمام إليهم في جماعة قليلة ، ولم يتمهل إلى وصول النجيدات من أنصاره ، وعاجل البلدة مسرعاً بمن خف من عسكره ، ولما وصل صعدة تحقق إنحلال امره بها ، فقد أمتنع أهلها عن الوصول إليه وتعصّبوا على بعض خدمه ، وأعلن المليح في أسواقها بالخلاف ، فاشتبك الإمام معهم في معركة حامية دامت سحابة يومه ، وكاد أن يحاط به ويمن معه ، لولا مبادرته^(٢) بالانسحاب من القرية ، ومبارحتها إلى حصن الناصر ، وهناك وافته القبائل المغيرة ، فأمرهم باعادة الكرة ، ومهاجمة تلك المدرة فانهزم المليح وغادرها في خفارة خولان إلى نجران ، وانتشر الجند المغير في النهب والسلب ، وأراد الإمام كف عاويتهم ومنعهم ، فلم يتمكن إلا آخر النهار ، بعد أن ركب إلى صعدة في جماعة من الأشراف وغيرهم ، ونادى بالأمان وإخراج أهل الاطماع ، وأرسل لخولان ، وأخذ عليهم الذمة في حفظ البلد ، وصيانتها ورجع في خافرته عن طريق غرق ، وكان قد استقدم القاسم الزيدي ، فوفاه إلى ورور^(٣) ، وبينما هم هنالك إذ وصلت كتب سلاطين المخلاف إلى الإمام

(١) هو المليح بن إبراهيم بن علي .

(٢) في الأصل لولا مبادرته .

(٣) ورور: جبل وواد أسفل شؤانة من بني جبر حاش من ناحية ذي بين تعرف الآن بظفار داؤد .

يرجونه عزل الزيدي ، وتولية غيره عليهم ، فمال الإمام إلى مقترحهم وعرض الأمر على الزيدي فكره ذلك ، وتعصب له الحند ، ونصح آخرون بضرورة بقاء الزيدي لحزمه وكياسته ، فرجح الإمام عن فكرة عزله وأكد ولايته ، فغضبت القبائل وعاتبوه على ذلك حتى اضطروه إلى معاودة الفكرة الأولى وموافقة الزيدي ثانية ، ولما عرف الزيدي ميل الإمام وانصياعه إلى تلبية إقتراح القبائل ، فارق صنعاء مغاضباً ، وسار إلى عنس ، ولم يخبر الإمام بحركته إلا من مهران ، ولما وصل بلد عنس ، اجتمعت إليه القبائل ، وسألوه ان يطلعهم على ما كتب إليهم الإمام في شأنه ، فاحتار وارتبك ، وقال لهم أن الإمام اكتفى بإرسالي إليكم^(١) لثقتي بي ، فلم يقبلوا منه واضطروه إلى مراجعة الإمام وعرض الحقيقة عليه ، فكتب لهم الإمام منشوراً بخطه أمرهم فيه بالسمع والطاعة للزيدي ، واشترط عليه مشاورته في كل أمر ، وموافاقته قبل إحداث أي شيء ، وعلى ذلك أقام الزيدي ببلد عنس ، واتسعت ولايته وعظم شأنه ، وسنأتي على تفاصيل أخباره قريباً

عزم الإمام لحرب نجران

وفي هذا العام حشد الإمام الجنود لمحاربة نجران ، وكتب إلى أهل طاعته بالحجاز^(٢) ، أن ينهضوا في لقائه إلى نجران ، وكان له عليهم وال يقال له : رزين بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، فنهض رزين المذكور في وادعة وسنحان وجنب وغيرهم ، إلى نجران ، وسار الإمام بمن معه من قبائل اليمن ، وارسل كل واحد من سلاطين اليمن ، كإبن أبي الفتوح ، وعبد الحميد صاحب جبل تيس^(٣) ، والمتاب صاحب مسور ، وأسعد بن عبد الله بن قحطان بالجنود والمدد ، فتكاثف الجند وعظم الحشد ، ولكنه

(١) في الأصل بزيادة عن ولا معنى لها هنا .

(٢) نقل هذه الأخبار صاحب اللآلئ المضيئة عن سيرة الإمام القاسم (ص) .

(٣) جبل تيس : يعرف اليوم بجبل بني حبش ومنه قرية المحويت مركز قضاء المحويت .

رغما على كثرته تخاذل وفشل ، ولم يأت بالثمرة المطلوبة ، من تأديب العصاة
واخضاعهم وتوطيد راية الامام بإرغام قبيلة نجران العاتية على سلوك السنن
الأقوم والطريقة المثلى ، بل أصبح بالحال كما قيل :

جيوش ما لها في الملك نفع حكمت صورا تصوّر في الكتاب
مما انت قتالهم من غير نيل كمثل الضرب في صور الحساب

ورجع الامام الى صعدة وقد آيس من نيل وطر ، أو ادراك غاية بتلك
الجموع المغلولة ، وعزم على ترك نجران ومن بها يعمهون في باطلهم إلا من
أراد الإنضمام طواعية ، ريثما تسعف الأيام بما يريد من وجود أنصار تقوم بهم
الحجة ، ولما رأى الأشراف كثرة إختلاف الناس على الإمام عادوا أدراجهم
قانعين من الغنيمة بالإياب :

الوحشة بين الامام والقاسم الزيدي

وكان الزيدي قد تخلف عن غزو نجران بعد الذي سبق منه ، فاحفظ
تخلّفه قلب الإمام عليه ، وعاقبه على ما صدر فأكثروا ، وكان أبو جعفر احمد بن
قيس بن الضحّاك ، يكره ولاية الزيدي ، وكذلك قبائل مخاليف صنعاء
فانتهزوا فرصة إنحراف الإمام عنه وطلبوا منه ان يولي عليهم ابنه جعفرأ ،
ونشط كثير من الناس لتوسيع دائرة الخلاف ، وبذر بذور الشقاق بالسعاية بين
الإمام وعامله الزيدي ، فكانت دعوتهم أسرع إلى القلوب من النار في يابس
الهشيم ، فلم يتلعمم الزيدي عن إظهار الخلاف جراهية^(١) ، ولبس جلد
النمر ، وأغار على مخاليف ابن أبي الفتوح وعاث فيها فساداً وجرت بينه وبين
ابن أبي الفتوح مصاولة ومنازلة ، غلب فيها ابن أبي الفتوح ولم يطق
المقاومة ، واستغاث بالإمام ، وكان من أنصاره ، فكتب الإمام إلى الزيدي

(١) اي ظاهراً بارزاً.

يأمره بالكف عن ابن أبي الفتوح ، ويعاتبه ، فلم ينزجر الزُّيدي ، وجعل يواصل خطواته ، ويجدّ في تخريب الحصول وتدمير الزروع ، وبسط يده على مخلاف الهان ، ومخلاف ذي جرّة^(١) ، وهدم حصن نعظ^(٢) ، وهو لابن أبي الفتوح ، وعظمت ولايته عند أهل اليمن ، وانكمش الإمام بمخلاف همدان ، وأمسك عن أمره ونهيه مظهراً العتب على الزيدي ، غير راض عن أعماله ، ثم ان الزيدي رجع إلى طاعة الإمام والتمس منه العفو ، واعتذر عما كان ، وطلب من الإمام الدّخول معه صنعاء فقبل الإمام عذره ، ورافقه إلى صنعاء ، ودخلها في المحرم سنة ٣٩١ ، وأمر الزيدي بإرجاع مخاليف أسعد بن أبي الفتوح ، وقَرّر الأمور بين أسعد وبين الزيدي ، ورجع إلى صعدة من طريق الجوف ، وفي الخزرجي^(٣) وأبناء الزمن^(٤) : ان همدان قصدت الامام في هذا العام إلى وَرُور ، وسألوه النفقة ، فكتب لهم الى عامله بصنعاء فلم يجدوا عنده ما يقوم بكفائتهم ، فساروا إلى ابن أبي الفتوح وابن أبي حاشد ، فحلفوا لهما وادخلوهما صنعاء ، وخرج ولاية الإمام منها ، ولما علم الزيدي بذلك ، أقبل من ذمار بجموعه ، حتى وصل بير الخولاني^(٥) فقطع ما كان بها من أعناب لابن أبي الفتوح ، وسار إلى نَظْ-فَأَخْرَبَهَا ، وخرج ابن أبي حاشد من صنعاء وعاد ابن أبي الصّباح نائب الإمام ، وكانت الأنباء قد أسلمت لابن أبي الفتوح وتأخّرت عن نصرته ، فلما رأى ذلك طرح نفسه على رؤوس القبائل ، وعلى الشريف الزُّيدي ، فقبله على ان يكون مخلاف خولان من تحت يد الزُّيدي ، وحمل ابن أبي الفتوح إلى الزيدي خمسة وسبعين ألف درهم ، ودخل الزُّيدي صنعاء ووقعت منه مخالفة لأوامر الإمام ، ثم طلب من الإمام

(١) هو الاسم القديم لبلاد سنحان وبلاد الروس واليمانيين من خولان العالية .

(٢) قرية من عزلة الربع الشرقي في ناحية سنحان تقع في صفح جبل كثن من غربيه .

(٣) المسجد ص ٥٠ .

(٤) غاية الأمان ص ٢٣١ .

(٥) قرية قريبة من بلاد الروس ذكرها الوداعي في ارجوزته .

الاتفاق فالتقيا بمدر، واعتذر الزيدي عما كان ، ودخل الإمام صنعاء ، وأقام بها أياماً ، ثم رجع إلى وَرُورَ ، والزيدى إلى ذمار ، واستعمل على صنعاء هلال بن جعفر العلوي .

وفيه ارتفع سعر الطعام بصنعاء إرتفاعاً عظيماً ، ومات الأمير إسحاق بن إبراهيم بن زياد صاحب زبيد ، وقد تقدّم الكلام عليه وعلى الأحداث التي كانت بعد وفاته ، عند الكلام على الحكومة الزيدية

ولاية جعفر بن الإمام على صنعاء ووثوب الزيدي عليها

وفيه^(١) وصل جعفر بن الإمام القاسم عاملاً لآبيه على صنعاء ، وتلقاه ابن أبي الفتوح فردّ عليه جميع مخالفه ، ولحق الناس من الأمير جعفر بن الإمام شدة عظيمة لجوره ، ثم تقدم الإمام إلى صنعاء ووصله ابن أبي الفتوح وتغيّر الإمام على الشريف الزيدي ، فخالف عليه ، وثبت بذمار إلى أن خرج الإمام من صنعاء فقصدها ، وأسر جعفر بن الإمام وإخوته وسار بهم معه وحارب ابن أبي الفتوح ، وأخرب قرية نعط ، ثم ان الإمام راسل الزيدي واستعطفه ، فأطلق أولاده ، وأحسن إليهم ثم قصد الإمام إلى ريذة فصلح شأنهما ، وأقام الزيدي عند الامام مدة ، وتعاملا على احوال لم تظهر لأحد وولاه الإمام ولاية عامة من عجيب الى عدن ، واشهد له بذلك ، وذلك في المحرم سنة ٣٩٢ ٢

وعاد الزيدي إلى صنعاء وولى عليها الشريف هلال بن جعفر العلوي وسار نحو الهان فبلغه موت الأمير سعد بن عبد الله بن قحطان صاحب كحلان ، وان قومه من الهان أقاموا بعده أحمد بن أبي يعفر ، وفي خلال ذلك وصل الإمام القاسم إلى صنعاء فمال عنه الشريف هلال نائب الزيدي وكتب

(١) انباء الزمن والخزرجي (ص)

(٢) انباء الزمن والخزرجي (ص)

إلى الإمام يوسف الدّاعي يستدعيه إليه فتلقيه إلى مشرق همدان ، وتحالفا ورجع الداعي إلى ريّدة، وفي اثناء ذلك ورد إلى الإمام كتاب من ولده سليمان يذكر فيه خلاف بني المليح وبني المختار في صعدة ، فأمر الامام بالرحيل من صنعاء واستخلف عليها ولده جعفرأ ، ولما وصل إلى ريّدة بلغه ان الزّبيرى خلفه بالدّخول إلى صنعاء، وقبض على ولده ، وبعث به إلى قلعة بني شهاب ، وخطب للدّاعي يوسف فاشتد ذلك على الامام ، وسار الى مدر فأطلق الزيّدي ولد الإمام، وكتب إليه يسأله الصّلاح فأسعده، والتقى الى الصيد، ولما اقبل الزّيدي بالجنود الكثيرة ، أرسل إليه الامام ألا يلقاه إلا في نفر قليل فلقاه ، وتم الصّلاح بينهما وسارا جميعاً إلى ريّدة، ثم افترقا ، فرجع الزّيدي إلى اليمن^(١) ، وتوجه الإمام إلى وادعة وعمر فيها داراً ، وأسكنها ابن عمّه القاسم بن عبد الله ، ثم سار إلى عيان فاستقر فيها وترك الأمر والنهي لعدم وجود الأنصار الأخيار، ولم يزل كذلك إلى ان مات في التاريخ الآتي . انتهى ما أورده الخزرجي^(٢) وصاحب انباء الزّمن^(٣) بلفظه تقريباً وفيها من الإضطراب ما لا يخفى وسيمرّ بك التفصيل لبقية الحوادث ومنها تعلم انهما أرادا أن يختصرا فخلط عليهما.

وفي سيرة الإمام القاسم ما خلاصته

وفي سنة ٣٩١ وصلت كتب من عائلة الامام بترج من بلد خثعم يشكون إليه اختلال الأحوال بهم ، وشدة الزّمان عليهم ومعصية اهل الطاعة لديهم ، فعزم الإمام على النهوض إليهم ، وكتب لأهل مخاليفه يستنهضهم ، لمرافقته ، فاجتمع إليه منهم قليل ، وكان يؤمل أن يجتمع أكثر ، وصادف ذلك الوقت والناس في شدة وقحط ، فاحتار فيما يصنع ، وبينما هو كذلك ،

(١) يعني جهة الجنوب من موضعهما.

(٢) المسجد ص ٥٠ .

(٣) غاية الأمانى ص ٢٣٢ .

إذ ورد عليه رسول ولده علي بن القاسم من ترج ، وأخبره بتفاقم الحالة وخطورتها ، وانتقاض القبائل عليهم ، فبادر بالعزم لنقل اولاده ، ورجع بهم إلى عيان وقطع صلته بتلك القبائل .

أحداث الزيدي واضطراب الأحوال

قبل عزم الإمام إلى بلد خثعم ، وافته الأنبياء باختلال أحوال الزيدي ومخالفته لما قرره الإمام وجوره على الرعية ونحو ذلك ، فجمع الإمام مشيخة همدان وفيهم أميرهم أبو جعفر أحمد بن قيس بن الضحاك ، وولى عليهم ابنه جعفرًا وذلك في جمادى الآخرة من السنة وولى على صعدة ابنه سليمان ، وسار لطيته^(١) ولما رجع من بلد خثعم ، واستقر بعيان وصلته كتب الأمير أسعد عبد الله بن قحطان ، يذكر فيها : ما أجحف بأهل اليمن وجميع من أتصل به من مخاليفه من الفتن بينه وبينهم ، فكتب الإمام لقبيلة حمير المنتقضة على أميرها يأمرهم بالسمع والطاعة والإخلاص إلى السكون .

ووصل إليه أهل وادعة يشكون ضلع^(٢) الولاة عليهم ، وكان عمال وادعة من بني المختار ، وسألوا الإمام أن يولي عليهم ابنه عليًا فولاه عليهم ، ورفع إليه ابن أبي الفتوح أيضاً شكواه من الزيدي فأمر الإمام الحسن بن طاهر الحسني أن يعزم للصّالح بينهما ، فسار الحسني إلى الزيدي وعرض عليه أمر الإمام ، فلم يمثل الزيدي ولا بالي بالإمام ، وكان قد ارتفع شأنه ، وغلظ أمره ، واتسعت رقعة نفوذه ، فعادت حالة الخلاف سيرتها الأولى ، وهب رواد الفتن لبذر بذورهم ، وطال الترويد والترجيع ، ممن يحب توسيع الخرق بان الإمام يريد الانتقام من الزيدي بتقوية السلاطين الذين قضى على نفوذهم ، فخاف الزيدي مغبة هذه الفكرة ، وأظهر للناس أن الإمام مال إلى سلاطين

(١) كذا في الأصل .

(٢) ضلع الرجل ضلعا : مال وجنف وجار .

الجور وولاهم ، وانه يريد الانتقام منه لقيامه على الظلمة ، وكثر الأخذ والرد بهذا ، واضطرب حبل الأمن فخاف الإمام على ولده جعفر عامله على صنعاء ومخلافها ، وسارع إلى صنعاء لتهديد الحال وتسكين الأمور ، فأقام بها قراب شهر ، وكتبه إلى الزيدي غير منقطعة ، ولكنها لم تزد الطين إلا بلة ، والزيدي جفاء وغلظة ، وجاء إلى الإمام أسعد بن أبي الفتوح مسلماً وشاكياً من الزيدي ؛ فقابلته الإمام بالاكram ، ووعدته مخاطبة الزيدي فيما شكاه ، وأراد الصلح بينهما ، وكتب بذلك إلى الزيدي ، فكان حظ الوساطة والكتاب من الزيدي الإهمال وعدم الاحتفال .

الدسائس والمؤامرات

في أثناء إقامة الإمام بصنعاء جاء إليه محمد بن سلمة^(١) الشهابي صاحب قلعة بيت بوس مبايعاً ، وطلب منه أن يرسل ابنه الأمير جعفر لإحتلال القلعة خوفاً من الزيدي ، فسار إليها جعفر بن الإمام واسعد بن أبي الفتوح ، ومكث بها أياماً ، ثم صح لهما ميل الشهابي إلى الغدر بهما ، فسارعا بمبارحة القلعة ليلاً إلى صنعاء لإطلاع الإمام على ما لاح لهما من غدر الشهابي وموالاته للزيدي ، وتركوا عسكرهما وخدمتهما في القلعة ، ولما أحس الشهابي بخروجهما أرسل جماعة من أصحابه وأمرهم أن يكمنوا في الطريق للفتك بهما فافتضح أمر الكمين وبلغ الإمام الواقع فأمر بهدم القلعة ورجوع من بها إلى صنعاء .

انتقاض الاشراف وبقية أخبار الإمام

بينما الإمام القاسم يفكر في مسألة الزيدي ، ويعاني من جفوته وتعاليه ما يعاني إذ بأنباء صعدة توافيه بما هو أدهى وأمر ، وذلك أنه كتب إليه ابنه

(١) تقدم إلى محمد بن سلمة قتله الإمام الداعي (بصنعاء ص) .

سليمان^(١) ، وكان إليه امر تلك الجهة بأن الأشراف بني المختار وآل يحيى وبعض أهل صعدة تأمروا على طلب المليح من نجران وادخلوه صعدة ، وكان الإمام قد توثق من الأشراف بالعهود المغلظة والمواثيق المؤكدة ، وعلى الخصوص الداعي يوسف ، وجعل له ريع خراج صعدة كما جعل لغيره من الأشراف ، ولم يبق منابذاً له سوى المليح الفار من صعدة ، كما تقدم ، ولذلك اشتد قلق الإمام ، وآلمه نكث الأشراف وتناسيهم العهود وميلهم إلى الشرور وتربصهم به وبدولته ، رغماً على ما يسديه إليهم من البر والإحسان ، ويعاملهم به من اللطف والحنان :

ومن البلية ان تدان بما كرهت ولن تدينا

قال كاتب سيرته^(١) : اشتد إهتمام الإمام بذلك وقال ما يعذرني الله وكافة أمة جدِّي هؤلاء القرابة الذين قطعوا رحمي ، وكفروا إحساني وكافؤوني الشيء بالإحسان ، اتيت من الحجاز وأهل بيتي مطرد أكثرهم ، فرددتهم^(٢) وملكتهم ، وأمتهم ، ووجدتهم متفرقين^(٣) متباغضين ، فجمعتهم ولففت شملهم ، وأصلحت ذات بينهم ، ووجدتهم مسفوهين ، ومطرحين عند أهل اليمن ، فرفعتهم وكرمتهم ، وجبرت فقيرهم ، ومكنت غنيهم ، وقويت ضعيفهم ، ولا أمن ذلك عليهم لواجبة عليّ ، لكن ليعلم من بلغه ذلك ، انه لا حجة لهم عليّ ، وأكثر عجبي من شيخهم الشريف يوسف بن يحيى بعد أن عاهدني وخلف ، وكذلك عاهدته وأبلغته مراده الخ وكتب بهذا إلى جميع العشائر ليطلعهم على أعمال الأشراف .

ثم أنه كتب إلى أهل طاعته من اليمنيين كتاباً ذم فيه سلوكهم ، وتحاذلهم عنه ، وميلهم إلى عدائه وتساؤلهم فيما عاهدوه عليه إلى آخر ما فيه

(١) عن اللآلئ المضيئة للشرفي .

(٢) في اللآلئ : فوددتهم .

(٣) اللآلئ : متفرقين .

من التفرع والتنديد ، وطلب من همدان الجوار والحماية من غوائل الأعداء ،
والحفظ والمتعة إلى أن يتسنى له الخروج من بينهم ، والتحول عن أرضهم ،
ولم يهمل الداعي يوسف بل كتب اليه وعاتبه ولاطفه ولقبه بالإمام ، وذكره
بسالف العهد ، فأجاب عليه الداعي يوسف بكتاب جارح اطال فيه العتب
والملام^(١)

(ورب ملوم لا ذنب له : ومظلوم خيب الدهر أمله)

خروج الامام القاسم من صنعاء وانتشار دعاية الزيدي

لما تحقق الإمام اضطراب أمر الجهة الشمالية بادر بالخروج من
صنعاء ، وأقام بريدة ، لتدبير أمر بقية البلاد ، فوصل اليه رجل من بكيل
بكتاب من الزيدي أرسله إلى البكيلي ، وإلى أصحابه وفيه شكوى حارة من
الإمام ، وانه غدر به ، ورجع عن امر الله وإلى أعداء الله ، واختار ابن أبي
الفتوح عليه وركن إلى الظلمة وسألهم النصرة على الإمام والمعدرة له في
المخالفة عليه ، ووعدهم ومناهم ، ولم يقتصر على بكيل وحدها ، بل أذاع
هذه الرسائل بين كافة القبائل ونشر دعايته في عرض البلاد وطولها ، فاضطر
الامام الى الرد على دعاية الزيدي ، والإشتغال بالمعارك القلمية ، وسرد الأدلة
والبراهين على خطأ الزيدي وغيره من المشاغبيين ، ولكن الزيدي لم يقف عند
تلك الغاية ، وانما جنح إليها لتخدير العقول شأن الصائد الماهر (لا يحكم
اشباكه الا اذا عكر صفو الغدير) .

وذلك لثلاً تنور عليه رجالات اليمن لمجاذبته الإمام ، فقد هجم على
صنعاء ، وأسر الأمير جعفر بن الامام وحبسه في قلعة بني شهاب وحبس معه
عامل القلعة من قبل الإمام .

(١) انظر هذه الرسائل في اللالى المضئية .

ولما علم الإمام بما فعله الزيدي استصرخ القبائل واستثار همهم والهب حماستهم ، فلم يجبه إلا القليل الشاذ الذي لا غنى فيه ولا منعة ، فمال إلى السكون وانتظار العواقب ، وكتب إلى وادعة وبكيل يسألهم الإستقامة وكرم الجوارله ولذويه ، حتى يحكم الله بينه وبين خصومه وهو خير الحاكمين .

من كان ذا عضد يدرك ظلامته ان الذليل الذي ليست له عضد
تنبؤ يدها إذا ما قلّ ناصره وتأنف الضيم ان اثرى له عضد

فأسعفته بكيل ووادعة بما رام ، وكان قد اقترح عليهم عدة منازل في بطون متفرقة ، منها منزل في آل الدعام ، ومنزل في بني سلمان ومنزل في بلاد سفيان ، ومنزل في بني معمر ، ومنزل في بني عبد بن الهراثم من بلاد وادعة ، وآخر في بلد بني ربيعة وبني حريم ، فبادروا بالتلبية واوسعوا له في بلدانهم ما أراد .

اطلاق الزيدي جعفر بن الإمام وطلبه الصلح

ودخلت سنة ٣٩٢ فيها نهض الإمام من ريدق، فسلك طريق المشرق ونزل بمدر ، ثم سار إلى ورور واطلق الزيدي ولده وابن عمه ، وكتب إليه يسأله الصلح وتسكين الفتنة فقال الامام اما انا فقدومي انصارى ونكت أهل بيعتي ، وهو يعلم ذلك منهم فليس بمحتاج إلى صلحي إلا ليستقيم له أمر الرعايا في اليمن بإسمي ، ولولا الضرورة إلى صلحه لما رأيت ذلك ولا استحليلته فالله المستعان على ما تدعو إليه الضرورة والامتحان، ورد الجواب بالإيجاب .

من تضجر البلوى فغاية جهده رجعي إلى الأقدار واستسلام
فطلب الزيدي لقياء والإتفاق به في ريدة فكره الإمام الإتفاق بها ورسم له موضع اللقاء بأعلا الصيّد ، فكان اتفاقهما هنالك ، وذلك في صفر من العام المذكور ، وقد وصل الزيدي في جند عظيم ، وأبهة كبيرة وعلى رأسه

ظلل سود من الخز ، وأمامه الجبابج^(١) والصنوج والطبول تقدمه الرايات الصفراء ، وكان الإمام في قلة من الجنود فخاف الغدر ، وأرسل إليه أن يقف مكانه ويلقاه منفرداً إن أراد الصلح والسلامة فامثل الزيدي إشارته وجاءه على فرس ليس معه إلا خادم ورجل من همدان ، واعتذر للإمام وأظهر الندم على ما فرط منه ، وعرض على الإمام الدخول معه فاحتز منه وقال له لا أفعل معك في هذه اللقيا غير الصلح حتى ننظر في الأمور بعد ، وتمّ الاتفاق على عدم الشقاق وسارا معاً إلى ريدة وافترقا منها ، فسار الزيدي إلى اليمن ورجع الإمام إلى وَرُورَ ، ثم سار منها إلى وادعة فأقام في بلد بني ربيعة ، وعمر بها داراً لبعض أهله وترك الزعامة ، وتخلّى عن متاعبها وتربّص بالظالمين ، وجعل الخيار في الطاعة إلى الرعايا ، فمن أراد منهم برضا وطواعية والاه ودفع إليه زكاته وسلم ذلك لسعته ، ومن كره ذلك لم يسأله شيئاً ، وما برح يرجو ويأمل موآتات الأيام ومساعدة الأقدار وإبتسام الحظّ بالانتصار على الشرفاء بني المختار ، لبغيهم عليه ، وإقدامهم على نهب حصنه وهدمه ، وكفراهم إحسانه :

وظلم ذوي القربا أشد مضاضة ^{مرکز تحقیقات کتب وعلوم اسلامی} على المرء من وقع الحسام المهند وكانت بعض قبائل خولان تبعه المأزرة^(٢) فتحرك من همدان ونزل على بطون بكيل ووادعة فالتف حوله منهم عسكر لا يصل بهم وحدهم شيئاً من بني المختار ، واعوانهم أهل صعدة ، فجعل طريقه ناحية بني شاكر شرقي صعدة ، حتى وصل بمن اجتمع معه بلد بني مالك بالحقل ونزل على المدلهم بن الفحيش رئيس بني سعد ، وكان قد خالف عليه وانضم إلى بني المختار ، فلم يحصل له ما أمل لا من المدلهم ولا من خولان :

(١) الطبل والضخم من الأبواق ميل واحد ، جبجه وجبجباب .

(٢) الموازرة .

من خانه الذهب خاتنه صنائعه وعازذ نباله ما كان إحساناً^(١)

رجوع الإمام القاسم إلى عيان ووفاته عليه السلام

ولما أيس من القبائل ووعودها الخلابة ، رجع الى عيان وقد تفهت^(٢)
نفسه من ممارسة الخطوب وملابسة الحروب ، ولسان حاله تنشد :

فررت من العدة الى العدة وكنت عددتهم رمز الثقات
لقد خابت ظنوني عند قوم يروي محاسني من سيأتي
يهيجون الغواة علي هيجا وهم شرّ لدي من الغواة

وعكف على تأليف الرد على روافضته الذين طعنوا في سيرته من الشيعة
وأسماء مؤلفه هذا (كتاب الرد على الرافضة) وهو آخر كتاب وضعه من كتب
العلوم .

وبعد ان اصطدم^(٣) بمصائب جسيمة محطمة ، وامور نكراء جبارة
وساءه الدهر بصنيعه ، وتنكرت له الآيام ، وخذله الأقارب ، وخاتنه الأنصار ،
وأحاطت المشكلات وحوالك الخطوب بسماواته وجهاته ، بحيث يحار القدمة
الشجاع في الخروج منها ، نزل على حكم القضاء وانكمش في دار عزله
يتردد ما بين مذاب^(٤) وعيان ، إلى ان وافته المنية بعيان لتسع خلون من
رمضان سنة ٣٩٣ ، ولم يخلف دُرهماً ، ولا ديناراً سوى سلاحه ودوابه
وثيابه :

فعفت منابره وحط سروجه عن كل طامحة وطرف طامح

(١) من أبيات أمير الشعراء احمد شوقي يقول فيها :

ولا ترى الدهر إلا حرب مضطهد وحالين على المخدول خذلانا
والخط يبنى لك الدنيا بلا عمد ويهدم الدعم الطول اذا خانا

(٢) ضعفت وصغرت .

(٣) في الأصل اصطدم .

(٤) مذاب : واد يسقي الجوف .

قال الزحيف : مات الإمام القاسم وخطب له^(١) في نواحي مخلاف جعفر وكحلان وما يليه ، ولم يزل دأبه إقامة قناة الدين ، وإخماد نار الملحدين ، وكان إذا حضر معركة نازل الأقران ، وكان راعياً لأرباب العلم ، وازعاً لأرباب الظلم كثير اللطف واللين ، دمث الشمائل جزل النائل ، ومن رسائله عليه السلام قوله : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يرتبطان بغير زمام ، ولا يؤدي فرضهما بغير امام ، الاقرار بالنبوة لا يصح إلا مع الاقرار بالذرية ، والاقرار بالكتاب ، لا يصح بغير نصاب ، طالب العلم من غير أهله كمشتري الدرّ بغير خبره ، والمؤتم بغير العترة كأعمى يتبع الأعمى :

ومشهده بعيان مشهور مزور وأولاده عليه السلام ستة وهم : يحيى وجعفر ، وعلي وسليمان ، وعبد الله والحسين ، وسيأتي طرف من تفصيل اخبارهم ان شاء الله

بقية أخبار الداعي يوسف

بعد موت الإمام القاسم بن علي العياني انتعش أمر الإمام الداعي ، وبادر إلى صنعاء خامس شوال من السنة ، وأمر البوسي فخطب له ، وأقام بصنعاء خمسة عشر يوماً .

ثم تنكرت له همدان فخرج من صنعاء إلى حاز^(٢) ، ثم صار إلى مدر من شرق همدان وأمر عمّاله ان يرفعوا أيديهم وصار إلى ريدة ومنها إلى صعدة واستقر أمره فيها حتى توفي في التاريخ الآتي^(٣) .

ودخلت سنة ٣٩٤^(٤) فيها مات القاسم الزيدي في مدينة ذمار ، ودفن

(١) كذا بالأصل وصواب العبارة بعد ان خطب له (ص) .

(٢) قرية اثرية مشهورة في ناحية همدان على طرف قاع المنقب .

(٣) اللاليء المضيئة .

(٤) انباء الزمن .

عدني^(١) الجامع ، وقام بالأمر بعده ولده محمد بن القاسم وسيأتي ذكر أخباره في موضعها ، ومن آثار الشريف القاسم الزيدي غيل آلاف جنوبي صنعاء .

تهافت المتغلبين على صنعاء واضطراب أحوالها

فيها وصل ابن أبي حاشد إلى صنعاء وخطب للشريف الزيدي ، ثم تغيرت عليه الأحوال ، فخرج منها وتركها بغير سلطان ، ولم تزل كذلك حتى اصطلح ابن أبي حاشد وابن عمه أبو جعفر ، فسارت إليه همدان ودخل صنعاء سنة ٣٩٥ وصالح ابن أبي الفتوح .

ودخلت سنة ٣٩٧ فيها تجهز ابن أبي الفتوح^(٢) في جيش عظيم يريد الهان ، ولما صار في بعض الطريق ، وثب عليه غلماناه فقتلوه ، فأعيد إلى نعظ ، ودفن بها ، وتولى بعده ، ابنه منصور بن أبي الفتوح ، وحلفت له خولان واستقامت أموره ، وخلت صنعاء من السلطان إلى سنة ٣٩٧ فدخلها أحمد بن سعيد بن الضحاك والياً عليها من قبل ابن عمه أبي جعفر ، ثم غلبه عليها ابن أبي حاشد ، ثم دخلها محمد الزيدي ، ومعه الإمام يوسف الداعي فأقاما بها نصف شهر ، ولم يتم لهما أمر ، فخرج الإمام نحو مدر ، ورجع الزيدي إلى ذمار ، وأقامت الفتنة على صنعاء من همدان وخولان وحمير والأنباء وبني شهاب ، في كل شهر لها أمير وعليهم رئيس وفي أكثر أوقاتها تخلو من الأمراء والغالب عليها آل الضحاك إلى سنة اربعمئة ، ثم سار جماعة من همدان وبني شهاب إلى الشريف الزيدي إلى ذمار يستدعون فساد معهم إليها ودخلها في ذي القعدة من السنة المذكورة .

دعوة الإمام المهدي الحسن بن العلم العياني

ودخلت سنة ٤٠١ فيها وصل الإمام المهدي الحسين بن القاسم بن

(١) جنوبية .

(٢) المصدر نفسه والخزرجي وقره الميون .

علي العياني إلى جهة البون فأجابته حمير وهمدان والمغارب ، ومالوا عن الزيدي ، وكان الزيدي قد دعا إلى نفسه ، وأرسل بكتاب دعوته إلى الحسين بن القاسم في رجب سنة ٤٠٠ ، فأمر الحسين^(١) أهل بلاده بالوصول إلى الزيدي ومبايعته ، بعد اختياره ومساءلته ، وكب مع الوافدين عدّة مسائل في التوحيد لامتحانه بها وقبل مسير الوفد المزود بمسائل الامتحان المحررة من الحسين ، وافته الأنباء الصحيحة بأن كتاب الدّعوة الذي انفضّه الزيدي إليه مصنوع على لسانه صنعة ابراهيم الطبري وكويل بن أبي بحر ، وانهما عملا باسم محمد بن القاسم الزيدي وهما اذ ذاك بحضرة والده وان الغلام ليس منه وضع كتاب ، ولا خطاب ، وكان ابوه^(٢) هو الذي أمره بالدعوة

فخرج الحسين بن القاسم لمحاربته ، وخرج الزيدي من صنعاء وأقام بيت بوس ، وأقام ابنه زيد بن محمد بصنعاء فحصن دربها ، ثم بدا للزيدي فأخرج المسجونين من سجن صنعاء وأنهب أهراء^(٣) الطعام ، وعاد إلى ذمار فتعطّلت صنعاء من السّلطنة إلى سنة ٤٠٢ ووصل الضّحّاك بن جعفر فأقام بها مدّة ، ووصل رجل يقال له ابن أبي النجم من طرف الإمام المهدي في جماعة يطالب الناس بزكاة أموالهم فلم ينكر عليه الضّحّاك .

وفيهما مات الحسين بن سلامة صاحب زبيد وقد تقدم .

دخول الإمام المهدي صنعاء وقتل الشريف الزيدي

في آخر سنة ٤٠٢ دخل الإمام صنعاء وطلب من أهلها خمس العبيد والخيول وجعل أخاه جعفرأ على صنعاء فضرب السّكة باسمه ، فثار عليه أهل صنعاء وحاربوه وسط المدينة ، فتحرك الإمام لنصرة أخيه ، ودخل صنعاء

(١) ارجع اللآلئ المضيئة .

(٢) هذه رواية الخزرجي وقد تقدم ان الحسين ابي القاسم الزيدي مات سنة ٣٩٤ فتأمل (ص)

(٣) هي مخازن الغلال .

فهدم دوراً لبعض أهلها ، وأخذ أموالهم فاستجدوا بالزبيدي بعد أن غادرها الإمام وترك أخاه ، فاغار الزبيدي على صنعاء سنة ٣٠٣ وفر منها جعفر بن الإمام .

ولما دخلها الزبيدي أمر بهدم دور جماعة من شيعة الإمام الحسين ، واجتمع معه بها عسكر عظيم ولما علم الإمام بما كان جمع جنوده ، وقصد صنعاء فالتقوا عند الجبوب^(١) واقتتلوا قتالاً شديداً ساعة من النهار ، ثم انهزم الزبيدي طريق الفج^(٢) ودخل الإمام بعسكره صنعاء وخرج في أفراس يتطلب الزبيدي ، فأدركه بحقل صنعاء فقتله هنالك ، وإلى ذلك أشار صاحب البسامة بقوله :

وكان منها على الزبيدي ملحمة بحقل صنعاء تجري مدمع النظر
وكان مقتله يوم الخميس لسبع بقين من صفر سنة ٤٠٣ ودفن بنجد
عصر ، وفي صفر هذا العام مات الإمام الداعي يوسف بن يحيى ودفن
بصعدة .

مركز تحقيقات كاتوليك علوم إسلامية أحداث زيد بن محمد الزبيدي

فيها نهض الشريف الزبيدي بجمع عظيم من مذبح للأخذ بشار والده ، فوصل الهان وبه ابن أبي الفتوح ، فكانت بينهما حرب انهزم فيها ابن الزبيدي ، وقتل جماعة من أصحابه ، ونهب منصور بن أبي الفتوح أعلامه وارسلها إلى الإمام المهدي ، فاستنجد الزبيدي بصاحب زبيد ، وكان الذي عزم إلى زبيد لطلب النجدة رجل من أصحابه يقال له ابن مروان ، فلما وصل إلى زبيد أنجده صاحبها بمال عظيم ، فعاد ابن مروان واتفق بالشريف الزبيدي

(١) موضع أسفل جبل نقم بالشرق من صنعاء .

(٢) لعله فج عطان أو الأشمور والفج الطريق الواسع الواضح بين جبلين في قبل جبل وهو أوسع من الشعب .

ببلد عنس ، ثم سارا لحرب منصور بن أبي الفتوح ، وكادا يقضيان عليه ، فاستنجد بالإمام ، فبادر إليه في جيوش عظيمة ، ولما قرب من الهان انفضَّ عن الزيدي انصاره من عنس وغيرهم ، ولم يبق معه غير رفيقه ابن مروان ، ففرَّ معاً وتركاً خيلهما وأثقالهما فاستولى عليها الإمام وعلى مائتي فرس لعنس ، ورجع الإمام إلى ريذة ، وأدب أهل البون^(١) بسبب انتقاضهم عليه عند مسيرة لانجاد منصور بن أبي الفتوح .

إعتزام الإمام الرجوع إلى صنعاء وقتله^(٢)

لما أكمل الإمام مهمّة في تأذيب الثائرين نهض يريد صنعاء ، وقد خالف عليه منصور بن أبي الفتوح ، وتابعته بنو شهاب ، وبنو حريم ، ووادة ، ونزل بنو حريم حمدة^(٣) فنهبوا دار الإمارة ، وأخرجوا المحبوسين أهل من البون ، فجمع الإمام عسكره لحربهم فقاتلوه عند ريذة وهزموه إلى حمدة وقتلوا جماعة من عسكره وحطوا عليه بجمده^(٤) . خرج نحو بلد الصّيد فنهبوا حمدة وأعاد الناس أبا جعفر أحمد بن قيس بن الضحّاك على إمارة صنعاء فأقام بها إلى سنة ٤٠٤ .

ثم ان الإمام جمع جمعاً عظيماً ، وجمع ابن الضحّاك سائر القبائل المخالفة على الإمام ، وسار بهم إلى ذيبين فانهزم الإمام إلى الجوف ، ثم عاد إلى بلد الصّيد في مائة فارس ، فعلمت به همدان ولقوه إلى قرب ريذة وأحاطوا به ، فدافع عن نفسه دفاع الأبطال ، وغشيه بنفسه مراراً ، وخرق

(١) راجع ما أورده الخزرجي ولكنه لم يبين اسم القبيلة المنتقضة وقد ذكرها الزحيف وغيره عند

إيراد كلام الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام (ص)

(٢) الخزرجي وأنباء الزمن والزحيف والحدائق الوردية

(٣) حمدة : مدينة أثرية في ناحية عبال سريح في الغرب من عمران

(٤) كذا في الأصل .

صفوفهم فتظافروا عليه وقتلوه في صفر من السنة المذكورة بذى عرار بين ريلة
والبون وعمره نيف وعشرون سنة .

وكان من عيون الأئمة الكبار المبرزين في كل فنّ له المصنّفات المفيدة
في علم الكلام وغيره ، قيل ان مصنّفاته بلغت ثلاثة وسبعين مصنّفاً منها كتاب
المعجز في علم الكلام^(١) ، وتفسير القرآن كاملاً وغير ذلك من المصنّفات
العالية ، الدالة على ملكته في العلوم ، ورسوخ قدمه في سائر الفنون وملك
من الهان إلى صعدة ، ولم يزل داعياً إلى الحق إلى أن قتله بنو حماد ، قال
في الحقائق الوردية^(٢) : وبقي جماعة من شيعته يعتقدون أنه حي وأنه المنتظر
الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال وقد كتبنا رسالة في هذا
المعنى سمينها بالرسالة الزاجرة لذوي النهي عن الغلو في أئمة الهدى^(٣)
انتهى .

والى معتقد شيعته اشار صاحب البسامة بقوله :

وانزلت ساحة المهدي قارعة بذى عرار ونقع الخيل لم يشر
وقال قوم هو المهدي منتظر قلنا كذبتم حسين غير منتظر
كيف انتظاركم نفساً مطهرة سالت على البيض والصفصامة الذكر
وللخيالات أوهام مسلطة على العقول التي ظلت عن الفكر

ولم تزل فكرة الاعتقاد في المهدي الحسين بن القاسم سائدة عند
جماعة من الشرفاء إلى القاسم العياني وشيعتهم برهة غير قصيرة كما نراه في
مسيرة ذي الشرفين ان شاء الله (قال الخزرجي)^(٤) . وفي جهلة الشيعة ، من

(١) معه نسخة خطية في مكتبة برلين بالمانيا .

(٢) الحقائق الوردية ج ٢ ص ٦٤ .

(٣) وكذا ألف في نفس الموضوع العلامة حميدان بن احمد بن يحيى حميدان المتوفي سنة ٦٥٦

رسالة بعنوان «بيان الاشكال فيما حكى عن المهدي من الأقوال» توحد غالباً ضمن مجموعة .

(٤) المسجد المسبوك ص ٥٢ .

يزعم أنه حي لم يقتل ، وأنه المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان على هذا الاعتقاد كثيراً من الأشراف ، ثم انقرض أهل هذا الاعتقاد ، وكانوا خلقاً كثيراً في مغارب صنعاء قال وكان الحسين بن القاسم من أعلم خلق الله وأفصحهم ، ولم يبلغ عمره ثلاثين سنة ، وقال (الزحيف) أن أناساً من شيعته ضلُّوا فيه وذهبوا إلى أن كلامه أفصح من القرآن بل قد رأيت من المصنفات ما نسب إليه وفيه ما يقتضي هذا المعنى وتأوله بعضهم بأنه قاله وهو ذاهب العقل ، وقال أصحابه فيه أقاويل هائلة ، ولما ظهرت منهم هذه المقالات ونحوها ، قال الفقيه جيعد بن الحجاج الوادعي صهر نشوان بن سعيد الحميري^(١) :

أما الحسين فقد حواه الملحد واغتاله الزُّمن الخؤون الأنكد
فتصَبَّروا يا غافلين فلأنه في ذي عرار ويحكم مستشهد
فغضب الشرفاء القاسميون وأحنقهم هذا المقال وتوهموا أن القائل
نشوان بن سعيد فقال فيه عبدالله بن القاسم بن جعفر :

أما الصحيح فإن اصلك فاستد وجزأك منّا ذابل ومهند
فأجاب نشوان مدافعاً عن نفسه بقصيدة طويلة منها^(٢) :

من اين يأتيني الفساد وليس لي نسب خبيث في الأعاجم يوجد
لا في علوج الرُّوم جد أرزق أبداً ولا في السود خال أسود
إني من العرب الضميم إذا امرء غلبت عليه العجم فهو مولد
فدع السفاهة انها مذمومة والكف عنها في الواقب احمد

(١) هو علامة اليمن ومحققها اللغوي نشوان بن سعيد بن أبي حمير بن عبيد بن القاسم بن عبد الرحمن الحميري كان من العلماء الاجلاء من أشهر مؤلفاته شمس العلوم توفي نحو سنة

والله ما مني نظام جاءكم
ولقد أتيت به فقامت مبادراً
فأشاعه من ظن أن ظهوره
اغضبتم إن قيل مات إمامكم
لا عار في قتل الإمام عليكم
أن النبوة بالنبي محمد
ومنها :

فدع التهّد وبالحسام جهالة
من قد تركت به قتيلاً إنني
أن لم أمت إلا بسيفك أنني
فحسامك القطاع ليس له يد
ممن توعدده ومن تهديد
لقرير عين بالبقاء مخلد

بقية أخبار المتغلبين على صنعاء

لما قتل الإمام الحسين بن القاسم سار ابن أبي حاشد إلى صنعاء وأقام
بها إلى ذي الحجة من السنة ولم يتم له أمر مع همدان فخرج من صنعاء
وتعطلت من السلطة إلى نصف شوال سنة ٤٠٥ هـ ، ودخلها أبو جعفر أحمد بن
قيس بن الضحّاك إلى شهر ربيع من سنة ٤٠٦ هـ ، ثم خرج منها وارتفعت أيدي
عُمّاله ، وخلت من الإمارة إلى سنة ٤٠٨ هـ ، لكثرة الاختلاف ، واضطراب
الأمور ، وتعدّد الطامعين والناظرين ، ولقد أثرت هذه الحالة السيئة في عمران
البلاد أثراً عظيماً حتى قيل أنه لم يبق من دور صنعاء سوى ألف وأربعين
داراً ، ومن مساجدها مائة وستة ، ومن الحمامات إثنا عشر حماماً ، بعد أن
كانت عدد الدّور بها أيام الرّشيد مائة ألف دار وأربعين ألف^(١) دار ،
ومساجدها ثلاثة عشر ألف مسجد وحماماتها كذلك ، ثم ان همدان راجعاً
أبا جعفر أحمد بن قيس في الرجوع إلى الإمارة فأجابهم .

(١) أنباء الزمن والخزرجي وقرّة العيون : وقد نقلنا رواية عدد دور صنعاء أيام الرشيد تبعاً لأولئك مع
أنها لا تخلو من مبالغة (ص) .

نفوذ الأحباش أمراء زبيد في بلاد الجبال

ودخلت سنة ٤١٠ فيها ثار الشريف زيد بن محمد الزيدي بقوم من بني شهاب فسجنوه^(١) بأشيع^(٢) فسار إليهم ابن أبي الفتوح وأمدّه القائد مرجان صاحب الكدرا ، وعاضدهم ابن أبي حاشد ثم ان ابن أبي الفتوح نزل إلى تهامة فتلّقاه القائد بالكدرا واحسن تلقيه ثم عاد إلى الهان حتى أخرج الشريف زيد بن القاسم الزيدي من أشيع وسلمه إلى مولاه القائد ، وتحالفت همدان والأبناء على بني شهاب أمرهم بذلك القائد فحاربوهم مراراً في بيت بوس ثم اصطلحوا ، وفيها نزل باليمن ثلج عظيم وكان ذلك في شهر شباط بعد أن اصاب الناس في الشتاء برد عظيم جمد فيه الماء .

قال في انباء الزمن^(٣) ودخلت سنة ٤١١ وسنة ٤١٢ وفيها كانت اليمن موزعة بين أمراء ومتغلبين كثيرين فزبيد والتهائم إلى بني زياد ، ولحج وأبين وحضرموت والشوالي إلى بني معن ، والسميدان وذخر والتعكر إلى بني الكرندي ، وحَبَّ وعَزَّان وخدد وبيت عز والشعر والنقىل والشوافي والسحول ، بيد حسين التبعي ، واليمن الأعلى أوزاعاً بين آل يعفر ، وآل الضحاك ، وآل أبي الفتوح ، وأولاد الإمام الداعي يوسف بن يحيى ، وأولاد الإمام القاسم العياني .

ودخلت سنة ٤١٤ فيها نهض الأمير جعفر بن الإمام القاسم العياني من صعدة فاستدعته حمير وحمدان إلى صنعاء فسار إليها وأقام بها شهراً ، ثم طلب من الناس النهوض معه إلى صعدة فسارت معه ، فلما وصل صعدة نهبها

(١) الخزرجي وفي كلامه عن ثورة زيد بن محمد الزيدي إيهام فتأمل ، وصاحب الكدرا في ذلك التاريخ هو العبد نجاح مولى مرجان كما تقدم (ص) .

(٢) أشيع : حصن شهير في بني سويد وتعرف الآن بحصن ظفار وهو من الشمال الغربي من صوران بمسافة ٣٠ كم .

(٣) غاية الأمان ص ٢٤١ .

واحرق بعض دورها وقتل جماعة من أهلها ورجع الى عيان^(١) .

وكان قد وثب على صنعاء ذعفان وابن أبي حاشد ، ثم وقع خلاف بين همدان وذعفان وابن أبي حاشد فاستدعوا جعفر بن الإمام ، وأدخلوه صنعاء وذلك سنة ٤١٥ ، فطالب الناس مطالبة شديدة وأقام بها مدة يحارب ذعفان وابن أبي حاشد ، ثم اصطلحوا لمدة شهرين ، ونزل ذعفان إلى القائد بالكدرى يستمده فأمده بأموال جلييلة ، وكتب معه إلى المتتاب بن إبراهيم بن عبد الحميد صاحب مسور ، وأمرهم بحرب جعفر بن الإمام ، فاجتمعت عليه همدان وحمير وصاحب مسور فخرج إلى بيت شعب فحصرته همدان^(٢) وحمير ، وأعادوا ابن أبي حاشد على إمارة صنعاء فهجم أهل بيت خولان على محطة حمير وقتلوا منهم مائة رجل وانهزم عسكر المتتاب وذلك في المحرم سنة ٤١٦ ثم تهادنوا إلى آخر السنة .

ظهور المعيد الناعطي

ودخلت سنة ٤١٨ فيها ظهر شخص مجهول الاسم بناعط وتلقب بالإمام المعيد لدين الله وسار إلى مأرب وبها عبد المؤمن بن أسعد بن أبي الفتوح الخولاني فأكرم الخولاني نزله وأقام الناعطي عنده وكتب إلى النواحي بدعوته ، وكان يسطر كتبه من عبد الله الإمام المعيد لدين الله الداعي إلى طاعة الله الدامغ لأعداء الله : بهذه الفخفخة تسلط على عقول السذج البسطاء وتابعه منصور ابن أبي الفتوح ، ولما وصل كتابه إلى صاحب الكدرا أعاده مختوماً فغضب منصور بن أبي الفتوح وكتب إلى سبأ بن عبد الحميد وأخيه عبد المؤمن يحثهما على النهوض مع الإمام ، وساروا إلى مسور ، فلقبهم منصور في جيوش عظيمة ثم قصد الإمام صنعاء ومعه منصور فدخلها في جند كبير ، وخطب له قاضي صنعاء ابن النقوى بالإمامة فعظم شأن

(١) أنباء الزمن .

(٢) الخزرجي .

المعيد ، وغلظ أمره وارتفع دخانه ، وانفذ ولاته إلى جميع المخاليف ، ويرحم الله القاتل :

وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيهه زمن فيه بدا
وأقام بصنعاء أياماً ثم سار إلى حراز ، فلقيته عنس وبكيل على بركة
ضاف^(١) ، فسار إلى الهان وأقام بها سبعة أيام ثم انتقل إلى ذمار ، وأمر
بعمارة حصن هران^(٢) .

ودخلت سنة ٤١٩ فيها هرع المعيد إلى مخلاف جعفر ، ومعه صاحب
حصن كحلان والمنصور بن أبي الفتوح ، فأقام بإب وانقاد له أهل المخلاف
إلا ابن مكرمان فإنه استدعى عسكر القائد مرجان^(٣) الحبشي فأقاموا إلى سنة
٤٢٠ ، وفسد ما بين الناعطي ومنصور وابن أبي حاشد ، ففترقوا ورجع ابن
أبي حاشد ، وابن أبي الفتوح إلى طاعة القائد مرجان ، وكان سلطان الحبشة
أمير زبيد قد امتد إلى بلاد الزيدية في ذلك التاريخ ، كما سبقت الإشارة
إليه ، ولم تبق غير الجهة الشمالية فإنها كانت بيد الأشراف ، وأما المعيد فإنه
رجع إلى هران بمراسلة من عنس^(٤) وما عتيمت أن تأمرت عليه بعض قبائل
عنس وقتلته في ذي الحجة سنة ٤٢١ .

وفي تاريخ مسلم^(٥) اللحجي أن المعيد دخل صنعاء في عشرة آلاف من
همدان ، وأهل اليمن فيهم السلطان يحيى بن أبي حاشد من الضحّاك

(١) قرية عامرة في قاع جهران .

(٢) أبناء الزمن والخزرجي (ص) .

(٣) هذه رواية الخزرجي وهي تخالف ما سبق فإن القائد مرجان قتل سنة ٤١٢ كما ذكره الديبع في
قرة العيون والخزرجي أيضاً في غير هذا المكان في الفصل المخصوص بالدّ ولد الحبشية
باليمن : وأما صاحب أبناء الزمن فإنه قال في سنة ٤١٩ وما بعدها إلى سنة ٤٢١ لم يتفق فيها
غير ما تقدم ، ولكنه أفاد في سنة ٤٢٢ أن مخلاف الهان تحت نفوذ القائد مرجان ، وهو غير
صحيح فراجع ما تقدم (ص) .

(٤) نقل هذه الشرفي في اللآلئ .

الهمداني ، وهو يومئذ زعيم همدان قال : ولما أقبل المعيد يريد صنعاء تلقته همدان إلى بعض الطريق ، ثم أتوا القاضي تبع بن المسلم القاضي بجوب^(١) ، قال : وهو علامة همدان وأحد شيوخ الزيدية ، فقالوا له : اخرج معنا إلى هذا الرجل فانظر لنا ما عنده ، فإن كان إماماً طاعناً بين يديه بالرماح ، فقال : لست آتية ولكني أكتب لكم مسائل فإن أجاب عنها فهو عالم ، وإن عجز عن جوابها فليس كذلك ، ففعل ودفع إليهم دواة وأوراقا ، فلما أتوا إلى المعيد ووقف على المسائل اعتذر بعدم وجود الورق ، فقالوا : معنا الورق ، قال لا بد من دواة ، فقالوا : وهذه الدواة ، ودفعوها إليه ، فقال : هذه سَمَاقِيَات^(٢) تَبَع^(٣) ، والله لئن ظفرت به لأخرجن لسانه من قفاه ، قال فكان تبع منه خائفا

وفي هذه السنة اشتد القحط باليمن ومات كثير من الناس وخلت بلاد كثيرة من أهلها واستمر القحط إلى سنة ٤٢٢ .
وفيها كانت الفتنة بين الشيعة والسنية ، وصنعاء خالية عن السلطان إلا لبني مروان^(٤) بعض الأمر ، وولاية الهان ومقرأ إليهم من تحت يد القائد (مرجان)^(٥) ولصاحب مسور حنين بن المشاب بعض منازعة ودام الحال كذلك إلى سنة ٤٢٦ ، وفيها ظهر الإمام أبو هاشم النفس الزكية .

الإمام أبو هاشم النفس الزكية

الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبدالله بن الحسين بن القاسم بن

(١) موضع يقع جنوب ريدة وشمال عمران وهو إلى ريدة أقرب .

(٢) أي كذب خالص .

(٣) يعني تبعا بن المسلم السابق ذكره .

(٤) هكذا في الخزرجي وأنباء الزمن واللائلء المضئية ، ولم نعثر لأي مؤرخ من هؤلاء ولا غيرهم على شيء عن هذه الأسرة وكيف ملكت صنعاء ومن أين أتت إليها .

(٥) في اللالء والخزرجي : وولاية مقرا والهان إليهم من يد تحت يد القائد فقط ، وزاد صاحب أنباء الزمن لفظه (مرجان) وهو غير سديد فتأمل (ص) .

ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، قدم من الشام ومعه حمزة ومحمد فقصد صنعاء ووصله المنصور ابن أبي الفتوح فبايعه ، ورجع إلى بلدته قال الخزرجي^(١) واستقوت الشيعة على السنية وعزل القاضي النقوي وكان سنياً وأقام الإمام إلى سنة ٤٢٩ ، ثم خالفت عليه حمدان ودخل ابن أبي حاشد صنعاء ثم خرج وتعطلت عن الإمارة إلى سنة ٤٣١ ، وقال في انباء الزمن^(٢) : ولبت الإمام مدة يسيرة ثم عارضه حسين بن مروان وما برح الاختلاف إلى سنة ٤٢٩ ، ودخلت سنة ٤٣٠ فيها تعطلت صنعاء من الإمارة إلى سنة ٤٣١ واستدعت همدان جعفر بن الإمام فدخل صنعاء في شهر ربيع من السنة فافتقرت عليه همدان وعلى ابن أبي حاشد ، وكان الأكثر مع ابن أبي حاشد فخرج جعفر من صنعاء منهزماً وسار ابن أبي الفتوح إلى مخلاف جعفر للقاء ابن الكرندي ، وعبدالله بن يعفر فأقام معهما إلى شهر ربيع الآخر ، ثم عاد فقوي به أمر ابن أبي حاشد ثم فسد الحال بينهما^(٣) ، وهرب ابن أبي حاشد من صنعاء وجمع جموعاً وجاءه ابن سلعة الشهابي ، فقصد ابن أبي الفتوح إلى السر (فتراكزوا) فيها وقتل ابن عثم لابن أبي الفتوح ، واستدعت همدان جعفر بن الإمام إلى صنعاء بأمر ابن أبي حاشد ، وكان ابن أبي الفتوح بعلب^(٤) وابن أبي حاشد بيت بوس فأقاموا كذلك مدة وجعفر ابن الإمام بصنعاء تارة يجبي الأموال ، وتارة يضعف عن ذلك ثم ان ابن أبي حاشد كره مقام جعفر بصنعاء فعامل عليه من أخرجه منها ، فسار إلى ابن أبي الفتوح ، واستدعى ابن أبي حاشد الإمام أبا هاشم النفس الزكية ، فدخل صنعاء ثاني خروج جعفر عنها ، فأقام الإمام بها ثمانية أيام ، وولى على البلاد والياً ،

(١) المسجد المسبوك من ٩٩

(٢) غاية الأمان ص ٢٤٤

(٣) انباء الزمن والخزرجي واللالىء المضيتة وقرة العيون

(٤) قرية في سفح جبل نغم جنوبية على بعد ٤ ك. م

وخزج إلى ريدة وسار منها إلى ناعط ، ومات فيه ، وقبره هنالك مشهور
مزور ، وكانت وفاته سنة ٤٣٣ .

وذكر صاحب الحقائق الوردية^(١) أنه أقام بصنعاء من ثالث شعبان إلى
نصف شهر رمضان ثم خرج لفساد من عارضه وهو الحسين بن مروان ، وأقام
عنها مدة ، ثم حلفت له همدان سوى بني حماد في المحرم سنة ٤٣٣ ،
فدخل صنعاء يوم الأربعاء لثمان عشرة من الشهر المذكور ، فأقام بها ثمانية
أيام ، وولّى فيها والياً ، وخرج إلى ريدة وأقام أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر
حتى توفاه الله حميداً وقبضه إليه سعيداً .

وقد أورد (صاحب الحقائق) كتاباً للإمام أبي هاشم أرسله من ناعط
إلى صعده سنة ٤١٨ ، وهو كتاب دعوته ضمنه كثيراً من المسائل الدينية
والسياسية والإدارية ، تناول فيه واجبات الخليفة ، ثم القضاة ، وكيف يجب
أن يكون سلوكهم ، وعلى أي أسلوب يقضون فيما اشبه عليهم من الحوادث
الاجتماعية التي لا دليل عليها ، ثم بين واجبات القواد وأمراء الجيوش ،
وآدابهم الدينية والسياسية ، وكيف يلزم أن يعود الأمراء والقائدات أنفسهم وجيشه
في الحرب والسلم ، وغير ذلك والكتاب طويل جداً ذكر فيه جميع طبقات
الأمّة ، وأشار إلى سياسة كل طبقة وإداراتها ، أوردته بكماله الفقيه حميد
الشهيد في حقائقه الوردية^(٢) فليرجع إليه من شاء .

ولم تزل الحروب والفتن بين ابن أبي حاشد وابن أبي الفتوح مستمرة
وصنعاء خالية عن السلطة إلى سنة ٤٣٦ .

الإمام أبو الفتح الديلمي

فيها وصل الإمام الناصر لدين الله أبو الفتح الحسن بن ناصر بن

(١) الحقائق الوردية ج ٢ ص ٩٠ .

(٢) انظر في صفحة ٩١ من الكتاب المذكور .

محمد بن عيسى بن محمد بن عبدالله بن احمد بن عبدالله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام ، من بلاد الديلم إلى اليمن ، فجمع العساكر ، ودخل صعدة ، فنهبها وأخرب دوراً بها ، وقتل من خولان بمعجز مقتلة عظيمة ورجع في ذي القعدة فدخل صنعاء واستعمل عليها رجل من ولد الزيدى وكان قد دخلها قبله ابن أبي الفتوح وابن أبي حاشد فنصرته الشيعة على السنة ، وانتقل الإمام إلى ذيبين فأقام فيه بقية هذه السنة ، وهو أول من اختط ظفار .

ودخلت سنة ٤٣٨ فيها خرج الإمام من ذيبين إلى حذان أسفل وادي السر ، ثم سار إلى علب ، واستقام له الأمر ، ووصل ابن أبي الفتوح ، وعمر له في علب قصرأ بالجص والأجر واستقر فيه ، وكتب له ابن أبي الفتوح إلى عنس فأقبل من رؤوسائهم مائة فارس فدخلوا في طاعة الإمام وبايعوه واستدعى له جعفر ابن الامام القاسم ، وجعله أمير الأمراء ، وصرف له ربع ما حصل للإمام ، ثم فسد الأمر بينهما ولم يتم ، وتمالاً جعفر بن الإمام وابن أبي حاشد على حرب الإمام أبي الفتوح ، وخرج من صنعاء فأمر الإمام بخراب دور بني الحارث ، ودور بني مروان فغضب ابن أبي الفتوح وابن أبي حاشد لذلك ، ودخلا صنعاء فرفعوا أيدي ولاية الإمام ، وطردها الشيعة من الجامع ومكنا منه أهل السنة وقطعا لاسم الإمام من الخطبة فخرج الإمام من علب إلى الجوف ، ثم رجع إلى بلاد عنس ، ووصل الأمير جعفر صنعاء ، فأقاموا فيها مدة ، وتوفي السلطان يحيى بن أبي حاشد أول سنة ٤٤٠ ، ووصل المنصور بن أبي الفتوح في مائة فارس معزياً فيه إلى همدان ، فأقام الناس ابنه أبا حاشد ، وحلفت له همدان ، هكذا رواية الخزرجي^(١) وصاحب أنباء الزمن^(٢) والديبع في قره^(٣)

(١) المسجد ٥٤ .

(٢) غاية الأمانى ٢٤٦ .

(٣) قره العيون ٢٤١ .

العيون والشرقي في لآلية لهذه سلسلة الحوادث والله أعلم .

قيام علي بن محمد الصليحي وأخباره

قال الخزرجي : أجمع علماء التاريخ ورواة الأخبار من أهل اليمن أن القاضي محمد الصليحي ، والد الأمير علي بن محمد الصليحي كان فقيهاً عالماً سني المذهب وكان قاضياً في بلده حسن السيرة مرضي الطريقة ، وكان أهله وجماعته يطيعونه ولا يخرجون عن أمره ، وكان الداعي عامر بن عبدالله الزواحي يلوذ به ، ويركن إليه كثيراً لرياسته وسؤدده ، وصلاحه وعلمه فرأى يوماً ولده علياً فلاحته له فيه فحائل النجاة وكان يومئذ دون البلوغ ، فكان الداعي عامر بن عبدالله الزواحي كل ما وصل إلى القاضي يتحدث مع ولده علي المذكور ، ويخلو به ويطلعه على ما عنده حتى استماله وغرس في قلبه ما غرس من علومه وأدبه ومحبة مذهب ، وقيل بل رأى حلية الصليحي في كتاب الصور وهو من الكتب القديمة فأوقفه على ما فيه سرّاً ، فلما حضرت الداعي الوفاة أوصى بجميع كتبه ، وما جمعه من أموال الدعاية لعلي بن محمد الصليحي فعكف على دراسة تلك الكتب ، وكان ذكياً فلم يبلغ الحلم حتى تضلع في معارفه التي بلغ فيها ، وكان فقيهاً في مذهب الإمامية ، ثم صار يحج بالناس دليلاً على طريق السراة ، ولم يزل كذلك نحواً من خمس عشرة سنة ، وكان الناس يقولون له : بلغنا إنك ستملك اليمن بأسره ، فينكر ذلك على من يقوله مع كونه قد اشتهر على السنة الخاصة والعامة ، فلما كان في سنة ٤٢٩ هـ ثار الصليحي في رأس جبل مسار ومعه ستون رجلاً قد حالفهم على الموت أو الظفر ، وأخذ في البناء في قلته^(١) من بعد طلوع الشمس ذلك اليوم ، فاجتمعت قبائل حراز واستنكروا فعله ، وحاولوا منعه والضرب على يده ، فقدر بكمال دربه وحنكته على استمالتهم وصرفهم عما كانوا متجهين

(١) رأس الجبل .

إليه ، وانصرفت تلك القبائل ، ولم يمض عليه شهراً إلا وقد بناء وحَصَّنه ، وجعل امره يظهر شيئاً فشيئاً حتى استفحل امره ووصلته الشيعة من أنحاء اليمن وجمعوا له أموالاً جليلة ، وأظهر الدعوة للمتصبر بالله معد بن الظاهر العبيدي ، فلما ظهر بمسار ، وكان معه فيه من سَنَحان وِيام وجشم وغيرهم ، نهض لحربه أحد رؤساء حراز جعفر بن العباس شافعي المذهب ، وكان مجاباً في مغارب اليمن ، وجعفر بن الإمام القاسم جمعوا القبائل وقصدوه ، فلم يجد الصليحي بدءاً من المقاومة والدِّفاع وأوقع جعفر بن العباس في محبطته فقتله في شعبان من السنة ، وقتل من أصحابه جمعاً كثيراً ، فتفرَّق الناس عنه ، ثم طلع جبل حضور فاستفتحته ، وأخذ حصن يناع فجمع له ابن أبي حاشد جمعاً فالتقوا بصوف وهي قرية من حضور بني شهاب ، فقتل ابن أبي حاشد ، وقتل معه ألف رجل من أصحابه ، وبهذه الواقعة يضرب المثل في اليمن ، ثم سار الصليحي إلى صنعاء فملكها وطوى اليمن طياً ، سهله ووعره وبره وبحره ، وهذا شيء لم يعهد مثله في جاهلية ولا اسلام هذه رواية الخزرجي بالفظه تقريباً^(١) ، وقد اعتبر قيام الصليحي سنة ٤٢٩ وهو يخالف ما في كتابه في غير هذا الموضع فراجع ما نقلناه عنه في حوادث سنة ٤٢٩ وما بعدها إلى سنة ٤٤٠ تجد صنعاء وما جاورها تختلف عليها الولاة والمتغلبين وقد تخلوا عن السلطة البتة ، ونقل الديبع في قرة العيون^(٢) ، خبر ظهور الصليحي على الأسلوب المتقدم نقلاً عن الخزرجي إلا أنه قال فلما كانت سنة ٤٣٩ ثار في رأس جبل مسار ومعه ستون رجلاً الخ ولا ندري هل اختلاف التاريخ بين ما في تاريخ الخزرجي وبين ما في قرة العيون من نصحيف الكاتب في الأم التي نقلنا عنها أم هو الأصل ، وما أكثر التصحيف

(١) تصرفنا بعض تصرف مع المحافظة على معنى الأصل لعدم وضوح بعض الكلمات في النسخة التي نستقي منها ابحاثنا (ص) .

(٢) قرة العيون ج ١ ص ٢٤٤ .

والتحريف بل المسخ في المصادر التي استقيننا منها أخبار هذا القسم ولعمري ان تفهم القلم المسماري وحل رموز المسند أقرب إلى الفهم من تحريف النسخ وسوء فهم الماسخ لتلك الأسفار وفي انباء الزمن^(١) ما لفظه : ودخلت سنة ٤٣٩ فيها ثار علي بن محمد الصليحي في مسار من أعمال حراز ، فملك اليمن جميعه من مكة إلى عدن في أقرب زمن وسيرته مشهورة وأخباره مذكورة انتهى .

وفي اللآلئ المضيئة نقلاً عن مسلم اللحجي قال : ولما حضرت الوفاة سليمان^(٢) بن عبدالله الزواحي ، سلم أمر الدعوة (البيدية) إلى علي بن محمد الصليحي فوثب ، على قلعة مسار فأخذها ، ثم فتح حصون اليمن وقلاعها ومدنها ومخاليقها ، وقتل رجالها ، واسر ملوكها ولما انتهى هو ومن سبق إلى نصرته من همدان الحجاز وجنب^(٣) وسنحان^(٤) ونهد^(٥) ، إلى أعلى جبل حضور^(٦) ، وكان ملك صنعاء وأعمالها إلى همدان البون ورئيسهم ابو حاشد^(٧) بن يحيى بن أبي حاشد بن الضحياك ، وأنهم حشدوا في لقائه حتى اجتمعوا بسهمان^(٨) فهموا بالتقدم إليه إلى الجبل ، أو بعض المواضع منه نحو قاع بيت حدد فقال لهم رجل من الحماديين يقال له حتروش ، وكان من أشراق همدان لا أراكم أن تفارقوا مواضعكم ، وإن هبط اليكم القوم اخذتهم

(١) غاية الأمان ص ٢٤٧ .

(٢) سبق عن الخزرجي ان هذا الداعية العبيدي اسمه عامر (ص) .

(٣) جنب : من قبائل مذحج وهم ولد يزيد بن حرب مواطنها هران ذمار وغيرها .

(٤) قبيلة مشهورة ممتدة من قاع صنعاء إلى ما عاود حولان العالية .

(٥) قبيلة من قضاة معروفة .

(٦) حضور : جبل شامخ غربي صنعاء لمسافة ١٨ ك . م

(٧) هذا يؤيد ان ظهور الصليحي حوالي سنة ٤٤٠ فان وفاة السلطان يحيى بن أبي حاشد وقيام ولده

ابو حاشد هذا كان سنة ٤٠ كما تقدم .

(٨) سهمان : قاع بالغرب من صنعاء .

الخييل في هذا القاع ، وان وقفوا كتم اصبر فأبوا إلا التقدم ، فلما صاروا بوادي صوف ، اغتتم الصليحي وأصحابه الفرصة في ذلك فقتلهم هنالك ، وذكروا ان عدة من قتل منهم ألف قتيل منهم سلطانهم ابو حاشد بن يحيى ، وكان حتروش حين تقدموا تأخر هو إلى صنعاء فأمنه الصليحي وأكرمه واتخذته جليساً ، وكانت قبائل اليمن ذلك الزمان كثيرة العد والعدد والخييل والسلاح .

قال مسلم اللحجي : أخبرني مسعود قال أدركت همدان قبل خروج علي بن محمد الصليحي ودعوته وهم ألف فارس في صنعاء والبون وأعمالهما غير وادعة وبكيل ويام وحجور ، وأدركت عنساً وهم ألف فارس أيضاً وبني الحارث بالرحبة وهم خمسمائة فارس ، والأبناء وفيهم ثلاثمائة فارس أو قال خمسمائة أو نحو ذلك ، وقال : وكان ابن الأشجب ، أو قال : الأشجب ملك مسور ولاعة ، وهو من آل المتتاب يأخذ الآتاوة من ملك تهامة كل عام ، فاذا حال الحال بعث لرؤساء همدان من يأتيه بهم ، إلى بيت الحراني بناحية مسور ، ثم كتب إلى ملك زبيد ان همدان وحمير قد أتوا لجوائزهم ، فإن اتهم وإلا اتوك فيبعث إليهم الأموال ، فيعطيهـم منها ويكسوهـم فينصرفون ، فلما ملكهم الصليحي ، أذل عزهم وقتل شرارهم ، وأشرافهم ، وأوطأ نخوتهم ، وأخذ الأنفس والأموال واستعبد الذرية والأطفال انتهى^(١) .

وفي سيرة الأمير ذي الشرفين لكاتبها مفرج بن أحمد^(٢) قال : لما كان في

(١) لم نجد ما يؤيد رواية مسلم هذه بل الحال كانت على العكس فإن أحوال بلاد الجبال كانت مضطربة حتى كان نفوذ أمراء الحبشة يتغلغل في صميمها كما أشرنا إليه في حوادث سنة ٤٢٠ وما بعدها ، ولم نقف على اسم الأشجب هذا فرضاً عن عظمته المزعومة التي استطاع بها أن يهيمن على همدان وحمير ويضرب الآتاوة على ملوك زبيد ومن العجائب ان هذا المؤرخ عاش حوالي القرن الخامس وكان من السهل عليه تمحيص الأخبار وتحقيقها ولا سيما فيما يتعلق بالزمن القريب منه .

(٢) هو مفرج بن أحمد الربيعي من علماء القرن الخامس له سيرة الأمير ذي الشرفين منها نسخة خطية بجامع صنعاء .

غيبة إمام العصر ، وصاحب الدّهر المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بقي
النّاس في فتن وزلازل وظلمة ومحن في سنة ٤٠٤ إلى سنة ٤٣٧ ، وفيها
خرج عدوّ الله علي بن محمد الصليحي متوجّهاً إلى الحرم ودعا إلى مذهب
الإسماعيلية بالحجاز وسلك نجداً في مبتداه وتهامة في منتهاه ، وأجابه إلى
ذلك طوائف من حراز وغيره ، وطلع في رأس الحول من قابل إلى جبل
مسار ، وذكر خبر اجتماع قبائل حراز واستنكارهم ، ثم إقناعهم وقيام قبائل
المغرب تحت رئاسة جعفر بن العباس لحرب الصليحي وانهزامهم ، ثم أورد
ما خلاصته : ان الرؤساء من همدان وحدير والاحبوب والمغرب اجتمعوا في
بيت معدى كرب ، وحضر معهم الأمير جعفر بن الإمام القاسم وولده عبدالله
جعفر وانتدبوا الثاني لقتال الصليحي واختاروا ان تكون الحيمة ميدان حربهم
وكفاحهم ، وكان في المحارم من عزلة الحذب ، ولما ألتقى الجمعان ،
وتنازل الفريقان كتب النصر للصليحي وخذلت القبائل ، وسقط الأمير
عبد الله بن جعفر أسيراً في أيدي القوم . وحمل إلى مسار ثم من عليه
الصليحي بعد أن استخلفه وأكد عليه المواثيق ألا يعود إلى الخروج عليه ، ثم
اجتمعت القبائل والرؤساء مرة ثانية وقرّروا عليهم على إرسال حملة أخرى تحت
رياسة الأمير جعفر بن القاسم ، فنهض الأمير إلى صيد البراد ، وهناك التقى
الجمعان فانهزم أصحاب الأمير جعفر بعد قتل مستمر ووقع الأمير أسيراً في
أيدي القوم فنقلوه إلى مسار ، ثم أن الصليحي أطلعه وخلّى شأنه بعد أن واثقه
على ان لا ينصب له حرباً ، ولا يقاتل له حزباً^(١)

ودخلت سنة ٤٤١ فيها هاجت ريح شديدة في شبام حمير فاقتلعت شجر
البرقوق واحتملت الكلاب حتى سمع نباحها في الجو ، وهدمت دوراً ومساجد
فسبحان القادر .

(١) راجع سيرة ذي الشرفين وهو يخالف ما سبق عمله الخزرجي وما في أنباء الزمن من ان الأمير
جعفر اشترك في المعركة التي كانت بين الصليحي وجعفر بن العباس فتأمل (ص) .

ودخلت سنة ٤٤٤ فيها سار الإمام أبو الفتح إلى عنس فقصده الصليحي ، فقتله في نيف وسبعين نفراً من أصحابه في نجد الحاج^(١) ودفنوا جميعاً في محل واحد برومان في بلد عنس وقبورهم هنالك مشهورة رحمهم الله^(٢) قال في أنباء الزمن بعد هذه الحادثة :

ودخلت سنة ٤٤٥ إلى سنة ٤٤٨ لم يتفق فيهن ما ينبغي ذكره .

فلنرجع إلى سيرة ذي الشرفين ، ودخلت سنة ٤٤٤ فيها طلع الصليحي إلى يناع ، وأوقع بالأحبوب وأهل الجبل في يناعة^(٣) وظافره أبو الحسين بن مهلهل بن جناح وصعد إلى بيت خولان وطارت الأنباء بهذه الحوادث ، فارتاع لها الناس ، وفزعت حمير وهمدان وخولان ، وبني الحارث إلى الرئيس حاشد بن يحيى ، وأجمع رأيهم على الصمود إلى البقاع التي احتلها الصليحي لإنقاذها والضرب على يده فهرعت جموع كثيرة تحت قيادة أبي حاشد بن يحيى وفي قرية يازل^(٤) التقى الفريقان ، ودارت بينهما معركة من أحمى المعارك وطيساً ، سقط فيها أبو حاشد بن يحيى قتيلاً وقتل غيره من رؤساء القبائل وسلاطينها وباء العسكر الصليحي بالغنائم الوفيرة ، من خيل وسلاح وعدد ورماح ، وبهذه الحادثة التي قضى فيها على كثير من رؤساء القبائل والعشائر التي لا يستهان بها وبشجاعتها ، طار ذكر الصليحي واستفحل أمره ، ووجفت فرقاً منه القلوب واستكانت له كثير من الرؤوس ، ووافته الأمور ، وانقاد له الحرون ، وتعبدت أمامه طرق القلب والإستيلاء ، ونهض إلى تهامة ليفتحها ، لما كان يخافه من آل نجاح واهتبالهم الغرة في اثناء حروبه مع قبائل المشرق فينقضوا على حراز مبعث دعوته ، ومنبع قوته ، فتم

(١) نجد الجاح بالعرب من رداع ولا يزال مشهده قائماً إلى الآن .

(٢) أنباء الزمن وسيأتي خلافة .

(٣) يناعه بلد وواد من ناحية خارف قضاء خمر

(٤) من قرى بني مطر في عزله بني سوار على الطريق الغربية لصنعاء .

له فتح تهامة^(١) وبعد تلك الحادثة التي أمضت قلوب كثير من القبائل دبر
الناس الحيلة ، وتشاوروا ، وأجمعوا على مناجزة الصليحي ومقاومته ، وفي
مقدمتهم الشريف الفاضل القاسم بن جعفر والإمام حمزة بن أبي هاشم ،
وتحمس الناس واستعدوا ، واتصلت الأنباء بالصليحي فكتب إلى الشريف
القاسم كتاباً يقول فيه : أما بعد فإن الله لو أراد للنملة صلاحاً لما جعل لها
جناحاً ، وأفاض في الوعيد والتهديد ، وذيله بأبيات منها :

هذا اليقين وخيل الحق مقبلة تحث في نفعها جرى السراحين^(٢)
هناك لا تنفع الرسى^(٣) ندامته وعض إبهامه في الوقت والحين
فيال همدان لا يفرركم طمع الى الغرور حبال الشياطين

الخ . .

فأجاب عليه الشريف الفاضل بكلام طويل منه : وقفنا على كتاب رجل
قد طما في بحر الغرور وعلا في أسفل الأمور ، يخطب العشوى في تجبره ،
ويمشي الخيلاً بتكبره ، إلى أن قال : فلا يغره يازل وما قتل فيه من فارس
وراجل ، فأنها أمنية خدعتهم ، وعددهم فاجأهم ، فلو تاهبوا لقتاله ، وأخذه
ونزاله ، لضاق به الفجاج ، وكثر منه الإرتجاج ، وهم الآن قد أصلحوا
السلاح ، وثقفوا الرماح واثقين بإزالة الدولة عنه للبراهين التي قد لاحت ،
وللأمور التي قد أتى وقتها وفاحت ، لما أتى في محكم التنزيل ، وفُسر
أمير المؤمنين ، فالأمر صائر إلى أربابه حقاً ، والفرع عائد إلى نصابه صدقاً ،
وكتب أبياتاً يقول فيها :

هذي اليقين واللاي عز الديني ليس الوعيد ولا الارجاف يثيني

(١) سيأتي أن فتح تهامة إنما تم بعد قتل الأمير نجاح بالسم الذي دسّه إليه الصليحي سنة ٤٥٢ كما
سيأتي (ص) .

(٢) جمع سرحان : وهو الذئب .

(٣) يعني به القاسم بن جعفر الغياتي .

عزمي وثيق وقلبي مرتعب إذا ألم نواميس الدهاقين^(١)
لا بد من وقعة مني تظل بها اشلاؤكم فرقا بين السراحين
ومنها :

وان همدان لا تغضي على قذا ولا تلاقبه إلا في الميادين
بكل أجر وسباح وسابحة على مناكبها شم العرانيين

عزم الشريف الفاضل الى صعدة وطلوع الصليحي من تهامة

لم يهمل الشريف الفاضل فرصة غياب الصليحي عن البلاد واشتغاله
بتهمة فأخذ يهدم الحصون التي بناها علي بن محمد في بني الحذيفي في
الحيمة وفي البون وغيرها ، وأصبح يولي الولاية ويطوف في النواحي التي هي
فارغة ، ثم انه قصد صعدة ، وطلع الصليحي من زبيد إلى صنعاء ولما شاعت
الأخبار بطلوع الصليحي صنعاء رجع الشريف الفاضل من صعدة إلى البون
ولقيه هزيم أهل صنعاء في البون ، وعرف ان أكثر الناس الذين كانوا يحضونه
منضمين إلى حزبه قد تخلوا عنه واستمالهم الصليحي بالمال ثم انه حض
الناس على الخروج لحرب الصليحي ، فخرج معه خمسمائة نفر أمر عليهم أخاه
الحسين بن جعفر وابن عمه عيسى ، وساروا إلى صنعاء ، ولما قرب تفرق
أصحاب الحسن وبقي في نفر قليل وتقدم الصليحي الى بيت خولان ثم تقدم
إلى صنعاء فدخلها ليومين خاليين من ذي القعدة سنة ٤٤٧ وكان الشريف ،
قد خرج عنها في نفر قليل ، وفيها سار الشريف الفاضل الى بلد بني صريم
ووصلت خيل الصليحي الى عجب .

ودخلت سنة ٤٤٨ في المحرم منها تفرقت رؤساء همدان منهم
سلامة بن الضحاك وعلي بن ذعقان وغيرهما من الرؤساء في بني صريم وبني
الدعام وجمعوا العساكر من حاشد ويكيل ، واستنهضوا الشريف الفاضل ،

(١) جمع دهقان : زعيم فلاحى المعجم .

فلم يجد بداً من النهوض معهم ، وهو كاره لذلك ، وتحكموا عليه في الحركة والسكون وأصبح معهم لا يبدي^(١) ولا يعيد ، ولقد سأل سائل في تلك المدة أتقصر الصلاة أم تتم ، فقال : سل على ذعفان دلالة على أنه لا يملك راة في الحل والترحال وأنه طوع رأي غيره من الرؤساء ، وتقدمت رؤساء همدان بمن معها إلى حاز من همدان وزحفت جيوش الصليحي إلى قراتل بجوار حاز ، ولما ألتقى الجمعان ، ولّت همدان ومن معها من القبائل مدبرة وتفرقوا أيدي سباً ، وكان الشريف الفاضل قال لهم : اغزوا بنا القوم إلى موضعهم فلم يسعدوه ، ثم قال لهم : أتبعوني الخيل إلى صنعاء فلم يتبعوه ، فلما حقت عليهم الهزيمة ، وطاروا شعاعاً ، ثبت الشريف الفاضل في خمسة نفر من أصحابه ، فأبلوا بلاء حسناً ، وفي هذه الواقعة قتل علي بن ذعفان ، وقيس بن وهيب وجماعة من وجوه الناس .

الهراية وما كان بها من الأحداث

بعد الفشل الذي منيت به القبائل ، والهزيمة التي فرقتهم أيدي سباً في الواقعة المتقدمة انتقل الشريف الفاضل ومن رافقه من آلِه وشيعته ، مثل جشم بن عبد الأعلى بن الدعام ، والربيع بن الروية ، وذعفان بن ذعفان ، وعباد بن شهاب صاحب الهجر بالأحجوب وغيرهم ممن يؤثرون هجران أوطانهم ومنازلهم على الرضوخ والاستسلام للصليحي ، واتفق رأيهم على اتخاذ الهراية^(٢) معقلاً لهم ، فاجتمع بهذا الموضع نحو ألفي مقاتل ، ومعهم نساءهم وأولادهم ، ولما اتصل بالصليحي ما فعله الشريف الفاضل وشيعته ، أخذ يرسل الكتائب والслаهب^(٣) ويرمي الهراية بالقبائل والقنابل^(٤) وأحاط بها

(١) راجع السيرة واللائلء المضيفة .

(٢) الهراية حصن في ناحية بلاد وادعة في الظاهر بنواحي حوث (ص) .

(٣) جمع سلهب الخيل الطويل على وجه الأرض .

(٤) القنابل : الطائفة من الناس والخيل .

من كل جوانبها ، وضيق الحصار عليها سبعين يوماً جمادى الأول والآخره
وعشراً من رجب سنة ٤٤٨ ، ونصب المجانيق والعرادات وعظم الحشد إلى
تلك البقعة ، حتى كان يخيل للسامع أن الأرض ترتج وتضطرب ، عند ضرب
الجبابب والطبول ، ونفخ النفاطات^(١) والأبواق ، فثبت أصحاب الفاضل ثباتاً
يدهش اللب ، وبرهنوا على بسالة وصبر قل أن يتحملها إنسان مهما بلغت
حماسته ، وعاهدوا الشريف الفاضل على الموت ، وواثقوه على أن لا يخرج
من الباب احد أو يهلك دون ذلك ، كلا هذا ومورد الماء بعيد عنهم ، وليس
معهم منه إلا ما كانوا قد احتجنوه واحرزوه ، ولطول المدة نفذ ما معهم من
الماء وبلغ الحال إلى أن تقاسموا الماء بالعطبة^(٢) ، وطلب رجل شربة ماء
على أن يبذل فيها ما يملك ، وكان ما له لا يقل عن ألف دينار ، فلم يجد ،
وبذلت امرأة مائة وعشرين ديناراً عوض شربة ماء فلم تجد ذلك ، وكانوا
يضعون الدروع الحديدية على صدورهم يتلذذون ببرد الحديد ، وماتت
البهائم والخيول من العطش ، حتى امتلأت حيطان الهراة بجثثها المنتنة ، وقد
كانت السماء تمطر في آفات متباعدة فيتهاقون على الماء يغترفونه ، من بين
جثث الموتى ، وجيف الحيوانات ، وربما شربوا على الماء بعد يومين أو ثلاثة
في الحفر التي قد امتلأت بالأشلاء المنتنة ونحوها ، فيأخذون ما يظفرون ،
وقد امتزج بالصدید ، وأصبح أسود كأنه القطران ، فيعمدون إلى طبخه بالنار
ثم إلقاء التراب الأبيض عليه ليغير من لونه ، ثم يسدّون أنوفهم ويشربون فلا
يكاد يمر من الحلق حتى يتقايه الشارب ويكاد يهلك وربما هلك .

هذا كله والماء غير ممنوع عنهم ، ولا يصدهم صناد عن وروده والأمان
سائد لمن يريد الورد ، ولكن العهد والميثاق الغليظ حال بينهم وبين الخروج
من الأبواب وتعيديها ، وقد هلك النساء والصبيان والبهائم في سبيل المحافظة

(١) أداة من النحاس يرمى بها النفط .

(٢) العطبة : القطعة الصغيرة من القطن .

على العهد والوفاء به ، وفي هذه المدة وعلى هذا الحال والجيش الصليحي محيط بهم يجرمونهم بالحجارة ، ويرشونهم بالنبل ، ويضايقون عليهم أماكنهم ومواضع مرورهم ، لأن الهاربة موضع مطمئن من الأرض، تحيط به آكام وجبال شاهقة ، فهدمت أكثر حصون الهاربة ، وتعبد أكثر الناس من هذه الشدة والمغامرة ، فخرجوا وخلفوا الشريف ، ونحو مائة فمّن لم تطب نفوسهم بخسران الأجر والثواب ، فآثروا ما هنالك وصبروا حتى داهمتهم الجنود الصليحي وحملت عليهم حملة واحدة وتبادلوا مع من بقي القتال ساعة من النهار ، وخرج الشريف عيسى بن عياش إلى الصليحي ، فأكرمه وكساه ، وأعطاه الأمان له ولأهل الحصن ، وعاد إلى الشريف الفاضل ، وعرض عليه ما وصل به من الصليحي ، فلم يقبل الفاضل ، ثم أنه عرض الأمر على أهله وخواص شيعته ، وبعد أخذ ورد أجمع رأيهم على خروج الشريف الفاضل بنفسه إلى الصليحي ، فخرج الفاضل ، ولما قرب من مضرب الصليحي نهض لاستقباله ماشياً وأكرمه وعظّمه ، وكان الشريف الفاضل ، قد أرسل الشريف عيسى بن عياش إلى مكة للاستنجاد بالشريف شكر ابن أبي الفتوح الحسنى ، وبني حسن فلم ينجده ، فعنفه الصليحي على ذلك ، وأمر يقبض ما في دار الشريف الفاضل من سلاح ، وأطلق له منها عشرة أدرع وعشرة أسياف ، وأطلق بجميع أصحابه سلاحهم ، وما يقدر الواحد أن يحمل هو وحريمه ، وكانت الجنود قد تهافتت على الحصن ، فهرع الصليحي بنفسه لصونهم ، وأخذ يذود كل من يحاول الفساد، وأرسل البغال فأخرجت النساء والأطفال على أجمل هيئة وإلى هذه الحادثة أشار صاحب البسامة بقوله :

وفي الهاربة أيام لفاضلنا وصنوه ذي المعالي خير متتصر
حطّ الصليحي حوليها بعسكره سبعين يوماً وما فيها سوى قطر

ثم ان الفاضل سَير بالحرم والذرية صنوه ذا الشرفين إلى الحصن ، وأمر الصليحي بهدم الهاربة ، ولما راعه من صبر أولئك الرجال حكى عنه أنه

قال : (لو كان لي مثل رجال الهراة لدخلت بهم العراق) وقد تسامح مع رجال الهراة ، فلم يجبر على أحد منهم سوء ما عدا الشريف الفاضل فإنه حملة معه إلى صنعاء وجعله في دار خاصة فضيق عليه الموكل بحفظه في كل شيء حتى في القوت ، فلما بلغ الصليحي ذلك نقله داراً أخرى ، وأمر بالترفيه عليه وعدم مضايقته ونُحِص له بغلة لركوبه في المراسم الحافلة والأعياد .

عزم الصليحي الى جنوب اليمن ومحاربة آل الكرندي

ودخلت سنة ٤٥٠ في المحرم منها عزم الصليحي لحرب يعفر بن احمد الكرندي ومنازلته بحصن السوا^(١) وكان لبني الكرندي مخلاف المعافر ومخلاف التعكر ونواحيها ، وآل الكرندي يرجع نسبهم إلى ابيض بن جمال الذي أقطعه النبي صلى الله وسلم عليه وعلى آله ، جبل الملح ، وقد تقدم ذكر الأبيض بن جمال في الكوائن أيام البعثة .

وقبل مغادرة الصليحي صنعاء جعل الخيرة للشريف الفاضل بين أن يقيم بدار تُعدله بصنعاء على الرّحّب والسّعة والإعزاز والإكرام ، وبين أن يلحق بأهله ، وبين أن يرافقه فأختار الثالث وسار معه في هذه السفرة والعناية^(٢) واللفظ يحفان به فأقام الصليحي تسعة أشهر في منازل الكرندي حتى تمكن من القضاء عليه ، ورجع في حافرتة^(٣) إلى صنعاء عاصمة ملكه ، واتفق أن جاء والد الشريف الفاضل ، وهو الشريف جعفر بن القاسم ساعياً في صرف ولده ، وتخليصه من اليد الصليحية ، فعرض له الم أودى بحياته ، وفارق الحياة بصنعاء ، في شهر ذي الحجة من السنة ، وكان رحمه الله يقول : أنا

(١) عزلة كبيرة من ناحية المواسط واعمال الحجرية .

(٢) هذه مستقاة من سيرة ذي الشرفين واللالىء المضيئة أيضاً (ص) .

(٣) يقال رجع في حافرتة : أي في طريقه التي جاء منها .

أكثر من أعطى عمراً من أهل بيتي أنا ابن خمس وثمانين سنة ٤٨٥ ثم تمثل بقول النابغة الذبياني (واني لأرجو فوق ذلك مظهرا)

فأمر له الصليحي بأكفان رفيعة ، وقطع من الكافون وخرج وأعيان دولته لتشيع جنازته ، وأمر بدفنه في مقابرهم بصنعاء ، ثم ان الصليحي حض الشريف الفاضل على زيارة اهله وقرابته ، وحشه على ذلك ليؤنسهم بعد ما لحقهم من وفاة والدهم ومعيهم الأكبر فلحق به بعد أن أجزل له الصلاة ، وأمر لجميع من تحت يده بالملابس الفاخرة والصلاة ، وعرض على الشريف قضاء حوائجه ، وأجرى له نفقة شهرية تجري على الدوام ، فأقام الشريف بأهله مدة مشغلا بالعبادة ، ثم أنه كتب للصليحي : نريد المدينة وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعزم نحو الحجاز ، وعاد إلى اليمن بعد قتل الصليحي ، كما سيأتي بيانه أن شاء .

وفي انباء الزمن ما لفظه : ودخلت سنة ٤٤٩ فيها سار الصليحي لقتال آل الكرندي ، وسار الفاضل صحبته حتى وصل زبيد^(١) ، ثم عزم على التوجه للحج فأذن له الصليحي ، وسار معه أخوه ذو الشرفين محمد بن جعفر في نفر قليل حتى أنتهيا إلى بلاد خثعم بعد مشقات شديدة ، وأهوال عديدة ، ولما استقرا في بلاد خثعم تزوجا فيها ، وأقاما مدة ، ثم طلق الفاضل زوجته ، وسار إلى مكة فمكث فيها سبع سنين ، ثم هم بالمسير إلى الكوفة فبلغه قتل علي بن محمد الصليحي في المهجم ، كما سيأتي ذكره ، ووردت عليه كتب من اليمن مخبرة بقيام حمزة بن أبي هاشم وان الوصول متحتم عليه لمناصرته فرجع إلى اليمن^(٢) .

(١) قد سبق نقلاً عن سيرة ذي الشرفين في حوادث سنة ٤٤٤ ان الصليحي غزا تهامة في ذلك التاريخ وهذا صاحب انباء الزمن يقول انه دخل زبيد في هذه السنة والخزرجي يقول انه طوى اليمن سهله ووعره إلى آخر ما نقلناه عنه في سنة ٤٢٩ وبعد كل ذلك سيأتي عنهم ما يخالف الرواية الأولى فتأمل (ص) .

(٢) انظر غاية الأمان ص ٣٥٢ .

ودخلت سنة ٤٥٠ لم يتفق فيها ولا في التي تليها ما يوجب الذكر .

ودخلت سنة ٤٥٢ فيها مات الأمير الحبشي نجاح مولى^(١) مرجان بمدينة الكدرا ، من الأعمال التهامية ، مسموماً سَمَهُ علي بن محمد الصليحي على يد جارية أهداها الصليحي إلى الحبشي ، وكان الصليحي بعد أن استولى على صنعاء ، وأخرج منها همدان وشرع نفوذه يمتد خاف من نجاح لعلمه بعجزه عن مقاومته ، وجعل يفكر في ذلك ، فدلّه تفكيره إلى الغدر وذبح الوجدان في سبيل المجد المزيف ، وجعل سبيل التنفيذ الجارية المهداة فانه زوّدها السّم ، وأمرها بقتل مولاهما الجديد . ولما بلغ الصليحي موت نجاح انقض على فريسته ، وبادر إلى زبيد فأزال بني نجاح عنها ، وهم سعيد وجياش ومعارك والذخيرة ومنصور ، وكان معارك أكبرهم فقتل نفسه وهرب سائر إخوته إلى جزيرة دهلك ، وكان منهم ما ستره قريباً .

ودخلت سنة ٤٥٣ فيها كسفت الشمس كسوفاً عظيماً حتى^(٢) ذهب جميع جرمها وأظلم النهار ، حتى ظهرت الكواكب وسقطت الطيور .

وفيهما كتب الصليحي إلى المستنصر العبيدي يستأذنه في إظهار^(٣) الدّعوة ووَجّه إليه بهديّة جليلة منها سبعون سيفاً قوائمها من عقيق فقبل المستنصر هديّته وجاد عليه بهذه الألقاب^(٤) الفخمة الملك السلطان الأجل الأوحّد ، سيف الإمام المظفر ، نظام المؤمنين علي بن محمد الصليحي ، وولّى أخا زوجته أسعد بن شهاب مدينة زبيد ، وامتد نفوذه إلى جزائر البحر الأحمر وأمر أخاه محمد بن علي بأختطاط مدينة النهر ذي جبلة قال الخزرجي :^(٥) ولما

(١) الخزرجي وقرة العيون وأنباء الزمن (ص) .

(٢) انباء الزمن (ص) .

(٣) الخزرجي وقرة العيون (ص) .

(٤) نزّهة الأخبار للداعي ادريس (ص) .

(٥) المسجد المسبوك ص ٥٧ .

وصل له الأذى (من إمامه المستنصر بنشر الدعوة) وقد توفي نجاح في التاريخ المذكور آنفاً سار الصليحي إلى التهائم فأفتتحها ولم تخرج سنة ٤٥٥ ، إلا وقد استولى على كافة قطر اليمن من مكة إلى حضرموت سهله وجبله ، وتمنعت عليه صعدة بعض التمتع بأولاد الناصر ، ثم قتل القائم فيهم وملكها ، واستقر ملكه في صنعاء وأخذ معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه واختط في صنعاء عدة قصور ، وحلف ان لا يولي تهامة إلا من حمل له مائة ألف دينار ، ثم ندم على يمنة وأراد أن يوليها صهره ، سعد بن شهاب صنو أسماء بنت شهاب والدة المكرم فحملت أسماء عن أخيها المبلغ المذكور ، فقال لها الصليحي : يا مولاتنا أنا لك هذا ، قالت : هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فتبسم الصليحي ، وعرف انه من ماله وخزائنه ، فقبضه وقال : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فقالت أسماء : وغير اهلنا ونحفظ أخانا فولاه التهائم ، ودخل أسعد بن شهاب زبيد في سنة ٤٥٦ وأحسن السيرة في كافة الرعية ، وأذن لأهل السنة في إظهار مذهبهم ، فكان يحمل الى الصليحي بعد اخراج أرزاق الجند^(١) في كل سنة ألف ألف دينار ، وعامل الحبشة ، ومن يتهم بالدولة النجاشية بالإحسان والصفح ، حتى زرع محبته في قلوب الناس وفي أنباء الزمن . ودخلت سنة ٤٥٥ : فيها سار الصليحي مكة فانفق فيها نفقة عظيمة وحمل إليها الأقوات والأطعمة العظيمة ورفع منها رسوم الجور ، وظهر منه فعال جميلة ، ثم عاد إلى تهامة ، وفيها أولاد نجاح المقدم ذكرهم فتواري عنه سعيد الأحول في زبيد ، وخرج جيش ببقيتهم إلى جزرة وهلك ، وجرت له هنالك أمور يطول شرحها ، ولم تخرج هذه السنة ، حتى استولى الصليحي على اليمن سهله ووعره وبره وبحره إلا صعدة فإنها امتنعت عليه بعض الإمتناع بأولاد الناصر ، حتى قتل القائم منهم فاستقر ملكه

(١) الخزرجي وقررة العيون (ص) .

(٢) غاية الأمانى ص ٢٥٤ .

لليمن جميعه ، واتخذ صنعاء دار ملكه ، وعمر فيها عدّة قصور ، وجمع ملوك اليمن الذين أزال ملكهم على يديه وأسكنهم صنعاء ، واشتد ملكه وبلغت سراريه أربعمئة سرية ، وكانت سيرته فيما رجع لأمر الدين غير مرضية حكى مسلم اللحجي^(١) في تاريخه ما معناه : ان الصليحي لما استقر ملكه في صنعاء بلغه ان أهلها يجتمعون في المساجد ، ويتذكرون قبح سيرته ، وربما خاضوا في شيء من قبح عقيدته ، وأنه قد يعيد مذهب علي بن الفضل بصفته ، فشقّ عليه ذلك ، وتألّم منه كثيراً ، وأمسك أياماً ، ثم أمر بتسمير أبواب المساجد ومنع من دخولها ، قال مسلم : أخبرني القاضي ابن عبد السلام بن أبي يحيى^(٢) ، أن الصليحي لما أراد النهوض إلى مصر لزيارة العبيدي ، جعل أمواله وذخائره المعدة لسفره في المسجد الجامع واتخذ خزانة لذلك وملاه بالصناديق وسائر الأحمال فعاجله الله بالنقمة وقتل في سفره ذلك كما سيأتي .



ودخلت سنة ٤٥٨ فيها قام الحمزة بن أبي هاشم لمحاربة الصليحي في ثمانية آلاف راجل ، وخرج لقتاله عامر بن سليمان الزواحي في ألف وخمسمائة فارس وخمسة عشر ألف مقاتل ، فوقعت بينهم عدّة حروب قتل فيها خلق كثير ، وفي آخرها قتل الحمزة عليه السلام في موضع يعرف بالمنوى من بلاد الخشب وهو واد ضيق التجأ إليه الحمزة وأصحابه ، فأخذ عليهم الصليحي أعلا الوادي وأسفله ورموهم بالنبل والحجارة حتى أئخنوهم ، ووقف بين يدي الحمزة سبعون شيخاً من همدان يجالدون دونه حتى قتلوا عن آخرهم ، رحمه الله ، ولم تطل مدة الصليحي بعد قتل الحمزة عليه السلام ، ثم قتل في أواخر هذه السنة ، وقام بثأر الحمزة ولده علي والمحسن بن

(١) لا يزال النقل عن انباء الزمن .

(٢) في غاية الأمانى بزيادة احمد بن عبد السلام وهو اخو العامر جعفر بن عبد السلام .

الحسن بن أولاد الهادي عليه السلام ، فقتل عام الزواحي وولده يحيى في نواحي ثلا^(١)

مسير الصليحي للحج ومقتله

بعد أن تم الأمر للصليحي كما تقدم استقر بصنعاء إلى سنة ٤٥٩ كما أفاده الخزرجي^(٢) وقيل إلى سنة ٥٣ ذكره الجندي ، وقال في انباء الزمن : إلى سنة ٥٨ وقال الديع في كتابه بغية المستفيد^(٣) انه أقام بصنعاء إلى سنة ٤٧٣ ، وازمع على الحج فاستخلف على ملكه ابنه المكرم وسار في الفي فارس منهم من آل الصليحي مائة وستون رجلاً ، واستصحب معه من ملوك اليمن الذين أزال ملكهم ، وخاف من انتقاضهم على ولده خمسون ملكاً ، واستصحب معه أيضاً زوجته اسماء بنت شهاب ، وكان الصليحي قد استمد الأذن من إمامه بالزيارة له ، فحمل من الهدايا والتحف وآلات^(٤) ما لا يحصر ومساقي بين يديه خمسمائة فرس عليها سرج الفضة وخمسمائة هجين عليها ركب الفضة أيضاً ، ومعه خمسون دواة من ذهب وفضة ، وغير ذلك من النفائس ، ولما وصل ظاهر المهجم من تهامة في ضيعة تعرف بأمر معبد هاجمه الأمير الحبشي سعيد بن نجاح الأحول ، في سبعين من أصحابه ليس لهم سلاح غير جرد النخل على أطرافها المسامير فلم يشعر الناس ضحوة النهار إلا وقد قتل الصليحي ، وكان الذي باشر قتله سعيد بن نجاح الأحول بنفسه ،

(١) ثلا: مدينة أثرية تقوم بالسفح الشرقي من حصن ثلا وهي على بعد ٣٤ كم من صنعاء بالشمال الغربي .

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك ص ٥٨ .

(٣) غاية الأمان ص ٢٥٦ .

(٤) بغية المستفيد ص ٤٧ .

(٥) كذا في الأصل .

وقتل أيضاً أخو الصليحي الأمير عبدالله بن محمد وبعد قتل الصليحي تفرق جيشه واستولى الحبشي على خزائنه ، واسر عائلته وخشن في معاملة الصليحيين فقتل من وجد منهم رمية بالحرا ب وجعل رأس علي بن محمد على عود مظلته أمام هودج زوجته أسماء بنت شهاب وفي ذلك يقول شاعرهم العثماني^(١) :

بكرت مظلته عليه فلم ترج إلا على الملك الأجل سعيدها
ما كان أقبح رأسه في ظلها ما كان أجمل رأسه في عودها
سود الأراقم قابلت اسد الثرى وارحمنا لأسودها من سودها^(٢)

ولما دخل زبيد جعل أسماء في دار خاصة بها ، وأمر بنصب الرأسين قبالة طاق الدار التي هي فيه ، وأقامت تحت الأسر سنة كاملة وفي رواية^(٣) أخرى : ان الصليحي لما تأهب للحج واقبته الأخبار بأن الأحول سعيد بن نجاح أصبح يترقب الفرص للانتفاض والانتقام ، وانه قد أخذ في اطراف البلاد بالإفساد فأمر بإلقاء القبض عليه فاستتر واستخفى ، وكان قد دخل زبيد مستخفياً وخرج منها وسلك طريق التناجل ، فكتب أسعد بن شهاب عامل الصليحي على زبيد إلى الصليحي ، يعلمه بذلك فسير الصليحي من ركابه خمسة آلاف حربة في طلب الأحول وقتله ، قال الأحول نفسه : وأكثرهم من مماليكنا وأبناء مماليكنا ، فخالقناهم ، ولم نزل نجد في السير ليلاً ونهاراً ، إلى أن دخلن طرف المخيم ، والناس يظنون انا من جملة العسكر وحواشيه ، ولم يشعر بنا إلا عبدالله بن محمد الصليحي ، فلأنه ركب فرسه ، وقال

(١) هذا الشاعر قدم إلى اليمن من العراق واسمه احمد بن محمد العثماني من ولد عثمان بن عفان ومدح ملوك اليمن ، وكان فيه استهتار ورقه في دين انظر ترجمته في معيد عمارة ص ٢٧٨ ومطالع البدور (خ)

(٢) الأبيات في مفيد عمارة ص ٢٨٣ .

(٣) راجع عمارة والخزرجي ونزهة الأخيار .

لأخيه : يا مولانا اركب هذا والله الأحول بن نجاح ، والعدد الذي جاءنا به كتاب أسعد بن شهاب البارحة من زبيد ، فركب عبدالله بن محمد وكان علي بن محمد ، قد دخل موضع الخلا ، قال جيشاش : فكنت أول من طعنه ، وشركني فيه عبدُ للملك نجاح بطعنة أخرى ، وحزرت رأسه بيدي ، وكانت جنوده قد سبقته ، ولم يبق معه إلا طائفة من أغلمته ، وفي أبناء الزمن : أن عبدالله بن محمد الصليحي قال لأخيه : يا مولانا هذا والله الأحول سعيد بن نجاح فقال لهم إنني لا أموت إلا أمرت^(١) إلا بأَمّ الذهبيم بير أمّ معيد معتقداً أنها أم معبد الخزاعية التي نزل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما هاجر إلى المدينة المشرفة ، فقال له رجل من أصحابه : قاتل عن نفسك هذه والله بير أم معبد فلحقه زمع اليأس من الحياة ، وبال في أثوابه ، ولم يبرح من مكانه ، حتى قطع رأسه بسيفه إلى أن قال : واستولى ابن نجاح على خزائن الصليحي وذخائره وبخيله ورجله ، بعد أن ذهب في أيدي الناس منها ما ذهب ، واستغنى الفقير ، حتى لقد حكى أن رجلاً مرَّ بصندوق مملوءاً من الدنانير أسعد يد ، فرغب عنها ، وقال : أريدها حاشدية ، ثم التفت ليأخذها فلم يجدها ، والاسعدية ضربت أسعد ابن أبي يعفر^(٢) انتهى .

وفي الخزرجي^(٣) ما خلاصته أنه لما ظفر سعيد بآل الصليحي أشار عليه أخوه جيشاش أن يعفو عن قدر عليه من آل الصليحي وغيرهم من أبناء الملوك ، وأن يكتب إلى المكرم انا اخذنا بشارنا ، واسترجعنا ملكنا ، وقد احسنًا وتجميلنا إليك بصيانة والدتك ، والعفو عن بني عمك ، وقال له والله يا

(١) كذا في الأصل ولعله سهواً أو سبق قلم لأن المخطوط عبارة عن أصل المؤلف رحمه الله الذي بخطه .

(٢) انظر غاية الأمانى ص ٢٥٧ .

(٣) المسجد المسبوك ص ٥٨ .

مولانا لئن فعلت ذلك ، لانازعتك قحطان في ملك تهامة أبداً ، ولئن كرهت ذلك لتهيجن^(١) حفاظها ، ولتطلبن بئارها ، فإنهم أهل نفوس أبيّة ، وهمم عربية قال فأجابني بقول الشاعر :

لا تقطن ذنب الأفعى وتتركها ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا
ولم يبق ممن ظفر به من ملوك اليمن الذين كانوا مع الصليحي سوى
ثلاثة رجال ، وهم وائل بن عيسى صاحب أحاطة^(٢) ، وعلي بن معن صاحب
عدن ، وابن الكرندي صاحب المعافر^(٣) .

أحوال صنعاء بعد قتل الصليحي

ذكرنا ان الصليحي استخلف لما عزم للحج ولده المكرم علي صنعاء ،
فلما قتل وطارت الأنباء بالحادثة لم يجد المكرم بداً من إدراع الصبر والتشمير
للمحافظة على الملك ، وقد كانت أنباء هذه الحادثة مجرّية لكثير من القبائل
على الانتقاض ، كما أنها كانت من البواعث لظهور دعوة الإمام حمزة بن أبي
هاشم .

ظهور الإمام حمزة بن أبي هاشم عليه السلام

تقدّم رفع نسبه عند الكلام على الإمام أبي هاشم الحسن بن عبد
الرحمن ، وإلى الإمام حمزة بن أبي هاشم ، ينتهي نسب الأشراف الحمزات
باليمن .

قال في سيرة الأمير ذي الشرفين^(٤) ما خلاصته انه لما قتل الصليحي في

(١) في ارصل لتهيجين .

(٢) ويقال لها ايضاً وخاصة بلده في اعلا رأس جبل حبيش في عزلة شبع شمال إب .

(٣) المعافر ما يعرف الآن بالحجرية .

(٤) في الأصل ذي الشريفيين .

التاريخ المذكور ، اجتمعت القبائل من بكيل ووادة وتهم وغيرهم ، وباعوا الإمام حمزة بن أبي هاشم ، فأراد الإمام فتح صنعاء وقصدها في جيش عظيم فاستعد المكرم لمدافعته ، والتقى الفريقان بالمنوي من بلاد الحشب ، ودارت بينهما معركة شديدة ، ثبت فيها أصحاب الصليحي ، وانهزم جند الإمام ، وتفرقوا عنه ، وثبت في سبعين من شيوخ همدان فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً آخر سنة ٤٥٩ .

وفي اللآلئ المضيئة : وكانت لحمزة مع بني الصليحي ، وقعات مشهورة ، ولم يزل مجاهداً في سبيل الله فقصده صنعاء في جيش عرمرم ، فوصل إلى موضع في الحشب يقال له المنوي ، وكان المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي غائباً عنها ، فبلغ ذلك عامر بن سليمان الزواحي ، وهو أمير جيوشه ، وكان عامر بيريم ، فسار حتى دخل صنعاء ، وخرج قاصداً للمنوي ، فكانت بينهم معركة عظيمة فانهزم عن حمزة جنده وثبت عنده تسعون من شيوخ همدان ، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله آخر سنة ٤٥٩ تسع وخمسين وأربعمائة ، وفي انباء الزمان : ان قتل الإمام حمزة ووقعة المنوي كانت سنة ٤٥٨ ، قيل عزم علي بن محمد الصليحي للحج ، وانه هو الذي خرج لمحاربته كما تقدم ، وقد أشار إلى هذه الوقعة صاحب البسامة بقوله :

وحمزة روت المنوي له بدم وفرقت منه بين الرأس والقصر^(١)
سر الزواحي والأصارح^(٢) مصرعه وقد ثأرنا به منهم على الأثر
بعامر وبمنصور وأسرتهم فما التقى رايح منهم بمبتكر

والذي أخذ بثار الإمام حمزة هو الأمير المحسن الآتي ذكره قريباً قتل الزواحي وولده منصوراً ، وروى صاحب اللآلئ المضيئة من كرامات الإمام حمزة بن أبي هاشم عليه السلام ، انه لما دفن وأراد أولاده نقله ، حين

(١) العنق .

(٢) هم بنو الصليحي .

أمكتهم الفرصة حملوه وله نور ساطع ، وقبروه في بيت الجالد^(١) ، وهو مشهور مزور وروى له كرامات كثيرة .

رجوع الشريف الفاضل إلى اليمن

ذكرنا موت الأمير جعفر بن القاسم والد الفاضل ، وعزم الفاضل إلى أهله بعد موت والده وبعد أن أقام فيهم مدة رحل إلى الحجاز ، فأقام ، وأقام في بلاد خثعم مدة فلم تطب له الإقامة ، وسار إلى الحجاز فمكث به نحو سبع سنين ، قتل في نهايتها الصليحي ، واتصلت به أنباء قتله وكان قد ضاقت به الحال في الحجاز ، ولحقته حاجة حتى اضطر إلى والي المدينة ، وكان غائباً عنها فانتظر أويته فلم ينل منه ، ما يؤمل بعد أن أكثر ترداده إلى بابه ، ولما آيس منه كتب إليه :

إلى الله أشكو ما تردد قاسم إلى مخيط صبراتها فا^(٢) غلائله
أقمنا زماناً نرتجي فضل مخيط وهو غائب حتى اتتنا حمائله
فيا ليتنا بنا ولم نلق مخيطاً وغائله منا دون مصر غوائله
فصمم على العودة إلى اليمن ، ولما وصل وادعة الفرعين فرح به
الشيعه ، وقصوا عليه ما كان من أخيه محمد بن جعفر أثناء غيبته ، وانه ما زال
بيث الدعاية سراً بنشاط ، ورغوب إلى أن هلك الصليحي فأعلن السر المكتوم
ونهض الإمام حمزة بن أبي هاشم ، لمناداة المكرم ، ومعه الأمير محمد بن
جعفر ، وكتب إلى أخيه إلى الحجاز يستحثه الأوبة ، فلقية الكتاب في أطراف
اليمن ، وقد كان مآل الإمام حمزة بن أبي هاشم ثانياً له عن عزمه ، مطغياً
لجذوة حماسه ، وقد جاء من الحجاز بحماسة تلتهب ، ولكنه أعاد إلى ذاكرته
الأيام التي لقيها من القبائل ، وتخاذل الناس عنه في كثير من المواطن ،

(١) بيت الجالد : قرية من عزلة الحميس من بلاد أرحب .

(٢) كذا في الأصل .

فأصبح بقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، وواصل سيره إلى عيان في شهر ذو الحجة سنة ٤٦٠ ، وفيها ألقى عصا التسيار .

استنجد الحرّة أسماء ولدها المكرم ، وظهور الشريف الفاضل

ودخلت سنة ٤٦١ فيها احتالت الحرّة أسماء بنت شهاب بإرسال كتاب لولدها، ذكرت فيه أنها قد حملت من العبد الأسود ، وليس لذلك صحّة فلم يكن الأحول قد رآها قط ، وإنما أرادت استشارة حماسته وحماسة القبائل اليمنية بذلك ، هكذا نصّ عليه المؤرخون^(١) وجعلت الكتاب في رغيّف ، رمت به إلى رجل من أهل الشرق فسار بالكتاب حتى أوصله إلى المكرم ، فلما قرأه جمع قبائل العرب ، وقرأ عليهم الكتاب جهراً ، فدبّت الحميّة في رؤوسهم ، وأجمعوا على المسير إلى زبيد ، وكان الشريف الفاضل بعيان ، وعنده آل الدّعام ، وطائفة من بينهم ، ومن وادعة والجميع يحضونه على الخروج على بني الصّليحي ، فشرح لهم ما يخافه من انتقاضهم ، وما يعانيه من ضيق ذات اليد ، وما عليه حالة أعدائهم من المنعة والقوة ، وكثرة المعاكل والبلاد ، فلما أنس منهم إخلاصاً ، انصاع إلى رأيهم ، وأخذ يستعد للنزول على مقترحهم وانتقل إلى الجوف الاسفل وصار في جماعة وفيرة ، وكان أخوه ذو الشرفين محمد بن جعفر وصنوه الحسن بن جعفر ، قد اتّجها إلى بيت شعيب^(٢) وعرجا على صنعاء ، ونزلا على أميرها من قبل الصّليحي اسماعيل بن أبي جعفر الصّليحي ، وتبادل الحديث في هدنة يضربان مدّتها ، وصلاح يعتمد الناس عليه ، وحملهما على التريث إلى أن يقدم المكرم ، فلما قدم المكرم ، قابل الشريفين بكل حفاوة وإكرام ، وحسن عند الفريقين السّعي في الصّلاح والهدنة ، وجنح الصّليحي إلى كل ما يرضي الأشراف ، مما هو فيه من مهمّة تخلص والدته من أسر الأمير الحبشي أو الموت دونها ، فتساهل للأشراف ،

(١) راجع أنباء الزمن والخزرجي وقرة العيون (ص) .

(٢) كذا في الأصل ولعلها بيت شهير قرية من جبل عيال يزيد .

ورضي بأن يقترن بعامله بصنعاء أحد الأشراف لحفظ البلاد ، فوصلها محمد بن القاسم ، ولد الشريف الفاضل ، وتم الشأن ، على أن يكون للأشراف وادعة وبكيل ، وإن يكون الحد الفاصل نقيلاً عجيب ، وضم إلى الأشراف حمدة ، وحاز ، وبيت شعيب ، وبيت سور ، ورجع الشريفان إلى أخيهما الشريف الفاضل ، ورضي بما فعلا ، وعرض على الناس ذلك وارتنوه ، وانحدر المكرم إلى زبيد لمناجزة العبيد .

اندحار الأحباش ودخول المكرم زبيد

هرع المكرم في ثلاثة آلاف فارس غير الرجل ، ولما هم بالحركة حرض أصحابه وأخبرهم أنهم سيقدمون على الموت ، فمن كانت له رغبة في الحياة فليرجع ، فرجع بعضهم ، وتقدم في عصابة من الشجعان الذين هم على شرطة ، وبالقرب من زبيد عبي أصحابه وقصد بهم باب الشبارق ، وهو الباب الشرقي لمدينة زبيد ، فخرج إليهم سبيد الأحول في عشرين ألف حربة ، وصفت أصحابه على باب المجري ، في جهة الشمال ، فتزاحف الجيشان ، واصطدم الفريقان ، ودارت بالحتوف الكؤوس ، وتسابقت الشوس^(١) إلى منهل المنية ، وقطعت الرؤوس واصلقت العرب الأحباش الطعن والضرب ، فانهزمت الأحباش هزيمة منكرة ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكان الأحول قد أعد خيلاً مضمرة على باب النخل ، فلما تحقق هزيمة أصحابه ركب الخيل في خواصه ، وأهل بيته إلى الساحل ، وقد أعدت له في البحر السفن فركبها إلى دهلك ، ودخلت العرب زبيد قهراً ، وكان أول فارس ، وقف تحت طاقة أسماء ولدها المكرم ، فقال لها : أدام الله عزك يا مولاتنا ، فلم تعرفه ، وسألته عن اسمه فقال أنا أحمد بن علي فقالت أحمد بن علي في العرب كثير ، فرفع المغفر عن وجهه ، فعرفته وقال مرحباً بالولد المكرم ، من جاء كمجيئك فما أبطأ ولا أخطأ ، وضربت المكرم الريح

(١) الشوس : عند المولدين ابطال الحرب .

عندما رفع المغفر ، وهو يتصّيب عرقاً ، فارتعش منها واختلجت بشرة وجهه ، وعاش بقية عمره كذلك ، ودخل رؤساء العرب مسلمين على الحرّة أسماء فقابلتهم سافرة كعادتها أيام زوجها علي بن محمد ، ثم أمر المكرم بإنزال الرأسين وعمر عليهما مشهداً^(١) ، ورجع بأمه إلى صنعاء وعمل على زبيد خاله أسعد بن شهاب .

ما كان بين الأشراف والمكرم بعد عوده من زبيد

أشرنا إلى الصلح الذي كان الاتفاق عليه قبل نزول المكرم لمناجزة العبيد فبينما كان المكرم يستعد لقتال سعيد الأحول ، إذ فرغ الأحول إلى التفكير فيما يدفع عنه عادية المكرم ، ويصد عنه غاشية أبناء قحطان ، فلم ير وسيلة أفضل من أن يرسل وفداً إلى الشريف الفاضل يحرك من نشاطه ، ويحثه على مناجزة المكرم ، والزحف على صنعاء وأنباه أنه على استعداد لمعاونته والطلوع إلى صنعاء لمضايقتها ، وطلب من الشريف الفاضل أن يعين موعداً يهرع الفريقان فيه إلى عضد شوكة المكرم ، واحتلال صنعاء ، فغنى الفاضل هذه الفرصة فأكرم وفادة الوفد ، وأسرع إلى تحرير الجواب وفيه الموعد المعين لمهاجمة صنعاء ، وأرسل وفداً يحمل المخابرة ، ويوثق الصّلات الودية ، وبينما هو يلقي دروسه على الوفد ، إذ بالأنباء تطير بأن الأحول ارغمت انفه وترك البلاد ولاذ بالفرار ، وأن المكرم ربح المعركة ، وقضى على الطائفة الحبشية المتغلّبة في أطراف البلاد ، وحينئذ عرف الشريف الفاضل خطورة الموقف ، وشرع يفكر في عمارة شهارة ، واتخاذها معقلاً ، ولما عاد المكرم إلى صنعاء اتّجه^(٢) إلى نجران ، وفي أثناء سفره وافته الأنباء بقدوم (الإمام أبو الفتح الديلمي) من العراق وقصده لأول أمره بلد ضاعن^(٣) ، ثم

(١) انظر هذه الحادثة في جل كتب التاريخ اليمني وهم ينقلون عن عمارة .

(٢) الضمر يعود إلى الشريف الفاضل .

(٣) ضاعن : بلد من جحور شمال جعة .

صعد إلى جبل البر من جبال^(١)، وانهالت عليه طوائف من قبائل الجبال فاستعد المكرم لمقاومته ، ولما علم من معه من القبائل بزحف الصليحي تفرقوا عنه ، وتخلفوا وتركوه وحيداً فهرع إلى الشريف الفاضل إلى الجوف ، وكان من أخباره ما سيأتي ، وقد اعتمدنا هنا على ما في سيرة ذي الشرفين ، وذكرنا فيما تقدم انه ظهر الإمام ابو الفتح الديلمي سنة ٤٣٧ كما في أبناء الزمن والخزرجي وقرة العيون

اتخاذ الأشراف لشهارة معقلاً ، وأول اختطاطها

شهارة من أمنع الحصون اليمنية ، وأشهرها قال في سيرة ذي الشرفين :
وكان جبل شهارة يسمى معتقاً وفيه يقول

وإذا امرء أم النجاة فانما سبب النجاة لمعتق في معتق
ثبتت قواعد أسه بمحمد لصالح دين محمد المستعرق
وإنما سمي معتقاً ، لأنه كان يلتوي به الطريد ويأوي البعيد^(٢) ، فإذا
لحقهم مواليتهم قال الأهنوم ، شاوروهم وشاروا معتقاً .

عهد الشريف الفاضل إلى أخيه ذي الشرفين بالوثوب على شهارة وتدمير
الحيلة لطلوع الجبل فلم يتمكن من ذلك ، ثم ان الفاضل ، أرسل الفقيه
على بن محمد بن أبي الخيش في جماعة من الأهتميين والظليميين ومعه
صنوه احمد بن جعفر ، وأمرهم أن تكون إشارة تمكّنهم من قنة الجبل لإيقاد
النار في قمته ، فتيّسر لهم الصعود ، وعملوا بما أشار الشريف الفاضل
وغرضه معرفة استيلائهم عليه .

فلما تيقن ذلك عاد إلى الجوف وبقي يحث أنصاره وشيعته على
الالتجاء بشهارة ، واتخاذها معقلاً ومقاماً ، فتقاطرت الشيعة إلى الجبل ، وبنو

(١) كذا في الأصل .

(٢) كذا ولعله «البعيد» .

فيه الدور ، وعملوا على تحصينه بما يحتاج إليه علاوة على حصانته الطبيعية فأفلق^(١) بني الصليحي ما دبره الأشراف ، وصنعوه من اختطاط شهارة واعتصامهم بها ، وأخذ المكرم يفكر فيما يقضي به على هذه التدابير والحركات المتواصلة ، فحشد عساكره ، وجمع قرابته ، وخرج على رأسهم إلى وادعة ليضايق الأشراف ، ويشدد الوطأة على اتباعهم ، ولما أناخ بجنوده في موضع من وادعة يقال له المدحك ، تحرك الشريف الفاضل ، وحاول أن يباغت المكرم إلى وادعة فأبى بعض رؤساء أصحابه ذلك وعُلل بأن قوتهم ليست بالمعتمد عليها ، إلى مثل هذه الآراء ، فجنح الفاضل ، إلى قوله : وتقهر من شؤابه إلى ورور ، وتحرك المكرم إلى أثافت ، وجرد عصابه من جنده إلى المنقل^(٢) فعاثوا في الدرب ، وسلبوا ما فيه ، فباغتهم جماعة من ذبيان^(٣) ، ردتهم على أعقابهم ، ولما رأى المكرم أن القوة التي معه لا غنى فيها ، رجع أدراجه إلى صنعاء ، وقد اتقدت نار الحماسة في الشريف الفاضل ، بعد رجوع المكرم فنهد إلى أثافت ، وهدم الدار التي سكنها الصليحي ، وأقام بها ، وبعث من يستنصر أخاه الأمير ذا الشرفين من شهارة ، فهرع إليه واتجها معاً إلى سر بكيل^(٤) ، وفي هذه الغزاة هدم الأشراف الكولة من بلاد خولان ودرب الستين^(٥) ، ودرب الثابتي ، ثم رجع ذو الشرفين إلى شهارة ، وسار الفاضل إلى الجوف الأسفل سالكاً طريق شوابة ، ثم ان الصليحي جهز عصابه إلى ذبيان ، فاعترضهم قبائل ذبيان ، ومن هم على ولاء الأشراف من نهم وبني بحير^(٥) ، وبني الدعام ، وتبادلوا القتال ، وقدر رجال الصليحي على استمالة بني الدعام ، ووصل إليهم رؤساء هذه القبيلة وبعد

(١) أي أعجب (من التعجب)

(٢) في الصفة للهمداني : منقل سفران وعده من مواضع حاشد.

(٣) قبيلة معروفة في بلاد أرحب وسياتي للمؤلف بتقديم الباء وهي قبيلة من بكيل .

(٤) من قرى خمر .

(٥) ورد ذكرهم في بعض المخطوطات ببني البحر بالتاء المشاة من فوق .

رجوع رجال الصليحي أغار الشريف على بني الدعام ، فهذم دريهم ، وأخرب في بلادهم ، ونشط الأشراف للإيقاع بكل من يميل إلى المكرم أو يقبل أحداً من رجاله ، ثم ان المكرم نهض من صنعاء إلى ذروة^(١) ، ونهض الفاضل إلى شوابة واستنفر اخاه ذا الشرفين ، فهرع إلى وروزمين معه من القبائل ، ثم ان الفاضل نهض إلى ذيبين عملاً بإشارة بعض أصحابه ، فهذه^(٢) إليه المكرم ولما التقى الجمعان انهزم اصحاب الفاضل ، وتركوه ، وتمكن الفاضل من النجاء بنفسه وسار إلى الجوف ، ولما بلغ آل الدعام هزيمة اصحاب الشريف ، اعترضوهم ، وعاونهم أهل درب الجشرج^(٣) فأوقعوا بهم تنكيلاً وحاسبواهم على ما كان عندما أغار عليهم الفاضل ، وفتحوا البلاد للمكرم ، فلبث أياماً قليلة ، وأمدهم بمال يستعينون به ، وكان المكرم قد بني في ذروة بناء متيناً ، يضاهي بناء السابقين ، وانفق في البناء أموالاً وفيرة ، وحفر المناهل الكبيرة ، وشاد البناء تشييداً بديعاً وزخرف سقوفه بالذهب وأقام فيها أياماً .

الإمام ابو الفتح الديلمي والشريف الفاضل ومهاجمة صنعاء

أشرنا سابقاً إلى اجتماع الامام أبي الفتح بالشريف الفاضل القاسم بن جعفر في الجوف ، وبعد ما لبثا أياماً يدعوان الناس إلى مؤازرة أهل البيت النبوي عليهم السلام ، واخلاص النصرة لهم نهضوا إلى شوابة وقد استجاب لهذه الدعوة بعض قبائل المشرق ، ففرقت الكلمة ، ولم تتوحد الغاية ، وافترقا من وروزمين ولما ودع الإمام أبو الفتح صاحبه الشريف الفاضل ، نهذ إلى

(١) ذروة : حصن منيع يطل على ذي بين .

(٢) نهذ : بمعنى نهض ومضى .

(٣) موضع هناك انظر صفة جزيرة العربية ص ٢٦٤ .

اثافت ، واعتزم هدم مضعتها^(١) ، ولما علم الفاضل بهذا الغرم بعث أخاه ليصدّه عنها ، ويردعه فلم يتمكن الإمام من إنفاذ ما أَرادَه ، وواصل السّير إلى كوكبان ، وحدثت بين رجال الحصن ورجاله مناوشة ، وبينما الحال كذلك إذ بالمكرّم على رأس قوّة هرعت من صنعاء للدّفاع إلى كوكبان ، فلما أحس به أصحاب الإمام انهزموا هزيمة منكّرة ، وانحدروا من الجبل والسّهام تعمل في اقفيتهم ، وخلص الإمام بنفسه إلى شِوابة ، حيث خلف الشّريف الفاضل ، ثم إن المكرّم عزم من فوره إلى ناحية الجراف^(٢) قاصداً الأشراف ، فلم يجد الفاضل دواء يفلّ من نشاط المكرّم ، ويغسل آثار تلك الهزيمة من قلوب النّاس إلّا سرعة الحركة من محلّهم والتّقدم إلى صنعاء أو إلى القرب منها لما يعلمه من بعد المكرّم عنها ، فأوعز الفاضل إلى الإمام أبي الفتح بأن يقصد مشرق خولان ، يغير بمن معه من تلك البقاع ، وأعرب له أنّه سينهد إلى مشرق همدان ، ويقوم بما عليه هنالك ، فلم يوافق الإمام على هذا وأبى أن يقوم بما أوعز إليه الفاضل فصمّم الفاضل على إنفاذ خطّته وانقضى إلى ذبيان وواصل السّير إلى رحبه صنعاء ، وكثر الراج وطارت الأنباء إلى المكرّم وعمد من بصنعاء إلى إغلاق أبوابها ، وانقلب الشّريف الفاضل وحقائب^(٣) أصحابه ببحر من الأموال ممن بيّتهم الجيش على الطّريق ولما بلغ المكرّم نبأ الغارة على صنعاء هرع لا يلوي على شيء مخافة أن تكون صنعاء قد سقطت في أيدي الأشراف فلما علم أن المغيرين^(٤) رجعوا عنها ، بقم . يفكر في الوسائل التي يجب إتخاذها لتهديد الأحوال ، فلم ير إلّا إيتناف^(٥) الحشد، وتجديد الغرم والاستعداد لمنازلة الأشراف ، واحتلال معقلهم شهارة وقد دهم الشرفي في

(١) أي قلعتها .

(٢) قرية قديمة في بلادها حاشد على مقربة من خمد في شرقها وهي عبر جراف صنعاء .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) في الأصل المغيرين .

(٥) كذا ومن عبارات المتأخرين استئناف كذا وكذا .

لآليه ، وذكر أن المكرم كان عند محاولة الفاضل احتلال صنعاء بتهامة ، وقد عرفت مما تقدّم أن المكرم كان بناحية الجراف .

ولنعد إلى تأثر الإمام ابي الفتح ، فقد فارق الفاضل عند غزو الرّحبة^(١) وقتل قبل حصار شهارة كما يستفاد ذلك من قصيدة للأمير ذي الشرفين قالها بعد انهزام جيوش الصليحي عن شهارة ورجوع المكرم مدحوراً وذلك قوله يخاطب الأصولح ويعدّد ما اجترتموهم

قتلتم^(٢) بني الزهرا عمداً قطعتموا بذيين والمنوي حبال التواصل
بذيين والمنوي قطعتم فما الذي نرجيه منكم بعد تلك الفعائل
وبالفقع والمخلاف أيضاً قتلتم أبا الفتح يهدي رأسه شرّ حامل

الفقع بالفاء والقاف موضع من بلاد خيبر وادعة هكذا في هامش اللآليء المضيفة ، ولكن صاحب البسامة يخالف هذا ويقول انه قتل بنجد الحاج^(٣) وإليك قوله

والناصر الديلمي المنتقي سفكت له دعاء يوم نجد الحاج ذي الخبر

قال في انباء الزّمن^(٤) ودخلت سنّة ٤٤٤ هـ فيها سار الإمام ابو الفتح الى عنس فقصده الصليحي فقتله في نيف وسبعين نفراً من أصحابه في نجد الحاج ودفنوا جميعاً في محل واحد برذمان في بلد عنس ، وقبورهم هنالك مشهورة رحمهم الله ، وفي الحقائق الوردية^(٥) قام عليه السلام في أرض اليمن بعد وصوله من ناحية الديلم ، وكان قيامه في سني الثلاثين وأربعمائة ،

(١) الرحبة : سبق كذرها وهي ناحية تابعة للواء صنعاء في الشمال الشرقي منها بمسافة ٥ ك.م .

(٢) في الأصل قتلتم .

(٣) ويؤيده مشهده الموجود فيه الى الآن

(٤) غاية الأمان ص ٣٥١ .

(٥) الحقائق الوردية ج ٢ ص ١٠٤

وانتشر ذكره وعلا أمره ، وملك صعدة والظاهر ، واختط ظفار ، وهو حصن المنصور بالله ، وحارب الصليحي في بلاد مذحج وقتل من خولان بمجز^(١) مقتلة عظيمة ، وله حروب على اثافت من قبل الصليحي سجال ، له وعليه ، ولم يزل شجاً في حلق الباطنية والمعتدين ، رافعاً لمنازل الدين حتى قتله الصليحي في نيف واربعين واربعمئة وقبر بردمان من بلاد عنس .

وقال الشرفي : ان قيامه في سني الثلاثين وأربعمئة إلى أن قال وكان غزير الفهم ، وافر العلم ، له تصانيف تكشف عن علو منزلته منها تفسير القرآن^(٢) الكريم وهو كتاب جليل القدر ، ومنها الرسالة «المبهجة في الرد على الضلالة المتلجلجة» يعني بها المطرفية^(٣) ، ومن شعره عليه السلام^(٤) :

الا يا لهمدان ابن زيد تعاونوا	لنصرتنا فالدين سرب مضيع
ونادوا بكيلاً ثم وادعة التي	لها المشهد المشهود ساعة تجمعوا
فلا بد من يوم يكون قتامة	لشوق القنا والمشرقية أدرع
سينقاد لي من كان بالامس عاصياً	ويقرب مني النازح المتمنع

مركز تحقيقات كليات علوم اسلامی

ومنها :

أنا الناصر المنصور والملك الذي	تراه طوال الدهر لا يتضعضع
سيملاً دنيانا من العدل بعدما	مضت حقب بالظلم والجور تترع

وكان أكثر محاربته للصليحي في بلاد مذحج ، إلى أن قال : وقد تقدّم في ذكر غارة الرّحبة ، انه اجتمع هو والفاضل وقت خروج المكرم إلى نجران ، وذلك قبل حوزة شهارة ، ولم يزل شجاً في حلقهم حتى قتله

(١) في المطبوعة من الحقائق ص ١٠٤ لمحرر ومجز من قضاء جماعة في بلاد صعدة .

(٢) وهو بعنوان «البرهان في تفسير القرآن» منه نسخة خطية بجامع صنعاء .

(٣) وهذا هو أول ذكر لهم .

(٤) الشعر في الحقائق الوردية ص ١٠٤ .

الصليحي في سنة ٤٤٤ أربع وأربعين وأربعمائة ، ورغما على ما في كلام
الشمرني من التحقيق ، وذكره لغارة الرُّحبة التي كانت في حدود سنة ٤٦٢
اثنين وستين وأربعمائة فقد تأثر بغلط غيره ، واندفع الى متابعتهم بقوة الايحاء
وفعل المحاكاة فتأمل .

حصار شهارة وما بعده من الأحداث

لما وجّه المكرم عنايته لحصر شهارة ، أخذ يزجي الجنود ويسوق
الجيوش إليها ، ويبذل الأموال الطائلة لرؤساء القبائل الذين كانوا يوالون
الاشراف ، ولما أكمل عدّته خرج من صنعاء بجنود جَمّة وجموع غفيرة ،
وضيق على شهارة الحصار ، من كل جهاتها وبثّ العساكر حوالها من جميع
جهاتها ، ومن بها معتصمون بمناعة المعقل الطبيعيّة ، ولم تكلفهم أعمال
الصليحي إلا حراسة هيئة مخافة أن يتوغل متوقِّل^(١) أو يغامر مغامر ، وطالت
أيام الحصار ، فلم يثن من عزم المحصورين طول الأمد ولا لانت لهم
عريكة ، فاعتزم المكرّم العود إلى صنعاء حاضرة ملكه ، وعهد إلى طائفة من
عسكره بمواصلة الحصر حتى يتحقّق المال ، وفعلًا لقد هذه الخطة ، وآب
إلى صنعاء ، وترك ثلّة من الجند في أرباض شهارة ، واستمر الحال على ذلك
خمسة أشهر بعد عزم المكرم ، وبعدها رأى الأمير ذو الشرفين أن المال
سَيء ، وأن العاقبة وبيلة ، لما رأى من نفاد ما عنده من المأكول والمشروب ،
فعمد إلى محبرته وكتب وصيّته الأخيرة وآل على نفسه أن يبذلها في سبيل قتال
الظالمين ، ثم شحذ عزم أصحابه وحمسهم وانحدر ، وقد وزّع أصحابه
طوائف ، وصيَّح الجند المحاصر والنوم ملابس لجفونهم فأوقع بهم ، وأثخن
فيهم قتلاً وغنيمة ، وانقلب الى المعقل بالغنائم الوفيرة ونفائس الأسلاب
الطريفة وتناول قلمه وكتب هذه القصيدة :

(١) توغل الجبل : صَعَدَ .

الا قل لربيات الخدور الكواعب
وينعمن ما دمننا ودامت شهارة
ويأمن ترؤيع الأعادي فلاننا
فقد كن شاهدن المكرم إذ أتى
من أقطار أرض الله لا شكل كلها
فبالنجد أمسى مرسيا وابتنى به
ويث لنا الأخبار من كل موضع
إلى آخرها وهي طويلة .

وبعد هذه الموقعة انسحب من نجى من عسكر المكرم واستصرخوا
بصنعاء فوافاهم المد وبعد ان حلم الأديم^(١) فانفضت الجموع بالخيبة
والفشل .

وفي خلال هذه المحاصرة والشريف الفاضل في الجوف وبنو الدعام
وغيرهم من القبائل قد حالوا بينه وبين نجدة أخيه ، ولم يكن له من عمل في
تلك الأيام إلا تبادل الكتابة ، وتوثيق الصلوات ، مع آل نجاح ، وقد كان
جياش بن نجاح ، زعيم الأحباش يجري للشريف الفاضل ألف دينار شهرياً ،
راتباً كبيراً لذلك العهد ، وقد استطاع الفاضل إيصال بعض هذا المال إلى أخيه
أيام الحصار بحجة إرسال رسول يسعى في الصلح بين الفريقين المتحاربين
والسر المكتوم إيصال المال ، وقد تأكدت الصلوات بين زعيم الأحباش
والشريف الفاضل ، حتى ضربا موعداً معيناً للاتفاق واللقاء فليس الخبر
كالعيان ، ولكن الأقدار لم تيسر ذلك فقد عاقت بعض الطواريء عن الاجتماع
بالذات ، إلا أن الشريف الفاضل اعتبر هذه الصداقة اعتباراً كبيراً ، وشكر
لجياش أياديه ، وخاطبه بالملك في حادثة ربض شهارة وكتب إليه :

(١) يقال حلم الجلد : أي اصابه الدود والثقوب .

تجاوزنا يا رسول عن البلاد
واتحف حضرة الملك المرجي
وأخبره بأننا قد أبدنا
صبحناهم غداة السبت كاساً
فلماذا ذرّ قرن الشمس ذرّت
أبدنا من سراتهم رجالاً
وباقيم يؤول إلى ذهاب
فهم في كل يوم في انتقاص
فهذا ما لدينا ابلغنه
وبح بالشكر مني ان شكري
بجياش شددت العزم حتى
أمد بماله وجبي وأعطى
مددت بماله باعي فنالت
وأشعلت النيار بكل نجد
وثررت بها عشوزنة^(١) عليهم
فراموا نضرة لا من صديق
كدابغة الأديم وقد تهرأ

ومنها :

ولولا الله والملك المرجي
ونهم الأكرمون ومن يليهم
وباقى الناس ليس لهم مرام

وحتّ إلى ديار بني زياد
بأضعاف التّحية والرشاد
بني الأصلوح بالقضب الحداد
ضريرا ذوقهار الصبر باد
على غنم وقتلى كالجراد
بأطراف الظبأ يوم الجلاذ
وباقى ما احتووه إلى نقاد
ولنا كل يوم في إزدياد
الى نجل المؤثد ذي الايادي
له حق عليّ بكل ناد
بلغت من العداة به مرادي
واتحف بالطريف وبالثلاذ
نواصي الظالمين على البعاد
وداركت المغار لكل واد
فقد منعتهم طعم الرقاد
وجادوا بالعطا لا من^(٢) جواد
وعابرة السبيل بغير راد

لذاب لما أقاسيه فؤادي
من اهل محبتي وذوي ودادي
سوى خفض المعيشة والتّماذ

والأبيات كما ترى ناطقة بشكر الزعيم الحبشي ، ولقد أहतزت أريحية

(١) عشوزنة : عسره وشديدة .

(٢) في الأصل «لا لمن» .

الأمير نجاح حينما ألقى الشعر بين يديه ، فأمر بجائزة للشریف الفاضل ألف دينار وكسوة سنّية وجارية حبشية وزودها بقسم غليظ ، قائلاً : لو كان في فمه لقمة لَلَفَظَها لمولاه الشّریف ، هكذا^(١) أفاد في سيرة ذي الشرفين بعد هزيمة الصّليحي وكبوزنده في هذه الحوادث عظم أمر الأشراف فأخذوا يبعثون العصابات إلى البقاع النائية ، وسار الشریف الفاضل إلى الملاهي^(٢) من جازة تهامة فغنم جميع ما فيه من بزّ وحديد وزروع ، وحصل لجنده منها غنائم عظيمة وعاد ظافراً منصوراً .

استيلاء الشریف الفاضل على صعدة

ودخلت سنة ٤٦٣ فيها نهض الشّریف الفاضل إلى صعدة واحتلّها على إثر الخلاف الواقع بين أهل صعدة وأولاد الإمام الهادي بسبب الخطبة ، فقد كان أهل صعدة يريدون ان يخطب خطبهم للمكرّم الصليحي وفعلاً رقا منبر الخطابة جعفر بن الحسن الشمري ، وخطب للمكرّم الصليحي ، بعد قتال غلب فيه أهل صعدة بني الهادي ، ففزعت الأشراف إلى الشّریف الفاضل وأخيه ، وارتاعت من هذا المنكر الذي يوتى جراهية^(٣) في مسجد الإمام الهادي عليه السلام فأغاثهم الفاضل ، وقطع دابر الفتنة ، وكان الفقيه الشمري قد لاذ بالإستتار ، واختفى في القرية ، فقال الفاضل لمن حضره من أعيان البلاد : وحق جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان لم تأتونني به قبل الظهر لأضرمّنها بالنار ، فلما أتوه به ، حمّله إلى شهارة وسجنه بها سبع سنين ، حتى أفتدى نفسه بثلاثة آلاف دينار .

وفيها أنقضى الشّريفان على شطب ، وأوغلا فيها قتلاً واسراً واحرقا مدينة

(١) اعتمدنا ما في سيرة ذي الشرفين وهذه الحوادث تدل على ان نجاح صاحب زبيد لم يزل بزييد والحال أن المكرّم استولى على زييد وطرد الاحباش عنها سنة ٤٦٠ وعاد إلى صنعاء ، واستخلف عليها اسعد بن شهاب ، ولم يزل عليها إلى أن عادت الحبشة سنة ٤٧٩ . وحادثة شهارة وانهزام المكرّم عنها سنة ٤٦٢ فتأمل .

(٢) في صفة الجزيرة ٢١٠ من مناهل لسان .

(٣) جراهية : علانية .

باري^(١) من بلد الجبل ، قال الأمير ذو الشرفين : لعسكره هذه قرية كانت ظاهرة الفجور كثيرة الفسق والفجور ، والواجب علينا ان نطهرها فأمر بإحراقها وخرابها ، وتولى الفاضل خراب دار بني الصليحي التي كانت هنالك .

وفيها سار الفاضل إلى بلاد الشرف ، فملك حصن نوسان^(٢) ، وطرده عامل الصليحي وأقام بنو سان ثمانية أيام فهرعت إليه قبائل تلك الجهة بالسمع والطاعة وعاد إلى مستقره .

إحتلال حصن مسور والاستيلاء على بلاد المغرب

ودخلت سنة ٤٦٤ فيها تم للشريفيين إحتلال حصن مسور ، وذلك بمعاونة السلطان منصور حسين بن المنتاب بن إبراهيم بن عبد الحميد ، وإحتلال مسور ، أذعنت قبائل الناحية طراً ، وتزوج الأمير ذو الشرفين بإبنة السلطان ، فمنحه لقب ذا الفضلين أي فتح سور وتقديم السيدة المباركة ، وتمردت بنو شاور^(٣) ، فلم تدعن ، فتقدم إليها الشريف الفاضل والسلطان وبعد مقتلة عظيمة سقطت البلاد واستسلمت ، وانتشر الجند المغير في أنحائها واخذوا ما وجدوا من الأموال ، وآب الشريف الفاضل بالفوز والغنيمة .

وقبض على السلطان بن أبي القبائل بن هاشم ، فاحتفظ به حتى أطلعه شهارة ، وقبض حصن حقل ، وتمردت أيضاً بنو عامر وغيرهم من قبائل حجور ، وكان زعيمهم ابن مفلح فقتل ابن مفلح ومن شايعه وأحرقت منازلهم واقبلت قبائل البلاد تقدم السمع والطاعة ، وبعد ذلك تم خضوع جبل حفاش^(٤) ، وكان فيه من قبل المكرم السلطان محمد بن إبراهيم الصليحي فأمر الشريف السلطان الصليحي وجماعة من بني الصليحي ، وأرسل بهم

(١) باري : مدينة خربة في بلد الجبر بالشرق الشمالي من حجة .

(٢) نوسان : بالضم عزله من ناحية كحلان الشرق بالشرق الشمالي من حجة بمسافة ٢٤ ك . م .

(٣) بنو شاور : بطن من حاشد من ولد شاور بن قدم بن قادم بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد .

(٤) حفاش : جبل مشهور بالغرب من صنعاء بمسافة ١٤١ ك . م جوار جبل (ملحان) وهو ناحية تابعة لقضاء المحويت .

إلى شهارة واستولى على حصن القفل^(١)، وأخذ ما وجد فيه من سلاح وكراع وأثاث وأموال ، وهدم الحصن .

وفيهما أخذ الأمير ذو الشرفين بعد إستقراره بمسور ، يجمع الفضة من الجهات الموالية له من حلى النساء وغيرها ، وضرب السكة بإسمه فتحصل منها شيء كثير .

وفيهما توترت العلاقات بين الأشراف وذوي الفضلين المنصور بن الحسين ، وهم السُّلطان ذو الفضلين بالفساد والعصيان ، وليس لذلك باعث سوى أن الشريف الفاضل أخذ الميثاق الغليظ على السلطان لينصرون ذا الشرفين ويوالي من والاه الخ . . . ثم بعد الميثاق أراد الإعراف بأن البلدان المجاورة لمَسُور لاحق فيها للسلطان ، وانها للأمير حيث وهو الفاتح لها ، فغضب السُّلطان وانحرف ولاؤه ، وقد تكدر الموقف ، إلى أن همّ ذو الشرفين بمغادرة مسور لولا حكمة الفاضل وثباته وعرفانه بأن مسور إذا سقط سقطت البلاد كلها ، وتمردت القبائل فصبر كما قال : وفي الحلق شجا وفي العين قذا

وفيهما وصل السُّلطان محمد بن ورقا من بني جناح من يناع الى الشريف الفاضل واخبره بأن لديه يداً على فتح حصن يناع^(٢) فأمره الشريف بتنفيذ خطته فعاد إليه وفتحته ، وكتب إلى الأمير ذي الشرفين ، وكان قد تقدم إلى عرّ شاحذ ، فأمره بالشريف ليث الدولة ، وعصدها حميدان بن القاسم ، وتم فتح يناع والحيمة ، وظفروا بغنائم وافرة وتآبت قبائل حضور ، على بني الصليحي بيازل ، وقتلوا منهم كثيراً ، وكان ممن قتل السُّلطان احمد بن اسعد اللّهابي ، في عدّة من رؤساء حراز ، وبعدها تم للأشراف فتح حصن ذروة في الشمال

(١) حصن من جبل حفاش السابق .

(٢) يناع : حصن مشهور عداة في عزله الجدعان الخيمة الداخلية .

فهدموه ، ثم ان القبائل توافدت على ذي الشرفين ، والقوا اليه مقاليد البلاد ، وفتحوا له حضور والمصانع^(١) وحصن بكر^(٢) وحصن القرائع^(٣) ، كل هذا والشريف الفاضل القاسم بن جعفر في مسور ، ثم أنه خرج قاصداً شوابه من أرحب ، فوافته الأنباء بأن عسكر الصليحي يحاصر ثلا ، فعاد لإنقاذها ، ثم عاد إلى مسور ، ووصل اليه اهل زجان^(٤) ، وسلموا له حصن ذمرمر ، وقتلوا من كان فيه من خدم الصليحي .

محاولة المكرم لإسترجاع يناع

ودخلت سنة ٤٦٦ فيها جهز الصليحي جيشاً إلى الحيمة ، لإسترداد يناع ، ووصل الجند إلى عرّ ذيب ، وفي وادي شم^(٥) تنازل الجند مع أتباع الشريف وكان الفشل والخيبة ، من حظ بني الصليحي ، وقد كان هذا الحشد من الصليحي حافزاً للأمير ذي الشرفين بأن يصعد بنفسه إلى يناع فجمع الشيعة وأصرّ على طلوع يناع ، وأخوه الفاضل يعارضه ، ولا يوافق ، وأخيراً تقدم وأقام بيناع من رجب سنة ٦٦ إلى محرم سنة ٦٧ والفاضل بمسور أقام أياماً ، ثم خلف عليه الشريف أحمد بن جعفر ، وتقدم إلى ثلا ، وأغار على صنعاء ، ووصلت خيله إلى شعوب^(٦) والجراف^(٧) ، وأغلقت أبواب صنعاء فرقاً وخوفاً ، ثم عاد إلى ثلا ، ومراده زحزحة مراكز بني الصليحي ، من حضور المصانع ، وبعد مدة أتجه إلى ذمرمر وساق إليه قوت من الطعام والزبيب ، ثم ان الأمير شرع يشعر بخطورة موقفه بيناع ، وصعوبة مقامه ،

(١) المصانع : جبال مرتفع بالشمال الغربي من صنعاء .

(٢) بكر بضم الباء والكاف حصن يحاذي جبل كوكبان ويطل على مركز الطويلة .

(٣) القرائع : سلسلة جبال والغرب الشمالي من صنعاء تحتضن مدنه الطويلة وغيرها من القرى .

(٤) فرحان : بكسر الزاي وتشديد الجيم من قرى بني الحارث .

(٥) شم : بضم الشين المعجمة موضع من الخيمة الداخلية بالغرب الشمالي من صنعاء .

(٦) شعوب : ضاحية صنعاء الشمالية .

(٧) الجراف : قرية ملاصقة لصنعاء من ناحية الشمال .

وَحَذِرْ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنْ إِحْتِشَادِ الصُّلِحِيِّ فَأَخَذَ يَسْتَفِثُ بِأَخِيهِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِقُوتٍ مِنْ الطَّعَامِ وَالزَّبِيبِ ، وَأَصْبَحَ ذُو الشَّرَفَيْنِ يَكَاتِبُ بَنِي شَهَابٍ وَيَسْتَنْصِرُهُمْ وَيَسْتَفْزِمُهُمْ ، وَيَبْذُلُ لَهُمُ الرِّغَائِبَ ، وَيَكَاتِبُهُمُ بِالشَّعْرِ الْبَلِيغِ ، وَهُوَ غَيْرُ آمِنٍ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا إِذَا سَلِمَ إِلَيْهِ بَنُو شَهَابٍ رَهَائِنَ مِنْ رِجَالِهِمْ يَثِقُ بِهِمْ ، وَيَكُونُونَ رَمَزَ الطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَعَقِيبَ ذَلِكَ ، وَصَلَ الْمَكْرَمُ بِجُنْدِهِ قَاصِدًا بَيْتَ بُوْسٍ ، وَقَرْنَ عَنَتْرَ^(١) وَمَنَاجِزَةَ بَنِي شَهَابٍ ، فَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ حَامِيَةُ الْوُطَيْسِ ، أَنْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ الصُّلِحِيِّ ، وَعَادَ فِي حَافِرَتِهِ إِلَى صَنْعَاءَ وَاجْتَمَعَتِ الْقَبَائِلُ ، بِجَوَارِ صَنْعَاءَ ، وَوَصَلَتْ خَيْلُ الْأَمِيرِ ذِي الشُّوفَيْنِ إِلَى غِيلِ الْبِرْمَكِيِّ^(٢) ، وَوَقَعَ الْحَصَارُ عَلَى صَنْعَاءَ حَتَّى هَلَكَ أَكْثَرُ النَّاسِ جُوعًا ، مِنْ جَرَاءِ عَدَمِ اسْتِطَاعَةِ خُرُوجِ أَحَدٍ ، قَالَ مَفْرَحُ بْنُ أَحْمَدَ : وَصَارَ لَا يَخْرُجُ لَهُمْ سِرْحَ^(٣) وَلَا مَالٌ وَلَا رَسُولٌ ، إِلَّا قَبْضُ وَقْتٍ ، وَجَاعُوا جُوعًا شَدِيدًا وَقَالَ بَعْضُ شَعْرَائِهِمْ :

وَكَمْ مِنْ سَيِّدٍ بَطَلَ هَمَامٌ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ مَاتَ جُوعًا

إِضْطِرَابُ الْحَبْلِ وَانْعِكَاسُ الْأُمُورِ

بَيْنَمَا الْأَشْرَافُ مَغْتَبِطُونَ بِمَا نَالُوهُ مِنَ النُّفُوزِ ، وَمَا أَنْزَلُوهُ بِعَدُوهِمْ الْأُلْدَ مِنْ ضُرُوبِ التَّنْكِيلِ ، وَافَانِينَ الْمَضَاقِقَةَ ، إِذْ بِالْأُمُورِ تَدْبِرُ وَالْأَجْوَاءُ تَغِيْمُ ، وَالْحَبْلُ يَضْطَرِبُ ، وَالنُّفُوزُ يَنْكَمِشُ ، وَإِذْ بِمَشَارِقِ الْيَمَنِ الْخَاضِعَةِ لَهُمْ ، قَدْ تَنَكَّرَتْ وَلَبَسَتْ جِلْدَ النَّمْرِ ، وَظَهَرَتْ لَهُمْ بِمَظْهَرِ الْعَدُوِّ ، إِذَا بِالْمَغَارِبِ مِثْلَ مَسُورٍ ، وَحَنَاشٍ ، وَمَلْحَانٍ ، وَالْحِيْمَةِ ، وَغَيْرِهَا ، تَنْتَفِضُ وَتَهِيْجُ ، وَتَصْرُخُ وَتَشُورُ قَالَ كَاتِبُ سِيرَةِ ذِي الشَّرَفَيْنِ فِي بَيَانِ السَّبَبِ الْبَاعِثِ لِهَذِهِ الْأَنْقِلَابَاتِ وَهَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ الَّتِي فَاجَأَتْهُمْ بِهَا . وَلَمَّا يَسْتَتَبُّ لَهُمُ الْأَمْرُ إِلَّا بَضْعَةً أَيَّامٍ فِي عِدَّةِ

(١) قَرْنَ عَنَتْرَ قَالَ فِي أَنْبَاءِ الزَّمَنِ وَيَعْرِفُ الْآنَ بِظَفَارٍ فَوْقَ بَيْتِ سَبْطَانَ مِنَ الْجَنُوبِ (ص) .

(٢) غِيلُ الْبِرْمَكِيِّ : مِنْ أَنْهَارِ صَنْعَاءَ الْجَارِيَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ائْتَرُ مِنْذُ مَلَّةٍ .

(٣) الْمَالُ السَّائِمُ وَفِي الْحَدِيثِ أَمَّا الْمَشْرُكُونَ عَلَى سِرْحٍ بِالْمَدِينَةِ .

نواح وخرج ذو الشرفين من يناع في الشهر السابع في حين وافاه وهو المحرم أول شهور سنة ٤٦٧ ، وكان سبب خروجه وانتشار الأمور ونزول السلاطين والمقدمات من الحصون ، فساد العشائر فأما فساد عشائر المغرب ، فكان سببه من جهة العمال ، واستلحاف^(١) الأموال وسوء السياسة والغفلة عما بيننا عليه ، ومالت بهم الدنيا ، فيما صاروا إليه قد صرنا في شعب ، وهم في شعب ، ولما كان الأمر كذلك ترأسل العشائر وتأمروا على الفساد ، في جميع البلاد ، قال : وأما فساد عشائر المشرق فاستمالهم^(٢) بنو الصليحي بالطمع وزخرفت لهم الخدع وتمشى على عوامهم وطغامهم بذلك الشريف حسين بن أبي الفتح ، وأعانه بنو الصليحي بدفع الأموال : انتهى .

وكان المكرم قد تذرّع لتنفيذ^(٣) سياسته ضد الأشراف بأنه أخذ بيد الحسين بن أبي الفتح الديلمي ، وأعانه وحسن له الخروج إلى قبائل المشرق ليصرف انظارهم عن الأشراف ، وقد كان خروجه سبباً قوياً في اضطراب الأمور وارتباك الأحوال إلى غاية ان الشريف الفاضل ، لم يتمكن من إرسال كتاب إلى أخيه إلى يناع إلا في صحيفة صغيرة ، أودعت في عقص^(٤) شعر الرسول الحامل له مخافة أن تمزقه العشائر النائرة صدهم ، وقد هرع ذو الشرفين من يناع وأم سهمان^(٥) واتجه إلى حاز من همدان واجتمع بأخيه الفاضل في ثلا ، وفي مبيتهم بثلا ، وافاهم من يؤكد لهم بأن عشائر المغرب كلها ، وفي مقدمتها بلاد مسور أنتقضت وثار ، وحسنوا له معاودة مسور ، والرجوع إليه ، وقد كان مزمماً على مطاولة بني الصليحي ، وشن الغارات عليهم في جهات عمران فبدا له ما أشير عليه من التعريج على مسور والقضاء على

(١) استلحاف الأموال ومعابها .

(٢) في الأصل فستمالهم .

(٣) في الأصل لتفيد .

(٤) عقص الشعر صفه وفتله .

(٥) سهمان : عزلة من ناحية حفاش وأعمال المحويت .

العشائر الثائرة هو الصواب ، وقد خسر بهذا الرأي ، ثقة من بقي على نصرته لأن هواهم كان في مناجزة الصليحيين ، ومقاومتهم ، وترك العشائر الثائرة ، ولما وصل مسور ، وأزمع على الخروج منه لتأديب العشائر واستوثق من بني المنتاب على حفظ حريمه واحترام شيعته وانصاره ، ولكنه ما سار إلا قليلاً حتى احاطت بهم العشائر وسدوا امامهم الطرق ، ولم يخلصوا إلا بعد معارك سقط فيها عدة من أصحابه ، وأخذوا كثيراً من متاعه أثقاله وكلما تقدم الشريف الفاضل تألبت عليه وعلى من معه القبائل تقتل وتسل وقد دافع ومن معه دفاع الأبطال وخسروا خسارة فادحة ، من الرجال والأموال حتى أنهوا إلى أقر^(١) .

وبعد هذه الحوادث المظلمة اتفق رأي الشريف الفاضل ، وذو الشرفين ، على إثارة الحروب في البون ومواصلة الإغارة في جوانبه ، ثم افترقا على غير نتيجة .

ثم ان الأمير ذا الشرفين هرع من شهارة إلى شطب ونواحيه باستدعاء من الأهالي ، وبعد ما استوثق منهم ، ~~تو هائن~~ ورغم كل ذلك فقد كانت النهاية تمرد أهالي شطب ، ومن بجوارهم ، ولم تصف منهم المودة ، ثم ان الشريف الفاضل وأخاه أئجها وصعدا ذروة حصنها تحصيناً نافعاً ، ثم تلاشت الأمور وتخلّى الأشراف من متاعب الرئاسة ، وانكمش الكل بشهارة ، وترك المعاقل والجحافل ، إلى أن كان ما سيمربك الآن وفيه النهاية .

مصرع الشريف الفاضل

ودخلت سنة ٤٦٨ فيها أزمع الشريف الفاضل على إحياء الأرض واستثمارها ، والتخلّي عن الزعامة وأصارها ، وعزفت نفسه الحروب وملابسة الخطوب ، لكثرة ما قاسى في ذلك من نصب ولغوب ، فمال إلى الزراعة ،

(١) أقر: واد مشهور شرقي شهارة في بلاد حاشد.

واستغلال الأرض ، وكانت أراضي عمران في نظره أجود من غيرها تربة وهواء ، فوجه عنايته نحوها ، ونقل أهله وشيعته ، إلى عمران ، ومدَّ يده إلى إحياء أرض بني نشق^(١) بعد أن استنزل رضاء من كان يخاف معارضتهم ، وهم نهم ، وبنو الدعام ، وحلفوا له على حسن الجوار ، وكانت هذه الأرض قد زرعها الدعام ثم الإمام الناصر ، فقسمها الفاضل أثلاثاً فجعل لهم ثلثاً ، ولبني نشق ، وبنو الدعام ثلثاً ، وجعل له ولصنوه ذي الشرفين ثلثاً ، وأجعل لشيعته وأصحابه قسماً منه ، واعتزم على أن يرد غيل الخارد^(٢) على قديمه ويسقي منه هذه البقاع ، فجمع بقر خيوان والجوف مع بقر المزرعة ، وشرع يعمل بهمة لا تعرف الملل ، وفي خلال ذلك عَرَفَ في وجوه بعض القبائل تنكراً واشمئزازاً حمله على مصارحة أصحابه ، بما يتوقعه منهم ، ومصارحة القبائل أيضاً بأنه غير مطمئن على حياته معهم ، وأنه متشائم بما يراه من تنكّرهم وحذرهم سؤ العاقبة ، ووبال الحسير ، إن صح ما يقرأه على صفحات وجوههم ، ورغماً على كل إنذار ، فقد باغته بعض رجالهم ، وهو يغتسل بالوادي ، وأردوه قتيلاً ، فانطفأ^(٣) سراج حياته الذي طالما اهتدت به الكتائب ، في مدلهمات الخطوب ، ولم تكتف تلك الأيدي الأثمة القادرة بقتل الفاضل فحسب ، بل تجاوزته إلى غيره ممن كان يصحبه ، ومنهم الشريف القاسم بن إبراهيم ، وقد عظم الخطب عند ذي الشرفين وأخذ يكتب إلى رؤساء القبائل ويرسل اللعنات على الغادرين الخائنين ، ويحاول النصرة من الشيعة لئلا يطل دم الشريف الذي قضى حياته متعباً منهوكاً في إبتنى صرح المعجد وتشيدهم :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك الا الفرقدان

(١) نشق بلدة أثرية ورد ذكرها في النقوش وهي ما يسمى اليوم بهمدان الجوف .

(٢) الخارد : نهر مشهور يسقي أرض الجوف .

(٣) في الأصل فتطفأ .

الامير بعد هلك الشرفين

كان لمصرع الشريف الفاضل دوي الصاعقة في جميع البلاد الموالية للأشراف ، وأصبح نبأ مقتله حديث السامر ، وعجالة المسافر ، ولم تكن لوعة الأسى ، وشدة الحزن ، عقدة في لسان الشريف ذي الشرفين مانعة عن تحريك أوتار القلوب ، وإثارة خفايا الأفتدة ، فما زال يستثير همم القبائل ، ويستفز عواطفهم ، حتى أثارها نقمة صاحبة ، على منازل الغدر وبالخادعين ، بمن اجتمع تحت لوائه من القبائل المتفرقة ، فنهض بهم إلى الجوف ، وجعل يستقرى منازل المعتدين ومزارعهم ، ويوسعها نفساً وتدميراً ، ويتأثر الفارين منهم حتى أروى غليله ، وشفا غيظه ، وانتهى الأمر بنقل جثتي الشريفين هامدتين ، وآلت الأمور إلى دفن الشريف القاسم بن ابراهيم بعيان ، ودفن الشريف الفاضل بالحصن من بلاد وادعة ، وفيه يقول مفرج بن أحمد :

سقى قبراً بأرض بني عبيد بصحن الحصن رجاس الغمام^(١)

ودخلت سنة ٤٦٩ فيها تواردت الأنباء بأن رجل من الاباضية^(٢) ببلاد الشرف يقال له ابن عبد المجيد الأباخي أدعى الإمامة والتف حوله أهل الشرف ، فعظم موقع هذا النبا عند الأمير ذي الشرفين ، فجمع الجموع ، ونهض إلى بلاد الشرف لقتال الأباضي ، فدارت بينه وبين أتباع ابن عبد المجيد معركة بجبل المحطور^(٣) ، كان النصر فيها لذي الشرفين وأصحابه ، وقتل كثير من أتباع مدعي الإمامة ، وقضى على تلك البذرة ، وبعد حادثة الشرف قوي الأمل عند الأمير وأعاد الكرة ، فانتقل إلى الجوف ، وسار إلى نهم ، واستمال بني الدعام ، وتوثق منهم بالإيمان الغليظة والأقسام الباهضة ،

(١) رجست السماء رعدت وأوشكت على المطر .

(٢) ظلت الاباضية في جهات اليمن الشمالية إلى ما يقارب القرن الخامس وكانت اسرة مسلم اللحجي تدين بهذا المذهب .

(٣) المحطور : قرية من بلاد الشرق شمالي حجة .

ثم حدثت بينه وبين قبائل عذر معركة طاحت فيها كثير من الرؤوس من الفريقين وفيها توترت العلاقات بين الأمير ذي الشرفين وأخيه سنان الدولة أحمد بن جعفر ، فسار الأمير سنان الدولة إلى نواحي صعدة ، وبعد أخذ وردّ تحسنت الأمور ، وعادت المياه إلى مجاريها ، ولم يلبث الأمير أن باغته الحمام سنة ٤٧٨ .

وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجاً لعدو أو لجأ لضعيف واجتمعت الشيعة بعد دفنه وبايعت ولده الأمير جعفر بن محمد بن جعفر وهو آخر قائم من أولاد الإمام القاسم بن علي العياني ، فانه ضعف سلطانهم لخلاف دب فيما بينهم .

وقد كان الأمير ذو الشرفين ، قبيل موته قد تلون له الدهر وقست عليه الأيام ، ولبست له جلد النمر ، ولما لم يجد لقوس الرجاء منزعاً ، جنح إلى مكاتبة المكرم في الموافقة على الهدنة ، وأن يترك المكرم له بعض البلاد اليمنية في الجهة الشمالية ، فحالت الأقدار دون وصول ذلك الكتاب إلى الصليحي بإمساك حامله له ، حتى عصفت رياح المنية بسوح الأمير ، ودعاه إلى داره الملك القدير ، فاستراح من جفوة الأيام ومعاشرة اللثام :

لين الثري للجسوم خير من صحبة العالم الجفاة

عودة الأمير الحبشي سعيد الأحول إلى زبيد

ودخلت سنة ٤٧٩ فيها عاد الأمير سعيد الأحول إلى زبيد ، وأخرج عامل المكرم سعيد بن شهاب منها بصورة جميلة مكافأة له على حسن صنيعه مع الأحباش ومن يمت إليهم بسبب قال في أنباء الزمن (وفيها استقرت ولاية زريع بن العباس بن مكرم الهمداني في عدن وتوارثها أولاده من بعده)^(١)

(١) غاية الأمان ص ٢٧١ .

وكان السُّبب في تملك آل زريع لعدن وما صاقبها من البلاد ان علي بن محمد الصليحي ، كان قد أقر بني معن (وهم قوم من الأصابع) على عدن وألزمهم برفع خراجها إلى زوجة المكرم السيدة بنت أحمد وكان قد أصدقها عدن لما زوجها المكرم فلما قتل علي بن محمد ، تغلب بنو معن على ما تحت أيديهم ، فقصدتهم المكرم وأخرجهم منها ، وولأها العباس ومسعود ابني المكرم الهمداني ، وكانت لهما سابقة محمودة وبلاء حسن مع المكرم لما دخل زبيد لإنتقاذ أمه من أسر الأحباش ، فجعل للعباس حصن التُّعكر بعدن وباب البر وما يدخل منه وللمسعود حصن الخضراء وباب البحر ، وما يدخل منه إلى عدن واليه أمر المدينة أيضاً ، واستخلفهما للسيدة فحافظا على العهد ، وكانا يحملان إلى السيدة مائة ألف دينار في كل سنة وقد تنقص إلى أن مات العباس بن المكرم فخلفه ولده زريع بن العباس ، وبقياً على ذلك إلى أن قتل في باب زبيد مع عامل السيدة^(١) المفضل بن أبي البركات كما سيأتي .

ودخلت سنة ٤٨٠^(٢) فيها انتقل المكرم الصليحي إلى ذي جبله بعد وفاة والدته أسماء بنت شهاب وفوض أمر الملك إلى زوجته الحرة السيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي واستخلف على صنعاء عمران بن الفضل الهمداني واختط بذوي جبلة دار العز .

قتل سعيد الأحول وفرار جيش إلى الهند

ودخلت سنة ٤٨١^(٣) فيها دبرت الحرة السيدة على قتل سعيد الأحول فكتبت إلى الحسين بن التبعي صاحب حصن الشعر بأن يستدعي الأمير الحبشي من زبيد ، ويقول له : أن المكرم قد أصابه الفالج وعكف على

(١) راجع عمان والخزرجي والجندي وقرة العيون ونزهة الأخبار .

(٢) غاية الأمان ص ٤٧١ .

(٣) غاية الأمان ص ٤٧٢ .

اللذات وصار أمره في يد امرأة ، وأنت أكبر ملوك اليمن وأحب إلينا من بني الصليحي فان رأيت أن تنهض إلى ذي جبلة من تهامة ، ونحن من الجبال فافعل ، فطمع الحبشي بهذه الأمانى المعسولة ، ونهد من زبيد في ثلاثين ألفاً من العبيد ، وكانت السيدة قد أحكمت التدبير ، وكتبت لأسعد بن شهاب وعمران بن الفضل أن يهرعا إلى زبيد فتزلا في ثلاثة آلاف فارس فدخلاها بعد خروج سعيد الأحول منها وهرب من بها من بني نجاح فلمحق جئاش بن نجاح بالهند ، وكان من خبره ما سيأتي .

وسار سعيد الأحول نحو الحسين^(١) بن التبعي فلما قارب حصن الشعر انقض عليه الجيشان أصحاب بن التبعي ومن ألحق به من جنود السيدة :

وما هي إلا دعوة واجابة ان التحمت والحرب بكر وتغلب فابصرت ما لم تبصرا من مشاهد ولا شهدت يوماً معدّ ويعرب فقتل الأحول وأصحابه ، ولم ينج منهم إلا الشريد ، وكانت أم المعمار زوجة سعيد الأحول معه بهذه الحرب فاحتزوا رأس زوجها وحملوه أمام هودجها كما فعل زوجها برأس علي بن محمد الصليحي مع زوجته أسماء بنت شهاب .

ولما وصلوا بالرأس وتلك المرأة البائسة إلى الحرة السيدة فرحت بذلك ، وأوغلت في الانتقام ولجّت في التشفي وأمرت بنصب الرأس تحت طاقة أم المعمار وتمنت لو أن مولاتها أسماء بنت شهاب حية لترى هذه الفعلة النكراء ، ولأن كان ذلك العبد قد رأى الخرق مغنماً والتجاوز مغرماً حيث بدا بفعلته الشنعاء فإن الحرة اسماء لم تحسن بما فعلته صنعا ، والتشفي طرف من العجز ، وهو خلق [في]^(٢) المرأة طبعاً ، وقديماً كانت المرأة السبب

(١) الخزرجي وأنباء الزمن وقرة العيون .

(٢) زيادة من عندنا .

الأول لإثارة الحروب العاصفة والغارات الجارفة ، أيام العرب بما تثير في النفوس من أحقاد تنوسيت ، ولكن المرأة لا تنسى وهل المرأة إلا المرأة منذ وجد الانسان إلى أن تقوم الساعة :

فلا تحسبن هذا لها الغدر وحدها سجيّة نفس كل غانية هند
ولما قتل سعيد الأحول ولّى المكرم أسعد بن شهاب على زبيد فسلك
طريقته المعروفة من الرّفق وحسن المعاملة ، وهرب جيش بن نجاح إلى
الهند ، ورافقه وزيره خلف بن أبي طاهر الأموي ، فلبثا في الهند تسعة أشهر
تزوج جيش في أثنائها بجارية هندية ، ثم رجعا إلى اليمن آخر سنة ٤٨١
والجارية الهندية في خمسة أشهر من حملها ، ولما وصلا إلى عدن قدّم
جيش وزيره الأموي إلى زبيد ، وأمره أن يظهر في الناس موت جيّاش بأرض
الهند ، ويستأمن لنفسه ، ويستقري أخبار موالي آل نجاح ، وأقاربهم ومن
تربطه بالدولة النجاشية رابطة حب وولاء ، وسار الأمير جيّاش إلى ذي جيلة
متنكراً في زي الهنود يتنّسّم أخبار المكرم ، وبعد أن وقف على ما يهّمه
الوقوف عليه من أمر عدوّه ، هرع إلى زبيد ودخلها متنكراً أيضاً ، فاجتمع
بوزيره الأموي وأخبره عن مواليه ، وذو قرابته بما سربه ، وفتح له باب في
استرجاع مجدهم الذّاهب ، ولم يزل يدأب هو ووزيره حتى جمعا من
الأجاش خمسة الآلاف حربة ، وكان يأوي بجوار الدّار السلطانية ويقصد
مصطبة علي بن القم في كل صباح قال : فسمعتة يوماً وهو يقول : والله
لوجدت كلباً من آل نجاح لملكته زبيد وكان ابن القم وزيراً لوالي المكرم
الأمير أسعد المذكور ، ثم انه اتصل بعلي بن القم ، وولده الحسين بن القم
الشاعر المشهور^(١) وهو على حال تنكره ، وكان اتّصاله بهما بواسطة لعب

(١) هو ابو عبدالله الحسين بن علي بن القم كان شاعر الدولة الصليحية له ديوان شعر منه نسخة
لمكتبة بريطانيا توفي نحو سنة ٤٨٠ .

الشطرنج قال فلما أراد الله تعالى رجوع الأمر إليّ لعبت أنا وحسين بن القم وليس معنا إلا أبوه علي سريره ، وهو يعلم ولده ، فتراخيت له حتى غلبني قصداً للتقرب إلى قلب والده فطاش الحسين بن علي من الفرح وسفه عليّ بلسانه فاحتلمته لأبيه ، فمد يده إلى الخرقه التي كانت علي عيني : - (وكان قد جعل هذه الخرقه علي عينه لئلا يعرف وتشبه بأهل الهند) - فاحفظني ذلك ، فقام أبوه فقبح عليه فعله ، وقمت مغتاظاً ، فعثرت فقلت أنا جيّاش بن نجاح علي جاري عادتي ، ولم يسمعي إلا الشيخ علي بن القم فوثب مسرعاً خلفي يجرّ رداءه ، حتى أدركني فأمسكني وأخرج المصحف ، وحلف لي بما طابت به نفسي ، وحلفت له ، وليس معنا أحد ، ثم أمر باخلاء دار الأغر بن الصليحي ، وفرشت ونقلت إليها الجارية الهندية ، فلما كان الليل اتاني علي بن القم وقال : خبرنا لا يخفي علي أسعد بن شهاب ، فقلت له أن معي بالمدينة خمسة آلاف حربة (وفي تلك الليلة وضعت الجارية الهندية الفاتك بن جيّاش) وكان قد رأى الحسين بن سلامة وأخبره أن أمره سيعود إليه ليلة ولادة الجارية) فقال قد ملكت فاكشف امرئ قال جيّاش : اني أكره قتل أسعد بن شهاب لأنه طالما قدر علي أهلينا وذرياتنا ، فعفا عنهم وأحسن إليهم ، فقال ابن القم : فافعل ما تراه ، فأمر بضرب الطبول والأبواق وثار معه كافة المدينة وخمسة آلاف من الحبشة واسر ابن شهاب ، فلما حضر اليه أكرمه جيّاش وأولاه خيراً وسيره بجميع ما يملك من خيل ومال ، وعاد ملك آل نجاح كما كان قال الديبع في كتابه بغية المستفيد^(١) : وكان جيّاش يلقب بالملك العادل ويكنى بأبي طامي وكان فاضلاً وله شعر رائق وترسل فائق ، وهو مصنف كتاب «المفيد في أخبار مدينة زبيد» وهو كتاب متسع الإفادة عزيز الوجود ومن شعره :

إذا كان حلم المرء عون عدوّه عليه فإن الجهل أبقي وأروح

(١) بغية المستفيد ص ٥٤ .

وفي العفو ضعف والعقوبة قوة إذا كنت تعفو عن كفور وتصفح

بهذه الفكرة الشاذة والنفسية المزدوجة قضى على وزيره أبي طاهر الأموي المرواني وكان من أفراد النُهر نبلاً وفضلاً ، وهو الذي صحبه إلى الهند وكان له الأثر الصالح في إعادة الملك إليه فعاهده إن عاد الأمر إليه ليقاسمته الملك وقد وفى له الحبشي واستوزره وسماه قسيم الملك ولما أراد أن يتزوج امرأة من الفرسانيين أهل موزع ، تمنع بعض أهلها فأرسل وزيره هذا لاستدراجهم واستمالتهم ، وبناء على ماله من مكانة في النفوس استشاره أولياء المرأة فأشار عليهم بالامتناع لأنهم يرجعون في النسب إلى تغلب ، والحبشي غير كفوء للعربي لاهكذا أشار عليهم الوزير فاستدرجهم الحبشي بالمال حتى رضوا ولما سألهم عن سبب امتناعهم ذكروا له ما أشار به الوزير ، فلم يتورع الأمير الحبشي عن قتل وزيره ظلماً وعدواناً .

وكأنه قد وخزه الضمير وأنبه الوجدان ، وأهاب العدل وسمع صوت الحق يلومه ويقبح فعله لاذ بنزعات الطغاة وشذوذ العتاة ، فاستروح لكلمة الطاغية بن الزيات^(١) الماثورة إذا قال له المعذب أرجمني قال : (الرحمة خور في الطبيعة) فرقص على ذلك الإيقاع ونظم الأبيات المتقدمة ، قال الخزرجي وقد قتله يقول ابن القم^(٢) :

أخطأت يا جيشا في قتل الحسن فقات والله به عين الزمن
ولم يكن منطوياً على دخن مبراً من الفسوق والدُّرن
كان جزاه حين ولاك اليمن قتلكه ودفنه بلا كفن

قال ولما قتل جيشا الحسن استعظم الناس ذلك من جيشا ، لأنه كان موصوفاً بالعدل والحلم معظماً للعلماء مبهجاً لهم سيما الحسن بن أبي عقامة

(١) ابن الزيات هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات وزير للمعتصم والوائق من بني العباس توفي سنة ٢٣٣ .

(٢) الخزرجي وأبناء الزمن والجندي .

الذي قتله لعلمه وفضله ولأنه كان أحد الأسباب لجيـاش في أخذ الملك
بتهامة^(١) .

وفاة المكرم وقيام الداعي سبأ بن أحمد الصليحي

ودخلت سنة ٤٨٤ فيها مات المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي
بذي جبلة وأسند وصيته في الدعوة إلى الأمير الكبير الداعي سبأ بن أحمد
الصليحي وفي الملك إلى زوجته الحرة السيدة . وقال الجندي ان المكرم
تحرك من ذي جبلة إلى صنعاء فتوفي في بيت بوس في السنة المذكورة .

وكان مقر الداعي سبأ بن أحمد بحصن أشيخ بمخلاف بلاد الهان (بلاد
أنس) وهو حصن منيع يماثل حصن مسار في الارتفاع والمنعة ، وكانت بلاد
الجبـال خاضعة لبني الصليحي ، وزبيد والتهـائم لجيـاش بن نجاح ، وقد مـرت
على البلاد برهة بعد تغلب جيـاش على زبيد ، شبه سكون لعجز المكرم عن
مقاومة الأحباش ، فلما تولى سبأ بن أحمد آثارها داحسية غبرا على زبيد وشن
الغارات^(٢) على التهائم ، ومن أشهر الوقائع ، وقعة الكظائم^(٣) على باب
زبيد ، وكان كل واحد من الفريقين قد تحقـز لمحو الفريق الآخر ، وأعد لذلك
عدته فحشد الداعي سبأ عشرة آلاف راجل وثلاثة آلاف فارس وجمع جيـاش
جموعه واستنجد بالشريف يحيى بن حمزة بن وهـاس ، واتفق رأي امراء زبيد
على مكاتبة سبأ والميل إليه فكاتبوه وخادعوه ، ولما اقترب بجنوده من
المدينة ، ودارت رحا الحرب ثار الشريف يحيى بن حمزة ، وكان قد كمن
متربعا سـنوح الفرصة ، فلما لاحـت له حمل على القاضي عمران بن الفضل ،

(١) في مفيد عمارة ص ٢٠٧ ان هذه الأبيات قيلت بسبب قتل نجاح الحسن بن ابي عقامة فيحقق
وعد قصة بوسط المذكور في زواج نجاح في السلوك منسوبة الى ابن عقامة المذكور فلعل
الأمر البش على المؤلف رحمه الله والله أعلم .

(٢) في الأصل الغرات .

(٣) الكظائم : محل بالقرب من مدينة زبيد .

وطعنه طعنة نجلاء لا تسدّها عصائب الخمر ولا ثمر الرأ ، وقتل يومئذ الأمير قيس بن أحمد بن المظفر وانهزم أصحاب الأمير سبأ وعقر فرسه فسار في غمار المنهزمين على أقدامه ، حتى أركبه بعض أصحابه على جواده ، وكان الدّاعي سبأ قد وثق بمكاتبة أمراء جيش فلم يتحوط الاحتياط اللازم فكانت الدائرة عليه .

وبعد أيام عزم أولاد القاضي عمران إلى تهامة للأخذ بثأر أبيهما من قاتله الشريف فقتلاه غيلة ورجعا^(٢) .

لم تكن وقعة الكظائم فاصلة بل كانت مثيرة وحافزة للفريقين على مواصلة الكفاح وشن الغارات فكانت الحبشة إذا جاء الشتاء تخرج من البلاد إلى جزيرة دهلك فتخلفها العرب وتستمر العرب في تهامة وزبيد إلى فصل الصيف إذ فيه تعود حكومة الأحباش سيرتها الأولى ، وهكذا دواليك ، وكانت الحكومة الصليحية تقبض خراج تهامة وتسقط عن الرّعية ما سلّمته لبني نجاح أيام الصيف والخريف فإذا جاء دور آل نجاح ، احتسبوا للرّعية ما دفعوه للحكومة الصليحية على هذا الحال استمرت الحالة برهة من الزمان .

زواج الداعي سبأ بن أحمد بالحرّة السيّدة

لما أكملت الحرّة السيّدة أيّام العدة ، خطبها الدّاعي سبأ فكرهت ذلك ، وامتنعت فغضب سبأ وجمع جموعه ، وقصد حرب السيّدة إلى ذي جبلة فجمعت هي أيضاً الجنود ، والتقى الجمعان فاقتتلا أيّاماً وثبت الفريقان يخطّان بدم القتلى صحيفة سوداء من أعجب ما سجّله طغيان القوة في صحائف التاريخ ، ولما تكافأت القوى توسّط أخو [السيّدة]^(٣) لأمرها

(١) الخزرجي ونزعة الأخبار.

(٢) انظر هذا في غاية الأمان ص ٢٧٥ .

(٣) ساقط من الأصل.

سليمان بن عامر الزواحي ، وأشار على الداعي سبأ بمراجعة إمامه المستنصر^(١) العبيدي ، فانصاع الداعي الى مقترح الزواحي ، ورجع بجنوده المسخرة الى مقره بحصن أشيخ وبادر بإرسال رسولين ، ومعهما هدية نفيسة وزودهما بكتاب إلى المستنصر فما كان بأسرع من عود رسولي الداعي ومعهما جواب المستنصر ورجل آخر موفد من قبل الخليفة ، يحتم على السيدة قبول الداعي سبأ زوجاً لها ، ولما مثل رسول الخليفة بين السيدة ، وعندها وزراء دولتها ورجالها أبلغها سلام أمير المؤمنين ، وما منحها من الألقاب وأفاض عليها من النعوت ، وبعد ذلك قرأ عليها قرار مولاه ، ونصّه^(٢) : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً^(٣) وقد زوجك أمير المؤمنين الأوحد الداعي المنصور المظفر ، عمدة الخلافة ، أمير الأمراء أبي احمد سبأ بن احمد بن المظفر على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار وخمسون ألفاً اصنافاً^(٤) ، وعلى كره قبلت فهرع الداعي سبأ إليها في جموع كثيرة ، وأقام بذي جبلة شهراً والحرّة السيدة تنفق عليه وعلى أصحابه النفقات الواسعة ورأى من علو همتها ما حمله على الندم على خطبتها ، ثم أرسل إليها سرّاً ان تأذن له بالدخول إلى دارها ليتوهم الناس أنه قد خلا بها ، فأذنت له بالدخول الى بعض مقاصير الدار ، ويعثت إليه جارية تشابهها ، وعرف الأمير سبأ حيلتها فقعد لا يرفع طرفه إلى الجارية وهي قائمة على رأسه ، فلما أصبح رفع مخيمه ورجع إلى حصنه ودخلت سنة ٤٨٥ وفيها مات زريع بن العباس

(١) المستنصر هو معد بن علي بن الحاكم بأمر الله الفاطمي تولى الحكم صغيراً سنة ٤٢٧ وتوفي سنة ٤٨٧ .

(٢) الآية ٣٦ سورة الأحزاب .

(٣) الخزرجي وأنباء الزمن (ص) .

(٤) جمع صنف وهي القطعة من القماش .

الهمداني صاحب عدن وولي بعده^(١) أمر عدن ولده سبأ .

طائفة الغز الواصلة لإنجاد جيش بن نجاح

ودخلت سنة ٤٨٦^(٢) فيها استدعى جيش طائفة من الغز لمحاربة الداعي سبأ بن أحمد ، فخرج منهم ثلاثة آلاف فلما فارقوا مكة ، وتوجهوا نحو زبيد ندم الأمير جيش وخاف منهم ان يستولوا على البلاد ، وأمر عماله في الطرقات ان يضعوا لهم السم في الطعام والشراب فهلك أكثرهم ، ولم يخلص إلى زبيد منهم إلا دون الألف ، فلم يطمئن فؤاد ذلك الأمير ، وظل شبح الخوف منهم سمير أحلامه ، وهو اجس أمانيه رغماً على قتلهم وأبت نوازع نفسه إلا جعل تلك الأرواح ضحايا طغيانها فجهز منهم خمسمائة فارس إلى الجبال ، ولما وصلوا إلى البون دس عليهم من قتلهم بالسم وبعد ذلك عاد على بقيتهم فأقطعهم وادي ذؤال^(٣) بعد ان فرق كلمتهم وافعم^(٤) صدورهم حقداً على بعضهم بعضاً ، وتركهم عبيداً مسخرين لإرادته .

ان الشجاع هو الجبال عن الأذى وأرى الجري على الشرور حيانا^(٥) ودخلت سنة ٤٩١ فيها مات الأمير سبأ بن زريع ، وولي الأمر بعده في عدن وأعمالها أخوه أبو السعود^(٦) .

وفاة الداعي سبأ بن احمد الصليحي

ودخلت سنة ٤٩٢ فيها مات الأمير الكبير الداعي سبأ بن احمد

(١) في الأصل بعد .

(٢) غاية الأمان ص ٢٧٩ .

(٣) ذؤال : واد مشهور يسيل من جبال ريمة الاشباط ويصب في البحر الأحمر من ساحل الطائف ما بين وادي سهام ووادي رمع .

(٤) افعم صدورهم : ملأها .

(٥) من أبيات لأحمد شوقي .

(٦) انباء الزمن والخزرجي .

الصليحي ، وكان ^(١) شجاعاً كريماً فصيحاً أنوفاً ذا شمم وعفة ونزاهة وإباء قال الجندي : كان من أكرم العرب وأعفهم وأشرفهم نفساً ، ما وطىء أمة ولا شرب مسكراً : وكان ممدوحاً يقصده الشعراء ويمدحونه فيثيهم ، وربما مدحهم بشيء من الشعر مع الإنالة ، وإلى ذلك أشار ابن القم بقوله ^(٢) :

ولما مدحت الهزيري ابن احمد اجاز وكافأني على المدح بالمدح
فعوضني ^(٣) شعراً بشعري وزادني نوالاً فهذا رأس مالي وذا ربحي
شقت إليه الناس حتى رأيت فكنت كمن شق الظلام الى الصبح
[فقبح دهر ليس فيه ابن احمد ونزه دهر كان فيه من القبح] ^(٤)

قال عمارة ^(٥) : لما قام ابن القم بين يدي سبأ ينشده هذه القصيدة التي منها هذه الأبيات منعه من القيام ، ورمى له بمخدة وأمره بالقعود عليها إكراماً ورفعاً عن ^(٦) الحاضرين ، ثم لمّا فرغ من الإنشاء قاله : يا [أبا] ^(٧) عبدالله انت عندنا كما قال المتنبي :

وفؤادي من المملوك وان كان لسانني يرى من الشعراء
فانظر أيها الناظر في كتابي ، في فعل هذا القيل ^(٨) وحسنه ، وما لطف به هذا الشاعر وأحسن إليه مقالاً وفعلاً ، وكان الأمير سبأ بن احمد دميم الخلق ، قصيراً لا يكاد يظهر من السرج ان ركب .

(١) انباء الزمن وقرّة العيون .

(٢) الأبيات في المفيد لعمارة ص ٢٤٣ .

(٣) في مطبوعة المفيد فعوض عن شعري بشعر .

(٤) هذا البيت ساقط من مطبوعة المفيد .

(٥) المفيد ص ٢٤٣ .

(٦) في مطبوعة المفيد عنا .

(٧) ساقط من الأصل والزيادة من المفيد .

(٨) لقب ملوك حمير القادمي .

السيدة بنت احمد بعد وفاة الداعي سبأ

لما مات^(١) الداعي سبأ بن احمد أقامت السيدة للذَّب عن مملكتها والقيام بأمر دولتها المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري ، وكان عاملاً على التعكر ، وما إليه ، وجعلت مكانه أخاه خالد بن أبي البركات ، وبعد مضي سنتين على خالد المذكور في ولاية التعكر ، قتله الفقيه عبدالله ابن المصروع غيلة ، وكان خالد بن أبي البركات يجلب الفقيه المذكور ويحترمه ، لعلمه وديانته فسهل له الحجاب ، بحيث لا يمنع عن الدخول إليه في أي وقت أراد ، فدخل عليه في بعض غفلاته ، وقتله استحللاً لدمه ، لكونه على مذهب الاسماعيلية ، وكان قد استصحب كمية من المال ليستغوي به الجند المرتب بذلك المعقل ، ولم يستشر غير نفسه ، فلما قتل خالد المذكور صاح الفقيه وارتابك فتبادر إليه أهل الحصن والحقوه بمن قتل :

فأضحى كظهر الفحل جُبَّ سنامه يدب إلى الأعداء احذب باركا ثم انه طلع المفضل والياً على التعكر بدلاً عن أخيه ، وأظهر عداوة الفقهاء ، وقبض على أموال الفقيه وأراضى قومه قال الجندي : وهي الأملاك القديمة التي في ذي السفال ، وصار المفضل رجل البيت ، ومدير الملك والذَّاب عنه ، وغزا عدن لاختضاع المتغلبين على السيدة عن تسليم الخراج من بني زريع ، وانجد منصور بن فاتك لما استنجد بالسيدة كما سيأتي ، وسار الى زييد فغنم الفقهاء بُعده عن الحصن ووثبوا عليه ، فطلع من زييد وشدد عليهم الحصار ، ولما تيقنوا الضعف وأحسوا بالهزيمة والاستسلام عمدوا إلى نسائه وجواريه ، فأخرجوهن إلى موضع مشرف من الحصن على محطته ، وأمروهن بضرب الدفوف ورفع أصواتهن بالغناء^(٢) ، وعليهم ثياب الزينة فلما

(١) غاية الأمانى ص ٢٧٩ .

(٢) انظر خبر علماء التعكر في السلوك للجندي وغاية الأمانى ص ٢٨٣ والمستبصر لابن المجاور وغيره .

نظر إليهن المفضل مات لوقته غيرة وأسفاً سنة ٥٠٤ ، ومن مبررات المفضل بن أبي البركات جَرَّه الغيل من خنوة^(١) الى مدينة الجند ونحته لذلك الجبال والصخور ، وبذله كل مستطاع لتعبيد طرقه في بطون الأودية ، ومخارم الجبال وتجديد عمارة الجند .

ومن لطيف ما يروى عنه أنه لما كان بمحل امارته حصن التعكر كانت السيدة تنتقل من ذي جبلة الى التعكر أيام الصيف فإذا جاء الشتاء نزلت ذي جبلة ، وكانت ذخائرها وذخائر بني الصليحي وما يعزّ عليهم من الأموال والتحف موضوعة به ، فذكروا أن المفضل قال لها يوماً : يا مولاتنا انظري ما كان لك في هذا الحصن فانقلبه فإني لا أحب أن يكون لأحد علّ فيه طاعة ، فقالت : لا بأس عليك انت رجل البيت ، ولا تكلفك ما يسؤك ، ولما نزلت من الحصن لم تعد إليه حتى ماتت ، ولكنها تغيرت عما كانت عليه من الاعتماد عليه في مهماتها وتنكرت له بعض التكر ، ولما مات المفضل على الضفة المذكورة ، انتقلت السيدة إلى الربادي^(٢) ، وكاتبت الفقهاء بالنزول من الحصن على ان يشترطوا عليها ما شاءوا ، فأجابوا إلى ذلك ، ونزلوا بعد أن اشترطوا عليها شروطاً وفت لهم بها ، وجعلت فيه مولاها فتح بن مفتاح .

ذكر المتغلبين على صنعاء بعد بني الصليحي

لما تحول المكرم عن صنعاء إلى ذي جبلة استعمل على صنعاء القاضي عمران بن الفضل برهة ، ثم ولأها حاتم بن الغشم بن المغلس ، ولما عزل القاضي عمران قال مخاطباً المكرم والأمير سبأ بن أحمد :
ولا تخرجنا بالعزل أكباد معشر إذا غضبوا غلّ القنا وتكسرا

(١) خنوه : بكسر الحاء المعجمة والنون الساكنة قرية سميت بها عزلة خنوة الواقعة في منتهى مخلاف جعفر متصلة بوادي ظباء من أعمال ذي السفال وذي اشرق .
(٢) الربادي : عزله حصبة تقع جنوبي مدينة ذي جبلة .

فلو أن مولانا^(١) معداً أتاكما بعزل تولى الكل منا وأدبرا
ولا تفرقا من لغة والداكما وعودا الى عقليكما وتدبرا
فإن انما انكرتما ما نظمته فصدقي غدا من طلعة الشمس أشهر

فلما مات^(٢) الداعي سبأ خرجت صنعاء وأعمالها عن مملكة الصليحيين ، واستولى عليها السلطان الأجل حاتم بن الغشم المغلسي سنة ٤٩٢ ، وكان ناهضاً كافياً معدوداً من كملة الرجال ، وكان له من الولد ثلاثة ، وهم محمد وعبدالله ومعن ، فقام ولده محمد بكثير من أعمال أبيه في حياته ، وكانت له حظرات جنونية منها ، أنه سمع يوماً ضرب الطبول وأصوات المزامير فاهتز لذلك ، وأخذته الأريحية فلبس لامة حربة ، وركب جواده ، وأمر همدان بالركوب ثم خرج بهم يريد نجران ، فقالوا : أن بيننا وبين نجران مسافة بعيدة ، وليس معنا عدّة ولا زاد ولا راحل ، فقال : لا بد من ذلك ، فقالوا : دعنا نعود إلى صنعاء نتجهز ونعود إليك ، فقال : صبوا دروعكم هاهنا ، ففعلوا فسمي ذلك الموضع مصب الدروع من ذلك اليوم ، ثم رجعوا إلى صنعاء وخرجوا فسار بهم إلى نجران فاستباحها وعاد إلى صنعاء .

ومنها انه كان إذا تزوج امرأة وأحبها قتلها ، فتحاماه الناس وامتنعوا عن تزويجه ، ثم انه خطب امرأة من بني الصليحي أهل قيصان^(٣) ، فلم يزوجه إلا بعد ضمان والده وكفالته مع جمع من رؤساء العرب ، وأخبره والده انه مقتول بها ان قتلها ، فقبل الولد ذلك ، وأقامت عنده ما شاء الله ، ثم قتلها ، وفرّ إلى حصن براش خوفاً من أبيه ، فلم يزل أبوه يخادعه حتى نزل إليه فقتله ، واحتز رأسه وحمله على رمح ودخل به صنعاء ، ولما فوجئت ابنة المقتول برأس أبيها جنت وحزن عليه أبوه ورثاه بأبيات منها :

(١) نزهة الأخبار والمراد بمعد الخليفة الفاطمي .

(٢) قرّة العيون والخزرجي وابناء الزمن .

(٣) قيصان : حصن خارب من جبل بني الحارث من بلاد يريم .

وقلت له هذا قصاص بما جنت يداك وكان الله روحك راحما
وكننت اذا جشمته لملمته رأيت فتى للمعضل الخطب حاسما
وان حضر اليوم العبوس رأيت اذا طاشت الأحلام أروع باسمما

ودخلت سنة ٤٩٣ وما بعدها إلى سنة ٤٩٨ فيها مات جيش بن نجاح،
وولي الأمر بعد ولده فاتك بن جيش، وهو ابن الجارية الهندية،
فخرج عليه أخوه ابراهيم وعبد الواحد^(١)، وكانت بينهم عدة وقائع، انتهت
بظفر فاتك بأخيه عبد الواحد، فأكرمه وصفح عنه وبالف في برّه، وأما ابراهيم
فنزّل بأسعد بن وائل الوحاظي الكلاعي الحميري، فأكرمه بما لم يسبق إليه
أحد، وقال في انباء الزّمن^(٢) انه لما ظفر بعبد الواحد سجنه في زبيد^(٣)

الحرب بين الخطاب^(٤) ابن أبي الحفاظ الحجوري وأخيه

ودخلت سنة ٥٠٠ فيها كان الحرب بين الخطاب بن الحسن وأخيه
سليمان بن الحسن بن أبي الحفاظ بن حجور بن قدم بن جشيم الهمداني،
فاستنصر سليمان بصاحب زبيد فاتك بن نجاح وبالشريف صاحب المخلاف
السليمانى، واستنصر الخطاب ببني الصليحي، وفي النهاية تمكّن الخطاب
من أخيه سليمان فقتله، وكان الخطاب هذا قد قتل أخا له اسمه أحمد بن
الحسن، قصاصاً كما زعم بأخت له قتلها أحمد بن الحسن ففر سليمان عن
البلاد، وانتشرت كلمتهم، وتمزقت جامعتهم واستمر سليمان يجوس خلال
الديار الخاضعة لحكم أخيه بمن معه من ألفاف القبائل، ويستنصر بصاحب
زبيدة تارة وبالأشراف أخرى، حتى أدى ذلك إلى خراب البلاد، وهلاك

(١) في الأصل عبد الوالد (سبق قلم).

(٢) غاية الأمانى ص ٢٨١.

(٣) فراغ في الأصل.

(٤) هو السلطان الاجل الخطاب بن الحسن قال في اللآلىء ان بني الحفاظ كانوا دعاة للاسماعيلية
وكان هذا الخطاب داعياً للخليفة الملقب الأمر بأحكام الله المنصور بن المستعلي (ص).

العباد في سبيل المصالح الخصوصية ، وعلى حساب الأطماع الملتهبة ،
والنفوس المتعطشة إلى السلب والنهب ، وكان مستقر ملك هذه الأسرة
الجريب^(١) من ناحية بني جلّ ودير ابن عنجر ويعرف الآن بسوق المحرقّ
وقلحاح ، قال الشرقي في لآليه : وفي قلحاح مآثر عظيمة وعمارة كثيرة قلّ ما
يوجد مثلها ، ولا أدري هل هي من مآثرهم أولاً لأنهم لم يذكروه في أشعارهم
مع كثرة ذكرهم لغيره من سائر القرى والقبائل ، الذين في تلك الجهة وقد
ذكر في اللآليء عدة قصائد للخطاب وأخيه سليمان^(٢) . وفيها مثال ناطق
وصورة كاملة لما لحق البلاد وأهلها من الخراب والدمار والبؤس والإقتار ،
بسبب الأخوين المذكورين ، فمن ذلك هذه القصيدة لسليمان يمدح الجريب
ويذم اخاه الخطاب أولها :

إذا الله عمّ الأرض منه برحمة فروى منها محلها وخصيبتها
فلا تخطئن أرض المحافر سهلها وأوعارها قبل البلاد نصيبتها
بلاد تساوى بردها وحرورها فسيان كانون بها وأبيها^(٣)
غزيرة أنهار تفيض مياهاها وغير حرور حيث كان قليبها
واعذب أرض الله أما لشاقتها وتخصّ بها طيبا ويرد أجريها
إذا كانت العذراء للشمس منزلاً وقابل أيام الخريف صريها
رأيت بها الأغاب والخوخ دائماً مع التين والتفاح يرضيك طيبها
ومنها :

وفيها من الفتيان كل سيمذع تعاف الدنيا^(٤) نفسه وتعيها
تعاف

(١) الجريب : بفتح الجيم وكسر الراء قرية من بلاد حجور الشام .

(٢) وقد طبع ديوانهما مع حذف فاحش في السنوات الأخيرة وشردبوان الخطاب الحجوري مستقلاً
الاستاذ اسماعيل قربان من على الاسماعيلية بالهند .

(٣) شهر ابيب : من شهور القبط .

(٤) في الأصل دنيا .

تذكرتها ذكر البغي شبابها وقد حال عما تبغبه مشيها
ومنها في ذكر ما كان بينه وبين أخيه :

وأغراه أقوام إلى أن أصابني
سعت بيننا منهم عقارب اجنة
والفوا صبيا لا دراية عنده
ولا بأمور بيننا وغبائن
ولو أنني حاذرت منه الذي أتى
ولكنني قلت الأخ الجامع الذي
وأدبته حتى غدا بين قومه
ولم اعتقد فيه الذي كان ينطوي
وإن كنت لم أترك له نفع درهم
ولا ساكن ما بين حمى كنانة
وفي أسفل «المرباح» شاما ومصعدا
شنت عليها غارة بعد غارة
واذرت في سكانها القتلى كي
وابدى لهم تقصيره عن حمائمهم
فلما رأيت السيف^(٢) رجالها
وذكرت نفسي العفو عنها وانني
ومن هي حتى اجعل الحال منهم

على الأمن فالله الغداة حسيها
وبغضاء لا يألوا سريعا ديبها
بضغن وأحقاد طوتها قلوبها
تزر عليها منذ كانت جيوبها
تباعد عنه عند ذاك قريبها
عنصره لا يخلف الدهر طيها
يشير إليه الكل هذا أديبها
عليه له نفس خبيث عيوبها
ولا غلة من زرع ارض يصيبها
إلى السرو إلا وحش ضبع وذيبها
إلى «العرق»^(١) قفرا دورها ودروبها
إلى أن ملته شرقا وغربا نهوبها
يسروا باني أحميها وأني أريها
ومني عنها وهي تدمي ندوبها
شجاني قناها صبعة وذهوبها
لصافح اجرام الجناة وهوبها
وتعظم في صفحي وعفوي ذنوبها

وحسبنا ما تنم عنه هذه الأبيات من روح الاستغلال والاستئثار ، وما كان
لتعارض المصالح والمنافع من أثر في العمران والسكان ، وللسلطان

(١) بلد من حجور.

(٢) بياض في الأصل.

الخطّاب بن الحسن قصيدة تضمّنت وقائع ابن مهدي كتبها إلى الشريف غانم بن يحيى بن حمزة بن سليمان صاحب المخلاف ، وجعلها ملحمة ضمنها ما سيقع من الأحداث أيام ابن مهدي وما بعده أولها :

إذا رحل في عقرب عبّها عبّا فخل التواني وانتظر كل ما ينبا
إذا حل في برج اكليل راسخ فقل يا هوان المعجم يا غرّة الوباء
وابصر ابا يعقوب حرباً جرت به أمور واسباب تشب البلا شبا
سيظهر يا مولاي غانم ظاهر يسقي بني الأحبوش كاسا له قبا^(١)

إلى آخرها وهي طويلة استند فيها إلى علم المستقبل ، وما سيكون فيه من أنباء وأحداث ، ونحن هنا لا نحب الخوض في صحّة أنباء علم المستقبل وما جاء فيه من تنجيم وحدثان وملاحم ، وأحاديث منسوبة إلى النبي صلى الله وسلم عليه وعلى آله أو إلى الكتب القديمة كأخبار وهب بن منبه وكعب الأحبار وغيرهم ، ولا بأس أن نشير إلى طرف من ذلك ، فمنها ما صنعه كعب الأحبار لما دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، وأراد أن يجعل المصلّى ، فعمد إلى كناسة كانت الروم دفنت فيها بيت المقدس ، وهو الهيكل في زمان بني إسرائيل فجثا في أصلها وحثا في قبائه وأمر الناس أن يصنعوا صنيعه ، وسمع تكبير الناس من خلفه ، فقال : ما هذا فقالوا : كبر كعب فكبر الناس بتكبيره ، فقال : عليّ به ، فأتى ، فسأله : عن سبب تكبيره ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت نبي منذ خمسمائة عام ، وسرد له خبراً ذكره الطبري كله من الاسرائيليات التي ابتدعها هو وسواه ولا أصل لها ، وما أخبر به^(٢) عمر بن الخطاب من أنه سيموت بعد ثلاثة أيام ، وإن التوراة نصّت

(١) القب: المرّ.

(٢) والذي جزم به كثير من المحقّقين أن قتل عمر نتيجة لمؤامرة واتفاق جنائي غمس يده فيه الهرمزان وفيروز ابي لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة وجفيتة الأنباري وكعب الأحبار راجع ما كتبه الأستاذ عبد الوهاب النجار (ص).

على صفة عمر وحليته إلى غير ذلك هذا ما كان في القرن الأول .

وفي أيام الدولة الأموية والعباسية ، كان لأخبار الملاحم والحدثان ونحوها المقام الأول ، وقد وضعت الملاحم والأخبار واخترعت الأحاديث على عهد الدولتين ، وكان لها في أعمالهما تأثير كبير فمن ذلك ما روى^(١) أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية لم يجد في الحرب الفاصلة بين حياة دولته وموتها ولا إنهزم مغلوباً ولكنه ، كان نظر في كتب الحدثان فوجد فيها أن طاعة المسودة^(٢) ، لا تجاوز الزاب^(٣) فقال : ذلك لوزرائه ، فقالوا له أن بمصر زاباً آخر قال فإليها نذهب ، والزاب الذي أراد علمه هو بأرض المغرب .

وروى (المبرد في كامله) حكاية أخرى جرت بين عبد الملك بن مروان وصديق له كان من أهل الكتاب فاسلم حذر عبد الملك أمور استقبالية الزمن منكراً فنفض عبد الملك ثوبه ، وقال : معاذ الله ، فقال له صاحبه : ما قلت شاكاً ولا مرتاباً ، وإني لا أجذك بجميع أوصافك ، فقال عبد الملك : ثم ماذا . قال : يتداولها رهطك ، قال : إلي متي ، قال : إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان : هذه لمعة من أخبار الملاحم والكتب القديمة كانت رائجة في القرون الأولى .

أما ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فكثير منها ما رواه (الخطيب في تاريخه) في ترجمة الإمام القائم بأمر الله عبد الله بن أحمد العباسي عن أبي سعيد الخدري : سمعت رسول الله (ص) يقول : منا القائم ، ومنا المنصور ، ومنا السفاح ، ومنا المهدي فأما القائم فتأتيه الخلافة

(١) راجع كتاب الامامة والسياسة (ص) .

(٢) يعني بني العباس .

(٣) الزاب : موضع في العراق وآخر بالمغرب يطلق على عدة بلدان منه بمسكرو وقسطنطينية وطولعه وقفصة وغيرها (مراصد الاطلاع ص ٦٥٢) .

لم يهرق فيها حجمة دم ، وأما المنصور ، فلا ترد له راية وأما السُّفاح فهو يسفح المال والدم ، وأما المهدي فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً .

وقال (المسعودي) في مروج الذهب ، ولما حبس إبراهيم الامام بحرّان وعلم ان لا نجاة له من مروان ، أثبت وصيته وجعلها إلى أخيه أبي العباس ، وأوصاه بالقيام بالدولة ، فإن هذا الامر صائر إليه لا محالة ، وانه بذلك أتتهم الرواية .

والكلام على هذا الفن متشعب الأطراف يستغرق مجلّدات وليس من غرضنا الخوض فيه وإنما اوردنا ما تقدم بمناسبة ملحمة السلطان الخطاب بن محسن الحجوري الهمداني .

قال في أنباء الزمن: (١) ودخلت سنة ٥٠١ فيها قتل مسعود بن العباس صاحب عدن وقام بعده ولده ابو الغارات بن مسعود .

ودخلت سنة ٥٠٢ (٢) فيها مات السلطان حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني صاحب صنعاء وتولى بعده عبد الله بن حاتم ، قال الخزرجي : وكان يعرف بالشاب العادل فلبث في الإمارة سنتين ، وقتل مسموماً ، فتولّى بعده أخوه معن بن حاتم ، فحصل في ولايته قلق واضطراب (٣) انكرته همدان ، وفي مقدّماتها القاضي احمد بن عمران بن الفضل ، وكان زعيم همدان وعالمها فجمع همدان وخلع معنّاً عن الأمر وساعدته سائر قبائل همدان على ذلك ، وذلك في سنة ٥١٠ ، وبعد أن خلع هذا الأمير انتقل الأمر إلى فخذ آخر من همدان ، وهم بنو القبيب ، وكان أول

(١) غاية الأمانى (مختصر ابناء الزمن) ص ٢٨٢ .

(٢) غاية الأمانى ص ٢٨٢ .

(٣) الخزرجي : العسجد المسبوك ص ٧٢ .

(٤) عبارة الخزرجي «تشويش وضبط» وقد أبدلها المؤلف رحمه الله بعبارة «عصرية تتفق مع ثقافته وعلى هذا يسير في كثير من المواضع فلا حاجة الى التنبيه إليه هنا .

من تولى منهم هشام بن القبيب ، وأخوه حماس بن القبيب ، واستقر الأمر فيهم
مشركاً بين الأخوين إلى أن توفي هشام في التاريخ الآتي .

ودخلت سنة ٥٠٣^(١) فيها توفي فاتك بن جياش صاحب زبيد ، وترك
ولده منصور صغيراً لم يبلغ الحلم ، فملكته عبيد أبيه ، وثار عليه عمه إبراهيم
ونزل إلى تهامة ، وقصد زبيد فخرج لحربه ، عبيد فاتك فانتهاز عبد الله أحمد
خلو المدينة عن الحامية فثار بها وملكها ، ودخل دار الإمارة ، فأسرع خاصة
الأمير الصغير بإخراج مولاها ، خوفاً عليه من عبيد عمه الشاثر الجديد عبد
الواحد ، وأدلوه من سور البلد ، ولما عرف إبراهيم ما كان من أخيه عبد
الواحد آيس من زبيد واحلام الملك ولاذ بإبن أبي الحفاظ الحجوري ، وهو
يومئذ بالحريب ، وسار منصور بن فاتك في عبيده وأتباعه إلى المفضل بن أبي
البركات الحميري ، فنزلوا عليه وعلى الحرة السيدة فأكرما وفادتهم ، ثم إن
ممالك منصور وأتباعه ، طلبوا من المفضل النصرة على أن تكون له ربع
البلاد ، فهرع لنصرتهم ، وأخرج عبد الواحد من زبيد ، وثبت منصور
وممالكه في البلاد ، وكان المفضل هم أن يغدر بهم ويملك البلاد ، لولا ما
بلغه من إستيلاء الفقهاء^(٢) على حصنه كما تقدم .

ودخلت سنة ٥٠٤ فيها المفضل بن أبي البركات^(٣) وقد تقدم .

ودخلت سنة ٥٠٦ فيها استعادت الحرة السيدة حصن التعكر من
الفقهاء .

ودخلت سنة ٥٠٧ وما بعدها إلى سنة ٥٠٩ لم يتفق فيها ما ينبغي
ذكره .

(١) غاية الأمان ص ٢٨٣ .

(٢) يعني فقهاء التعكر من بني المصوع .

(٣) يعني فيها مات المفضل بن أبي البركات سبب غيرته على نسائه وقد رآهن يرقصن فوق حصنه
كما تقدم فيما مضى .

ودخلت سنة ٥١٠ فيها جمع القاضي عمران بن الفضل قبائل همدان إلى الموضع المعروف بمصبّ الدروع ، وخلع معن بن حاتم عن الإمارة كما مر .

وفيها قدم من الديار المصرية علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة مؤازراً للحرّة الملك السيدة ودفاعاً بأمر الدّعوة العبيدية ، ومعه عشرون فارساً ، وكان نبيهاً عاقلاً حسن التدبير واسع الإطلاع ملماً بمذهب الإسماعيلية فأقامته السيدة على سدتها محافظاً بذي جبلة ، وكانت خولان قد استطالت على الرّعية ، واستخفت بأمر السيدة ، فأدّبهم ابن نجيب الدولة ، وطردهم^(١) من البلاد وغزا الأطراف ، ولما تحقّقت السيدة فيه إكتفائه ولّته مخلاف الجند ، وأمرته بالنقلة إليه لتوسطه بين الأعمال واستمر على عمله إلى سنة ٥١٨ ، وفيها غزا زبيد فقاتل أهلها على باب القرتب^(٢) وعاد ابن نجيب الدولة إلى الجند بعد أن صرع عن جواده وأشيع أنه قتل .

وفي سنة ٥١٩ أظهر الخلاف على السيدة ، وقال : انها قد خرفت وشاخت ، فجمعت له ملوك اليمن وأمرتهم بمحاربته ، وكان لا يخالفها أحد منهم في صلح أو حرب ، فحصره في الجند وكانت مسورة ، ولما أشد عليه الحصر والقتال ، بعثت الحرّة إلى وجوه القبائل المحاصرة بعشرة آلاف دينار^(٣) مصرية ، وأمرت ان يذيعوا في العسكر ان المال من ابن نجيب^(٤) الدولة فطلبت الجنود من سلاطينها أن ينفقوا عليهم ، وألا ارتحلوا فلم يعطوهم ، فارتحلوا وتفرّق الناس ، وقيل لابن نجيب الدولة ، هذا من تدبير

(١) الجندي والخزرجي وانباء الزمن .

(٢) القرتب : بلدة وضاحية من ظاهر جنوب مدينة زبيد .

(٣) في الأصل دنيا

(٤) يرد ذكره أحياناً في أصل الكتاب بـابن نجيب الدولة بالباء الموحدة من تحته فلعله وقف على هذا في بعض المخطوطات التي ينقل عنها .

التي قلت : انها قد خرفت ، فركب إليها إلى ذي جبلة واعتذر مما فرط منه ، ولم يزل من أساطين مملكتها ، ورجال دولتها إلى أن قدم من الديار المصرية ، الأمير الكذاب سنة ٥٢٠ فحسده وكاد له عند الخليفة الأمر بأحكام الله بأنه يريد قلب دولته ، فأرسل العبيدي يستدعيه ، فلما ركب البحر غرقه ربان السفينة بمؤامرة رسول الخليفة العبيدي ومن معه ، وكانت السيدة قد أستوثقت له من رسل العبيدي بالآيمان الأكيدة والعهود الوثيقة فنسوا تلك العهود وأغرقوا رسولها أيضاً محمد بن الأزدي وكانت قد أرسلته بهدية وكتاب شفاعة لابن نجيب الدولة ، ولما بلغ السيدة السواقع ندمت لأنها كانت مانعت في أول الامر عن إرساله ، ولم تدعن إلا بعد الآيمان والعهود ومن رسل العبيدي ولذلك ندمت ولات ساعة مندم .

ثم انها اقامت الداعي ابراهيم الحامدي^(١) ، وفي أثناء مدته مات الخليفة الأمر بأحكام الله العبيدي^(٢) ، وقام الحافظ بعده كما سيأتي وذكر في أنباء الزمن^(٣) هذه الحوادث في سنة ٥١٠ وقال : ان ابن نجيب الدولة أركب في سفينة سواحلية إلى مصر معذباً ومهاناً .

قيام الامام المحسن بن محمد

قال في اللآلئ المضيئة نقلاً عن العباب للعدوي^(٤) ، وقد ذكر نسب المحسن فقال : هو المحسن بن محمد بن المختار بويج له بالخلافة وتلقب

(١) هو ابراهيم بن الحسين بن ابي السعود الحامدي من كبار علماء الاسماعيلية وكان يسمى عندهم بوالد الجميع من مؤلفاته كنز الولد المطبوع في المانيا وغيره توفي سنة ٥٥٧ .

(٢) حكمه من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥٢٤ .

(٣) غاية الأمان ص ٢٨٥ .

(٤) هو العلامة الحسين بن علي بن صالح العدوي من أدباء اليمن في القرن التاسع الهجري ومن سنوحه الامام المهدي احمد بن يحيى المرتضى في كتابه العتاب في شرح أبيات الآداب منه نسخة خطه بمكتبة الاستاد احمد بن ابراهيم العيزري بدمار ومصوره بمعهد المخطوطات بمصر .

بالمعيد لدين الله ، قال : وكان فقيهاً خطيباً شاعراً قتلته الحدادون من أهل صعدة ، وقتلوا ولده وجماعة من شيعته في منزله واحرقوه ، واستصبحوا بشحمه بسبب انه قتل باطنياً كان ضعيفاً لهم وفي الحداثق الوردية^(١) ان المحسن لما وصلته دعوة الامام أبي طالب الأخير ، قام بها أحسن قيام ونفذت أوامره بصعدة ونجران والجوفين والظاهر ومصانع حمير ، وعن الأمير الحسين ان المحسن هذا ملك حصن ثلا وغيره من الحصون ، وهو الذي قتل عامر بن سليمان الزواحي ثم قتل أهل صعدة وولده غدرأ ، فقام بثأره السيد الشريف الواصل من الديلم ، وأخرب صعدة وأعانه على ذلك شيخ الشيعة في وقته محمد بن عليان البحتري^(٢) ، وأمدهم الأمير غانم بن يحيى بن حمزة السليماني بمال كثير ، قال في انباء الزمن^(٣) ان مدد الشريف يحيى بن حمزة كان عشرة آلاف دينار ، فاجتمعت القبائل وحاصروا صعدة ، حتى طلب أهلها الأمان فأمنوهم ثمانية أيام ، ودخلت القبائل صعدة ، فانتهبوا ما بقي فيها ثم أخرجوها وبالفوا في خرابها ، وتفرقت القبائل ، وبقيت صعدة خاوية مدة والله اعلم ، وقد أورد صاحب أنباء الزمن^(٤) خبر قيام المحسن سنة ٥١١ ، وقال في نسبه : هو المحسن بن أحمد بن المختار بن الناصر بن الهادي إلى الحق عليه السلام قال ودخلت سنة ٥١٢ إلى سنة ٥١٤^(٥) لم يتفق فيها ما يوجب الرقم .

ودخلت سنة ٥١٥ فيها قتل السلطان أسعد بن عيسى الوائلي الكلاعي صاحب مخلاف وحاطة ذكره الجندي وعمارة وأثنا عليه .

ودخلت سنة ٥١٦ وما بعدها إلى سنة ٥١٩ ، وفيها قتل منصور بن فاتك

(١) في غاية الأمان ص ٢٨٨ لأنها خرجت ابنته إلى خولان .

(٢) غاية الأمان ص ٢٨٨ .

(٣) الغاية ص ٢٨٧ .

(٤) الغاية ص ٢٨٨ .

وزيره أنيس الفاتكي ، وكان جباراً غشوماً مهيباً شجاعاً كانت له مع العرب عدة وقعات ، تحاموا تهامة لهولها ، ثم أنه طغى وتكبر وشمخ بأنفه ، وضرب السكة بإسمه ، وركب بالمظلة ، وهم بقتل مولا منصور بن فاتك ، فلما تحقق ذلك عنه عمل منصور وليمة في قصره ودعاه إليها مع وجوه دولته ، ثم قتله وصادر أمواله ، ومن جواريه الحرة علم أبتاعها منصور من ذريته ، واستولدها فاتك بن منصور بن فاتك ، ورث الملك بعد أبيه ، وكانت الحرة علم عاقلة كاملة فاضلة قد رزقت من التوفيق والسداد والخبر ما يتجاوز حد الواصف كانت كثيرة الحج والصدقة ، تحج بأهل اليمن برّاً وبحراً هكذا روى الخزرجي^(١) والربيع^(٢) ، وقال الجندي : أنها كانت تجهز الحاج بالخفارة والزاد من زبيد إلى مكة ، فيأمن الأخطار ، والمكوس ، وكان فيها من تسديد الملك بحيث وكل إليها سيدها منصور تدبير الملك ، فكان لا يقطع هو ولا أحد من أهل دولته أمراً دون مراجعتها ، وكانت تكرم الفقهاء والعُباد وتحترمهم ، وهي التي اسقطت خراج أرض علي بن مهدي لما بلغها عنه من النسك والعبادة وبيركتها أثرى وتمول ، وفي الخزرجي^(٣) ان قتل أنيس الفاتكي سنة ٥١٧ ، وفي قرة العيون^(٤) سنة ٥١٧ مذكور علوم رسي

ثم استوزر منصور من الله الفاتكي ، وكان من أكابر الوزراء وأعيانهم شجاعاً كريماً جواداً متلاًفاً ، آزر الشعراء بالعظيم من عونه ، وزودهم بالجليل من سيبه^(٥) فأنثوا عليه الخير كله ، قال الخزرجي^(٦) نقلاً عن الفقيه محمد بن

(١) المسجد المسبوك ١٢٦ .

(٢) بغية المستفيد ص ٥٩ .

(٣) المسجد المسبوك من ١٢٣ .

(٤) قلت في مطبوعة قرة العيون ج ١ ص ٣٥٢ قتله سنة ١٧ ، كما هو مذكور في أصله المسجد المسبوك .

(٥) سية : عطاؤه ومنه قول المتنبي :

ومن الخير بظؤ سيبك عني أسرع السحب في المسير الجمام

(٦) انظر المسجد المسبوك والنقل من مفيد عمارة من ٢١٠ وفيه محمد بن عبد الله السهامي .

علي الهامي مؤدب أولاد الوزير المذكور (اذكر اني جلدت مدائح الوزير في عشرة أجزاء كبار^(١) من شعر المجيدين من الشعراء) ولم يكن نائله محصوراً على مرتزقة الشعراء فحسب ، بل كان ندى الكف كذلك لقاصده وطالب رفته ، تصدق على فقهاء الحنفية ، والشافعية ، بما أغناهم من الأرض ، وفي أيامه قصد ابن نجيب الدولة الاستيلاء على زبيد فصدّه من الله الفاتكي وهزمه شر هزيمة كما تقدم .

وكان مع هذه الخلال فاسقاً متهتكاً ، زير نساء (لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً) ثم أنه تطاول ، وطمحت نفسه إلى الملك ، فاحتال على سيده وقتله بالسّم ، وملك ولده فاتك بن منصور ، وهو إذ ذاك طفل صغير ، وكان أبوه قد توفي عن أكثر من ألف^(٢) سرية سراريه وسراري أبوه وغيرهما من آل نجاح ، فأمتدت إليهن يد من الله المذكور ، وعبث بأعراضهن ، ولم ينج من شره إلا عشرين حظايا منصور بن فاتك ، فيهن الحرة علم ام فاتك الملك الطفل ، ثم ان هذا الوحش ، أراد ان يفترس ابنة معارك بن جياش ، وكانت موصوفة بالجمال ، فأفتدت نفسها منه بأربعين بكرة من جواريتها ، فلم يقنعه هذا الفداء ، وعند ذلك دبرن تحيلة للخلاص من شره ، فاحتالت بعضهن ومكته من نفسها ، وبعد أن أكمل عمله ، مسحت مذاكيره بمنديل مسموم فهلك من ساعته ، وخرجت مسرعة ولحقت بالحرّة علم ، ودخل عليه ولده فوجده لا حراك به ، فدفنه في إصطبل داره ، وغيب قبره ، ومن آثار هذا الوزير سور مدينة زبيد ، بعد الحسين بن سلامة ، وكانت وفاته سنة ٥٢٤ .

(١) وفيه مبالغة ظاهرة (ص).

(٢) هذه رواية الخزرجي واصحاب قرة العيون ، ونحن نعتقد انها لا تخلو عن المبالغة فإن هذا العدد الكبير تضيق به قصور بغداد العباسية ومصر الفاطمية . ورو . فتأمل (ص) قلت : الخزرجي والديبع وقعا صريعي عمارة الذي نقلنا عنه ، وقد أكثر في تاريخه من المبالغات والأساطير ولم يكن من بزاحمه في كتابة التاريخ في عصره حتى يصحح هفواته فإلله المستعان .

وتولّى بعده الوزارة القائد زريق الكاتب الفاتكي ، وكان ضعيف التدبير فاستقال ، وتقلّد منصبه أبو منصور مفلح الفاتكي ، وكان حازماً شجاعاً ، كريماً عفيفاً قال الخزرجي^(١) : وكان الناس يقولون لو كان له نسب في قریش كملت فيه شروط الخلافة ، وقد أنتهت به الحال الى الخروج من زبيد والاستيلاء على حصن كرش من جبل برع ، وشن الغارات من قبله على زبيد ، وعلى مزاحميه في منصب الوزارة من العبيد ، واستنجد بالشریف غانم بن يحيى السليماني ، فأمدّه بألف فارس وعشرة آلاف راجل وعلى رأسهم الشریف غانم ، وقد جعل للشریف لقاء نجدته إسقاط الاتاوة التي كانت على الشریف لصاحب زبيد وهي عبارة عن خمسة وستين ألف دينار . وتنازل عن بعض الجهة الشمالية من تهامة ، مما هو تحت نفوذ أمراء زبيد ، فنهض الشریف ومفلح الفاتكي في جموعهم وقصدوا مدينة زبيد ، فخرج لمقابلتهم القائد سرور ، أحد المنافسين لمفلح المذكور إلى المهجم ، ولما نشبت الحرب ودارت رحاها أنهزم الشریف وجنوده ، وتم النصر لسرور فقلّده مولاهم ، فاتك بن منصور المهجم ، وما يليها من الأعمال الشامية ، وعاد مفلح إلى حصن الكرش ومات به سنة ٥٢٧^(٢) وخلف ابنه منصور فحارب سرور ، وهو أمير المهجم والقائم بأعمال الوزارة إقبال الفاتكي ، ثم أن أصحاب منصور، تخلوا عنه ، وخذلوه فطلب من إقبال الأمان فأمنه ثم غدر به وقتله فغضب السلطان فاتك وهمّ بإقبال الفاتكي ، فاعتذر إليه واسترضاه فسكت على غل ولكن الوزير لم يطمئن الى ذلك السكوت ، وأخذ يفكر في جريمة أخرى ، وهو قتل مولا السلطان ، ولم يزل يحتال حتى تمكّن وسقاه السم سنة ٥٣١

(١) المسجد ص ١٢٧ .

(٢) الخزرجي وقرّة العيون ، وأما صاحب أنباء الزمن فإنه استطرد هذه الحوادث في سنة ٥١٩ واعتبر ما بعدها من السنين إلى سنة ٥٢٤ خالية عما ينبغي ذكره وفي سنة ٥٢٤ ذكر طريق البصرة وحضرموت (ص) .

طريق البصرة وطريق حضر موت

قال في انبا الزمن ودخلت سنة ٥٢٤^(١) فيها انقطع الطريق من اليمن الى البصرة والكوفة عن مرور التجار والقوافل الكبار ، وكانوا يسافرون في كل عام مرتين على طريق اليمامة والحسا ، وسبب إنقطاعها ضعف الدولة العباسية وظهور القرامطة الفساق ، ولم يسلكها بعد ذلك أهل الجهات النجدية برفاقة من ساكني تلك الأطراف ، وكانوا يخرجون من نجران إلى بلاد الدواسر^(٢) ثم إلى^(٣) البديع ثم إلى الحسا في اثني عشر يوماً ، وأما طريق الرجل من الجوف إلى البصرة فانقطعت بالمرّة وقد يسلكها نادراً جماعة من البدو الإبل المضمرة يجعلون على أيديها وأرجلها الأدم لكثرة الحرشات والعقارب الناهشات ، وعلى طريق قرية يقطعونها إلى البصرة ، وكانت عامرة مسلوكة أيام التبابعة ، ومن بعدهم ، إلى أن قيل ان داؤد بن المنصور بالله عبد الله حمزة أخربها وطم آبارها عند عوده من غزوة غزاها خوفاً من لحوق أهلها ، وقيل ان الريح عفت آثارها ، وصارت كثيباً من الرمل ، والله اعلم . ، وأما الطريق من اليمن إلى حضرموت فمسلوكة من ثلاث جهات ، أحدها طريق شبه يقطعها المار في ثلاثة أيام من بيحان إلى حضرموت ، والثانية يقطعونها كذلك في ثمانية أيام إلى مأرب ، غير أنهم يحتاجون إلى حمل الماء على المطايا لانقطاعه في أكثرها ، وهي رمال ما بين الجوف وحضرموت ، وسكانها البدو من المعضة^(٢) ، والعربان ، ولا يسلكها إلا المخفون ، وأما أهل الأثقال فيخافون فيها من عدوان أهلها عليهم ، وإنما يسلكون طريق الساحل من عدن ، ومنهم من يخرج من رداع إلى بني ارض^(٣) ثم إلى بلاد العوالقة^(٤) ثم

(١) غاية الأمان ص ٢٩٢ .

(٢) المعضة : بتشديد الضاد المعجمة طائفة من قبائل امتزقة أهل ما نسبته ينتقلون ما بين الجوف نجران على اطراف الرملة .

(٣) بنو ارض : مناطق البيضاء ما بين رداع وبيحان .

(٤) ناحية مشهور من النواحي المجاورة للبيضاء وبافع .

إلى بلاد عبد الواحد^(١) ثم إلى بلاد هينين^(٢) ، ثم إلى حضر موت في عشرين يوماً تقريباً والله اعلم ، أنتهى ما أورده صاحب انباء الزمن^(٣) ، وقد نقلنا عنه هذه الجملة التاريخية الجغرافية بالحرف الواحد والعهدة عليه ، وسيأتي ما يدل على إن المواصله بين اليمن وبغداد عن طريق البصرة والجوف وأرض الحشرات والعقارب الناهشات ، كانت مستمرة ، يقطعها الواحد والجماعة ، فمن ذلك إرسال الملك المظفر الرّسولي سفيره إلى بغداد عن طريق براقش^(٤) سنة ٦٥٠ لطلب تشريف سلطته على اليمن من هنالك ، والمرة الثانية عندما قتل الإمام أحمد بن يحيى سنة ٦٥٦ أزعج^(٥) المظفر رسوله إلى بغداد بذلك النبأ ولما وصل حامل تلك الرسالة الى براقش في جوف اليمن متوجّهاً إلى البصرة ، لقي الخبر عن بغداد وسقوطها في أيدي التتر ، ومحو الخلافة والخليفة ، كل هذه الحوادث تشير إلى أن الطريق ما زالت تسلك وانها لم تنقطع بالمرّة .

وأما طريق حضر موت فقد استوفينا الكلام عنها في أيام الإمام المتوكل على الله إسماعيل في القسم الثالث من هذا التاريخ فليرجع اليه من شاء .

ودخلت سنة ٥٢٧ فيها مات هشام بن القبيب الهمداني ، وانفرد بالأمر اخوه حماس فقويت شكوته وعظمت ولايته ، وفي أيامه جاءه صارخ من يام يشكو إستطالة اهل نجران^(٦) عليهم فغراء نجران واثخن بني الحرث ومن

(١) المعروفة الآن بالواحدى كانت من أهم قبائل النواحي التوسع وهم جيران العوالق شرفا بشمال وعاصمة بلادهم حبان .

(٢) من مدن حضر موت .

(٣) انظرها بنصها ايضاً في غاية الأمانى ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٤) براقش : تقع بالجهة الجنوبية من معين ضمن وادي الجوف .

(٥) أزعجه في اللغة بمعنى ألقه وطرده من مكانه .

(٦) نزّهة الأخبار (ص) كذا يسميه المؤلف وفي المخطوط من الكتاب بعنوان نزّهة الأفكار وهو

والاهم ، وفيهم نصارى فأسر كثيراً من بني الحرث ، وأتى بهم إلى همدان فأقسموهم في موضع بالظاهر ، وسمي ذلك الموضع بالمقتسم واسنكوا الأسرى معهم وسموهم بالمقتسمين ، وغزا السلطان المذكور بلاد جنب ، وقتل منهم مقتلة عظيمة واستمرت الولاية إلى أن مات سنة ٥٣٣ .

ظهور الإمام علي بن زيد وقلته

ودخلت سنة ٥٣١ فيها ظهر الإمام المحتسب علي بن زيد بن إبراهيم بن الملح بن الإمام^(١) المنتصر بالله محمد بن الإمام المختار بن الناصر بن الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام ، قام محتسباً من درب يرسم من اعمال صعدة وجمع جموعاً وخرج بها الى نواحي صعدة ولما بلغ الإمام أحمد بن سليمان ذلك ، نهض من الجوف لمناصرتة ، وكان ذلك قبل دعوة الإمام أحمد بن سليمان ، فسار إليه ناصره هو وصنوه يحيى بن سليمان وصنوه عبد الله ولقوه إلى حقل صعدة في خيل ورجال وافرة ، واجتمعت إليه القبائل من همدان وخولان وكهلان ، وسائر قبائل قحطان ، فتقدم بهم إلى شطب وكان الإمام أحمد بن سليمان قد أشار عليه بالزحف على صنعاء ، فلم يقبل منه وأقام بشطب في بني حجاج بمن معه ، فاستثقله أهل تلك الجهة لكثرة النفقة ، وتمالوا على الغدر به ، وبأصحابه ، وكان أهل الجهة يحملون إليهم الطعام فاجتمع منهم في بعض الأيام زهاء خمسمائة رجل ، وحملوا الطعام على عاداتهم ، وقد ستروا أسلحتهم تحت ثيابهم ، ثم وثبوا على أصحاب الإمام علي بن زيد فقتلوا منهم قتلاً ذريعاً ، وانهزم علي بن زيد فتابعوه وقتلوه وقبره في شطب مشهور رحمه الله وإليه أشار صاحب البسامة بقوله :

وفي ابن زيد لاهل الفكر معتبر لما تسنم رأس الطود من شعر

= للداعي ادريس بن الحسن المتوفي سنة ٨٧٢ وقد يخلط بينه وبين اصله عيون الأخبار للمؤلف والأخير طبعت منه أجزاء رديئة تحقيق إلى الغاية .

(١) اللآلئ المضيئة وأنباء الزمن .

وكان قتله في جمادي الآخرة من السنة ولإمام احمد بن سليمان في ذلك قصيدة طويلة أولها :^(١)

من ضيَع الحزم لم يرشد ولم يصب واغتاله الدهر بالخذلان والنصب
ومنها :

دعا ابن زيد فلبينا لدعوته وغيره قد دعا قدماً فلم نجب
وجاءه الناس من شام ومن يمن على الضوامر في ركب وفي خيب
حتى إذا صار من نجد إلى حرص ملك الأمير ومن مقرا^(٢) إلى خلب^(٣)
كاتبته غير وان من شؤابة لها ولم تبرح بثافت^(٤) في عز بلا تعب
ومنها :

من اودته في يشيع^(٥) حين اعجبني جيش اجيش كمثل العارض السكب
فقلت أثر به صنعاء ودع شظبا حتى تعود فليس الرأس كالذنب
إلى آخرها.

ودخلت سنة ٥٣٢ وفيها مات الداعي سبأ بن أبي السعود الزريعي قال الجندي رحمه الله : دخل الداعي سبأ عدن فوقف بها سبعة أشهر ثم توفي في التاريخ المذكور ، ودفن في حصن التعكر ، وقد تحارب الداعي سبأ^(٦) ، وابن عمه علي بن ابي الغارات وسبب ذلك أنه لما تولّى علي بن أبي الغارات أساء السيرة في الرعية وبسط يده على ما كان إلى سبأ بن أبي السعود وكانت

(١) الأبيات في اللآلئ المضيئة (مخطوط).

(٢) مقري : هو ما يعرف الآن بمغرب عنس من بلاد ذمار، وفي اللآلئ «حفر» .

(٣) واد من تهامة .

(٤) هي اثافت سبق ذكرها .

(٥) يشيع : بلدة عامرة في الشمال الغربي من ريدة وهي من بني عبد .

(٦) الخزرجي والجندي .

قد اتسعت ولايته ، فكان له حصن التعكر^(١) بعدن وباب البر وما يدخل منه ومن البرّ الدملوة^(٢) وسامع^(٣) ومطران^(٤) ويمين^(٥) وذبحان^(٦) وبعض المعافر ، وبعض الجند ، وقد صبر الداعي سباً صبراً كاد يُخرج الأمر من يده ، ولما عيل صبره ، قام لحرب علي بن ابي الغارات ، وضم إليه همدان وخولان وحمير ومذحج ، وبعد غارات وفتكات تمّ النصر لسبأ بن أبي السعود ، بعد إنفاق أموال طائلة ، وتنازل لأصحابه إلى درجة تدلّ على كمال عقله وعلو همته ، وتعرف هذه الحرب بحرب الرّعارح ، وفيها يقول علي بن زياد المازني :^(٧)

خلت الرّعارح من بني المسعود فعهودهم عنها كغير عهود
حلّت بها آل الزريع وانما المحسن حلت أسود وفي مقام أسود

وأقرت السيدة سبأ بن أبي السعود على عمله ، وكان يحمل إليها الخراج المضروب ، حتى مات وتولّى بعده ابنه علي الأغر فلم تطل أيامه ومات سنة ٥٣٤ .

مركز تحقيقات كليات العلوم الإسلامية

ودخلت سنة ٥٣٢ فيها^(٨) ماتت الحرة الملكة السيدة بنت احمد بن

(١) التعكر: هو المعروف بجبل شمسان فوق عدن وهو مسيطر على ميناء عدن من الشمال وهو غير

(٢) التعكر الجبل المذكور كثيراً في التاريخ وسيأتي ذكره .

الدملوة : حصن منيع يعتبر فرع من جبل الصلوة في بلاد الحجرية وهو اليوم خرائب مندرسة .

(٣) سامع جبل وعزلة من ناحية المواسط وأعمال الحجرية وهو في الجنوب من جبل صبر .

(٤) مطران : حصن في سامع وهو اليوم خرائب وفي أسفله قرية تحمل اسم الحصن .

(٥) في الأصل (نمن) والتصحيح من قرة العيون ج ١ ص ٣٠٦ ، ويمين بضم الياء المثناة من

(٦) تحت ثم ميم وياء ونون حصن في ارض العزاعز من المعافر (الحجرية) في المغرب الشمالي

من مركز القضاء التربة بمسافة ٨ ك . م .

بضم أوله عزلة من قضاء الحجرية من أشهر قراها التربة .

(٧) هدية الزمن ص ٥٧ .

(٨) الخزرجي وقرّة العيون (ص) .

جعفر بن موسى الصليحي عن ثمان وثمانين سنة ، وكان مولدها سنة ٤٤٤ ونشأت في كفالة الحرة اسماء بنت شهاب ^(١) زوجة المكرم علي بن محمد الصليحي وكانت موضع عنايته وعطفه ورعايته ، وكان يقول لزوجته أسماء : هذه والله كافلة ذرارينا ، القائمة بهذا الأمر لمن بقي منا ، فأدبتها أسماء أحسن أدب ، وهذبتها أكمل تهذيب حتى كملت محاسنها ، وكانت قارئة كاتبة حافظة للأشعار والأخبار عارفة بالأنساب والتواريخ وأيام العرب ، ولما عرفت به من رجاحة العقل وحسن التدبير للملك ، كان يقال لها : بلقيس الصغرى ، وبموتها أنقرضت الحكومة الصليحية بعد أن حكمت قرابة قرن سخرت البلاد لمصالحها ، وتركت الأمة اليمنية ، تعيش في جو مختنق وميدان ضيق ، رهن القواعد المرسومة ، والنظريات المعلومة من دعاة الأسماعيلية ، وكانت الطبقة المتسيطرة ، تتلاعب بعقول العامة وتستأثر بكل موارد العيش ، ومرافق الحياة ، وتتمتع بجميع وسائل الرفاه ، تحت ستار الدعاية الإسماعيلية ، ولذلك تفككت عرى القومية وتلاشت العقلية ، والمنتجات الفنية ، وفقدت ملكة الإبداع والابتكار ، وأصبح الإيمان بمزاعم الدعاة ، يفرض على الناس فرضاً فتشابهت نتائج الأفكار كتشابه ميادين الحياة أيام تلك الحكومة ، والله الأمر من قبل ومن بعد :

رويداً انها دول تدول وبعدها آخر
يظل الحق منهزماً زماناً ثم ينتصر

وقبرت ^(٢) السيدة الملكة بالجامع الذي انشأته بذي جبلة غربي المقدّم ، وانتقل ما كان بيدها من الحصون والذخائر والأموال إلى المنصور بن

(١) قال الجندي ان أحمد بن جعفر الصليحي مات تحت الهدم بعدن وهي إذ ذاك صغيرة فضمها علي بن محمد إلى زوجته أسماء (ص) .

(٢) هذا البحث إلى نهايته منقول من قرة العيون ، وفي انباء الزمن أن للسيدة الجناح الشرقي بجامع صنعاء وهي حقيقة لم يتكلم عليها أحد قبله فيما وقعت عليه أيدينا من المصادر وقد سبق الكلام على هذا في حوادث سنة ٢٦٥ (ص) .

المفضل بن أبي البركات الحميري ، فلما كبر وضعف عن كثير من الحركات ، وأحب السكون أبتاع الداعي محمد بن سبأ بن أبي السعد منه الحصون والبلاد بمائة ألف درهم ، قال عمارة : وهي ثمانية وعشرون معقلاً ما بين حصن ومدينة ، من ذلك جيلة وإب والتعكر^(١) وحب^(٢) ، ونزل منصور بن المفضل إلى حصن تعز وصبر^(٣) ، وهو أول من اتخذ ثعبات^(٤) متنزهاً ، وكان ينزل من الحصن فيقف بها الأيام ، ولم يزل كذلك إلى أن توفي سنة ٥٤٢ ، وخلف إبنه أحمد فقام مقامه إلى سنة ٥٥٨ ثم طلع علي بن مهدي من تهامة فأبتاع منه تعز وحب وانتقل هو إلى الجند فسكنها إلى أن توفي سنة ٥٦٣ والله تعالى اعلم ، فهذا ما كان من أخبار الدولة الصليحية وما يتعلق بها والله ولي التوفيق .

الامام المتوكل على الله احمد بن سليمان عليه السلام

وفي هذه السنة (٥٣٢) ظهر الامام المجتهد المحقق أبو الحسن أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق عليه السلام ، ولد بنواحي حوث سنة ٥٠٥ ، ونشأ بها ، وسلك طريقة آبائه الأطهار ، في طلب العلوم والتشهير لمعالي الأمور ، فكان يتحفّزه للقيام بحمل أعباء الخلافة من صغره ، ويرى أن الناس في حاجة ملحة إلى رجل عظيم ، تكون فيه القدرة الكافية لكبح التزعّات الجامحة إلى الأثرة ، ومعالجة النفوس المصابة بداء الجهل والعناد ، وكان دائم الحنين إلى الجهاد ،

(١) التعكر: هو الجبل المشهور يقع في ارض ذي الكلاع من مخلاف جعفر ويطل على ذي جيله ومدينة إب من الجنوب وعلى مدينة ذي السفال والجند من الشمال .

(٢) حب: حصن من عزلة سيران في بعدان وهو من أمنع الحصون .

(٣) صبر: جبل مشهور تقع في سفح منحدره الشمالي مدينة تعز ، وهو على ارتفاع ٣٠٠٠ متر من البحر .

(٤) ثعبات : محله واقعة في سفح المتصل بجبيل الحجملية والتي تبعد عنها ساعة إلا ربعا .

وتحكيم الرِّمَاح السَّهَرِيَّة والمَشْرِفِيَّات الحَدَّاد لِإِرْغَام مَعَاطِس شَمَخَت عَنِ الْحَق ، وَنَفُوساً حَادَت عَنِ الرُّشَاد وَكَانَ أَيْضاً يَحْزُ فِي نَفْسِهِ ضَيْعَ الْأَشْرَاف ، وَلِيُثَارَهُم الْخُمُول وَلَهُ فِي ذَلِكَ عِدَّةُ قِصَائِدٍ مِنْهَا قَوْلُهُ (١) :

لأَحْكَمْنَ صَوَارِمًا وَرِمَاحًا ولأَبْذُلْنَ مَعَ السُّمَاحِ سَمَاحًا
ولأَقْتُلْنَ قَبِيلَةَ بِقَبِيلَةٍ ولأَسْلِبْنَ (٢) مِنَ الْعَدَا أَرْوَاحًا
ولأَرْوِينَ السَّمَرِ مِمَّنْ ابْتَغَى فإذا ارْتَوَيْنَ أَفْدَنِي أَصْلَاحًا

إِلَى آخِرِهَا قَالَ فِي اللَّالِيَةِ الْمَضِيئَةِ : كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالشَّجَاعَةِ الْغَايَةَ وَالنَّهَايَةَ ، وَيُقَالُ فِيهِ : الْقَوَالُ الْفَعَالُ ، وَأَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي وَصْفِهِ مَا قَالَ هُوَ فِي نَفْسِهِ :

تَرْعِزُ عَنِّي الْأَرْضُ خَوْفًا وَرَهْبَةً إِذَا قُلْتُ أَلْجَمُ يَا غَلَامُ وَاسْرَجُ

انتهى .

وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يَقُومَ مِنَ الْعَتَرَةِ الزَّكِيَّةِ بِأَمْرِ الْأُمَّةِ مِنْ يَصْلُحُ لِلْقِيَامِ وَلِذَلِكَ تَصَامَمَ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ لَمَّا بَلَغَتْهُ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغِ الْمَسْتَوَى اللَّائِقَ بِمَنْصِبِ الْإِمَامَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا سَمِعَ أَنَّ الْمَذْكُورَ قَدْ جَمَعَ الْجُمُوعَ وَقَصَدَ حَرْبَ صَعْدَةَ رَأَى نَفْسَهُ مُضْطَرًّا لِمَوَازَرَتِهِ وَقَالَ : أَنَا إِنْ خَذَلْتَهُ وَوَقَفْتَ عَنْهُ كُنْتَ عَوْنًا لِأَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَخَاذِلًا لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى نَصْرَتِهِ هُوَ وَأَخُوتهُ بِمَنْ قَدَّرَ عَلَى جَمْعِهِ كَمَا مَرَّ ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ يَرْجُوهُ مِنْ قِيَامٍ مِنْ يَصْلُحُ لِلْقِيَامِ قَوْلُهُ :

أَمَّا أَنَّهُ لَوْلَا الرِّجَاءُ لِدَعْوَةٍ مَبَارَكَةٌ تَهْدِي لِذِينَ الْغَوَاطِمِ
وَعِلْمِي بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ وَأَنْ نَعِيمَ الدُّهْرِ لَيْسَ بِدَائِمٍ
لَأَلَيْتُ لَا أَخْشَى الزَّمَانَ وَصَرْفَهُ وَلَوْ زَارَنِي يَوْمًا بِإِحْدَى الْعِظَائِمِ

(١) الْقَصِيدَةُ فِي الْحَدَائِقِ الْوَرْدِيَّةِ ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) فِي الْأَصْلِ وَلَا اسْلِبْنَ .

بموت مريح وهو أنجع زائر وكنت بهذا رابحاً غير غارم
لأجل الذي شاهدت من أهل عصرنا وعانيت من عصيانهم والمآثم
نسوا حقنا واستأثروا بنصيينا من الأمر هذا من كبار المظالم
ومنها:

ولكن نصر الله قد آن وقته لنا يا بني الزهراء بنهضة قائم
كريم أخي عالم وفضل وسؤدد وذو همة تعلو السهى والنعائم
وصبر واقدام وحزم ونجدة وشدة بأس عند ضرب الجماجم

إلى آخرها : ولما عزم الإمام على إظهار دعوته نهض من الجوف ومعه
رجلان إلى برط فبايعه قوم من دهمه ، وسار إلى نجران ونزل على الشيخ
العون بن زغبة ففرح بمقدمه ، وأطلعه على ما قد ظهر بنجران من
المنكرات ، ووصلته قبائل همدان نجران وبايعوه في شهر صفر من السنة
وَوَزَّع كتب الدعوة إلى عموم البلاد اليمنية ، فلم يتحرك لها إلا القليل الذي
لا يعتد به ، ثم إنه وصل إليه صنوه الشريف يحيى بن سليمان في جماعة من
الأشراف وأشاروا عليه بمغادرة نجران إلى الجوف ليتوسط لهمدان ويكرّر
الإرسال إليهم فبادر بالانتقال ورافقه الشيخ العون بن زغبة ، وحاتم بن سليمان
اليامي ، وسالم بن الخطر اليامي ، وفي طريقه بايعته بنو عامر ، وأرسل لوائلة
فبايعوه ، وسار إلى برط ومكث به خمسة أيام في أثنائها وافته جميع قبائل
دهمه بدوها وحضرها ، وبايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فشكر
لهمدان وأثنى عليهم بهذه الأبيات :

أغضي على صرف الزمان وجوره وارضى بخط ناقص وخمول
وقد خصني ربي بأزكى عطية وفضل ومجد في الأنام أثيل
وحولي همدان بن زائد ذوو الحمى بناء العلا من حاشد وبكيل
هم نصروا الهادي إلى الحق جدنا بكل رقيق الشفرتين صقيل

ولما بلغ السلطان جحاف بن ربيع الدعامي وصول الإمام إلى برط

وعزّمه على النزول ، كتب إليه لا يغشاه بالناس ، وإذا كان يريد الاتفاق فسيلقاه إلى موضع يعينه الإمام لشدة لحقت البلاد يومئذ ، ولكن الإمام أغضبه اقتراح الدّعام ، فنزل من برط ، ويات بالمراشي ، وسار إلى خيوان وعزم أن لا يطأ بلاد الجوف إلا وقد تقلّص ظل كل نفوذ فيه لغيره وسار إلى بلد بني ربيعة ، وكانت قد استدعته قبائل خولان (صعدة) فسار إليهم ، وكل ما مرّ بقبيلة من القبائل تلقوه بالسّمع والطاعة ، وكذلك فعلت خولان ، وكان أهل الحقل وبعض رجال من غيرهم قد تأمروا على صدّه من اجتياز الحقل وإعلان الخلاف والتمرد ، وسبب ذلك خوفهم مما سبق منهم إلى الأمير المحسّن في حياته ، وبعد وفاته ، ثم ما لحقهم من مقام الإمام علي بن زيد ، فصاروا لا يسمعون بقائم من أهل البيت إلاّ وايقنوا أنه يهتك استارهم ، ويخرب ديارهم ولما علم الشرفاء بنو الهادي بما أثمر به أهل الحقل ندبوا لقتالهم بني جماعة فلبّت بنو جماعة وطلبت نزول الإمام في بلادهم ، فتحول الإمام إليهم ، ولما عزموا على الخروج لقتال أهل الحقل ، وتأكّد أهل الحقل ذلك ، عدلوا إلى استخدام المال ، وارسلوا الرؤساء بني جماعة بشيء من الحطام ، فرجعوا عن عزمهم ، وتخاذلوا عن نصره الإمام ، وتركوه فسار عنهم إلى نجران ، وصادف في طريقه من المشكلات ما ينوء بحمله أفذاذ الرجال ، وكل هذه الحوادث في السنة الأولى من دعوته .

ودخلت سنة ٥٣٣ لم يكن هذا العام أسعد طالعا على الإمام ودعوته من العام الماضي ، ولكنه ظلّ مثابرا بهمة لا تعرف الملل ، وعزيمة تهزأ بالخطوب ، فأقام بنجران شهر صفر وربيع من السنة ، وجاءته قبائل من همدان وجنب يحرضونه على الانتقام لهم من بني الحارث النجرانيين ، فلم

(١) سيرة الامام المتوكل على الله احمد بن سليمان واللالىء المضيئة (ص) . (قلت) وقف المؤلف على سيرة المتوكل احمد بن سليمان ومعه من الكتب التاريخية النادرة ولا أعرف من مخطوطاتها سوى قطعة لمكتبة جامع صنعاء وهي من تأليف العلامة سليمان بن يحيى الشافعي .

يلتفت إلى ما راموه ، وقال لهم : أنا أطلب قوماً إن أمرتهم ائتمروا ، وإن نهيتهم انتهوا ، في كل وقت ، ولستم بهذه الصفة ، وما لبث أن وافته كتب الربيعة يستدعونه ، ويعدونه النصر ، فتحول إليهم ، ومَرَّ ببلاد وادعة ونزل على الشيخ عمر بن أحمد اليرسمي ، وحضرت إليه قبائل وادعة معذرة عن ثاقلها عن نصرته ، فعذرهم وسار إلى بلاد الربيعة^(١) ، وكانوا في حرب مع بني مالك^(٢) ، فلما اقترب منهم الإمام خاف أهل الحقل أن يميل إليه أحد الفريقين المتحاربين ، وبذلوا الأموال في سبيل الصلح بينهم ، حتى تم لهم ما أرادوه ، وكان فيه القضاء على آمال الإمام ، فقد تنكرت له الربيعة ، واخلفته ما وعدت ، وكذلك غيرها ممن بايعه ، والسبب في تلون القبائل الآخرة^(٣) ، دعايات قام بنشرها بعض رجاله الذين قد بايعوه وشهدوا بإمامته ، ولكنهم خافوه على مناصبهم التي كانت تدرّ عليهم الأموال باسم الزكاة^(٤) ونحوها ، فلم ييأس ، واستمر على نشر دعوته بمختلف الوسائل ، وأقام بحيدان ، وأمر بعمارة هجرة بموضع يقال له الجحفات بوادي حيدان ، ثم انه حشد القبائل ، فاجتمع له منهم زهاء ألف رجل وسار بهم يريد الحقل ، فلما بلغ بهم ساقين اقترحوا عليه أن يرسل للربيعة لتنظيم إليهم ، فراسلهم الإمام ، وأوفد إليهم جماعة من الشرفاء والمشائخ ، فلم يلتفتوا إلى وفده ، ولا احسنوا ردّه ، رغماً على ما بذله لهم من الأموال ، فلما عاين من معه إمتناع الربيعة ، تخاذلوا عنه ، ورجعوا أدراجهم ، فنزل على بني بحر ، وأرادهم على القيسام معه

(١) الربيعة قبائل من أسفل نجران انظر صفة جزيرة العرب ص ٢٢٨ .

(٢) قبائل ومواضيع من تلك النواحي (المخلاف السليمانى) .

(٣) كذا أولها «الأخرى» .

(٤) قلت كان من أكبر من جاهر الإمام أحمد بن سليمان العداء هم طائفة المطرفية الذين لم يعترفوا بإمامته ورأوا فيه عدم الكفاءة ، وكان المطرفية قد قوي نفوذهم في ذلك الوقت وأصبح لهم هجر وشيوخ علم لا تعترف بالإمامة قط . حين رأى منهم الإمام عبدالله بن حمزة الخطر الداهم على قواعد الإمامة فقام بحربه المشهورة عليهم كما سيأتي .

فأجابوه ، وطلبوا المهلة إلى خروج عيد النحر فأنظرهم الإمام ، ثم أنها تجهزت جماعة من هذه القبيلة ، وساروا مع الإمام غير بعيد ، ثم رأوا أنهم قلة لا يقوون على قتال فتركهم ورجع حيدان .

وفيها اجتمعت همدان لما كثر الاختلاف بين أولاد النيب ، وقصدت السلطان الأجل حميد الدولة حاتم بن عمران بن الفضل الياشي ، كريم همدان وطلبوا منه القيام بالأمر وإصلاح البلاد فأجابهم إلى ذلك ، ودخل صنعاء في سبعمائة فارس من همدان ، وسيأتي تفصيل ما كان بينه وبين الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان .

ودخلت سنة ٥٣٤ فيها عاد الإمام إلى تحشيد القبائل ، وإثارتهم لقتال من شذعن جماعته ، وفي مقدمتهم أهل الحقل^(١) فلما عاينت قبائل الحقل جند الإمام ، تقدمت إلى الإمام بالسُّمْع والطاعة ، وانضمت في عداد الجند الذي معه ، فسار بهم إلى نجران فتلقاء السلطان هشام بن نباتة المداني ، والعون بن زغبة ، في أفراس من بني الحارث وحمدان ، ثم تقدم إلى قبائل وادعة ، فصلَّى بهم الجمعة ، وانتقل إلى الهجر ، ثم سار إلى كوكبان^(٢) محل السلطان هشام فبات ليلته في ضيافة السلطان ، ولما أصبح اتته بنوزريع وعلى رأسهم سلطانهم روح بن زريع ، وسألوه النزول في ضيافتهم ، هو ومن معهم فساعدهم الإمام ، وبات عندهم ليلة ، ثم عاد إلى مقره ، وبعد أن تم له تقرير أمور البلاد ، وثبتت أحوال الولاة غادرها إلى الجبجب ، وفيها مات الداعي الأغر علي بن سبأ وتولى بعده أخوه محمد بن سبأ قال الديبع في قرة العيون^(٣) : وفي أيامه قدم رسول من مصر من الخليفة بتقليد الدعوة علي بن سبأ ، فوجده قد مات فقلد الدعوة أخاه محمد بن سبأ ، ونعته

(١) لعله حقل صعدة بالشمال من المدينة .

(٢) هو غير كوكبان المعروفة بحصنها والقريبة من شبام .

(٣) قرة العيون ج ١ ص ٣٠٩ .

بالمعظم ، ونعت وزيره الشيخ بلال بالنعوت الجليلة .

وقد أشار إلى الرسول الموفد صاحب أنباء الزمن^(١) ، ولكنه خلط في اسمه قال : ومن خلال ذلك قدم رجل احمد بن علي بن الزبير برسالة من العبيدي صاحب مصر ، وذكر الخبر ، والرسول المذكور ، هو القاضي الرشيد ابن الزبير أخو القاضي المذهب شاعر الوزير الطلائع بن زريك ، وزير الحافظ العبيدي ، وكان الغرض من إيفاده تقوية الروابط بين مصر واليمن ، فإنها كانت قد توترت العلائق ورث الحبل ، وانقطعت الرابطة الروحية بموت الأمر بأحكام الله ، وأصبح الخليفة في زعم دعائهم باليمن^(٢) مستوراً فلما مات الأمر آخر أيام السيدة ، وتولى بعده الحافظ عبد المجيد^(٣) قطعوا الخطبة والدعوة للحافظ المذكور ، وانكششت الدعوة الإسماعيلية ، تعمل عملها في ربوع اليمن ، وتقوم بالعجائب في سبيل المحافظة على مبادئها وتعاليمها ، وتدعو إلى الخليفة المستور ، فأراد الحافظ بإرسال داعيته القاضي استرداد النفوذ والسلطة الروحية ، ولكنه لم يفلح ، وأخفق مسعى داعيته ، وكان حظه من الأمير الزريعي الحبس والتكيد (خلاف ما قاله الديبع وصاحب أنباء الزمن) ولم يستطع خليفة مصر تخليص داعيته من الهوة التي ارتطم فيها ، حتى كان من أخيه القاضي المذهب^(٤) إنشاء قصيدة مدح بها الداعي واستعطفه ورجاه لأخيه المسجون ، وكان من أثر هذه القصيدة إطلاقه والقصيدة المذكورة من غرر شعر القاضي المذهب وأولها :

(١) غاية الأمان ص ٢٩٧ .

(٢) راجع نزهة الأخبار (ص) .

(٣) هو عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله مولده سنة ٤٦٧ ووفاته سنة ٥٤٤ .

(٤) هو الأديب المذهب الحسن بن علي بن ابراهيم الزبيري الغساني من ادباء مصر له ديوان شعر وتفسير للقرآن يقال يقع في خمسين مجلداً توفي سنة ٥٦١ .

وأخوه القاضي الرشيد هو أحمد بن علي بن ابراهيم أديب أكثر شهرة من أخيه له مؤلفات كثيرة أغلبها فقد منها مقامته الحصية الفها في زبيد توفي سنة ٥٦٣ قتلًا .

يا ربيع أين ترى الأحبة يمموا
نزلوا من العين السواد وان نأوا
رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم
ومنها :

إني امرؤ قد بعث حظي راضيا
ما كان بعد أخي الذي فارقه
أقوت مغانيه وعطل ربعه
ورمت به الأهوال همة ماجد
يا راحلاً للمجد عنا والعلا
يفديك قوم كنت واسط عقدهم
جهلوا قطنوا ان بعدك مغنم
ولقد أقر العين ان عداك قد

من هذه الدنيا بحظي منهم
ليسوح إلا بالشكاية لي فم
ولربما هجر العرين الضيغم
كالسيف يمضي عزمه ويصمم
أترى يكون لكم إلينا مقدم
ما ان لهم مذ غبت شمل ينظم
لما رحلت وانما هو مغرم
هلكتوا بغيهم وانت مسلم

ومنها في مدح الداعي : *مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی*

أقيال بأس خير من حمل القنا
متواضعين ولو ترى ناديتهم
وكفاهم شرفاً ومجداً انهم
هو بدر تم في سماء علاهم
ملك حماة جنة لعفاته

وملوك قحطان الذين هموهمو
ما اسطعت من إجلالهم تتكلم
قد أصبح الداعي المتوج منهم
وينو أبيه بنو زريع أنجم
لكنه للحاسدين جهنم

وكان^(١) الداعي محمد المذكور كريماً جواداً مدحه جماعة من الشعراء
وتوفي بالدملوة سنة ٥٤٨ وقام بعده بالأمر ولده عمران بن محمد بن سبأ
وسياتي ذكره ان شاء الله .

(١) قرة العيون (ص) .

عزم الإمام إلى نجران واستيلاؤه على صعدة

ودخلت سنة ٥٣٥ فيها إئتلف الإمام الحشد لقصد نجران ، فسار في عسكر كثير فيه أربعمئة ترس ، وألف قوس ، وكان قد بلغه عن أهل نجران تذبذباً في الطاعة ، وكانت كتبهم تنم عن ذلك ، فكان كل فريق منهم يزكي نفسه ، ويدل على غيره بأنه يتحفظ للخلاف ، فأراد أن يعلم المفسد من المصلح ، ونهض إليهم بجموعه وطاف بلادهم ، وتوغل فيها ، ولاح له ما اعتزم عليه بعضهم ، فلم يكثر بذلك وقابل الإساءة بالإحسان ، وأقام بنجران أياماً ، ورجع في حافرتة إلى صعدة ، وكان أهل صعدة قد توثقوا على حربه ، والإمتناع عن تسليم حصون بلادهم إليه ، ولكنهم اطمأنوا إلى ما سمعوا عنه من حسن السيرة بنجران ، فساعدوه على ما أراد وفتحوا له أبواب البلاد ، ولله در القائل :

اخرج للحية من جحرها



ولم أر مثل الرفق في فعله

وبعد أيام أقامها بصعدة تحول إلى الجبجب ، وهناك بلغه أن انساناً شرب الخمر ، وخاف الحد فاستجار بالربيعة فأجاروه ، وأتوا إلى الإمام متشفعين للشارب فقال لهم الإمام الحق لله ، ولا بد من الحد ، وطلب الرجل وأمر بجلده ثمانين حد الشرب ، وبلغه أيضاً أن جماعة من بني مالك تراموا فيما بينهم ، فغضب لذلك وأمر بالنفير لحربهم ، فوصلته مشائخ آل سعود ، وهم أهل الجناية ، وقالوا : ما حكمت علينا في جناية هؤلاء الصبيان فافعله ، فإننا سامعون مطيعون ، فقال : لا بد من حبسهم أو هدم منازلهم فرأوا الخراب أهون عليهم من الحبس ، فامثلوا فأرسل معهم من أخرج دزبالمهم بالصعيد يقال له درب آل أبين ، قال في اللآلئ المضيئة : وكان عليه السلام يعاقب المحدثين تارة في أجسامهم بالجلد والحبس ، وتارة بخراب منازلهم ، على قدر اجتهاده ، وكان قد أخرج منازل على المحدثين ، منها

منزلان بصعدة ، ومنزلان بأسل^(١) ، ودرب بالمحفا ، ودرب بزهوان ، ودرب بني معاد^(٢) ، فلما رأى الناس من شدته في الصغائر ما رأوا ، اخضعوا له طوعاً وكرهاً ، وطابت له مخاليف صعدة ونجران ، وجرت فيها أقلامه ونفذت فيها أحكامه ، وسمع من كان متزحاً بعدله وحسن سيرته فكاتبوه من كل ناحية ، وكان ممن كاتبه السلطان هاشم والسلطان ابن احمد بن عمران ، والقاضي احمد بن عبد السلام^(٣) بن أبي يحيى ، وفي المكاتب المذكورة من شعر ولده يحيى بن أحمد وذلك قوله :

الإنسان عيني ما تألفت انسانا فالفيتة للقانع الود قنعانا
ومنه :

خليلي ان الدهر أعتب عاتبا عليه وأرضى بالرضا عنه غضبانا
كأن لياله تأدبن أوسطا عليها فدانت احمد بن سليمانا
إمام أمام الجيش منه عزيمة يشين بها من كل شأن له شاننا
إلى آخرها فأجاب الإمام عليه بقوله :

انشر سري ينشي من الروض افنانا ومسكا وكافورا وريحا وريحانا
أم الجواهر الشفاف أم سلك لؤلؤ تضمّن ياقوتا ثمينا وعقيانا
أم العنبر^(٤) الشحري أم طرس ماجد حسبناه لما ان فضضناه بستاتا
أرق من الماء المعين معانيا وأبهر من نور الغزالة برهانا
حبانا به القاضي الأجل ابن احمد بن عبد السلام الندب يحيى وحيانا

وفيها نهض الإمام إلى الجوف بمن معه من همدان ، وقبائل صعدة ،

(١) أسل : واد في بلاد دهمّة من أعمال صعدة .

(٢) بنو معاد : عزلة من ناحية سحار وأعمال صعدة .

(٣) والد القاضي جعفر بن عبد السلام .

(٤) في الأصل العنبر .

وغيرهم ، فأطاعه أهل الجوف وشوابة ، وبلاد أرحب ، ولما استتب له أمر بلاد الجوف ، رجع إلى بلاد بني جماعة ، فأصلح بينهم في دماء كانت مثار خلاف فيما بينهم ، وقابلته بنو ربيعة بالحرب ، فقاتلهم وأخرب ديارهم ، وانتقل إلى نجران لتأديبهم لما أحدثوه من العيث والفساد بعد رحيله عنهم ، فنكل بهم وأخرب قراهم فأجابته^(١) يام من السهل والجبل ووادة وشاكر ودهمة وبنو مرة وغيرهم طائعين مستسلمين فرجع إلى صعدة ظافراً منصوراً .

عزم الإمام لتأديب^(٢) الشقي ابن الطحل وفساد ابن القدي ، وأهل الحقل

ودخلت سنة ٥٣٦ فيها بلغ الإمام أن عرفطة بن الطحل قطع طريق الحاج ، ومعه أهل عترة فنهض لحربهم إلى أن بلغ جانباً من العرض ، وبلغه أن قوماً من يرسم قتلوا رجلاً من بني حمزة وهربوا بلاد الربيعة ، فأمر بخراب منازل الجناة المذكورين ولكنه خشي أن يتعداهم الخراب إلى غيرهم ، فرجع عن قصد العنزيين لتدارك ذلك ، وكانت نيران الخلاف قد بدأت تتقد بين بني مالك المأمورين بخراب منازل المتحزبين وأهل صعدة ، فأصلح الإمام بينهم ، وسار إلى حيدان يحشد القبائل لحرب العنزيين فاجتمع له خلق كثير ، ولما بلغ أهل الحقل اجتماع القبائل وتلبيتهم نداء الإمام خافوا أن يستظهر عليهم ، وينيلهم سوء فسعوا في تفريق من اجتمع إليه ، وصاروا إلى رجل من أهل مجن يقال له محمد بن القدي ، ووعدوه النصرة والمعاونة إن هوثار على الإمام ، فخف ابن القدي وعمد إلى قافلة آتية من نجران بعضها للإمام من صدقات ويعضها لتجار من نجران وصعدة ، وهي تمر وعطب^(٣) فنهبها ، وقتل رجلاً ممن كان معها ، وكان ذلك في أسفل بلاد البقرا ، ولما

(١) في الأصل : فاجأته .

(٢) في الأصل : لثائب .

(٣) المعطب : القطن .

علم الإمام بذلك أراد أن يغزوهم وطلب من حولان وبلاد حيدان مناصرته ، فقالوا له : انا قد خرجنا معك مخارج كثيرة فلزمت على أيدينا وأطلقت أيدي بني جماعة في مخرج نجران ، فسار عنهم مغاضباً ، فلقى جماعة من مشايخ بني جماعة فأخبرهم بخبره فأجابوه بالسمع والطاعة ، وانضم إليهم بنو بحر ، وقصدوا ابن القدي إلى مجن ، وكان قد تحصن منهم في درب حصين ، ولما عاينوا مناعة الحصن طلب رؤساء العسكر من الإمام الإمساك عن الحرب وسعوا في الصلح فقال لهم الإمام : أنا لا أَرْضَى إِلَّا بِتَنْفِيزِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية (١) في ابن القدي ، فقالوا له : سنأتيك به لتنفيذ فيه ما أردت ، فلما كان من الغد وصلوا بأخ له وأربعة معه وقالوا دونك هؤلاء فقيدهم واحبسهم أما محمد بن القدي فإنه هرب في الليل فقيدهم الإمام ، ثم علم أن ابن القدي لم يخرج من الدرب ، وإنما اختفى فغضب الإمام وأطلق المقيدين ، وأمر ابن القدي أن يذهب إلى أخيه ، وإذن لذلك الجمع أن ينصرف لأنه عرف فيهم عدم النصح ، وعزم على إعادة الكرة على ابن القدي ، في فرصة أخرى فتفرق عنه أصحابه ، وبقي في أربعين رجلاً منهم ، فأراد أهل الحقل وابن القدي إنتهاز الفرصة لقلّة من معه ، وباغتوه في ثمانين رجلاً من خيارهم ، فثبت لهم الإمام حتى أعياهم ، فتفرقوا عنه وامسكوا ، وكانت الحرب بمجن ، ولما علمت القبائل القريبة هبوا سراعاً لنصرة الإمام ، وقالوا : قد اجتهدنا في إغفال الحرب عن ابن القدي بمخرجك إلى الشام ، والآن لا عذر لنا عن حربه ونكاله ، لما كان منه ، وكذلك فعلت القبائل البعيدة فشددوا الحصار والمضايقة لابن القدي وأصحابه ، حتى أجلوهم عن الدرب (٢) وهربوا منه ، فهدمه الإمام وكبس خندقه وبثره وأحرق أبوابه وأخشابه ، بعد أن قتل من أهل الدرب ثلاثة رجال ، وفي ذلك الوقت قال الإمام قصيدته التي أولها :

(١) الآية ٢٣ سورة المائدة .

(٢) يتكرر ذكر الدرب هنا وهو ما يقابل الحارة أو الضاحية في كلام الناس .

منازلنا للوافدين منازل وساحاتنا للواردين مناهل
 وكل دخيل عندنا الدهر^(١) مكرم وكل غريب نحونا فهو أهل
 وكل امرئ في هذه الأرض عالم بأي فعل كلما أنا قائل
 ومنها :

دعوتكم في ساعة العسر معلناً فلم تسمعوا والكفر في الناس شامل
 وكابدت هذا الناس وحدي وخاني صديقي وأقصاني وأعرض عاذل
 ثم رجع إلى الجبجب ، وأما أهل الحقل فإنه زاد خوفهم وعزموا على
 الغدر بالإمام فقصدوه إلى الجبجب ، برفاقة بني بحر مظهرين الندم ومضميرين
 الغدر والخيانة ، ولكنها خابت مساعيهم وطردهم الإمام من حضرته وأكرم
 وفادة بني بحر .

خلاف أهل الجوف

فيها وفد على الإمام السلطان جحاف بن الربيع ، وكان هو الوالي على
 الجوف من قبل الإمام^(٢) ، فذكر أن بعض قبائل الجوف تمردوا ونزعوا أيديهم
 عن الطاعة وحالفوا السلطان فليته بن العطاف النهدي ، وجمعوا البوادي من
 جنب ونهم وغيرهم إلى الوادي ، وقتلوا السلطان منيع بن أرحب وغيره من
 أنصار الإمام فأمر بجمع القبائل ، وكان ممن وصل إليه البحريون ، ومعهم ابن
 القدي وقالوا هذا جارنا قد أتينا به اليك فشفع فيه السلطان جحاف ، وسأل
 العطف عليه ، فقبل الإمام شفاعته وعفا عنه تألفاً لبني بحر ، ورعاية لهم ،
 ونهض إلى الجوف ، ولما دخل سوق الدعام ، ألتفت حوله القبائل التي لم
 تنزع إلى العصيان وبعد أن راسل القبائل المتمردة ، ودعاهم إلى الطاعة
 حاصريهم في حصنهم ، فما كان بأسرع من طلبهم الأمان ، وإعلانهم الطاعة
 فأمّنهم ، وعاد إلى الجبجب وقد طوع أهل الجوف البدو والحضر .

(١) في الأصل (الدهر) .

(٢) في الأصل الأم .

ظهور علي بن مهدي الحميري

وفي^(١) هذه السنة اشتهر أمر علي بن مهدي بن محمد بن علي بن داؤد بن محمد الرعيني ثم الحميري ، وكان يسكن بقرية الغبرة أسفل وادي زبيد وبها ولد ، وكان أبوه صالحاً فنشأ ابنه على طريقته ، محباً للعزلة متمسكاً بالعبادة غزير الدُّمعة واسع الفكرة كثير المحفوظات فصيح العبارة كثير الوعظة والتحذير من صحبة الملوك ، له رحلات إلى بيت الله الحرام ، وفي أثناء رحلاته ، كان يأخذ عن علماء العراق ووعاظهم ، وكان يخبر عن المستقبل ، ويكشف الناس بكثير من الأمور ، فيصدق فأفتتن الناس به وطار ذكره ، وكان أول ظهوره سنة ٥٣١ ، واستمر على الحال المذكور من الصُّلاح والعبادة والتردد إلى حرم الله إلى سنة ٣٦ ، فنال من احترام العامة والخاصة ، مكانة عالية ، ولا سيما عند الحرة علم أم فاتك بن منصور ملك زبيد فإنها أمرت باسقاط خراج أراضيه ، وأراضي من يلوذ به من قريب وتابع ، قال الجندي : فلم تمض مدة حتى أثروا وصاروا أهل خيول صاهلة وعدد للحرب باهرة ، وفراصة شاهرة ، فكانوا في ركوب الخيل كما قال الشاعر :

فكأنما نتجت قياماً تحتهم وكأنما ولدوا على صهواتها

انتهى : وسيأتي الكلام على بني مهدي وحكومتهم تفصيلاً إن شاء الله .

ثورة الشريف المهول بحقل صعده

ودخلت سنة ٥٣٧^(٢) فيها ثار الشريف عبدالله بن محمد المهول ، وكان أهل الحقل هم الذين حرّضوه على الخروج ، فقصد الربيعية ، ونحر على

(١) الخزرجي وانباء الزمن وقرة العيون (ص) .

(٢) قال في انباء الزمن ودخلت سنة ٥٣٧ لم يتفق فيها ولا فيما بعدها يوجب الذكر . ودخلت سنة ٥٣٩ الى سنة ٤٣ وفي سيرة الإمام احمد ما حرّرنا من الحوادث لهذه السنين .

مقابرهم ليشيرهم على الخلاف والخروج على الإمام فاجتمع له منهم جماعة ، وانضم إليهم غيرهم ، وقصد الإمام الى الجبجب ولما نشبت الحرب انهزم أصحاب الشريف ، وعادوا أدراجهم ، وفي ذلك يقول الإمام من قصيدة يعاتب بها الأشراف منها :

وغشيرتي متربصون جميعهم بي عشرة في وقت كل عشار
لم آتهم بنكاية بل جثتهم بزيادة في المال والمقدار
ولم يزل مقيماً بالجبجب حتى بلغه ان أهل الحقل وبعض قبائل صعدة وغيرهم تجمعوا وأجمعوا على الخلاف ، فأغضبه ذلك وسار إلى البطنة فنزل على الشيخ حسن بن قيس وأقام عنده إلى آخر سنة ٥٣٨ ، وفي ذي الحجة منها أرسل الإمام إلى كافة الشرفاء بني علي بمكة قصيدة يدعوهم بها إلى الجهاد ودخلت سنة ٥٣٩ فيها فتك السلطان هشام بن نباتة النجراني بالسلطان روح بن زريع ، وكان الإمام قد عقد له أماناً فأغضبه هشام بن نباتة المذكور فجمع القبائل وسار إلى نجران لحربه وتأديبه ، ولما وصل نجران أخرج دور المعتدين وقطع نخيلهم وتم له ما أراد من تأديبهم ، ثم رجع إلى البطنة وبعد أيام انتقل إلى هجرته بحيدان ، فأقام بها سبعة أشهر ألف فيها كتابه المشهور بحقائق المعرفة في علم الكلام . قال الشرفي في اللآلئ المضيئة وهو كتاب جَيِّد التصنيف حسن التأليف ، ووفد عليه أثناء تأليفه الشيخ ابو الحسين بن أبي القاسم من ناحية بلاد عنس وجماعة معه فتعلموه ونسخوا الكتاب وأعجبوا به (١) .

ودخلت سنة ٥٤٠ فيها ظهرت بصعدة منكرات وأمور قباح ، وكانت ولاية صعدة إلى آل الشمري ، فراسلهم الإمام وحذّرهم عاقبة الغي والضلال فلم يكثرثوا بنصحه ونهيه ، ولما تحقق له ذلك ، جمع خولان لغزوهم ،

(١) من هذا الكتاب عدة نسخ خطية في مكتبة جامع صنعاء وغيره انظر كتابنا مصادر الفكر الإسلامي ص ٥٣٥ .

ولكن آل الشمري خافوا ، ففزعوا إلى جمع كمّية من المال من أهل صعدة وانفقوها لاحتباط حركة الجيش المهياً لتأديبهم ، فتم لهم المراد .

وفيها وفد على الإمام السلطان هشام بن نباتة معتذراً مما فرط منه فاعذره ، وأمنه وصرفه إلى بلاده .

ذكر من وفد على الإمام المتوكل من العلماء وخبر نزوله الى تهامة

ودخلت سنة ٥٤١ فيها كتب الشريف علي بن عيسى وحمزة السليماني من مكة إلى الإمام المتوكل يخبره به وصول الشيخ الفقيه زيد بن الحسن البيهقي^(١) من بلاد خراسان ، وأنه يريد الإتصال بحضرة الإمام ، فرحب به الإمام وأكرم نزله ، وكان الشيخ المذكور عالماً ورعاً عابداً ، أوصل معه كثير من الكتب في فنون مختلفة ، فأقام بهجرة محنكة بوادي حيدان في ضيافة الإمام أياماً ، ثم انتقل الى صعدة وأقام بها مدة يدرس وينشر فضائل أهل البيت عليهم السلام .

وفيها أيضاً وفد على الإمام الشيخ الأجل محمد بن عليان^(٢) كبير الشيعة بوقش وغيرها من الهجر ، ولما استقر بحضرته أرسل لجميع الشيعة من بلاد خولان وأهل الهجر^(٣) فيهم فوصل منهم عدد كثير بايعوا الإمام وتابعوه ، وكان ممن وصل مع البيهقي رجل من فقهاء تهامة طلب من الإمام الإنتقال إلى جوار تهامة ومراسلة الشريف غانم بن يحيى بن حمزة بن وهاس السليماني ، وكافة الشرفاء من بني سليمان بالموعظة ونهيهم عما كانوا عليه من الظلم والفسق

(١) كان قدومه لمناظرة المطرفية وقد ذكره صاحب كتاب التمييز بين الاسلام والمطرفية العلامة عبدالله بن زيد العنسي المتوفي سنة ٦٦٧ وفي مطلع البدور ترجمة لآخر هو زيد بن احمد بن الحسن البيهقي قال قدم هجرة حوث سنة ٦١٠ فلعله هو هو .

(٢) ترجم له مسلم اللحجي في تاريخه وعده من كبار علماء المطرفية .

(٣) الهجر هي مراكز العلم والتدريس .

فأجابه الإمام ، ونهض الى بلاد الأبقور^(١) واستنفرهم معه فأجابوه ، وتحرك في جيش كبير حتى نزل بموضع يقال له الصبابة أعلا وادي جازان ، ولما علم به الشريف غانم بن يحيى خشي أن تجتمع أهل تهامة عليه مع الإمام ، ففرق الأموال على أهل البلاد ، ثم جمع الجنود وقصد الإحاطة بالإمام ومن معه ، ولكن ذلك الجند فشل وتفرق ، فلاذ الشريف بأهل الحبشة أمراء زبيد ، وطلب منهم النجدة فلم ينجدوه ، وأخيراً عدل عن هذا وذاك ، واستدري^(٢) بالإمام ، وبذل له الطاعة فاستوثق^(٣) منه الإمام بالإيمان ، وعاد إلى الجبجب وأقام فيه إلى سنة ٥٤٢ .

ودخلت سنة ٥٤٣ فيها كانت الحرب بين يرسم^(٤) وأهل صعدة ، وكان الإمام بجبل بني عويمر^(٥) منهوكاً مما لحقه من المرض على إثر تهامة ، ولما عرف غلبة الصعديين ليرسم ، تقدم من موضعه لنجدة اليرسميين ، فدخل صعدة في عدد قليل فأحاط به الصعديون ، وحاصروه في الجهة التي دخل منها ، ولم يتمكن من الخلاص إلا بمشقة ، وعاد إلى محله متعباً منهوكاً ، واستقر فيه إلى أن كان إجتماع الأشراف للنظر فيمن يصلح للقيام بأمر الأمة كما سيأتي .

ودخلت سنة ٥٤٤^(٦) فيها أشتري الداعي محمد بن سبأ الزريعي من السلطان منصور بن المفضل بن ابي البركات الحميري ما كان تحت يده من المدن والحصون كالتعكر ، واب ، وجبله ، وغيرها ، وقد تقدم ذكر الحصون

(١) الأبقور : قبيلة من خولان بن عمر لها بقية في سحار بالشمال من صعدة .

(٢) التجأ إليه .

(٣) في الأصل فستوثق .

(٤) يرسم سبق ذكرها وهي تقع في الغرب من الجنوبي من صعدة بمسافة نحو ميل .

(٥) في الأصل كتبه هكذا ثم كتب فوق الكلمة عوير (ظنا) : وبنو عوير من قبائل سحار في الجنوب الغربي من صعدة .

(٦) غاية الأمان ص ٣٠٠ .

والمدن المذكورة في السنة التي ماتت فيها السيدة الصليحية .

اجتماع الأشراف ومبايعتهم الإمام المتوكل على الله

ودخلت سنة ٥٤٥ هـ فيها اجتمعت الأشراف في مدر من بلاد حاشد ،
للنظر فيمن يصلح للإمامة والقيام بأعباء الأمة ، وكان هذا الاجتماع العظيم
مؤلفاً من كافة الأشراف العلويين ، فكان مجموعهم ينوف على الألف ، وحضر
معهم من كبار الشيعة وعلمائهم من يهمهم ذلك الأمر ، ولما كمل نظام
عقدتهم ، أفاضوا في البحث والتنقيب عن من يصلح منهم لمنصب الإمامة
والقيام بأمر الجهاد، وبعد إمعان في التفكير ، قرروا أن الإمام المتوكل أحمد بن
سليمان قد سبقهم في التقدم إلى الجهاد ، ويذهب في القدرة على حل
المشكلات ، وإخماد نيران الفساد ، فهو بها أولى ، فأجمع رأيهم على متابعته
ولزوم جماعته واختاروا منهم ثلثمائة رجل للوفادة عليه ، وإبلاغه القرار
المجمع عليه ، فسار الوفد إلى حضرة الإمام إلى الحجب ، ولما وصلوا إليه سرّ
بهم وأكرمهم ، ثم انهم عرضوا عليه قرار ذلك المؤتمر ، فرفض قبول الأمر ،
 واعتذر لهم بما لقيه منهم من الإغراض والجفوة عندما كان يدعوه في
الآزمات التي لقيها من السنين الماضية ، فقالوا له : قد كنت تدعونا فلم
نجبك فكانت لك الحجة علينا ، واليوم قد صارت لنا الحجة عليك ، وقد
ألقينا مقاليدنا اليك فقال : تالله لا كانت لكم الحجة عليّ ، وبادر بالنهوض
إلى الجوف ، وفي أثناء مسيره ، وصله كتاب من أخيه عبد الله بن سليمان من
حوث يقول فيه انه قد فشا الفساد ، وفاضت الموبقات وركب الناس رؤوسهم
في المنكرات ، واسترسلوا إلى الشهوات بحيث لو أراد إصلاح قرية واحدة
لتعذر عليه إصلاحها ، ولو جمع ما في قرية واحدة من قرى الظاهر من الخمر
لسال إلى موضع بعيد ، ونبا على تمكن الرذائل في النفوس ، فهو ينصح له
بالرجوع من حيث أتى فلم يتأثر الإمام بما في كتاب أخيه ، وقال : لا يلزمي
أن أرجع لأجل كتاب ، بل أتقدم إلى أول قرية فإن نزهتها عن المنكرات

وقمعت أهلها فالذي بعدها يجري مجراها ، ولقيه الشيخ عيسى الوادعي ، فكان له نعم العون في إزالة المنكرات من بلاد وادعة ، ولما وصل إلى حوث تلقاها أهلها بالسُّمع والطاعة ، وأتاه القاضي الأجل نشوان بن سعيد الحميري مهنتاً بقصيدة أولها :

سلام الله كل صباح يوم على خير البرية اجمعينا
على الغر الجحاجح من قریش أثمتنا الذين بهم هدينا
ومنها :

فأبلغ ساكني الأمصار إننا بأحمد ذي المكارم قد رضينا
بأكرم ناشيء أصلاً وفرعاً وأعلا قائم حسباً وديننا
رضينا بالإمام وذاك فرض نقول به ونعلن ما بقينا

إلى آخرها : ثم نهض من حوث إلى بلد بني^(١) قيس فلقيته بنو صرم^(٢) وبإيعوه ، وكان يرغب في إجتماع العلويين بالجوف وانضمامهم إلى ذلك المحل ليكونوا قوة يعتمد عليها عند الحاجة ، ولما رأى تقاعسهم عن هذه الغاية قال قصيدة يؤنبهم بها ، ويحثهم على الانتقال معه إلى الجوف ، والعمارة بعمران وأولها :

يا بني هاشم بني الأخيسار وبني المنجبين والأطهار
ومنها :

انتم فوق ما ذكرت ولكن قد بليتّم بالقلّ والاعسار
واعتمدتم على الشحاذة والبرّ وذللّ السّؤال والاعتبار^(٣)

(١) بنو قيس : عزلة من ناحية خمر .

(٢) بنو صريم : من قبائل حاشد وهم بنو صريم بن مالك بن حرب بن وادعة بن عمرو بن

عامر بن كاشح بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد ولها بطون كثيرة معروفة .

(٣) كذا في الأصل .

سير المقعدين والخدم والعميان والمطربين والشعار
ان هذا لهو الخسارة والعجز وهذا رأس نجد أو البتوار
فانكفوا يا بني على وقوموا واغضبوا من فعال أهل الصغار
واسمعوا ما اقول واتبعوني بجيوش وجحفل جرار
بمحل وهجرة في بلاد زينت بالأنهار والأشجار
فيها لم شملكم وإليها إجتماع الأعوان والأنصار

وهي أطول من هذا ، ولما انتقل إلى أضافت ، وصل إليه الشيخ
طريف بن يحيى السنحاني ، والشريف محمد بن عبد الله العلوي ، في جماعة
من أهل سناع واخبره بمقتل الشيخ محمد بن عليان في سوق سهمان ،
والمتهم بقتله السلطان حاتم بن أحمد وسلمة بن الحسن الشهابي وذلك لما
عرفامنه من الجد في نشر دعوة الامام دسا عليه من قتله فغضب الإمام لهذا
الخبر ، ونهض من فوره في جماعة من الأشراف ، وأهل سناع^(١) إلى
الجوف ، وعزم على إتخاذه دار هجرة بعد أذن السلاطين ربيع بن الجحاف
وكافة إخوته ، وبني عمه ، وكذلك السلطان فليته بن العطاف النهمي فأوسعوا
له الجنبات وتلقوه بالترحاب .

إنتقال الإمام إلى عمران وفتح صنعاء

ثم انه انتقل من الجوف إلى عمران بقصد التقرب من صنعاء وجهاتها ،
وعمر « المقيلد » وهو من المعازل القديمة فحصنه وحفر بيره ، ولما علم
السلطان حاتم جهز جيشاً لمحاربته فتحركت القبائل لنصرة الإمام وهرع إليه
أهل الهجر^(٢) من بكيل وبني شهاب ونواحيها ، فاجتمع منهم زهاء ألف
وأربعمائة رجل فيهم خيار علمائهم وفقهائهم ، وأهل المعرفة منهم حاشا ألفاف
القبائل ورؤساء العشائر وخيار الأشراف فكسروا جيش السلطان حاتم ، وطلبوا

(١) سناع : قرية شرقي حدة على بعد ٨ ك. م من صنعاء .

(٢) أي العلماء وطلبة العلم .

من الإمام الزحف على صنعاء ، فاغتتم الفرصة ونهض بذلك الجمع فسلك طريق براقش ومر بوادي محرز ، ثم طلع نقيلاً سامك^(١) وكان حاتم بن أحمد قد عهد بمحافضة النقييل إلى أهل السر وخوفهم من الإمام وجنوده فانتدب منهم جماعة لصدد من يقصدهم ، ولزموا رأس النقييل ، وبينما هم كذلك إذ عاينوا الإمام وجنوده يصعدون النقييل ، فتركوا مواضعهم ، واستقبلوا الإمام بالطاعة وطلب^(٢) الأمان فأمنهم ، ونزل بموضع يقال له دار الخروب ، وهي أطلال قديمة ، ثم واصل سيره إلى أن وصل غيمان من بلاد بني بهلول من الأنباء فبايعته الأنباء وجاءته بنو شهاب في عساكر كثيرة إلى غيمان فبايعوه واستنهضوه إلى بلادهم ، فسار إلى حدة بني شهاب ، وأقام بها أياماً ، ثم وصله السلطان سلمة بن الحسن الشهابي ، وسلم له بيت بوس ، فانتقل إليه الإمام ومكث فيه أياماً يرأس القبائل البعيدة كمذحج ، والهان ، ويكيل ، وغيرهم لمهاجمة صنعاء ، وفي أثناء هذه المدة أرسل بعض خدمته إلى صنعاء ليبثاع له ورقاً وصابوناً فعلم به السلطان حاتم وطلبه إليه وسأله عن الإمام وقوته ، ثم سلم إليه كتاباً إلى الإمام كتب فيه^(٣) :

أبا الورق الطلحي^(٤) تأخذ أرضنا ^{والمشجرة} ولم تشجر تحت العجاج رماح وتملك صنعاء وهي كرسي ملكنا ونحن بأطراف البلاد شحاح

فلما وقف الامام على البيتين ، قال : نعم نأخذها إن شاء الله ، وسرح الجنود لفتحها من ساعته وبقي في بيت بؤس ، وكانت همدان قد اجتمعت بصنعاء فدارت رحى الحرب ، واستمر الطعن والضرب على جوانب المدينة ، ثم إن أهل السرار من أهل صنعاء دخلوا الجامع الكبير وأظهروا الخلاف ،

(١) سامك : بلد وواد في صنعاء .

(٢) كذا ولعل الصواب «وطلبوا» .

(٣) البيتان في المسجد ص ٧٥ وقرة العيون ج ١ ص ٢٩١ وغاية الأمان ص ٣٠٢ .

(٤) الطلحي : القراطيس مفردتها الطلحية (مولدة) .

وشاروا على همدان وسط المدينة ، فتمكن الجند الهاجم من إحتلالها ، وتحصن السلطان وخاصته بغمدان^(١) ، وأسرع بإرسال رسوله إلى الإمام يطلب الأمان له ولمن معه فأمنه ، ولما خرج لمقابلته إلى بيت بوس وشاهد كثرة من اجتمع لحربه مع الإمام انشد :

غلبنا بني حوا بأسا ونجدةً ولكننا لم نستطع غلب الدهر
فلا لوم فيما لا يطاق وإنما يلام الفتى فيما يطاق من الأمر

وبعد أن عفا عنه الإمام طلب منه البيعة ، فبايعه ، ودخل الإمام في اليوم الثاني صنعاء دخولاً معظماً ، نظمت فيه القصائد ، وهنته الشعراء وأقبل عليه الناس من كل جهة ، واستعمل على القضاء بصنعاء القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام^(٢) ، وأما السلطان حاتم فإنه أنتقل إلى المنظر^(٤) ، واستقر بها برهة ثم بلغ الإمام عنه ما غير الصفو بينهما فالتقيا إلى عِرم السدّ وافترقا على غير طائل وسار حاتم إلى حصن الظفر^(٥) ووقف حتى تفرقت الأشراف وزحف إلى صنعاء فخرج الإمام لحربه إلى شعب الجن تحت براش ، وكانت بينهما مناوشة .

وفي الخزرجي^(٦) : أن الإمام لما أطلع على البيتين المتقدمة نهض بعساكره من ذمار إلى موضع من بلاد سنحان يقال له الشرزة ، وكانت عساكره ثمانين ألفاً منها ألف وخمسمائة فارس ، والباقي رجالة وكان المصاف في

(١) يعني قصر غمدان في الجهة الشرقية من المدينة .

(٢) انظرهما في المسجد ص ٧٥ وقرة العيون ج ١ ص ٢٩٢ وغاية الأمان ص ٣٠٢ .

(٣) هو شيخ العلماء ومفخرة اليمن رحل إلى العراق لطلب العلم ونقل علومها وألف المؤلفات الكثيرة وفاته نحو سنة ٥٧٣ .

(٤) هو المعروف بالروضة تحت صنعاء من جهة الشمال لمسافة ٥ ك . م وقد تنسب إلى حاتم المذكور فيقال لها روضة حاتم لأنه أول من أسسها .

(٥) وفي بعض المصادر المظفر راجع الخزرجي (ص) .

(٦) الخزرجي : المسجد المسبوك ص ٧٥ .

الشرزة ، فانكسرت همدان ، وقتل منهم نحواً من خمسمائة أكثرهم من سنحان ، وانهزم السلطان حاتم إلى صنعاء وتبعه عسكر الإمام ، وخالفت اهل صنعاء مع الإمام وساق الخبر على النمط المتقدم ، وليس بصحيح فإن عزم الإمام إلى ذمار ، كان بعد هذا التاريخ كما ستراه ، وقد أعتمدنا على ما كتبه مؤلف السيرة .

قال في انباء الزمن^(٢) : وفي هذه السنة نزل مطر في جميع اليمن يشبه الدُّم حتى بان اثره في الأرض والثياب .

ظهور دولة علي بن مهدي الحميري

ودخلت سنة ٥٤٦ قال في أنباء الزمن : فيها كانتبيعة علي بن مهدي صاحب وادي زبيد ، وهي البيعة الثانية بعد موت عَلم النجاشية على جهاد من في زبيد من بني نجاح ، ومن تابعهم من العرب ، وأمر أصحابه بقتل من خالف مذهبه ، وإن كان من قومه ، وهذني أول عقائده الفاسدة ، ثم ارتفع إلى محل يقال له الرأس من اعمال وصاب ، وانتقل منه إلى حصن الشرف^(٤) وسمي من صعد معه من تهامة المهاجرين ، ومن اتاه من الجبال الأنصار ، وجعل على المهاجرين ابن عمه نقيباً وعلى الأنصار نقيباً وسمي النقيبين شيخي الإسلام ، وكان لا يخاطبه غيرهما ، وربما احتجب عنهما أحياناً ، وهما يتصرفان في الأمور ، وما زال يكرّر الغارات على زبيد حتى أخرب المحلات المتوسطة فيما بين الجبال وزبيد ، وكان يرى جهاد الحبشة آل نجاح واجباً لما هم عليه من الفساد ومخالفة رب العباد ، لكنه قابل المنكر بالمنكر ، ونهى عنه بما هو انكر^(١) : انتهى .

(٢) غاية الأمانى ص ٣٠٣ .

(٤) من وصاب ايضاً .

(١) غاية الأمانى ص ٣٠٤ .

وذكر في حوادث سنة ٥٣٦ بيعته الاولى وأنه قصد مدينة الكدرا^(٣) بمن بايعه ، وبها إذ ذاك القائد إسحاق بن مرزوق السحرتي فدحره عنها وأرجعه إلى الجبال فأقام بها ثم كتب إلى الحرّة علم يسألها الذمة والعفولة ولأصحابه ، ففعلت على كره من أعيان دولتها وفقهاء بلادها ، وعاد إلى مزاوله أعمال الزراعة بوادي زبيدة مدة سنين حتى ماتت علم النجاحية سنة ٥٤٥ .

وذكر الجندي والخزرجي وغيرهما خبر ثورته الأولى ومبايعته سنة ٣٨ ثم عودته إلى الجبال ، ومكث إلى سنة ٥٤١ وكتب الحرّة علم يسألها الذمة ففعلت وعاد إلى وطنه وأقام يستغل أملاكه فلما ماتت الحرّة في التاريخ المتقدم ، بايعه أصحابه البيعة الثانية بقرية القضيب من أوطان زبيد سنة ٥٤٦ ولما انتظمت له البيعة ، قام فيهم خطيباً ، فقال في خطبته : والله ما جعل الله فناء الحبشة إلاّ بي وبكم ، وعمّا قليل إن شاء الله سوف تعلمون والله العظيم ربّ موسى وهارون وإبراهيم أني عليهم ربح عاد وصيحة ثمود ، واني أحدثكم فلا أكذبكم ، واعدكم فلا أخلفكم ، ولئن كنتم أصبحتم قليلاً لتكثرون ، أو وضعاء لتشرفن ، أو أذلاء لتعزّن حتى تصيروا مثلاً في العرب والعجم « ليجزي الذين اسأوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسن »^(٣) فالإناة الإناة فوحي الله العظيم على كل مؤمن موحد لاخديمكم بنات الحبشة واخواتهم ولاخولنكم اموالهم واولادهم وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليسخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم^(٤) الآية

(٢) يعني صاحب انباء الزمن المؤرخ يحيى بن الحسين المتوفي سنة ١٠٩٩ . انظر هذا النص في مختصر الكتاب المذكور المسمى غاية الأمان ص ٢٩٩ .

(٣) الكدرا : مدينة خربة قديمة تقع في وادي سهام بين المراوعة والمنصورية .

(١) الآية ٣١ سورة النجم .

(٢) الآية ٥٥ سورة النور .

ثم قصد الجبال بجمع سَمَاهم المهاجرين ، وأقام بموضع يقال له الداشر^(١) ، ثم ارتفع عنه إلى حصن يقال له الشرف لبطن من خولان حالفهم وسماهم الأنصار ، ثم ساء ظنه بجميع عسكره فاحتجب عنهم وجعل للمهاجرين نقيباً وللأنصار كذلك وسمّاهما شيخي الاسلام ، فكان لا يدخل عليه غيرهما واستمر يوالي المغار على جهات زبيد ، حتى دمر القرى ، وعطل المزارع ، وأهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، ولقد كان هذا الرجل نسيج وحده في طغيان جمع بين القسوة والنزوة والزهد والشدة ، والشجاعة والضراعة ، كان حنفي المذهب ، ولكنه يكفر بالمعاصي ويقتل مرتكبيها ويستبيح قتل مخالفيه ، وسبي ذراريهم فخرّب البلاد ، وأهلك العباد ، كان سيئ الظن بأصحابه ، عظيم الاعتماد عليهم في تنفيذ دعوته ، شديد الوطأة عليهم أيضاً ، وقد استطاع بمكره وذكاء فطنته ، أن يستولي على قلوب أتباعه ، وكانت قبيلة عك دعامة نهضته ، وأصل منادته استعملهم لتدعيم سلطته ففتكوا بقومه وقبيلته من حمير واستطالوا عليهم بسلطانه . حتى أذلّوا نخوتهم ، وارغموا معاطسهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وقد أشار إلى هذه الأحداث الشيخ العلامة البليغ أحمد بن خمرة طاش الشراحي الرعيني الحميري الوصابي في مقصوده^(٢) التي ذكر فيها ابن مهدي وأحداثه ، وما فعلته عك بحمير من التشريد والتطريد ، وسرد فيها ما كان لملوك حمير من الغلب والملك ، ومن والاهم من سادات العرب وأول هذه المقصورة :

تأدب القلب تباريح الجوى وعاده عائد شوق قد ثوى

عزلة الداشر والشرف وحصن قوارير اسما حصون ومحلات معروفة بوصاب السافل إلى الآن .

(١) تعرف بالخمرة طاشية نسبة إلى مؤلفها وهي في مفاخر قحطان ونبت من التاريخ والوعظ شرحها في القرن السابع الأديب سليمان بن موسى بن الجون الأشعري المتوفي سنة ٦٥٢ في كتاب مستقل اسماء والرياض الادبية في شرح الخرطاشية منه نسخة خطية في مكتبة لندن .

ومنها في ذكر الديار التي كانت لحمير أيام علي بن مهدي ، فساروا عنها وتفرقوا تحت كل كوكب ، من جراء ما لحقهم من إرهاق عك وطغيانهم :

عفى المسيل فالنخيل فالصوى الى النقيـل فالمقيـل فالملا
فالسفح من سرول فاعراض من باله عني بالغ فالدوح الغضا
فملتقى البطنان من بطينة فملتقى الأجراع من رعى اللوا
فالنهج من قولس فالمسقط من حصن قوارير فاكناف الحما
الى ان قال :

الملك القائم من فرع سبا والقتل والتطريد في آل سبا
إلى آخرها وهي طويلة وفيما سيأتي حركة بن مهدي

بقية اخبار الامام المتوكل بصنعا

كان دخول الامام صنعاء آخر العام المنصرم ، وما كاد يستقر بها ، حتى وفد بنو الزواحي ، وكان اليهم امر كوكبان فأذعنوا واطاعوا ورهنوا بعض أولادهم على تسليم الحصن فأبى الشريف على ربحي إلا حربهم وحصارهم ، وأعاناه على هذا العزم قوم من صنعاء وزعموا ان أهل كوكبان ان على مخلصين فلا بد من معالجة الشر بالشر كما يداوي شارب الخمر بالخمـر ، ونهض الشريف بجموعه لحصار كوكبان ، وقد نهاه الإمام عن حربهم إكتفاء بطاعتهم وانقيادهم ، فلم ينته الشريف ، وأقام محاصراً الكوكبان ، ولما وقع القتال على الباب الذي من جهة الضلع^(٢) من ناحية المغرب ، كان الجند الواقف بازاء هذه الجهة من قلاب^(٣) من ناحية مسور ،

(١) من مناهل لسان (صفة جزيرة العرب ص ٢١٠) .

(٢) الضلع : جبل متصل بشبام كوكبان .

(٣) قلاب : عزله بالشمال من مسور .

وهم قوم لا عادة لهم بالخيـل ، وقتالها ، فلما داهمتهم همدان بخيولها أكثروا
فيهم القتل وهزموهم ، وانهزم قائد الحملة أيضاً الشريف وأهل صنعاء إلى
صنعاء ولسان حاله تنشد :

واني وإياهم كمن نبه القطا ولو لم يُنبه باتت الطير لا تسرى
وبعد هذه الهزيمة تداعت همدان للخلاف ، وأعلنت الفساد وعلى
رأسها زعيمها السلطان حاتم بن أحمد واجتمعوا إلى الرحبة ، فصمد لهم قوم
من جنب ، وانهزمت همدان ، ثم انهم تجمعوا مرة أخرى ، وهاجموا قرية
منكل^(١) وفتكوا ببعض من فيها ونهبوها ، فأراد أهل صنعاء الانتقام منهم ،
وأجمعوا على الخروج لحربهم ، إلى علب ، فنهاهم الإمام لعلمه بعجزهم
عن المقاومة ، فلم يقفوا عند نهيه وخرجوا فهزمتهم همدان ، وقتلت منهم ،
وسار الشريف علي بن يحيى لاستنفار مذحج على كره من الامام ، فاجتمع له
قوم من عنس ، وزبيد ، وجنب ، فلقبهم حاتم بن أحمد بجموعه ، بموضع
يقال له رعام^(٢) ، فكانت هنالك وقعة عظيمة انهزم فيها أصحاب الشريف ،
وخرج الإمام من صنعاء ، لإنجاد الشريف ، واستخلف على صنعاء السلطان
الخبير بن سلمة الشهابي ورجالاً من الأشراف وبني شهاب فأمسى بغيـمان
ووافته أنباء الهزيمة إليها ، فلم ير بدءاً من التقدم إلى ذمار ، ولما علم بعزمه
حاتم بن أحمد قصد صنعاء فدخلها ، ولم يغير على احد من أصحاب الإمام
مخافة العواقب .

حرب القليس وسير الإمام الى الجوف

لما وصل الامام الى ذمار جمع خيلاً من جنب نحو ثلثمائة فارس ،
وعارضه عبد الله بن يحيى في سبعمائة فارس ممداً لحاتم بن أحمد ، وكان

(١) لم نجد هذا الموضع في صفة جزيرة العرب ولا غيرها .

(٢) كسابقه .

حاتم قد جمع من همدان ونهد وسنحان خمسمائة فارس وثلاثة آلاف راجل ، ولما بلغه خبر عبدالله . بن يحيى ومن معه نهض لحرب الإمام ، والتقى الجمعان بموضع يقال له القليس^(١) ، وهناك تدانى الفريقان ، والتقت حلقتا البطان ودامت الحرب من أول النهار إلى آخره ، ثم حملت خيل حاتم على أصحاب الإمام حملة واحدة فأفترق أصحاب الإمام ثلاث فرق فرقة لحقت بالجند المحارب ، وفرقة لاذت بالجبل فارة ، وفرقة ثبتت معه ، ثم انه حمل بنفسه على الأعداء حتى خالط صفوفهم وفرقهم ذات اليمين وذات الشمال ، وخرج من بينهم ، ولحق بأصحابه الذين لاذوا بالجبل وأنجاه الله منهم وسار نحو الجوف في شهر جمادي الآخرة من السنة وأقام بعمران إلى شهر شوال ، ثم انتقل الى محله بالججب ، وأقام فيه إلى أن بلغه أن حاتم بن احمد يريد الخروج لحربه ، إلى تلك الجهة فأغضبه ذلك ، وعزم على أن يقصد حاتم ويحاربه في بلاده ويادر بالنهوض الى خولان وله في ذلك قصيدة طويلة أولها :

على رسلكم يا أيها المطلقاء تأنسوا في خير الأمور أناء
استعجلون الشر منا وقبل ذا جرت نقم حلت بكم وبلاء
ومنها :

وما منكم إلا أسير أسرته وأطلقت فالكمل لي أسراء
ويوم دخلنا درب صنعاء عنوة وفيه رجال منكم ونساء
دخلنا وللنساء من خوف بطشنا صراخ وللأطفال فيه ضغاء
ودخلت سنة ٥٤٧ فيها نهض الإمام بجموعه إلى مدع^(٢) فأقام فيه شهرين ثم سار إلى جبل مسور، ومنه إلى يناع ، وكان فيه الشريف علي بن

(١) من قرى جبل النبي شعيب ناحية بني مطر .

(٢) مدع : لأبضم الميم جبل وحصن منبع مظل على مدينة تلا من الغرب الشمالي .

يخفى ، فتغيب من الإمام لأنه لم يحسن السيرة ولا لقاء للإمام ، فأقام بيناع أياماً راسل فيها اهل الهجر ، وحرصهم على الجهاد ، وحثهم على متابعتة ، وكانوا قد تقاعدوا عن نصرته وقالوا إلى حاتم بن أحمد ، فتابعوه ، وأجابوا ، ثم تقدم الى نواحي ذمار عن طريق خولان ، وقد انضم اليه جميع من مر بهم من القبائل كخولان وجنب ومذحج وغيرها ، وأصبح ذا قوة كافية لإخضاع حاتم بن أحمد وغيره ، فجاهر هذه القبائل بأنه يريد بهم غزو عدن ، فخاف حاتم بن أحمد ، وهرع إلى ذي جبلة ، وطلب من الداعي محمد بن سبأ الزريعي صاحب عدن ، أن يلاقيه إلى ذي جبلة فلم يتأخر محمد بن سبأ ، ولما أتفقا عرض حاتم بن أحمد مسألة الإمام والتفاف قبائل البلاد حوله ، واتفاه معهم على مهاجمة عدن أول المحرم سنة ٥٤٨ ، وعرفا أنه لا طاقة لهما بحربه ، فعدلا إلى استخدام المال ، وبذل محمد بن سبأ لجنب عشرين ألفاً ولمذحج قريباً منها وفرق في رؤساء العسكر وغيرهم ، كميات وافرة ، ولما رجع أحمد بن حاتم بهذه الأموال وفرقها على المذكورين ، أجمع رأيهم على مصارحة الإمام بما ارتكبه من الدناءة ، فسار إليه ألفان منهم ، وهو برداع^(١) العرش ، وقالوا له : يا مولانا قد أخذنا بسبيك (لقمة كبيرة وإننا نحب ان تسوغها لنا) وتهب لنا صنعاء وعدن ، في هذه المدة ، وتخرج بنا حيثما أحببت إما لشبوة^(٢) ، وإما لبيحان^(٣) ، وإما لحضرموت ، أو نجران أو الجوف ، أو صعدة ، فقال : أما صعدة ونجران والجوف ، فهي لي ومن قبلي ، وأما غيرها فلاني أخاف أن تحصل لكم لقمة أخرى فتأخذونها ، وغضب لإرتكاسهم في مهواة الأطماع ، ورجع عنهم إلى عمران عن طريق

(١) مدينة بالشرق من ذمار بمسافة ٥٣ كم وهي المعروفة برداع الكبرى وقيل لها رداع العرش

ليفرق بينها وبين آخر تحمل نفس الاسم .

(٢) مشبوة : منطقة اثرية بين مأرب وحضرموت .

(٣) بيحان : بلدة في الجهة الجنوبية من البيضاء وفي جهة الشرق الجنوبي لحضرموت .

مراد^(١) ، فوادي مارب ، فالجوف ، ومنه إلى عمران وتكبد في طريقه هذه من المشاق ما يوهي القوى ، ويوهن الأعناق ، وروى الخزرجي^(٢) سبباً آخر لتخاذل قبائل جَنْب عن الإمام ، وهوانه وصل إلى جَنْب ، وكان بينهم قتول كثيرة ، فأراد الإمام أن يصلح بينهم ، ويجمع كلمتهم ، فلما علم السلطان حاتم بن أحمد بذلك ، ركب في رجال من همدان ، وقصدهم إلى قرب ذمار ، فوصل ، وقد اجتمعت قبائل جنب بأسرها لملاقاة الإمام ، فدخل وسط الحلقة ، وهو على حصانه ، فلم ينكروه ، وقال : حياكم الله يا وجوه العرب ، لا يعيب عليّ من خلفي فما جعل الله لرجل من قليين في جوفه ، ولا وجهين في رأسه ، ثم قال : وصلناكم يا وجوه العرب لأمر لكم فيه شرف ، ولنا فيه عز إلى حين فرحبوا به وعرفوا مقصده ، فقال : علمت أنكم في طلب الإصلاح ، وأخذ ذمم بينكم ، وهدم قتول من عشائركم ، فرأيت أن أَلِّم شملكم ؛ وأقطع عنكم ما تحاذرون ، وأنجمل في مالي ديات قتلاكم فحمدته على ذلك ومن حضر من قبائل العرب ، ثم أفرق ذلك الجمع ، وراح معهم إلى ذمار ، وكتب إلى أهله بصنعاء :

مملوك بعضهم ووالد بعضهم وشقيق بعضهم وهذا جامع
أبليتهم حملي ديات عتيدة^(٣) ان المكارم في الرقاب ودائع
فليسرعوا من فورهم تصديرها متعمدين نفاذ ما أنا صانع

وأنفذ بالكتاب رسولاً على الفور ، فما لبث أن عاد الرسول بالمال وكانت ديات جمة ، ففرقها لجَنْب ، وفرق جموع الأشراف انتهى .

ولما استقر الإمام بعمران هذه المرة ، وجّه عنايته نحو الزراعة ، واتخذ مزارع واسعة وبينما هو مكبّ على عمله إذ وفد عليه ولده المطهر بن أحمد في

(١) جبل وعزلة من بلاد صرواح وأعمال مارب تسكنه قبيلة مراد المشهورة .

(٢) المعجد المسبوك ص ٧٦ .

(٣) في مطبوعة قرة العيون ج ١ ص ٢٩٤ «بينهم حملي ديات عتيدة» .

جماعة من الأشراف ، وذكروا له ما ظهر بصعدة من الاستهتار بشرب الخمرة وسألوه النهوض إليها لإزالة المنكر ، فلم يجد الإمام بدءاً من المسارعة والمسير إليها ، ولما دخلها أمر بإحضار من ثبت أنه شرب وإقامة الحد عليه ، فأحضروا ، وأمر بجلدهم واغلظ لهم في الكلام ، وأمر بهدم كنيسة كانت لليهود هنالك ، ثم خرج إلى الجبجب ، فأقام فيه أياماً ، ثم سار إلى مُسَلِت ، ووقع الخوض في الصُّلح بينه وبين حاتم بن أحمد فالتقيا إلى بيت الجالد ، وتقرر الصُّلح على منع الخطبة للباطنية بصنعاء وإظهار مذهب الهادي عليه السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقبل حاتم ذلك ، ونفذ شروط الصلح ، وعاد الإمام إلى الجوف ، ثم سار منه إلى الجبجب ، وأقام فيه ، ودخلت سنة ٥٤٨ والامور ساكنة .

تظاهر يام بمذهب الباطنية ومسير الإمام لحربهم

ودخلت سنة ٥٤٩ فيها بلغ الإمام أن قوماً من يام بالخائق^(١) أظهروا مذهب الباطنية وارتكبوا المنكرات جهارية ، وتركوا صوم رمضان ، وأحيوا ليلة الإفاضة ، وجاءت امرأة منهم تشكو إلى الإمام ، أن ولدها غشيها ، في تلك الليلة فغضب الإمام لذلك ، ونهض إلى بلاد بني شريف^(٢) وسنحان ، ودعاهم إلى قتال يام فأجابوه وانضمت إليه أيضاً قبائل من نهـد وخثعم وتثليث ، وبني عبيدة ، وسار بالجميع إلى وادعة ، فوافاهم وقد لزموا جنبتي وادي غيل جلاجل ، فقابلهم جند الإمام ، وعظم النزال واشتد الصدام ، وانهزمت يام ووادعة بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة ، وغنم أصحاب الإمام ما وجدوه ، وأقاموا ثلاثة أيام يهدمون منازل المفسدين ، حتى أجلوهم عنها إلى نجران ، واقفرت بلادهم ، ونحلت عن أهلها ، وهي مسير ثلاثة أيام ، وفي هذه الواقعة يقول الإمام عليه السلام :

(١) سبق ذكره .

(٢) بنو شريف من قبائل خولان من بلاد صعدة .

الله أكبر اي نصر عاجل من ذي الجلال بفتح غيل جلاجل
 كم مئة منه عليّ ونعمة وسعادة تترى وفضل فاضل
 كفرت به يام ووادعة معاً وتجبروا وتمسكوا بالباطل
 وأتوا من الفحشاء كل كبيرة فعلاً وقولاً فوق قول القائل

إلى آخرها : وبعدها رجع إلى الججب ، ومكث إلى آخر شهر شعبان من السنة ، وطلع مغرب بلاد خولان ، فصام هنالك رمضان ، وبلغه أن الشريف قاسم بن غانم بجبل العرو^(١) طلع من تهامة لخلاف نشب بينه وبين أخيه وهاس بن غانم فواجهه الإمام إلى هنالك ، وأكرمه فطلب الشريف من الإمام النصرة على أخيه ، فرحب به الإمام ، وسار به إلى صعدة ثم انتقل به إلى الجوف ، وكان ما سيأتي .

قال في انباء الزمن^(٢) : وفيها كانت قصة أهل المعلق وهي قرية ما بين الكدرا والمهجم ، وهي ان الله تعالى أرسل عليهم سحابة سوداء مظلمة أتتهم من جهة اليمن ، فيها رجف شديد ويرق ونار تلهب ، فلما رأوا ذلك زالت عقولهم ، والتجأ بعضهم إلى المساجد ففشيهم الأمر ، واحتملت الريح أكثر القرية من أصلها بمن فيها من الناس والدواب حتى القتهم في محل نازح عن القرية بنحو خمسة أميال ، فوجدوا حيث القتهم الريح صرعى ولبعضهم انين ، ولم يلبثوا ان هلكوا .

وفيها أيضاً سقطت حجر من السماء فوقعت في الصلاحفة قريب من ذي جبلة ، وحصلت رجفة شديدة تزلزلت منها تلك الجهة بأهلها ، وفيها أيضاً حصلت زلزلة عظيمة من صنعاء إلى عدن ، هلك فيها عدد كثير من الناس ،

(١) العرو جبل بالغرب من صعدة بمسافة ٣٧ ك . م .

(٢) غاية الأمان ص ٣٠٨ والمسجد ص ١٣١ وفيه المغلف . وكذا في قرة العيون ج ١ ص ٣٦٢ قال في الهامش لا تزال معروفة إلى اليوم وتقع في الجهة الواقعة على شط نهر سردد على طريق المسافرين من الجبال الشمالية وتبعد عن الحديدة بمسافة يوم كامل .

وانهدم كثير من القرى والحصون فسبحان المخوف بالآيات .

وفي الخزرجي^(١) قال : وفي سنة ٥٤٩ سقطت حجر من السماء فوقعت في الصلاحفة موضع قريب من ذي جبلة ، ووقعت رجفة شديدة تزلزلت منها الأرض بأهلها ، وذلك في يوم الجمعة السادس من شهر ربيع الأول من السنة ، وانشقت السماء وسط النهار وظهر نجم وبعده دخان في المخلاف الأخضر^(٢) ، وحصلت بعد ذلك زلزلة شديدة في اليمن من صنعاء إلى عدن هلك فيها عدد لا يحصى من الناس ، وانهدم كثير من الحصون والقرى والمساكن ، وذكر أسماء الحصون والقرى والمساكن وعدد النفوس التي تلفت في هذا الزلزال ، نرجو الله ان يعاملنا بلطفه ، وهو أرحم الراحمين .

وقال في المستبصر^(٣) ما لفظه : ذكر المغلف والأسبخة هما قريتان من أعمال الحبشة^(٤) إحداهما المغلف والثانية الأسبخة فبينما القوم فيما هم عليه من أحوالهم ، الرجال تحرث والنساء تغزل والحمير تتناهى ، والكلاب تتنابح إذ ارتفعوا عن أعين الخلق إلى يوم القيامة ولم يدر أحد ما أصابهم ، ولا ما فعل الله بهم ، ولا ما كان منهم وذلك سنة ٥٦٤ فيقوا مثلاً إلى يوم الدين ، فيقال طار بك برق المغلف ، والأسبخة ، وخسف بقرية العمالق من أعمال الأشعوب يمانى صنعاء فأصبح الصباح ، ولم توجد عن القرية وأهلها ودوابهم من خبر سنة ٤٦٥ فاعتبروا يا أولي الأبصار انتهى .

وفيها تجهز الإمام من الجوف لحرب اسعد بن حسين صاحب شوابة وكان قد نكث ببيعة الإمام واستدعى بقوم من همدان ، وجمع معهم من سفیان

(١) المسجد ص ١٣٢ وقرة العيون ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) يعني إب ونواحيها .

(٣) المستبصر لابن المجاور .

(٤) في هذه الرواية خلط - كمادة ابن المجاور - بين الخيال والواقع وفي هذا الخبر تتبادر إلى ذهنه مواضع يمنية فنظنها في الحبشة وكذا في تحديد التاريخ وقد أوردها المؤلف من باب التشابه بين الحادثتين .

خيلاً ورجلاً وتحصّن بهم في حصنه وكان منيعاً فحاصره الإمام وضيق عليه وما زال أصحابه يتقربون من درب حصن أسعد حتى أقتحموه فاستسلم من فيه ، وطلبوا الأمان فأمنهم الإمام وأخرجهم بنفوسهم لا غير ، وأمر بأخذ ما كان في الدرب من أثاث وبقر وطعام ، وغير ذلك ثم أمر بهدم الدرب وإحراقه ، فلما نظر أسعد ما حلّ بالدرب ، ومن فيه طلب الأمان والذمة لوصوله إلى الامام فأمنه ، فلما مثل بين يديه حلف له يميناً على عدم العود ، وكان قد سبق منه مثل ذلك ، فقال الإمام : لقد استبطأت انتقام الله لهذا على الإيمان التي يحلفها ويفجر فيها ، وعاد الإمام إلى الجوف ، وأقام فيه إلى سنة ٥٥٥ وفيها نهض لحرب الشريف وهاس بن غانم ، فانتقل إلى الجبجب ومعه الشريف قاسم بن غانم ، وطلب قبائل يام ووادة ، وهمدان ونجران ، فلما وصلوا ، وهم أن يتقدم ، قالوا له : ان الطريق على خولان ، فإن نهضت خولان نهضنا ، وكان الشريف وهاس قد أرسل بمال لخولان فتقاعدوا عن نصرة الإمام ، وتعذر عزم تلك القبائل معه لإمتناع خولان فتحول الإمام إلى بلاد عَنز^(١) وخثعم ، فمرض هنالك ، واعتذر للأمير قاسم بما كان ، ورجع إلى الجبجب مريضاً ، وبلغه ان جماعة من صعدة تظاهروا بشرب الخمر ، فأمر من يأتي بهم إليه فأمتنعوا ، وأظهروا الفساد فقصدهم الإمام ولما أظهروا المقاومة والإمتناع ، حاصرهم حتى ضاقت بهم الأقوات ونفذ ما معهم ، فخرجوا إليه مستسلمين ، وسلّموه مفاتيح دروبهم ، وطلبوا منه العفو فعفا عنهم ، وكانت مدة الحصار سبعة أشهر .

ودخلت سنة ٥٥١ فيها قتل القائد سرور صاحب زبيد بمسجده أثناء صلاة العصر ، وبقتله ختمت دولة العبيد ، وكان الذي قتله رجل من أصحاب علي بن مهدي وإليه ينسب مسجد سرور بمدينة زبيد ، وكانت ولايته الوزارة سنة ٥٣١ وقد ترجمه الخزرجي وأطال في الشاء عليه ، قال الجندي : وقد

(١) عنز : سبق ذكرها وفي صفة جزيرة العرب ص ٢٣٠ بالقرب من بيشة وجرش .

تأملت دولة الحبشة في ابتدائها وانتهائها ، فرأيت ابتداءها برجل مبارك ، وهو الحسين بن سلامة ، وانتهاءها برجل مثله ، وهو هذا سرور رحمه الله ، وقال الديبع في كتابه بغية المستفيد^(١) وفي أيام وزراء آل نجاح عمل القاضي الرشيد أحمد بن الحسين بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الاسواني المجري الذي يدخل مدينة زبيد من الناحية الشرقية بحكم الهندسة وكان أوحده عصره في ذلك انتهى

وقعة الشرزة^(٢) أو نجد شيعان ودخول الإمام صنعاء

بينما كان الإمام مشغولاً بحصار صعدة إذ بحاتم بن احمد يتوغل في الجهة الشمالية، ويقصي عنها عمال الإمام فأخذ قلعة شهر^(٣) ، ونجر^(٤) ، وتقدم لحصن ضباعين^(٥) فأخذه ، وسار إلى شوابه ، وكاد أن يستولي على سائر تلك الجهات ، فترك الإمام صعدة وانتقل إلى الظاهر ، ثم إلى الجوف ووصله حاتم بن معن بن الغشم مناوياً لحاتم بن احمد فبايعه وكان قد استدعاه زيد بن عمرو كبير جنب إلى دمار ، فانتهاز الإمام الفرصة وهرع الى دمار ، وكانت قد خربت وأقفرت عن السكان ، ولم يبق بها ديار ، فلما دخلها الإمام بذل جهوداً كبرى واستنفذ كل قواه في سبيل إعادة عمرانها واصلاح ما أفسدته مساعي زيد بن عمرو ، الساعي في خرابها فتراجع إليها أهلها ، وعمروها ، وشكروا صنيع الإمام ، ثم إنه انتقل منها إلى بلاد جنب ومعه زعيمها زيد بن عمرو ، فأقام فيهم تسعة أشهر يعد العدة لمنازلة حاتم بن احمد ، ومهاجمة صنعاء ، فاجتمعت إليه القبائل من جنب وعنس ومذحج ، وزبيد ونهض بهم نحو

(١) بغية المستفيد ص ٦٤ .

(٢) قاع معروفة في بلاد سنحان على مقربة من قرية شعسان وعلى حدود خولان الطيال .

(٣) شهر - واد بالقرب من صنعاء بمسافة سبعة كيلو وحصنه سمي فده (فلعله المعنى هنا) .

(٤) نجر: بلدة اثرية في بني حجاج ناحية عيال سريح بالجنوب من عمران بمسافة ٣ ك. م .

(٥) ضباعين بلدة عامرة من آل يحيى من جبل عيال يزيد .

عنساء في شهر شعبان^(١) سنة ٥٥٢ ، ولما بلغ الموضع المعروف بنجد الشرزة أو نجد شيعان^(٢) ، تلقته جنود حاتم بن احمد ، وهنالك تلاحم الفريقان ، وتدانى الجمعان ، واستحر الطعن والضرب ، وكادت الحنود الإمامية أن تولي الأدبار ، فابتهل الإمام الى الله سبحانه ، وكان من جملة دعائه ذلك اليوم قوله : (اللهم انه لم يبق إلا نصرك اللهم أن يظهر علينا القوم يذهب دينك) فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفاً من جهة المشرق قابلت وجوه أعدائه فكانت الهزيمة عليهم ، وصاروا درة لرماح الجند الأمامي ، ومرمى لقطعانهم حتى انجلت المعركة عن خمسمائة قتيل وخمسمائة أسير من اصحاب حاتم بن احمد ، وتعقبهم جند الإمام الى صنعاء وخشى الإمام على صنعاء وأهلها من معرفة الجند الفاتح ، فبات على غيل ابن الاسود^(٣) ، ثم نهض وجعل المعسكر بالحصنة^(٤) لئلا يضر الجند بأحد في المدينة وقد أمنها وأمر بخراب درب غمدان ، وكان حاتم قد حصنه وبالع في إتقانه وطلب له رجل من مصر وبذل من الأموال في تشييده ما لا يحصى قال كاتب^(٥) سيرة الامام المتوكل انه لم يُبن في اليمن مثله ، وإلى حادثة الشرزة المذكورة وما تقدمها من الأحداث أشار صاحب البسامة بقوله

واحمد بن سليمان فما رضىت بعلأ به وهو مرضي لدى^(٦) البشر
دعا وكان إماماً سيّداً علماً برأ تقياً ومن كل العيوب بسري

(١) في انباء الزمن ان هذه الحادثة كانت سنة ٥٥٠ والأرجح ما ذكرناه اعتماداً على ما في سيرة الامام المتوكل .

(٢) شيعان : قرية مشهورة في سنجان جنوب شرقي صنعاء بمسافة ١٨ ك.م .

(٣) هو الغيل الأسود بهريشق صنعاء من جانبها الغربي ومنابعه من سفح الجبل المعروف بحدين جنوبي صنعاء على مسافة ساعة وأكثر سقيه في شمال شعوب وقد اندثر هذا النهر (انظر الحجري معجم البلدان ص ٧٨) .

(٤) موضع شمالي صنعاء على مسافة نصف ساعة للراجل (الحجري ص ٢٦٢) .

(٥) هو العلامة المؤرخ سليمان بن يحيى الثقفي .

(٦) في نسخة من البسامة «من» .

وصبحت خيله صنعاء معلمة لما غدا النكر فيها غير مبستر
وحاصرت ما تما فيها عساكره فانقاد للحق بعد الضعف والخور
واجتاحه عند شيعان بملحمة ألف مضوا بين مأسور ومجتزر

ولما دخل الإمام صنعاء واستتب له الأمر ، انتقل إلى بيت بوس ، فأقام به شهر رمضان عند السلطان سلمة بن الحسن ، ثم بلغه ان حاتم بن احمد يرأس السلطان سلمة ويؤامره على الفتك به ، ويعدده على ذلك الأموال والضيايع والهبات الكثيرة ، فسار من بيت بوس الى سناع ، ومكث به إلى آخر سنة ٥٥ وكان السلطان حاتم يريد الصلح والدخول في الطاعة ، فكتب بذلك إلى الإمام واستعطفه ، فلم يقبل منه الإمام فلما أيس من عطف الإمام خشن في مراسلته فكانت بينهما مهاجاة ومشاعرات أوردها في سيرته وذكرها الفقيه حميد في الحقائق^(١) .

عزم الإمام إلى ذمار

ودخلت سنة ٥٥٣ فيها سار الإمام إلى ذمار ، فصالحه زيد بن عمرو على سبعة آلاف دينار في كل سنة ، ثم رجع إلى بلاد بني شهاب فاتاه بنو الزواحي يستنهضونه إلى كوكبان ، فنهض معهم وتسلمه منهم وانقض على بيت ذخار^(٢) ، وأراد حصن بيت^(٣) عز وهو لمنصور بن جعفر الضريوة ، فامتنع عليه حصن بيت عز حتى وصلته رجاله من بني الدعام ، وسلاطين مسور من بني المنتاب ، فأعاد الكرة على أصحاب ابن الضريوة ، فظفر بهم وتسلم الحصن وأمن صاحبه وعفا عنه ، وعاد إلى الجبجب ، وقد عظم أمره واتسع نفوذه ، فراسله السلطان حاتم وسأله أن يرسل إليه ولده المطهر ليزوجه ابنته ،

(١) انظر الحقائق الوردية ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) بالضم جبل مشهور يعرف اليوم بضلاع وبيت ذخار قرية فيه .

(٣) بيت عز موضع قريب من كوكبان .

ويملكه حصن براش^(١) ، فكره الإمام مواصلته ورفض ذلك .

وفيها اشترى زيد بن عمرو حصن أشيخ بثلاثة آلاف دينار ، وكتب إلى الإمام يستقدمه إلى الحصن المذكور ، ولما وصل الإمام إلى حدة بني شهاب تلقاه حاتم بن أحمد وطلب منه الصلح والهدنة فصالحه على الشروط المذكورة في الصلح الأول ، وسار إلى أشيخ^(٢) وأقام به إلى أن استنجد به أهل زيد .

ذكر مهاجمة علي بن مهدي لمدينة زيد وأحداثه ،

واستنجد أهل زيد بالإمام أحمد

قد حَدَّثناكَ على صفحات كتابنا عن ابن مهدي الواعظ النَّاسِك ثم ذكرنا لك طرفاً من أخبار ابن مهدي السَّائر ، وإليك الآن البيان عن ابن مهدي الطاغية السُّفاك .

لما قتل القائد سرور على الصفة المذكورة في التاريخ المتقدم ، عظم الخطب واستيقظ الهول ، وشَبَّت الفتنة ، واشتغل ولاية زيد وأمرؤها ، بتنازع زهرة الحياة ، عن تدبير الملك وحياطته ، فكانت الأحداث تتوالى والمصائب تتعاقب على ما حول زيد ، ومن بها لاهون بشهوة الحكم ، وفتنة المال ، وذلك البلاء المبرم والويل الرامك^(٣) ، والعدو اللدود يحصي عليهم أنفاسهم ويراقب حركاتهم ، ويستطلع أنباءهم ، حتى إذا غمرتهم الحيرة ، وأعماهم الهوى ، وحق عليهم القول وآل أن يتلعمهم الفناء في ظلمات مهاويه ، وينظمهم التاريخ في فجائعه ومآسيه ، وثب عليهم بجنود متعطشة إلى الدماء قد ألهب نار حماسها روح زعيمها ومنطقه ، وأفعمهم ببلاغته وسحر بيانه ،

(١) براش اسم لعدة مواضع ولعل المعنى هو براش المعروف وهو جبل شامخ في الشرق من صنعاء .

(٢) أشيخ ، يتكرر ذكره وهو حصن شهير في بني سويد من بلاد آنس ويعرف الآن بحصن ظفار في الشمال الغربي من ضوران بمسافة ٣٠ كم .

(٣) المقيم .

أن الحق معهم :

فما لهم غير الدماء مشارب وما لهم غير النفوس مطاعم
كان الوغى قد صار في أنفـس الـورى هياما فمن يقتل يمت وهو هائم

قال الخزرجي^(١) : انه لما رجع ابن مهدي من مدينة ذي جبلة من عند
الداعي سبأ بن محمد بن سبأ الى حصن الشرف سنة ٥٤٧هـ^(٢) ، دُبّر علي قتل
القائد سرور الفاتكي ، فلم يزل يرصده حتى قتله سنة ٥٥١هـ ، فاشتغل رؤساء
الحبشة بالتنافس والتحاسد على مرتبته ، وكانت الحرة علم قد توفت قبله سنة
٥٤٥هـ ، فانفتح على أهل الدولة بعد القائد سرور باب الشر المسدود ، وانحل
عقدها المشدود ، ففارق ابن مهدي حصن الشرف ، وهبط الى الدأشر ، وبينه
وبين مدينة زبيد أقل من نصف يوم فتقربت الرعايا إليه ، وعرب البلاد ، وهم
الذين كانوا رعايا الحبشة ، فكان الرجل من أصحاب ابن مهدي يلقي أخاه أو
قريبه أو معروفة ممن هو من رعايا الحبشة ، سواء كان راعي ماشية أو حارس
ضيعة فيفسده ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى ان زحف ابن مهدي بجموعه
الى باب المدينة في جيوش لا تحصى كثيرة ، وحدث غير واحد من أهل زبيد
ممن أدرك الحصار ، قالوا : لم تصبر أمة على الحصار والقتال ما صبر عليه
أهل زبيد ، وذلك انهم قاتلوا ابن مهدي اثنين وسبعين زحفاً ، يقتل في كل
زحف من عسكره مثل ما يقتل منهم ، وصبروا على الضر والجوع ، حتى
أكلوا الميتة ، من شدة الجهد ، ثم انهم استنجدوا بالإمام أحمد بن سليمان ،
قال في سيرة الإمام ، ما خلاصته : أنه لما وصل إلى اشيع ، اقام به شهراً
ووصله ولد لأحمد بن محمد بن الخضر الخولاني ، صاحب حصن قوارير^(٣)

(١) المسجد المسبوك ص ١٣٤ .

(٢) في المسجد (نسخة وزارة الاعلام المطبوعة) سنة ٥٤٩هـ .

(٣) يتردد ذكره وهو حصن كبير في وصاب السافل قال الحجري حرب منذ زمن قديم ويعرف
الآن بالمكمل .

بوصاب شاكياً ما لحقهم من ابن مهدي ، وذلك انه خطب إليهم فتاة لهم فلبوه ، فطلع إليهم في ثلاثة آلاف من أصحابه ، جعلهم تحت الحصن ، ودخل على إمرأته في ثلاثمائة رجل منهم ، فلما تمكنوا من الحصن شهروا سيوفهم وذبحوا من فيه من صغير وكبير ، ذكر وانثى ولم يُبقوا إلا على أربع عشرة امرأة منهن صهرته وبناتها فسباهن ، وأخذ جميع ما في الحصن من الأموال ، وكان معه قوم من رازح^(١) يقال لهم بنو منبه زادوه جرأة ، فغضب الإمام لذلك ، وعزم على الانتقام من ابن مهدي فحشد قبائل جَنْب وتآلف رئيسهم زيد بن عمرو ، وغيره من المشائخ بالمال ، فنهضوا معه وقصدوا زبيد^(٢) فباتوا بها ليلة ، وتقدّموا إلى الجليب تحت حصن قوارير ، وأمسوا هنالك ، ولما أصبحوا ، أرسل الإمام جماعة للكشف عن ابن مهدي ، فتقدمت طليعة إلى محله فوجدوه في نفر قليل ، ولم يكن قد علم بوصولهم ، وعادوا إلى معسكرهم يحثون أصحابهم على مباغته الرجل وانتهاز فرصة غفلته ، فقال لهم شيخهم جابر بن عبدالله الجنيبي : ان كنتم تريدون أموال أهل زبيد ، فدعوا ابن مهدي إلى أن تفرغوا من زبيد وهو لكم من بعد ، وان لم تكونوا تطمعون في زبيد ، فخذوا ابن مهدي ، وخذلهم فتواصوا على كتمان الخبر عن الإمام وباتوا آمنين ، ولكن ابن مهدي انتبه لهم سريعا ، وبيّتهم تلك فما استيقظوا إلا من وقع السيوف ، وثبت الإمام في جماعة من أصحابه ، وحملوا على ابن مهدي ، فانهزم ، وقتل جماعة ممن معه ، ولما أصبح الإمام أراد أن يتقدم إلى موضع ابن مهدي فامتنع عليه أصحابه وأبوا إلا قصد زبيد فساعدتهم وسار إلى زبيد ، وضرب مضربه بباب التبارق ، وقد ظفر جنده في طريقهم بقافلة لابن مهدي تحمل حبا وسمنا ، فنهبوها ،

(١) رازح : أحد أقضية لواء صعلة يضم عدة قرى .

(٢) قلت : هذه المعلومات المهمة التي يوردها مؤلف الكتاب عن سيرة الإمام المتوكل هو مما ينفرده ولا توجد في سائر كتب التاريخ اليمنية المعروفة .

وأدخلوها زبيد فتبلغ بها أهل المدينة ، وخرجت العلماء والقواد والعظماء لاستقبال الامام والسلام عليه ، وحمدوا الله على قدومه .

وكان أمير زبيد يومئذ فاتك بن محمد بن جياش ، وكان فاسقاً مسرفاً تروى عنه أمور قبيحة موحشة في نفسه ، فبات الإمام وأصحابه وهم يسمعون عزف القيان ، ونغمات الطنابير ، وأصوات الملاهي ، ففزعوا لذلك ، وحولوا مضاربهم إلى الميدان ، وحرّض الإمام على قتل فاتك ، ولم يزل يعمل الحيلة في ذلك ، حتى تمكن منه ولما شعر الأمير الحبشي بالخطر ، أرسل بعض جواريه بفدية إلى الامام على أن يعزله ويولي سواه ، فلم يقبل منه الفدية وأمر به ، فكسرت رقبتة ، ورُمى قوماً كانوا معه يفعلون المنكر بالحراب ، وبقتله انقرض ملك الأحباش من اليمن ، «فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا»^(١) .

فاذا الدار ما بها من انيس واذا القوم ما لهم من محس
غير ذكرى مآثر وعظمت خلقتها الدهور في عرض طرس
يجد الناظرون في اسطريحتك عيسرة الدهر والزمان المؤس
واذا فاتك التفات إلى الما ضي فقد غاب عنك وجه التاسي

وبعد قتل الأمير المذكور ، أقام الإمام ثمانية أيام ، وجعل على زبيد رجلاً من من بني جياش يقال له محمد بن نجاح ، وكانت قواد الحبشة تنفق على عسكر الإمام مدة إقامتهم في زبيد ، وأما الإمام وخاصته فإنه كان ينفق عليهم من ماله ، وكان بعض قواد الأمير فاتك قد اغتصب كمية كبيرة من مال فاتك واستجار بالإمام ، فاجتمع قواد الحبشة ، وقالوا ان مع هذا مال ملك زبيد ، فقال لهم الامام : يكون معه مال من كان ، فقد أجرته وما معه .

ثم عزم على الخروج لحرب ابن مهدي الى رمع ، ولما خرج من

(١) الآية ٩٨ سورة مريم .

للمدينة تأخر بعض أصحابه فأغلق عليهم اهل زبيد الباب وتقاعدوا عن الخروج ، معه لحرب عدوهم ، ولم يفتحوا لهم الباب إلا بعد أن خاطب فيهم الإمام ، وقد أخذوا خيلهم وسلاحهم ، فانشئ الإمام عن حرب ابن مهدي ، وهم بمحاربتهم لإساءتهم إلى أصحابه ، ثم انه ترك الكل ، وعاد إلى دمار ، وفي أثناء الطريق راجعه أصحابه في أخذ المال الذي اخذه القائد ريحان على مولاه فاتك وقالوا هو لبيت المال ، فقال : ما يسعني عند الله ، ولا ينبغي لي من المنعة ، وقد أجرته وماله ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ﴾^(١) وأنا أعمل فيه بكتاب الله ، ولم يزل معه حتى أبلغه مأمنه ، انتهى المراد نقله في المسيرة فيما يتعلق بزولة زبيد ، ثم ان ابن مهدي شدد الحصار على زبيد ، حتى دخلها قهراً يوم الجمعة ١٤ شهر رجب سنة ٥٥٤ ، فأقام بقية شهر رجب وشعبان ورمضان ، ومات سادس شوال من السنة ودفن في المشهد القريب من مدرسة الميلين^(٢) وأوصى ولده أن يجعله جامعاً يصلي فيه ففعل ثم أخبره بعض ملوك الغز وجعله اصطبلًا^(٣) ومن شعر بن مهدي :

عناق القنا والصفافنات السوابق الذّ وأشهى من عناق العواتق
وسهرتنا بالليل فوق ظهورها الذّ إلينا من رقاد النمارق

وهي قصيدة طويلة^(٤) قالها لما دخل زبيد ، وقام بعده ولده مهدي بن

(١) الآية ٦ سورة التوبة .

(٢) مدرسة الميلين : من مدارس زبيد يقول العاص اسماعيل بن علي الأكرع «نقع شرقي الدار الناصري ومكانها اليوم أو قريب منه مدرسة الاسكندر بناها الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن ايوب » انظر المدارس الاسلامية ص ١٨ .

(٣) يقول ابن الديبع : ثم كان بعد ذلك يسمي معقاب عاتكة فجعل فيه محامل السلطان وغيرها من آلاتهم ثم خرب ولم يبق منه الا منارة سقطت في أول دولة الملك الظاهر الغساني سنة ٨٣١ انظر قرة العيون ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٤) انظرها كاملة في قرة العيون ج ١ ص ٣٦٤ .

علي فدوخ البلاد وذلت لهيبته الأمراء والملوك وسيأتي تمام خبره وخبر أخيه عبد النبي بن مهدي بن علي في موضعه ان شاء الله .

وفي هذه السنة سار الإمام أحمد بن سليمان من دمار إلى عَيَّان على طريق الجوف لما بلغه من إقدام عمر بن منيع السليماني ، وأقاربه على إخراج ولد القاسم بن جعفر وأقاربه وأهله من درب عيان ، وإخراجه ذلك الدُّرب ، وكانوا يظنون ان ذلك يوافق غرض الإمام لميل ولد القاسم عنه ، فلما علموا بقرب الإمام من عيان ارتفعوا بمن معهم من دهممة إلى جبل شرقي عيان ، فأمر الإمام بقطع زروعهم ، وإخراجه دورهم ، ثم عاد إلى مُسَلَّت ومنه إلى الخارد بالجوف الأعلى فاستقر فيه ، وعمر حصناً منيعاً ، واجتمع حوله من أهل تلك الجهة ، جماعة للسكون^(١) بجواره ودخلت سنة ٥٥٥ فيها خالف أهل مقرا وريمة القريبة من صنعاء على الإمام ، وكان قد استعمل عليها ولده المطهر فشدد عليهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والممة فظة على الصلوات ، فكان هذا الحزم سبب الفساد ، ومنعوا الواجبات ، فنهض الإمام لحربهم حتى وصل إلى بلاد حاشيت^(٢) ، كتب إليه حاتم بن أحمد ان يمر على صنعاء فإنها بلاده ، ومراده المكر فعرف الإمام مراده ، ورجع طريق الجوف ، ثم نهض إلى الجهة المخالفة ، فظفر بأهلها واجتمع بولده المطهر ، ثم توجه إلى دمار ، ومنه إلى إب ، ثم رجع إلى الجوف ولقاه ولده المطهر واستقر هنالك^(٣) .

ودخلت سنة ٥٥٦ فيها مات السلطان حاتم بن أحمد اليامي ، وتولى بعده ولده السلطان علي بن حاتم يوم وفاة أبيه فبايعة أهل همدان ، ثم رجع إلى حصنه ، ظهر فأقام فيه أياماً ، ثم خالف عليه أهل همدان ومالوا إلى

(١) في الأصل للكسون بتقديم السين .

(٢) انباء الزمن (ص) .

رجل من آل القبيب ، واجتمعوا في داره بناحية القطيع^(١) من صنعاء وبلغ علي بن حاتم خبرهم ، فنهض إلى صنعاء في جمع كثير من القبائل واجتمع من همدان سبعمائة فارس عند باب شعوب ، فلما وصل علي بن حاتم تفرق أكثرهم وقاتلته طائفة منهم قتالاً شديداً ، ثم ولوا عنه ودخل الدرب^(٢) ، وخرج أخوه عمران بن حاتم ، وهو صبي صغير فقاتلهم في أزقة المدينة حتى قتل بسهم ، فاضطربت همدان لقتله خوفاً من علي بن حاتم ، فوهب لهم علي بن حاتم دم أخيه تأليفاً لهم ، وتسكيناً لاضطرابهم ، واستقر في صنعاء ، وبعد أيام أخذ حصن ذي مرمر وكان لقوم من همدان وكوكبان والعروس^(٣) وكانا لبني الزواحي ، وأخذ بكر وعمر هذه الحصون جميعها ، وملك الظاهر والمغرب ، وكان جواداً كريماً يقطع الرجل من همدان البلد والبلدين ويمنعه من مضارّة أهلها ، وجعل على كل مخلاف عاملاً فمتى آن حصاد الثمرة ، أمر عماله أن يقيضوا من الرعية الخمس محرّداً عن غيره من سائر المطالب على طريقة العبيديين^(٤)

وفيهما نزل المطهر بن الإمام إلى تهامة للصّالح بين الشريف قاسم بن غانم وبني عمّه السليمانيين ، وبعد إكمال عمله حفر قافلة الحاج ، وعاد معهم إلى صعدة ، فالتح عليه أهل صنعاء بمرافقتهم إلى وطنهم فخرج معهم ، وفي أثناء الطريق باغته المرض . ودخل صنعاء عليلًا ومات بها ، فحمله السلطان علي بن حاتم إلى المنظر ، ودفنه بها وحزن عليه كثيراً ، ورثاه بقصيدة طويلة أرسلها إلى والده الإمام ، وقد ذكر هذه المرثاة ومرثاة الإمام كاتب السيرة .

وفيهما أعاد الإمام الكرّة على أهل صعدة ، وسار لحربهم في جنود كثيرة

(١) القطيع : حاره بصنعاء في الجانب الشرقي منها

(٢) المصدر نفسه (ص)

(٣) حصن العروس من حضور بالجنوب الغربي من صنعاء وهو مقابل لكوكبان من الجنوب .

(٤) انباء الزمن (ص)

وكانوا قد أحكموا تحصين المدينة وجعلوا عليها خندقاً فأحاط بها عسكر الإمام ، واشتد الحرب حتى اقتحموا المدينة وكبسوا الخندق ، وثغروا السور أيضاً ، فخامر الصّعديين الفشل ، والقوا سلاحهم وتراسهم وسائر آلات الحرب ، فاستولى عليها الإمام واخرب كثيراً من دورها ، وعاد الى الجبجب وأذن لعسكره بالعسود إلى أهلهم ، ثم انه نقل عائلته من الجبجب إلى الجوف ، فبلغه ان بني مالك ، وأهل صعدة فرحوا بانتقاله ، وانهم توعدوا الأشراف ويرسم بالانتقام والطرده من البلاد فغار لذلك ، ولحقته الحمية والرأفة على أقاربه ، وبني عمه ، وأنصاره ، ورأى انه لا معدى له من حمايتهم ، وقد كره مقامه الأول بالجبجب ، ولا يريد المقام بصعدة ، فطلع حصن تلمص^(١) ، قال كاتب سيرته : وهو حصن عظيم جاهلي في طود شامخ منفرد من الجبال مظل على الحقل ، وحاكم عليه وإلى جنبه مدينة صعدة القديمة ، وكانت من المدن الكبار العظيمة ، واسمها في الجاهلية جمع . وبحصن تلمص هذا يضرب المثل ، وكان يسكنه في الجاهلية نوال بن عتيك نازع الأكتاف ، من ولادة سيف بن ذي يزن ، قال الشاعر :

اصبحت توعدي بأمر معضل حتى كأنك نازع الاكتاف
عبد ابن ذي يزن برأس تلمص بين الأرائك مسبل الاسجاف

فلما طلعه الإمام أحكم تحصينه ، وعبد طرقه ، وحفر مناهله ، وشاد فيه الغرف والقباب بالحصص والأجر ، ومكث فيه إلى شهر محرم سنة ٥٥٨ ، ثم سار إلى الجوف ومنه إلى مسلت ، فوافاه بمسلة صنوه الشريف عبدالله بن سليمان ، وذكر له ان السلطان منصور بن ابي-النور العرجي صاحب مسور ، استطال على قوم بناحيته فأخذ حصنهم وعول عليه في القيام

(١) تلمص : بضم التاء واسكان اللام وضم الميم وصاد حصن مشهور في بلاد سحرار من أعمال صعدة كانت تقوم في سفحه مدينة صعدة القديمة (المقهي : معجم المدن والقبائل ص ٧١) .

لنصرة المظلومين فلم يجد الإمام بدءاً من القيام ، لإخراج الظالم العرجي من حصن أولئك القوم وتكبّد المشاق لذلك . واجتاز طرقاً وعرة المسالك ، حتى أنه قال لبعض أصحابه : والله لو أعطيت عشرة آلاف على أن أنزل نقيلاً المَحْدَد^(١) ، وهو الذي رجع منه الهادي^(٢) إلى الحق عليه السلام ، وقال : ما افترض الله عليّ جهاداً في هذه البلاد ، ولكنني أطلب التّقرب إلى الله في نصرة المظلوم ، ورفع يد الظالم ، وصلة الرّحم في مساعدة صنوي^(٣) ، وإسعاف سؤاله ومقصده ، ولما قرب من الحصن المذكور ، أقبل عليه النّاس ، فخاف العرجي على بلاده إن هو استمر في ظلمه وعناده ، فتخلى عن الحصن ، وسَلّمه لأربابه ، ورجع الإمام إلى الجوف ، واجتمع إليه آل الدّعام ، وغيرهم ، فسار بهم إلى حصنه تلمص وأقام به أياماً يرأسل القبائل ، ويحرضهم على الاجتماع لقتال أهل صعدة ، فاجتمع منهم خلق كثير ، فتقدّم بهم إلى صعدة وحاصرها أياماً ولم يتمكن منها لخيانة كانت من قبائل خولان ، فلما عرف ذلك أذن للجنود بالعود إلى بلدانهم .

وفيهما وصل الشّريف أبو الفضائل علي بن إدريس السليمانى من أرض وساع^(٤) مهاجراً إلى الإمام في جماعة من أصحابه ، فأكرم الإمام نزلهم ، وأنزل الشّريف وأهله وحشمه في حصنه تلمص واحلّ الشرفاء الذين معه بدرب الأشراف وبعضهم بالججب .

قيام مهدي بن علي واحداً

قد ذكر مهلك علي بن مهدي وأشرنا إلى قيام ولده عبد النبي وأخيه

(١) المحدد بفتح الدال وسكون الحاء المهملة ثم دالين مهملتين أولاهما مكسورة قرية أهلة بالسكان من آل الفليحي (صفة ١٢٣) .

(٢) انظره سيرة الهادي ص

(٣) الصنو : الشقيق .

(٤) عدّة العقيلي في معجم جازان من أودية المخلاف السليمانى .

مهدي بن علي ، فكان عبد النبي يتولى أمور المملكة ، وأخوه مهدي أمور الجيش والسرايا فاستباح بلاداً كثيرة وقتل قتلات عظيمة ، وأغار على لحج مرتين إحداهما في شعبان سنة ٥٥٦ والثانية في رمضان سنة ٥٥٨ فقتل من أهل [لحج] ^(١) في الغارتين عدداً كبيراً وسبى الحريم ، ونهب أموالاً كثيرة وقيل في ذلك الأشعار منها قول الهندي ^(٢) الشاعر :

أتشرب الخمر في ربا عدن والبيض والسمر في الحصيب ظما
كلا ومهدي فارس بطل وصدر حيزوم يملأ الحزما ^(٣)

ثم أغار على الجند في شوال من السنة المذكورة فحصرها أربعة عشر يوماً ، ودخلها غرة ذي القعدة سنة ٥٥٨ فقتل أكثر من وجد فيها من صغير وكبير ، ورماهم في البئر التي في المسجد وحرق أكثر دورها وأحرق المسجد بمن فيه من الضعفاء والعجائز ، وأموال الناس والكتب ، والمصاحف وقتل أهل قرية الذنبتين ^(٤) ، وكانوا قد اختفوا بأكمة ذي عراكض ^(٥) فدل عليهم صوت حمار لهم ، فطلع اليهم وقتل منهم جماعة ، وقتل أهل قرية العربة وأخرب مسجد الجند ، وعاد إلى زبيد وقد أصابته طائفة ^(٦) تفطر منها جسمه ، بعد أن ظهر به شبه أحراق النار، فلم ينزل إلا في محفة قد فرشت بالقطن المندوف ، فلما صار في زبيد توفي مستهل ذي الحجة في السنة المذكورة

(١) ساقط من الأصل .

(٢) كذا في الأصل وفي المسجد المسبوك ص ١٣٦ (ابن الهنيئ) وفي قرة العيون ج ١ ص ٣١٦ . (ابن الهبي) .

(٣) هذه رواية الخزرجي وبغية المستفيد وقرة العيون وأنباء الزمن (ص) .

(٤) الذنبتين : قرية خربة من بادية الجندي .

(٥) موضع قبلى الذنبتين انظر (المسجد المسبوك ص ١٣٧) .

(٦) هو المعروف عند اطباء العرب بمرض الطير وهو مرض جلدي يصيب الأعضاء الداخلية .

وقال الخزرجي^(١) نقلًا عن صاحب العقد الثمين^(٢) إنه لما رجع من الجند الى زبيد أقام بها أياماً ثم مرض في المحرم سنة ٥٥٩ ، وتوفي يوم الأحد الثامن عشر من الشهر المذكور وقبر في المشهد مع والده واستقل بالأمر بعده أخوه عبد النبي .

وقال الجندي : انه لما هلك علي بن مهدي خلفه ابنه مهدي ، ولما تمهدت له قاعدة الملك غزا البلاد ، فصالحه الداعي عمران عن عدن والذملوة بمال ، فقبله ، ولم يعترضه ولا بلاده ، ثم طلع الجند والمخلاف فقتل في الجند ونواحيها مقتلة عظيمة الخ . . . (٣) .

أحداث عبد النبي بن علي بن مهدي ، ومقتل الشريف وهاس

ما كادت تخدم نار فتنة مهدي بن علي بعد هلاكه حتى ائتنف الناس من فتنة أخرى كسابقتها أو أشد فقد استقل بالأمر عبد النبي في سنة ٥٥٩ فأغار على أبين^(٤) وأحرقها وقتل أهلها ، وما لبث أن عاد إلى زبيد بعد أن عاثت وافسد في أبين وجهاتها ، ودخلت سنة ٥٦٠ فيها كان في تهامة مجاعة وقحط عظيم فهدأ عبد النبي ولم يتحرك حتى إذ أمطرت البلاد وأخصب الناس ، وأخذت الأرض زخرفها وازينت ، فاجأها ابن مهدي بأحداثه فقصده المخلاف السليماني ، وكان بينه وبين صاحبه الأمير الكبير الشريف وهاس بن يحيى بن غانم موادة ومهادنة فخر^(٥) وغدر ، وباغت الشريف على غرة ، وليس معه غير عبيده وأهل المدينة وليس له وزر يعتصم به ولا حصن يفزع إليه ، فوقع

(١) المسجد المسبوك ص ١٣٧ .

(٢) لعله نفس الكتاب المسمى السمت الغالي الثمن لابن حاتم وهو من الكتب القيمة طبع في لندن تحقيق الدكتور ركس سميث .

(٣) الخزرجي وأنباء الزمن وقررة العيون (ص) .

(٤) أبين : مخلاف مشهور على ساحل البحر الهندي شرقي عدن .

(٥) ختر : غدر والختر الغدار والختر اقبح الغدر .

ابن مهدي وأصحابه في أهل الساعد^(١) مدينة الشريف المذكور فقتلوا أهلها وقتلوا الأمير وهاس وولده بعد أن دافعا عن نفسيهما وسبيت النساء ونهبت الأموال ، ولما بلغ الإمام مقتل الأمير وسبي الحریم ساءة ذلك واغتم غمًا شديدًا ، وقال : لا رحم الله وهاسا لقد كان لنا غمًا وعارًا في حياته ومماته ، ثم كتب إلى أخيه الأمير قاسم بن غانم يعزّيه ويؤنبه وكافة بني هاشم بقصيدة أولها : (٢)

هو الدهر يرضى أهله ثم يغضب وبينى لهم حيناً وحيناً يخرب
ومنها :

كفعل ابن مهدي اللعين وخربه وهم ثلة ترعى المواشي وتحلب
وما أظهروا من منكر في تهامة وخطب جسيم صدعه ليس يشعب



ومنها :

وصالوا على وهاس غدرًا وبينه وبينهم عقد ولم يتطبوا
وفي هذه الحادثة الممضة يقول عبد النبي قصيدته المسمطة يرثي بها والده ويذكر فيها حوادثه وأخباره منها قوله :

وهاك فاسمع خبرا جاءت له الحبوكرى^(٣) من ساعد وتعشرا^(٤)
وعارض فيها هما
لوت بوهاس ضحى فابتدرته مرحا فضل من تحت الرحي
مضرجاً مرغماً

(١) الساعد : عدّها الهمداني قرية من حكم (صفحة ٩٧).

(٢) سيرة الإمام احمد.

(٣) الخزرجي وقرّة العيون وبغية المستفيد.

(٤) الداهية والمعركة بعد إنقضاء الحرب.

(٥) تعثر : واد من أودية المخلاف السليماني .

إلى آخرها وهي طويلة تشهد له بالابداع وسعة الإطلاع^(١)

قال صاحب انباء الزمن^(٢) نقلاً عن بعض المؤرخين^(٣) أفترق ملك اليمن في هذه المدة ، فكان عدن وأبين والدملوة وتعز إلى نقييل صيد لآل زريع أهل عدن ، وذمار ومخاليقها لسلطين جَنب وصنعاء وأعمالها الى الظاهر ، وحدود الأهنوم لعلي بن حاتم صاحب صنعاء ، وصعده وما اليها للأشراف ، وشهارة وبلادها لأولاد القاسم العياني عليه السلام ، والجريب وما حاوله ، لولد عمر بن شرحبيل (آل أبي الحفاظ)^(٤) الحجوري وتهامة الشامية (المخلاف السليماني)^(٥) الى حررض للشريف وهاس بن غانم بن يحيى بن حمزة السليماني^(٦) ، وبلاد زبيد إلى حد حررض من جهة اليمن إلى عبد النبي بن علي ، ولم يزالوا كذلك إلى أن زالت دولتهم جميعاً ببني أيوب الآتي ذكرهم إن شاء الله قال : وأما الأمام احمد بن سليمان عليه السلام فإنه لم يعمر داراً ولا جبي خراجاً ولا دَرَب درباً ، وإنما مضى على الجهاد ، ومحاربة أهل البغي والفساد ، فجزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً انتهى .

ودخلت سنة ٥٦١ فيها طلع احمد بن علي بن مهدي من زبيد لعمارة مدينته الجند في عسكر جرّار ، وأبتدأ في عمارتها من يوم السبت خامس شهر ذي القعدة من السنة ، واستمر إلى نهاية الشهر المذكور ، ثم أغار على الجوة^(٧) وبها جيش الداعي عمران بن محمد بن سبأ الزريعي فدخلها جند ابن مهدي وحرّقها ، وقد كانت سبقت له غارة على الجوة أيضاً في بعض الأعياد ،

(١) انظرها في المسجد المسبوك ص ١٤٢ وثغر عدن ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) غاية الأمانى (مختصر انباء الزمن) ص ٣١٦ .

(٣) هو الحجوري في روضة الأخبار (مخطوط) .

(٤) ما بين القوس من زيادة المؤلف .

(٥) كسابقه .

(٦) في غاية الأمانى «للشريف غانم بن يحيى بن حمزة بن وهاس السليماني» .

(٧) الجوة : مدينة خربة في جبل الصلو تحت قلعة الدملوة .

وظفر بأهلها يومئذ فقال في ذلك الشاعر الهندي (١) :

بكرت نقل من الكمة ضراغما من آل مهدي هما ا حازما
وكذاك ليس تروق ابنية العلا إلا إذا كنتم لهن دعائما
صبحت اكناف الجواة بغارة شعواء طبقت الحماة جماجما
وحرمتهم فيها مطاعم عيدهم وتركتم للمرهفات مطاعما

ودخلت سنة ٥٦٢ فيها طلع عبد النبي إلى الجند في جمادي الآخرة من السنة وعاد إلى زييد وخرج إلى مخلاف جعفر وحصر حصن المجمع (٢) فأخذها ثم قصد مدينة إب فأخذها يوم الخميس الخامس من شهر ربيع الأول من هذه السنة وأخذ الشماحي (٣) يوم الأحد الثامن من الشهر المذكور واستولى على البلاد ، ويث السرايا والجنود في كل جهة وسار إلى عدن فحاصرها

ودخلت سنة ٥٦٨ (٤) فيها طلع السلطان عمران بن محمد الداعي سبأ إلى صنعاء يستنجد بالسلطان علي بن حاتم صاحب صنعاء فأكرمه ولم يتأخر عن نصرته ، وجمع همدان وسنحان وبني شهاب (٥) ونهد وغيرهم ونهض بهم لحرب عبد النبي ، وكان السلطان الزريعي قد تقدمه إلى جنب ومذحج ، واستنفرهم للقتال فنفروا معه واجتمعت الجنود كلها في السحول (٦) وذلك سنة ٥٦٩ ، فنهضوا مجتمعين ، وقد تقدمت جيوش ابن مهدي إلى حصن المسواد (٧) وذو جبلة فتلقتهم جيوش علي بن حاتم ، فانهزم أصحاب ابن

(١) كذا عند المؤلف كسابقه وفي العسجد «الهنيني»

(٢) حصن في الشوافي من أعمال إب

(٣) الشماحي : قرية من عزلة الموية من بعد ان .

(٤) هذه الحادثة كان وضعها هنا سهواً وسنأتي على بقية الحوادث التي من بعد سنة ٥٦٢ (ص) .

(٥) الخزرجي والجندي وقرية العيون وبغية المستفيد (ص)

(٦) السحول : بلد معروف ما بين مدينة إب جنوباً وحتى قفر يريم شمالاً

(٧) المسواد : جبل بالجنوب من مدينة إب فوق نقيط المحمول من جهة الشرق .

مهدي وقتل منهم خلق كثير ، وأسر وغنم ودخل ذي جبلة ، فلم يجد بها أحداً من عسكر ابن مهدي ، وكانوا قد هربوا ليلاً ، وانحاز بعضهم إلى دار الحرة أروى بنت علي بن محمد الصليحي ، فاستولى عليها السلطان علي بن حاتم وأجار الحرة ، وجميع من معها من عسكر ابن مهدي وغيرهم ، وما معهم من أموال وخيل وسلاح ، وبقي بها مدة ، ثم نهض بعسكره إلى الجند ، فوجدها خالية من العسكر والرعايا فدخلها بعض العسكر ، وأقام السلطان علي بن حاتم خارج المدينة ، وبلغه أن عبد النبي في حصن تعز ، وقد اجتمع إليه أصحابه فخف علي بن حاتم ومن معه لمهاجمة تعز ، فلما دخل المدينة وجد عسكر عبد النبي قد اجتمعوا إلى ذي عدينة^(١) ، فوقع القتال الشديد بين الفريقين ، فكانت الدائرة على أصحاب ابن مهدي ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وعقر من خيلهم شيء كثير ، وأخذ منها نحو مائة فرس ، ونهب من سلاحهم ، وعددهم شيء كثير ، ونهبت ذي عدينة يومئذ نهباً عظيماً ، وكان عبد النبي بن مهدي في أعلا حصن تعز على سطح من سطوحه وراء كتيبة تبرق ، فقال : ان صدقني ظني فهذا علي بن حاتم فليل له : نعم تلك كتيبة همدان فأنشد متمثلاً :

واعلم بني بأن كل قبيلة ستذل ان نهضت لها قحطان

ثم رجع السلطان علي بن حاتم في أصحابه إلى الجند وأخرب دار المملكة في الجند التي عمرها السلطان محمد بن سبأ بن أبي السعود ، ووافته الأنباء بأن العسكر الذي كان بالرعارع^(٢) محاصراً لعدن من قبل ابن مهدي قد هربوا فأراد ان يهبط تهامة ، فلم تطاوعه قبائل جنت على ذلك وتفرقوا عنه ، وكتبوا لابن مهدي :

رَحَلْنَا وَخَلَفْنَا السَّلَاطِينَ خَلَفْنَا فدونك يا عبد النبي عشاكا

(١) احد أحياء مدينة تعز .

(٢) الرعارع : مدينة كانت عاصمة مخلاف لحج أيام الزرعيين وهي اليوم خراب .

فأمر ابن مهدي بصدّه عن طلوع نقيّل صيد^(١) وبعد قتال عنيف تمكّن علي بن حاتم من طلوع النقيّل وأراد أن يعيد الكره علي عبد النبي فلما علم بذلك راسله في طلب الصلح فأجابه السلطان علي بن حاتم وشرط عليه عدم التّعرض لبني زريع فقبل عبد النبي وتم الصلح على ذلك .

قال في أنباء الزمن ودخلت سنة ٥٦٣ لم يتفق فيها ولا في السنة التي بعدها ما يوجب الذكر .

ودخلت سنة ٥٦٤ فيها وقعت حروب بين الإمام أحمد بن سليمان وبين الأشراف القاسميين وساق الخبر الآتي ، وقد وجدنا في سيرة الإمام الحوادث المحررة هنا قبل خبر الأشراف القاسميين وإليك البيان وذلك من سنة ٥٥٩ وما بعدها فذكر : أن أصحاب ابن مهدي لما طلّعوا إلى مخلاف جعفر وكانت محطة جنب في نقيّل صيد في اعلاه عند حصن سماره وقد أضرب بهم أصحاب ابن مهدي .

فوصل الإمام إلى بلد عنس ففرح الجنيون بوصول الإمام وأشاعوا أنه وصل ممداً لهم ، فلما علم بذلك جنود ابن مهدي رجعوا زبيد ولما وصلوا زبيد ، بلغهم أن الإمام تقدّم إلى بلد عنس ، وزُيّد وأنه لم يأت في شأن جنب ، وأعادوا الكرة على جنب ، فكانت بينهما حرب في السّحول أوقعوا بجنب وأخذوا ابلهم وأزوادهم وجميع ما تحويه محطّتهم ، فعظم الهول واشتد الخطب على أهل ذمار ، واستعدوا لمغادرة البلاد والفرار إلى حيث يعوي الذئب^(٢) ، خوفاً من ابن مهدي وفرقاً من جنده ، فدخل الإمام ذمار ، وسكّن روعهم ، وجمع جنباً وأخذ عليهم العهود في المتابعة ، ولما علم بذلك أصحاب ابن مهدي وعلى رأسهم زعيمهم أحمد بن علي الحرامي ، وكان قد

(١) هو ما يعرف الآن بسمارة في رأس جبل صيد بين الأشراف القاسميين إب ويريم منتهى حقن اقتاب) .

(٢) من الأمثال يقال في حيث يعوي الذئب أي بالغ في الهرب .

نزع يده عن الطاعة ، وأقام بأكناف تهامة مما يلي الجبال ، فرح وكتب إلى
الامام يستقدمه ويستدعيه ويعدده الموازنة ، وانه سيدخل عكا^(١) في الطاعة
وهم قوة ابن مهدي وأنصاره فكتب إليه الإمام كتباً منها كتاب دعوة ، وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم^(٢) .

من عبد الله المتوكل على الله والداعي إليه والمجاهد في سبيله أمير
المؤمنين أحمد بن سليمان بن الهادي إلى الحق المبين يحيى بن الحسين بن
رسول الله صلى الله عليهم أجمعين وآلهم الطيبين إلى الكافة من المسلمين
الرأغبين في الاعتصام بحبل الدين ، سلام عليكم ، فاني أحمد إليكم الله
الذي بهر برهانه وغمر إحسانه ، وعمت آلاؤه ، وحسن بلاؤه ، وأسأله ان
يصلي على جدنا محمد خاتم الأنبياء ووصيه سيد الأوصياء والشجرة التي
أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وعلى عترته الأبرار المصطفين الأخيار الذين
هم ينابيع العلم وعيونه ، ورضاب الحق ومعينه ، مفاتيح أفضاله ، ومصابيح
حرامه وحلاله ، قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله حكاية عن ربه
عز وجل انه قال : انت شجرة على أغصانها وفاطمة ورقها والحسن والحسين
ثمراها خلقتها من طينة عليين وخلقت شيعتكم منكم انهم لو ضربوا على
أعناقهم بالسيوف لم يزدادوا لكم إلا حُباً ، وقد شيد ذلك ما روي عن جدنا
رسول الله انه قال : في كل خلف من أهل بيتي عدول ينغوي عن هذا الدين
تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين : ثم اني أتيتكم عباد
الله من أفضل أهل بيت نبيكم على ما لا يتوارى نوره ، ولا يتبارى مسيره
فانهم علائق للنجاة ، ووثائق للفوز من المهلكات ، قال جدنا رسول الله

(١) اي قبيلة عك وهي من الأزد من ولد عدنان بن عبدالله بن الأزد بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

(٢) هذه الرسالة نموذج من الأدب السياسي الذي كان يتعاطى خلال القرن السادس (زمن كتابة هذه الرسالة) وقد نقلها المؤلف من الكتاب النادر سيرة الإمام أحمد بن سليمان فيهم .

صلى الله عليه وآله وسلم « مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى^(١) » فكما علمتم عباد الله ان أمة نوح كلها هلكت إلا من ركب في السفينة ، فكذلك يهلك من أمة نبينا من لم يتمسك بعترته الطاهرة الأمانة ، وهذا موضع التشبيه بين الأمتين ، والتنبيه على عظم خطر الحالتين ، ، والذي لا يتمارى فيه العارفون ، ولا يختلف في صحته المتفقون ، « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »^(٢) فرض الله سبحانه موذتنا أهل البيت على قاصي الأمة ودانيها ، ومطيع البرية وعاصيها ، فقال عزمن قائل « قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى »^(٣) وقال رسول الله « أحبوا لله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي وروى عنه أنه قال ان الله تعالى جعل أجرى عليكم المودة في القربى واني سائلكم غداً ومحف لكم في المسئلة ، وحرّم بغضنا على الأحمر والأسود ، وجعلنا باباً إلى عذاب الأبد ، والهلاك المخلد^(٤) وإحباط محاسن الأعمال ، وحرمان الجزيل من النوال ، وقد شهد بذلك ما روى عن جابر بن عبد الله ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وقال أيها الناس من بغضنا أهل البيت بعت الله يهودياً ، قلت : يا رسول الله وإن صام وصلى وزعم انه مسلم قال وان صام وصلى وزعم أنه مسلم ، فنحن أولو الأمر الذين أمر الله سبحانه بطاعتهم ووجب على عباده فرض متابعتهم :

إلى أن قال : ولما انتهى الأمر في هذا الزمان إليّ ووجب فريضة النظر في المهمات عليّ ، ورأيت ما شاع من الطغيان والمنكر ، وظهر من الفساد في البر والبحر ، لم يسعني في دين الإسلام ولا جاز لي في مذاهب الأسلاف

(١) حديث أخرجه الزار عن ابن عباس وعن الزبير انظر الفتح الكبير ج ٣ ص ١٣٣ .

(٢) الآية ٤٣ سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٢٣ سورة الشورى .

(٤) حديث أخرجه الترمذي عن ابن عباس .

(٥) في الأصل الملحد .

الكرام ، أن أتسر بل سراويل الونى ولا أسدل على نفسي أستار الهوينا ، ولا أركن إلى زهرة الحياة الدنيا ولا أن أطلب لذتها التي تبيد وتفني ، وقد سمعت الله يقول ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾^(١) الآية فعلمت ان لزوم الفريضة لي بالدعاء للحق إلى الله ، والجهد في سبيله قال تعالى ومن احسن قولاً ممن دعا إلى الله .

وقال : ﴿ ولنكن منكم أمة ﴾ الآية^(٢) ولا شك في وجوب الاجابة عليكم وتوجه فرضها إليكم قال تعالى ﴿ يا قومنا أجيئوا داعي الله ﴾^(٣) الآية .

معاشر المسلمين أجيئوا دعوتي فلنني أدعوكم إلى أن تحيوا ما أحياه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، إلى آخر الكتاب وهو طويل جداً .

ولما وصل ذلك الكتاب وما معه من الكتب إلى ابن الحرامي اطلع عليه أصحابه ، وكان فيهم ابن عم له من فقهاء الشافعية فتدسس إلى مكاره ابن عمه ، وما اكثر دسائس الأصدقاء الأشرار ، وسعى في إيصال الكتب إلى عبد النبي بن مهدي فاستطار لب عبد النبي ، وتضاعف قلقه ، وبذل كل قواه في إستمالة ابن الحرامي وأصحابه رؤساء عك ، حتى أوقعهم في حبال مكره ، ومصائد مكيدته بما أنهد لهم من الصلوات ، وزخرف من الأقوال ، ثم عرضهم على السيف فقتل من رؤساء عك ثلثمائة فارس وخمسين فارساً ، فيهم ابن الحرامي وغيره من رجالهم المعدودين ، وتلك عاقبة من أسرف في الثقة وأثمن غير أمين :

إذا أنت حمّلت الخؤون أمانة فانك قد اسندتها شرمُسند

(١) الآية ١٥ سورة هود .

(٢) الآية ١٠٤ سورة آل عمران .

(٣) الآية ٣١ سورة الأحقاف .

فقد ارتكب ابن الحرامي غلظتين عظيمتين أولاهما : إفشاء سرّه وإظهار ما يجب كتمانهُ ، والثانية ركونه إلى عدوّهِ وإنجذابه إلى فخّه وبذلك هلك وأهلك .

(وغرة مرة من فعل غرّ وغرة مرتين فعال موق)^(١)

قال كاتب سيرة الإمام أحمد بن سليمان وعنه نقلنا هذه الأخبار :
(وبقتل هؤلاء الرجال ضعف أمر بني مهدي ، واختل حالهم ولم تبق لهم طاقة يبلغون بها حيث كانوا يبلغون ، وافترق أولاد ابن مهدي في ذات بينهم) .

وكان الإمام قد أرسل القاضي علي بن عبد الأعلى بن أبي يحيى إلى عدن داعياً له ومعه نسخة من كتاب الدّعوة التي قدمنا ، وصاحب عدن يومئذ ، عمران بن محمد بن سبأ ، ففرح بمقدمه وسرّه حركة الإمام ، وجمعه القبائل لمحاربة ابن مهدي الذي أضرب بمخالفته ، وأخذ أكثر بلدانه ، وجعله خائفاً يترقب مهاجمة عدن ، وإلحاقه بألمس الدّابر ، فأعاد سفير الإمام ورجلاً من قبله ، ومعهما هدايا وتحف نفيسة قدمها كشاهد على إخلاصه ، وطلب من الإمام المواجهة إلى المخلاف ، فلم يلتفت الإمام إلى ذلك ، وكانت قبائل همدان وجنّب ومذحج ، وسنحان قد عاهدوه على النصرة والنّهوض معه إلى زييد ، فنهد بهم إلى مقراً وترامت أنباء حركته إلى بني مهدي ، فماجوا واضطربوا ، ولاذوا بحصن قوارير فتيقن الإمام فوزه ورجحان كفته إن هو أقدم بمن معه من الجنود المتحمسة لمحو بني مهدي ، واستئصالهم ، ولكنه فكر فيما بأيدي بني مهدي من سبايا الأشراف السليمانيين وحمير وهمدان وخولان والحبشة ، وعرف أنهم سيقهرون ويغلبون ، وتؤخذ السبايا من أيديهم وتصبح في قبضة جيوشه الموتورة ، وعندئذ يصعب تداركها ويتعذر استخراجها من أيديهم ، كما أنه ليس من السهل كبح نزعاتهم الجامحة إلى السلب والاستثمار

(١) موق : حمق .

(وتلك معرة الجيش) فأراد الإمام صرف ذلك الجند عن مجد الفتح ، وعزة الظفر ، حتى يستنهض بني سليمان وكافة بني حسن إيثاراً لهم بلذة الانتقام ، وزهو الغلب ، لأنهم أحق بالعز من سواهم وأسلس قياداً لسلامة طباعهم من خلق الكبر والمنافسة المتأصلة في نفوس غيرهم من القبائل اليمنية ، فاعتزم العود وتأجيل القضاء على الخصم الى فرصة أخرى ، فانحل نظام ذلك الجمع ، وقلعت المضارب ورجع إلى وقش^(١) وكانت المطرفية^(٢) ، قد خافت فوصل إليه بعض رؤسائهم معترفين بالخطأ ، طالبين عفوه ، فعفا عنهم ، وهرب بعضهم دفاعاً عن عقيدته فأقر القاضي جعفر بن عبد السلام بهجرة وقش ، ومكث الإمام هنالك برهة ، ألّف فيها كتابه الردّ على من طعن في سيرته^(٣) ثم انتقل إلى الجهات الشامية من بلاد الظاهر^(٤) وكان قد أصيب بالعمى فكان ما سيأتي .

خلاف الشريف فليته بن القاسم القاسمي واحداثه

لما أصيب الإمام بالكه^(١) استبشر بذلك بعض عداته ، وحسنوا للشريف فليته القاسم القيام ونكث البيعة ، فبادر الشريف ، وكاتب الأشراف الحسينية ونهض بمن معه إلى من^(٢) حضور وجهاته ، وقصد أثافت ، فلما بلغها قام فليته بن العطف النهمي يحرض الناس على الجهاد مع الإمام ، ودخل بجماعة من الأشراف والشيعة مصنعة أثافت ، فحلف له الجميع على السمع والطاعة والجهاد معه للإمام أحمد بن سليمان .

(١) وقش: محل اثري من ناحية البستان غربي صنعاء كان مقر وقاعدة المطرفية .

(٢) مذهب نشأ في ذلك الوقت ومؤسسه هو مطرف بن شهاب واليه ينسب ومن مرتكزاته القول بأن العالم يحيل ويستحيل والتأثر في كثير من أقوالهم بأفكار المعتزلة .

(٣) سبق ذكرها .

(٤) بلاد الظاهر يتردد ذكرها وهي الجهات الشمالية من حاشد ونواحيها .

(٥) العمى .

(٦) كذا في الأصل .

ولما علم بذلك الإمام تقدّم إلى حوث، ثم سار إلى بهمان^(١) في جماعة من الأشراف الهادويين والشيعة، فخرج أصحاب فليته بن العطاف النهمي في لقائه إلى بهمان، وبادرهم أصحاب الشريف فليته وأحاطوا بالإمام ومن معه فلم يثبت من أصحاب الإمام إلا نفر قليل، دخل بهم درب القدمان، فاحاط به القوم إحاطة السوار، وتخاذل بقية من ثبت معه، حتى لم يبق معه غير ثلاثة رجال فأسروه ونهبوا ما معه ونقلوه إلى اثافت، فبقي بها أياماً، ثم ان السلطان علي بن حاتم كاتب الأشراف وقبح فعلهم، واستشار حماسة السلاطين بني الدّعام ورجالات نهم وغيرهم، وأمرهم بالإجتماع والحركة لإخراج الإمام، وكانت زوجة الإمام ابنة فليته بن العطاف النهمي، قد قصدت السلطان مؤمل بن جحاف النهمي تحته على جمع قبائل بكيل لإستنقاذ الإمام، فسارع مؤمل وجمع زهاء ألف وخمسمائة رجل من بكيل جلهم من الرؤساء وأهل النّجدة والبأس، وقصد الشريف فليته إلى اثافت، وكان إخوة الشريف المذكور، قد خرجوا للسباق فتأمر الهكيليون أو يطلق الإمام، ولما عرضوا عليه حاجتهم، وعرف ما إلتئموا به اضطروا إلى التنازل، واطلق الإمام، بعد أن أخذ منه العهد ومن أصحابه أن يذهب إلى الشام وإلا يبيغيه شراً، فخرج إلى خيوان ثم سار إلى حوث، فأقام بها أياماً، وقصد صنعاء بعد أن كتب إلى صاحبها السلطان علي بن حاتم من حوث بما لحقه من الشرفاء ومن وازرهم بهذه القصيدة .

أوصيك ان أخا الوصاة الأقرب	أبني اني في الحياة وبعدها
أعمى يدبّ على اليدين وينكب	لا تنسين أباك يعثر بينهم
يؤذي بكل كريبه ويعذب	ويجسرّ للحبس الشديد وبعده
كمه العمى فسطا عليه الثعلب	لكنني أسد فروس ناله
فالذر يتبع جرحه والجندب	وكذلك الثعبان يجرح بعضه

(١) موضع يقع في خيار حاشد جنوبي حوث.

نسيوا صنائعنا وما قُدِّمته بعيان حيث تشبثوا وتشعبوا
زعموا وقالوا لا تقيم بأرضنا وكذاك لا ينجيك منا الجبجيب^(١)

إلى آخرها : ولما وصل إلى السلطان علي بن حاتم أكرمه وأقام عنده
أياماً يستثير حماسه بالأشعار ولطائف الأخبار ، فمن ذلك قوله

يقولون لي لم لا تخاف ابن حاتم علياً على تلك الحوادث بالأمس
فقلت لهم قد كنت عند فليته فأخرجني رأس الحجاز من الحبس

فعزم السلطان على النهوض لنصرة الإمام ، وحشد القبائل لذلك المرام
انتهى ما أورده كاتب سيرة الإمام وكاتب التتمة المنحقة بالسيرة ولم يوضح ما
فعله علي بن حاتم ولا ما آل إليه أمر الإمام ، فلنرجع إلى ما كتبه صاحب أنباء
الزمن قال : ودخلت سنة ٥٦٥^(٢) فيها وقعت حروب بين الإمام أحمد بن
سليمان وبين الأشراف القاسميين في وادعة^(٣) الظاهر ، فخرج الإمام في بعض
أيام الحرب يلقي^(٤) جماعة من أهل البلاد في نفر قليل من عسكره ، فوثب
عليه الأشراف فأسروه وسجنوه في مصنعة أثافت ، فسار أولاد الإمام إلى
السلطان علي بن حاتم يستنجده علي الأشراف ، فكتب إلى الأشراف في
إطلاق الإمام فأطلقوه وسار إلى حوث^(٥) فأقام فيه مدة ، ويقال انه وافق
السلطان علي بن حاتم في كوكبان ، وذكر له ما أسداه إليه من الجميل ، وطلب
منه النصرة على الأشراف واستعان به على حربهم ، فخرج معه السلطان إلى
الظاهر في جيش عظيم ، وحارب الأشراف في مصنعة اثافت ، فامتنعوا عليه

(١) الجبجيب : موضع هناك سبق ذكره .

(٢) غاية الأمان ص .

(٣) وادعة : من قبائل الهمدانية وتوزع في جهات مختلفة منها وادعة حاشد المذكورة هنا على
مقربة من خمر .

(٤) في الغاية ليلقي .

(٥) حوث يتكرر ذكرها وهي بلدة مشهورة من بلاد حاشد .

فأخرب قرى عبس^(١) ودروبههم^(٢) وقطع أعنابهم ووصل اليه الشيخ جعفر بن يعفر بأهل وادعة وطلبوا منه الأمان فأمنهم وافترق الجميع فتوجه الإمام إلى يسنم ورجع السلطان علي بن حاتم إلى صنعاء إنتهى ومثلها رواية الخزرجي^(٣) بالحرف .

وفاة الامام أحمد بن سليمان عليه السلام^(٤)

ودخلت سنة ٥٦٦ في ربيع الآخر منها مات الإمام أحمد بن سليمان بعد أن ترك من الآثار ما يخلد على مر الزمان ، ودفن بحيدان^(٥) من بلد خولان وقبره مشهور مزور ومدة خلافته ثلاث وثلاثون سنة غالب فيها الزمان وصارع الحوادث بعزيمة حديدية ، وجلد غريب وهمة وثابة ، وإرادة قوية حققت ما تقوله الحكماء ان مراد النفس أكبر منها على الدوام ، وان قدرة الإنسان في الوجود لا حد لها فملك صنعاء ، ونجران ودخل زبيد ، وخطب له بخير ونبع خطب له به الشريف الحسن بن عبد الكريم الحسني ، ونفذت ولايته إلى الجيل والذيلم وأصابه العمى في آخر عمره كما تقدم .

وكان أديباً شاعراً عالماً متبحراً متعدداً في طليعة كوكبة أئمة الاجتهاد وأفذاذ الجهابذة النقاد له عدة مؤلفات معظمها في الرد على المطرفية ومن أشهرها كتاب « حقائق المعرفة » في علم الكلام وكتاب « الحكمة الدرية والدلالة النورية »^(٦) في فضائل أهل البيت عليهم السلام وكتاب « اصول

(١) عبس مدينة بالشمال الغربي من حجة بمسافة ١١٣ ك. م وتقع في جزاز جبال حجور .

(٢) في الأصل ودوبهم والتصحيح من غاية الأمان ص ٣١٨ .

(٣) يسنم ينكر ذكرها وهي قبيلة وسمى بها واد عظيم في وسط جماعة بالشمال الغربي من صنعاء .

(٤) المسجد المسبوك ص ١٣٩ .

(٥) راجع انباء الزمن والحدائق الوردية واللالىء المضيئة .

(٦) مدينة مشهورة بالغرب الجنوبي من صنعاء لمسافة . . كيلومتر .

(٧) انظر مخطوطاته في كتابنا مصادر الفكر الاسلامي ص ٥٣٥ .

الاحكام في الحديث»^(٧) ، وغير ذلك ، وقد مر بك كثير من أخلاقه ، وأعماله وعرفت مما سقناه من الكوائن والكوارث ، فلقى من الإتعاب في سبيل ما كان يرمى إليه من توحيد الأمة اليمنية وتوجيهها إلى غاية واحدة لإختلاف المآرب والغايات .

ودخلت سنة ٥٦٧ فيها قام الأمير يحيى بن الإمام أحمد في صعدة ، وبلادها ، ولم يزل فيها إلى أيام الدولة الأيوبية وكان من أمره ما سيأتي .
ودخلت سنة ٥٦٨ فيها طلع السلطان الداعي عمران بن محمد بن سبأ إلى صنعاء يستنجد بالسلطان علي بن حاتم الخبر المتقدم^(١) .



(١) المصدر السابق ص ٥٣٤ .

(٢) تقدم وضع هذا الخبر سهواً بعد حوادث سنة ٥٦٢ (ص) .

الفهرس

٥	تمهيد
٣٧	مقدمة المحقق
٤٠	الشهيد المطاع
٤١	المطاع مؤرخاً
٥١	المؤرخ الثائر
٥٧	بنو زياد وأول من ملك منهم
٦٠	أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم
٦٥	آخر طفل من بني زياد مرجان العبد وأحدائه
٦٧	انتقام نجاح واستيلاؤه على زييد
٦٨	ذكر عمال بني العباس على اليمن
٧٠	أول دولة الحوالبين
٧٤	ظهور الدولة العلوية - الإمام الهادي ونسبه
٧٩	خبر صلح الإمام بين قبائل صعده وعزمه إلى نجران
٨١	عزم الإمام إلى وشحة ثم إلى برط
٨٢	خلاف أبو دغيش الشهابي
٨٤	الدعام وانتقال الإمام إلى خيوان وغدر أرحب
٨٨	أبو العتاهية ونسبه
٩٠	عزم الإمام إلى نجران وثورة ابن عباد
٩٢	أبو جعفر محمد بن عبدالله العلوي وولايته على نجران
٩٣	دخول الإمام صنعاء
٩٨	إنتفاض أهل صنعاء وظهر على الإمام

١٠٢	عودة الإمام إلى صنعاء ثانية
١٠٣	انتفاض أهل نجران ومسير الإمام لتأديبهم
١٠٤	الخلاف بين آل يعفر وعبيدهم
	دخول علي بن الحسين جفتم صنعاء وخروج أبي القاسم
١٠٨	محمد بن الإمام من السجن
١١٠	خلاف أهل نجران
١١١	وصول الإمام عليه السلام إلى نجران
١١٣	نزول الإمام إلى تهامة وعزم أبي القاسم لحرب القرامطة
١٢١	اليمن وحظه من الدعابات الثلاث
١٣٠	أحوال صنعاء بعد عزم الطاغية عنها ورجوع الإمام الهادي
١٣٢	رجوع الطاغية إلى صنعاء
١٣٢	نجران وما كان به من الأحداث
١٣٦	مقتل ابن بسطام
١٣٧	رجوع الإمام إلى صعدة وقتل عامله على نجران
١٤٣	أخبار القرامطة واستيلاء الإمام على صنعاء
١٤٤	وفاة الإمام الهادي عليه السلام
١٤٦	قيام الإمام المرتضى محمد بن يحيى عليه السلام
١٤٧	بقية أخبار القرامطة
١٤٩	خلافة الإمام الناصر أحمد بن يحيى عليه السلام
١٥١	هلاك الطاغية علي بن الفضل القرمطي
١٥٥	بقية أخبار الإمام الناصر ووقعة نفاش
١٥٩	وفاة الإمام المرتضى محمد بن يحيى
١٦١	حرب الباطن ومقتل الحسين بن الإمام الهادي
١٦١	وفاة الإمام الناصر
١٦٥	دخول حسان بن عثمان الحوالي صعده
١٦٧	خلاصة الأحداث بين أولاد الناصر
١٧٢	وفاة الأمير اسعد بن أبي يعفر الحوالي

١٧٤	هلاك منصور بن حسن ومقام الشاوري وقتله
١٧٨	احداث علي بن وردان والاسمر آل الضحاك
١٧٨	استنجد الضحاك بآل زياد
١٧٩	قيام الإمام المنتصر لدين الله محمد بن المختار
١٨٠	قيام الداعي الإمام يوسف بن يحيى بن الناصر
١٨٥	نزول عبدالله بن قحطان لمحاربة ابن زياد
١٨٦	الإمام المنصوب بالله القاسم بن علي العياني
١٨٨	نهوض الإمام القاسم إلى صعدة وانتقاله إلى عيان
١٨٩	الإمام القاسم بعيان وانتفاض بعض قبائل خولان
١٩١	رجوع الإمام إلى عيان ومسيره إلى الجوف
١٩٢	مسير الإمام القاسم بن علي إلى نجران وخبر الصلح
١٩٤	رجوع الإمام إلى صعده
١٩٦	كتاب الإمام القاسم بولاية الزيدي علي صنعاء
١٩٧	وصول الأشراف ووفد عنس إلى الإمام القاسم
١٩٨	احتلال صعده واحداث المليح بن ابراهيم وأخبار الزيدي
١٩٩	عزم الإمام لحرب نجران
٢٠٠	الوحشة بين الإمام والقاسم الزيدي
٢٠٢	ولاية جعفر بن الإمام علي صنعاء ووثوب الزيدي عليها
٢٠٣	في سيرة الإمام القاسم ما خلاصته
٢٠٤	احداث الزيدي واضطراب الأحوال
٢٠٥	الدسائس والمؤامرات وانتفاض الأشراف
٢٠٧	خروج الإمام القاسم من صنعاء وانتشار دعاية الزيدي
٢٠٨	اطلاق الزيدي جعفر بين الإمام وطلبه الصلح
٢١١	بقية أخبار الداعي يوسف
٢١٢	دعوة الإمام المهدي الحسن بن العلم العياني
٢١٣	دخول الإمام المهدي صنعاء وقتل الشريف الزيدي
٢١٤	احداث زيد بن محمد الزيدي

٢١٥	اعتزام الرجوع إلى صنعاء وقتله
٢١٩	نفوذ الأحباش أمراء زبيد في بلاد الجبال
٢٢٠	ظهور المعيد الناعطي
٢٢٢	الإمام أبو هاشم النفس الزكية
٢٢٤	الإمام أبو الفتح الديلمي
٢٢٦	قيام علي بن محمد الصليحي وأخباره
٢٣٣	عزم الشريف الفاضل إلى صعده
٢٣٧	عزم الصليحي إلى جنوب اليمن ومحاربة آل الكرندي
٢٤٢	مسير الصليحي للحج ومقتله
٢٤٥	أحوال صنعاء بعد قتل الصليحي وظهور الإمام حمزة
٢٤٧	رجوع الشريف الفاضل إلى اليمن
٢٤٨	استنجد الحرة اسماء وولدها المكرم
٢٤٩	انذار الأحباش ودخول المكرم زبيد
٢٥٠	ما كان بين الأشراف والمكرم بعد عوده من زبيد
٢٥١	اتخاذ الأشراف لشهارة معقلاً
٢٥٣	الإمام أبو الفتح الديلمي والشريف الفاضل ومهاجمة صنعاء
٢٥٧	حصار شهارة وما بعده من الأحداث
٢٦٠	استيلاء الشريف الفاضل على صعده
٢٦١	احتلال حصن مسور والاستيلاء على بلاد المغرب
٢٦٣	محاولة المكرم لاسترجاع يناع
٢٦٦	مصرع الشريف الفاضل
٢٦٨	الأمير بعد هلك الشرفين
٢٦٩	عودة الأمير الحبشي سعيد الأحول إلى زبيد
٢٧٠	قتل سعيد الأحول وفرار جيش إلى الهند
٢٧٥	وفاة المكرم وقيام الداعي سبأ بن أحمد الصليحي
٢٧٦	زواج الداعي سبأ بن أحمد بالحرة السيدة
٢٧٨	طائفة الغز الواصلة لإنجاد جيش بن نجاح

٢٨٠	السيدة بنت احمد بعد وفاة الداعي سبأ
٢٨١	ذكر المتغلبين على صنعاء بعد بني الصليحي
٢٨٣	الحرب بين الخطاب ابن ابي الحفاظ الحجوري وأخيه
٢٩١	قيام الإمام المحسن بن محمد
٢٩٦	طريق البصرة وطريق حضرموت
٢٩٨	ظهور الإمام علي بن زيد وقتله
٣٠٢	الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان عليه السلام
٣١٠	عزم الإمام إلى نجران واستيلائه على صعدة
٣١٢	عزم الإمام لتأديب الشقي ابن الطحل
٣١٤	خلاف أهل الجوف
٣١٥	ظهور علي بن مهدي الحميري
٣١٥	ثورة الشريف المهول بحقل صعدة
٣١٧	ذكر من وفد على الإمام المتوكل من العلماء
٣١٩	اجتماع الأشراف ومبايعتهم الإمام المتوكل
٣٢١	إنتقال الإمام إلى عمران وفتح صنعاء
٣٢٤	ظهور دولة علي بن مهدي الحميري
٣٢٧	بقية أخبار الإمام المتوكل بصنعاء
٣٢٨	حرب القليس وسير الإمام إلى الجوف
٣٣٢	تظاهر يام بمذاهب الباطنية ومسير الإمام لحربهم
٣٣٦	وقعة الشرزة أو نجد شيعان ودخول الإمام صنعاء
٣٣٨	عزم الإمام إلى ذمار
٣٣٩	ذكر مهاجمة علي بن مهدي لمدينة زبيد وأحداثه
٣٤٧	قيام مهدي بن علي وأحداثه
٣٤٩	احداث عبد النبي بن علي بن مهدي
٣٥٩	خلاف الشريف فليته بن القاسم القاسمي وأحداثه
٣٦٢	وفاة الإمام احمد بن سليمان عليه السلام